تاريخ فاتح العالم

جهانگشاي

في تاريخ الخوارزميين والإسماعيلية الحشاشين

وفتح مدينة بغداد على يَدِ هولاكو

تأليف

عطا ملك الجويني

حاكم بغداد بعد هولاكو

نقله عن الفارسية وقارنه بالنسخة الإنكليزية

الدكتور محمد التونجي

الأستاذ بجامعة حلب

المجلد الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
دار الملاح للطباعة والنشر

ذكـر بقيـة أحوال السلطان السعيد محمـد واضطراب أمـره

حينما ساقه طالعه إلى محنته غربت شمس حظه في ظلامة الأفق الغربي، وحامت حوله عقدة النحس والشقاء • ومع أنه كان يتحلى بالرأي الثاقب ، والعزم الصائب ، والتجربة الطويلة مع الزمان ، فإن كل ما كان يفكر فيه أو يسعى إليه يصيبه بالمكاره، ويفكك خاطره • وكان كل كمال يسعى إليه يسبب له نقصاً وحرماناً ، وكل سعادة تتحول إلى نحس ، وآضت آراؤه المشرقـة تعمه في الظلمات ، وتختفي خلف حجب الكسوف وضباب الدهشة ، فانحلت عزيمته ، وخبا زناد مرأده ، وسدت في وجهه سبل السداد ، ففقد الرشاد ، ولم يعد يرى غفلات بصيرته • قال الله تعالى : « إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له ، وما لهم من دونه من وال » •

إذا أرادَ الله أمراً بامْـرِئٍ ... وكان ذا رأي وعقل وبَصرْ

وحيلةٍ يعملها في كـلّ ما ... يأتي به مكروهأسباب القدر

أغراه بالجهل وأعمى عينهُ ... وسله من رأيه سل الشعرْ

حتى إذا أنفذ فيه حُكمـه ... ردّ إليه عقلَه[1] ليعتبرْ

---

(١) الأبيات لأبي جعفر محمد بن عبد الله بن إسماعيل الميكالي رئيس نيسابور (يتيمة الدهر : ٤/٢٩٩) •

فيأيها الصديق الموافق والرفيق المشفق إن كنت تشك في هذه المعاني ، وترتاب من حكايات الأقدمين ، وإن لم تصدقني ، ولم تعتبر بهذا التمثيل فأصخ بسمعك إلى هذه الحكايـة ، واغترف من عجائبها الثرّة ، واستنشق عبير نصائحها ، وتحقق من هذه الإشارات ، وفتش عن هذه الأسرار والرموز التي حلت بالسلطان السعيد محمد ، أنار الله برهانه وأسكنه جنانه . ولما لم يدر الفلك المحدودب ، الأعمى الفؤاد على هواه ، وتلون العالم عليه ، وخانه الزمان القلّب فإنه جهد واجتهد في إيقاظ عزائمه ، وناشد نجاح قلبه ليطير بجناحه ، لكن عنان عزيمته لم يطاوعه في خدمة المصالح العامـة ، فتحولت أبهته الملكية إلى سفك وإرهاب نحو أعدائه وخصومه ، وكان قائد جيشه ذا حظ يقظ ، وأمير الطلائع محفوفاً بالحماية والوقاية . وحفظت الملائكة قلب جيشـه وميمنته ، وحالف الحظ ميسرته ، إذ ظلّل برضا القضاء والقـدر ، ورفرفت فوقه ألوية الظفر ، وسجل قلم التوفيق على عذباته[1] :

« نصر من الله وفتح قريب » بمداد عون الحق :

« اتجهت السعود يميناً والفتوح شمالاً ، والفلك على الأهبة والقدر ممسك بالعنان »

ولما نثرت الريح الحظ ، وأحرقت النكباء الإقبال بنار نكبتها ، تكدرت مياه السعادة بالتراب الملوث ، وانحازت الآراء عن جادة صوابها ، وغابت عن منزل صوابها . ومن بواكير العلامات الدالة والمقدمات الحادثة أنه كان في شهور سنة ...[2] قد عزم على زيارة دار السلام ، لا زالت معمورة ، وكان ثوب الخلافة مطرزاً آنئذ بأمير المؤمنين الناصر لدين الله، وكانت الوحشة بينهما

---

(١) عَذبة كل شيء : طرفه ، وعذبة الرمح : خرقة تُشد على رأسه (اللسان) .
(٢) بياض في الأصل . وكما جاء في كامل ابن الأثير أن السنة ٦١٤ .

حائمة . ومن أسباب هذه الوحشة أن جلال الدين حسن حين انتسب إلى الإسلام ، وأرسل راية السبيل ، وقدم سبيله على سبيل السلطان[1] ، عدّ أصحابه هذا التقديم إهانة لهم . وحصلت كذلك أسباب أخرى جعلت السلطان محمداً مكسور الخاطر . فاستفتى أئمة المملكة ، وحصل منهم على فتوى أن آل العباس غير مُحقين في تقلد الخلافة،وأن أصحابها هم السادات الحسينيون، والقادر منهم هو الذي يتحلى بها . كما أن الخلفاء العباسيين تقاعسوا عن الجهاد في سبيل الله مع قدرتهم ، وقصروا في المحافظة على الثغور وقمع أدعياء البدع والضلالة ودعوة الكفار إلى دين الحق ، والذي هو واجب على أولي الأمر ، بل هو فرض عين . وهو ركن هام من أركان الإسلام ، وقد أهملوه، مما استدعى كبار السادات لأن يطلبوا علاء الملك[2] من ترمذ،ويختاروه خليفة. وسارت الأمور على هذا المنوال . وحين وصل إلى دامغان بلغه أن الأتابك سعداً[3] ركبه الهوس ووصل إلى الري قاصداً استخلاص العراق . فأرسل السلطان على جناح السرعة طلائع قوية ، فبلغت « خَيل بُزرك »[4] والتقت

---

(1) سبيل : قافلة الحجاج المصحوبة براية وبأمير الحاج مع كل لوازمهم المعدة في في سبيل الله . يقول النسوي في سيرة جلال الدين منكبرني (ص ١٦) : « وانضاف إلى ذلك استهانتهم (أي أهل بغداد) بالسبيل الذي كان للسلطان في طريق مكة .. حتى بلغه تقديمهم سبيل صاحب الإسماعيلية جلال الدين الحسن على سبيله » . ويقول ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٤ : « وكان سبيله إذا ورد بغداد يقدم غيره عليه ..» ويقول ابن خلكان : « وكان يقيم في كل سنة سبيلا للحاج ، ويسيِّر معه جميع ما تدعو حاجة المسافر إليه في الطريق » (ت) .

(2) من السادات ، المنسوبين الى سيدنا الحسين .

(3) سعد : حاكم فارس (ت) .

(4) خيل بزرك : يقول ياقوت : « خيل بلفظ الخيل التي تركب ، كورة وبليدة بين الري وقزوين » .

الأتابك سعداً، حيث كان يستعد لحرب جيش العراق. وتمكن جيش السلطان من النصر على جيش العراق ، وكذلك من أسر الأتابك سعد . وقد أراد السلطان أن يقتله ، لكن الأتابك التجأ إلى ملك زوزن ، وتوسل إليه أن يلتمس له الإبقاء على حياته لدى السلطان . وقدم الأتابك ابنه الأكبر زنكي هدية إلى السلطان مع قلعتي اصطخر وإشكَنَوان[1] مع ربع محصول فارس. ووافق السلطان على عودته . حتى إذا وصل إلى قلعة اصطرخ[2] ، واطلع الأتابك أبو بكر على الاتفاق بينهما قدم لحربه ، وجرح الأب والابن . لكن الأتابك سعداً ، بناء على الاتفاق ، أسر ابنه وأرسله إلى السلطان وفاءً منه .

وفي الوقت نفسه طمع الأتابك أوزبك كذلك بحكم العراق ، وقدم من آذربايجان إلى همدان . لكنه انهزم أمام مواكب السلطان في همدان . وأراد الجيش تعقبه ، لكن السلطان قال : ليس فألاً حسناً أن ننتصر على ملكين في عام واحد ، دعوه يذهب . ووصل الأتابك أوزبك سالماً الى آذربيجان ، فأمر أن يذكر اسم السلطان على المنابر ، وتضرب السكة باسمه ، وأرسل الى السلطان التحف والهدايا . واتجه السلطان من همدان نحو بغداد . وحين بلغ « أسد آباد » كان فصل الخريف قد حل ، فأكرهه شهردي[3] على ترك الغارات ، وأفزعته رماح الأمطار وسيوف الثلج المتواصلة ليلاً ونهاراً عن متابعة المسير ، ولم يجد حامياً له من أسنّة القرّ والرياح . واختفى الناس في هذا الطقس ، ولم يبق أثر للدواب ، فوافته الحسرة والندامة : « ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً » :

---

(١) في الأصل : اسكنان ، وفي الحاشية : اشكنوان واسكناباد . وما سجلناه فوق عن الترجمة الإنكليزية (ت) .

(٢) ولعله يقصد : اصطخر .

(٣) شهردي : أحد شهور الفرس الخريفية ، ويعادل الكانونين (ت) .

حـــذار لهم من سَخطة الله إنهـــا يُشاهبها حر الوجوه[1] ويُمسخُ

وهي إصابة عين على صفحة الحظ، وخدشة على لوحة أحواله. وتتابعت، منذ ذلك الوقت، دواعي إدباره، وتناوبت قوافل حرمانه وخذلانه :

« لم أكن عاشقك، هذا ما أنا أعلمه. لكن القضاء يترك دون العين حجاباً »

ولما بلغ هذا الضعف والوهن وكبلته معجزة الدين المحمدي :

«لقد كبل الزمان حظي، فقصرت يدي عن لمس زلف محبوبي »

رأى ضرورة العودة، بعد أن توقف عدة أيام في العراق ليصلح من حال الحشم والخدم، ونقى أوضاع الملك من الشوائب العالقة.

وفي أثناء عودته إلى وطنه علم بقصة غاير خان أمير أترار وأحوال تجار التتار عن طريق رسول إليه منه. فأمر بقتلهم ومصادرة أموالهم قبل أن يفكر جيداً ويتدبر مدى النفع والضرر، والخير والشر الذي سيجنيه من إعدام تلك الجماعة المسلمة :

ورُبَّتَ أكلةٍ مَنعتْ أخاهــا بلـــذةِ ساعـــةٍ أكلاتِ[2] دهرِ

« حين تسود حياة الرجل، لا ينفعه شيء يقوم به »

ونفذ غاير خان أمر السلطان فقتل أربعمئة وخمسين مسلماً، فأثار الأمن والسكينة. ولا بد أن يكون كل عمل أوله غير مدروس كالفتن لا تتضح بادىء ذي بدء، وبغتة تكون خاتمتها فجيعة وغير متوقعة :

---

(1) استعمال كلمة « يشاه » معقد قليلاً هنا، لاختلاف معناها الأصلي عما وردت عليه في البيت.

(2) من المثل : « رب أكلة تمنع أكلات » (مجمع الأمثال ــ باب الراء).

تَوقَّ معـاداة الـرجال فإنهـا مكدرةٌ للصفو من كلِّ مَشرب
ولا تستثر حرباً وإن كنت واثقاً بِشدة ركنٍ أو بقوَّة مَنكِبِ
فلن يشرب السم الذعاف أخو حجى مُدِلاً بِترياقٍ لديـه مُجرَّب

وكان جنكيز خان قد أرسل مع التجار رسالة إلى السلطان : أن الحدود بيننا قريبة وقد كشفها العدو ، واستخلصناها كلها ، ويقتضي منك حق الجوار بالعقل الإنساني الرزين ، الذي على الطرفين تعهده ومراعاته . وعلينا أن نلتزم جانب المعاونة إذا وقعت الواقعة لأحدنا ، وأن نسهل أمر المسالك والمهالك ريثما ينتهي التجار من وضعهم ، ويعودوا سالمين . ومع ذلك فإنه لم ينتصح بما قال له ، ولم يعره التفاتاً ، بل قتل الرسول كذلك . وقد سبب هذا التصرف الأحمق موجبات سوء العلاقة والغضب ، والمجازاة والاقتحام .

حين بلغ هذا النبأ إلى جنكيزخان استشاط غضباً وقرر أن يزيل ديار السلطان بماء القهر والدمار وحين انهزم منه كوجلك ابن نايمان[1] ، وانتصر على خان القراختاي ، وارتاح على العرش ، ولم يعد بين الطرفين من حاجز جهز جيوشه ووجهها إليه (إلى السلطان) كما سبق أن ذكرنا . وإذ عـاد السلطان من العراق قصد بلاد ما وراء النهر عين على العراق ركن الدين ، وقد ورد ذكره على حدة. ولدى وصوله إلى خراسان أمضى مدة شهر في نيسابور، أمضاه في اللذة والسرور ، غافلاً ــ على غير عادته ــ عما يجري ، منحرفاً عن جادة الصواب ، غارقاً في مهالك الهزل :

(١) العبارة « ابن نايمان » غير واضحة ، يبدو أنه يقصد « قبيلة نايمان » أو أن كلمة « ملك » سلطة من بينهمـا . أي أن ملك النايمان ، لأن النايمان اسم قبيلة كوجلك ، وليس اسم أبيه ، واسم أبيه الذي كان ملك النايمان « أونك خان » أو « تايانك خان » (ت) . ولذلك وضع ألفاً لابن فوق .

« إشرب على ذكر الياسمين الذي ستراه كثيراً في السماء ، واسعد بالسرو الذي يتمثل في السها »

« تمتع في لحظتك هذه بشرب الخمرة ، واعلم أن المروج الكثيرة ستكون مثلنا »

ثم اتجه من هناك نحو بخارى في الثامن من شعبان ، وبقي فيها حتى العاشر من شوال سنة[1] .. وكان الربيع قد حل ،فبدت الدنيا عروساً في حللها الزاهية ، وما زال ذاهلا عن غضبة الفلك الدوار ، وكأنه :

« ها قد تبسم الربيع بسمته الجديدة ، فعلينا بالغناء والخمرة وزلف المحبوب »

وأمضى أيامه في مصاحبة الغواني ، وشرب الخمر الأرجواني ، وتتبع اللذات والشهوات ، ساخراً من القدر ، قائلاً :

« إنها آناء الأزهار ولن تدوم فاشرب ، فما نفع الأزهار إن خبت الحياة؟ »

« الفلك يدور في هذا المقرّ الخرب ، ولن يخلّد أحد في هذا العمر القصير ، فاشرب »

واتجه من هناك للقاء كوجلك في سمرقند ، وجمع جيوشه من تلك الأنحاء . واستعاد أيام النشاط هناك أيضاً بعد أن غفل عن تقلب الأيام ، فلازم الخمرة الدرغمية[2] تحت ظل خيمة أمر بنصبها وسط الحقول ، متناسياً الأحزان مع أطيب الألحان . وكان يصل إلى مسامع السلطان هذا القول :

---

(١) بياض في الأصل ، وربما كان ذلك سنة ٦١٥ .

(٢) دَرْغَم : اسم موضع من محال سمرقند تنسب إليه الخمرة الجيدة الدرغمية (معجم البلدان ــ برهان قاطع) .

« لقد ذخرت روابي قلبي بالدماء أيها الساقي ، وجلب قلبي الجنون من هذا العالم أيها الساقي » .

« وزّع الخمرة على كل من لا يعرفها ، فلا ندري ما تكشف عنه الحجب، أيها الساقي »

وفي هذه الأثناء ترامى إلى مسامعه هرب توق تغان من جيش المغول الى قراقم[1] التي هي موضع إقامة قنقلي . فترك سمرقند ليتتبعهم على طريق بخارى قرب جند . لكنه علم أن الجيوش والأمراء ، ومن جملتهم جنكيزخان يتعقبونهم ، فتراجع إلى سمرقند من باب الاحتياط ، وجمع ما تبقى من جيشه ، ثم عاد الى جند بجموع عظيمة وأبهة واعتزاز . وكان يظن أنه سيصطاد قنصين بسهم واحد ، وما علم أن من طلب الكل فاته الكل . وتبعهما بين النهرين : قيلي وقيمج حيث جرت بين الطرفين معركة ، نتج عنها قتلى لا يحصون ، وسالت من الجرحى دماء غزيرة . وحين انكشفت المعركة عن نصر المغول هرب السلطان بلا تروٍّ ، وغدا مطلوباً منهم . حتى حل يوم آخر ، وسلت طلائع الصباح سيوفها البارقة من أفق المشرق الغافي، وأزالت الظلام من الليل البهيم. وكان السلطان قد وصل إليهم عاقداً العزم على حربهم . ولم يتعلق الجيش المغولي بأهداب الحرب ، وقالوا له : لم يجز لنا جنكيزخان حربك ، ولقد قدمنا لأمر آخر هو ديدننا ، والقنيص الذي قفز من شبكتنا هو مبتغانا :

« لا تكن أيها الملك فتى متهوراً ، ولا تضع البلاء على السعادة »

« لا تبئس قلوبنا أيها الملك ، ولا تعرض حياتنا للخطر »[2]

---

(١) ليس من شك أنها ليست قراقورم . وقراقوم مفازة مشهورة في تركستان الروسية ، وما زالت على اسمها ، وواقعة في إيالة « طورغاي » على الساحل الشرقي لنهر سيحون، وهي كذلك غير قراقوم المفازة المعروفة بين خوارزم ومرو .

(٢) البيت من الشاهنامة ، والبيتان بعده (ت) .

أما إذا ابتدر السلطان أمر الحرب ، وخطا لها أولاً فلن نسكت على ذلك طبعاً ولن نقصّر في الرد . وإن لم يعزف عنها ولم يطفىء أوار الحرب فستكون العاقبة وخيمة . فليفكر في هذه النصيحة ، ولا يسدن ذيل الأفعى، ولا يثيرنّ الهدوء بالسنان السيئة،وليجنح الى الغنيمة ولا يصرنّ على الحرب، وهذا أفضل لملكه ، وأدعى للسلام الذي يكدره الفساد والعناد . ولكن :

« مهما يجلب الغضب من حظ الشؤم ، فإن الصخر الصلد يلين كالشمع»

لكن السلطان سود مرآة حظه ، وذهلت نظرة خبرته ، فلم ينزجر تلقاء هذه المواعظ ، ولم تردعه التنبيهات :

« أنت تعلم أيها الملك أن الطبع السيء ، شجرة وحشية دائمة الثمار »

وشرعت الحرب ، وعلا صليل السيوف ، وصهيل الخيول ، وصياح الفرسان ، وصمّت آذان بطل الآفات . وعفّر وجه الشمس بمثار النقع ، فبدت النجوم لامعة ، وحمل الجناح الأيمن من كل جانب على الجناح الأيسر، بينما حمل جيش المغول على القلب حيث يقف السلطان . وكانوا يقفزون من مواضعهم قفزاً.وكاد المغول ينتصرون بالوصول الى السلطان جلال الدين لولا مدد" أتاه من عن يمينه ، فاستطاع فرسانه أن يردوا الهجوم. واستمرت المعركة بين العشاءين ، وقد سعى الطرفان بكامل قواتهما ، ولم يتراجع أحد منهما ، حتى :

«إذا رجّلوا شعر المحبوب الليلي،وكتبوا رقم الكفر على صفحة الدهر»
فطووا ذيل الحرب ، وتراجع كل طرف عن صاحبه :

فآبُوا بالرماح مكسّرات وأبْنا بالسيوف قد انحَنينا[1]

---

(١) البيت لعبد الشارق الجهني ، من شعراء الحماسة (١/٢٢٩ ـ بولاق) .

وأوقد الجيش المغولي ناراً بعدد رجاله ، وعادوا أدراجهم بعد أن غطوا عين الدهر بالتراب . بينما توقف السلطان في مكانه حيناً ، إذ :

« تنفس الصبح الصادق كالدُّر ، وتنفست كل مئة ورقة سماوية »

« وكأن الليلة الزنجية ، بفعل السحر ، غدت شعلة نارية مندلعة من الفم »

وأحس برحيلهم ، فأمر بالرجوع الفوري الى سمرقند من غير تحقيق أي انتصار . وكان حائراً في أو ضاعه متردداً ، مشتت الخاطر بين داخله وما يحيط به . ولما كان يفكر في قوة تلك الجماعة وشوكتهم ، وما نجم عن الفتن التي أثارها ، وكان يعلم ضمناً قوة بلائهم ، فإنه أسف ، وداهمته الأحزان . واتضحت له الأقوال السابقة ، فقد رآهم نهراً من بحر، ومدينة من إقليم ، وشعرة من رأس ، وبدت الأمور له واضحة بعد تذوق بعضها . واصطخبت أمواج الفتن في كل مكان ، وعصفت الرياح النكباء ، فنأت عنه شواطىء السلامة والأمان . واندلع الطوفان ، فغطى عليه الظن والوهم ، وسدت أمامه أبواب التفكير ، واضطرب فؤاده فاعتل ، وغلب عليه الفشل والرعب ، « والنشجح يتلف بين العجز والضجر » . وألهب الطمع نار الفتنة ، وغلى قِدرُ البلاء :

بالحرص فوتني دهري فوائده	فكلما زدت حرصاً زاد تفويتا
حبل المنى مثل حبل الشمس متصلا	يرى،وإن كان عند اللمس مبتوتا[1]

وافتضح أمر ذلك الجاسوس والوطن والملك ، وانكشف ناموس البأس والسياسة ، واستولى كابوس العجز والضعف ، وحل بوم البلاء محل طاووس

(١) من قصيدة لأبي إسحاق إبراهيم بن عثمان الغزي الشاعر يمدح فيها الترك ، وقد مر بعضها .

الدولة ، وظل الملك قابوس[1] حبيس جيش العفاريت ، مغموماً . وسعد القلب بالقضاء المبرم ، واستولى العجز والقصور على الأجساد ، وحطت التعاسة على الرؤوس ، وعملوا بـ « رضينا بقضاء الله » :

هلا سعوا سعي الكرام فأدركوا أو سلّموا لمواقع الأقدار[2]

وأعلن المنجمون كذلك أن الأوتاد ترقب الدرجات الطالعة ، والعاشرة الساقطة ، والنحوس الناظرة . كما أن تسيير هذه الدرجات المظلمة جارٍ ، فلا وسيلة مجدية لردع تقابل الخصمين . وكان هذا بالإضافة إلى خلل أوضاعه . وعزم على الأمر ، وأرخى عنانه . وأسرع خطاه إلى الطرف الآخر ، ووزع أغلب جيوشه في بلاد ما وراء النهر وتركستان ، من ذلك وضع مئة وعشرة آلاف في سمرقند . وأمر أن يرمم حصنها ، وتوجه المياه الى خندقها . وصرح السلطان : إن قصدنا أن يُملأ بالماء حين يداهمنا العدو . وتألم الجيش والشعب من هذا التصريح . ثم انتقل السلطان من هناك الى طريق نخشب . وحيثما حل أوصى : تحملو الأعباء بأنفسكم ، وابحثوا لكم عن مهرب وملجأ ، فمقاومة جيش المغول غير ممكنة بهذا الشعب ، وأرسل من ينقل حريمه من خوارزم إلى مازندران . وكان في كل بقعة يحلّها يثير فيها الرعب ، ويشتت الخاطر . وكان يستشير كل فرد من أركان دولته ، ويسألهم علاجاً لحل هذه المعضلة :

وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟[3]

---

(1) في الأصل « كاؤوس » ومعربها ما ذكرناه فوق . وهو ملك فارسي من العهد الأسطوري ، قد حبسته الجن في مازندران (ت) .

(2) من قصيدة مشهورة لأبي الحسن التهامي ، وقد مر بعضها .

(3) الكامل للمبرد ، طبعة لايبزيك : ١٧٦ ، وصدره :
تدس الى العطار سلعة بيتها

وإذ بلغته ، على التوالي ، الأخبار الموحشة ، ازدادت أحواله اختلالاً :

« كان الفلك ، كل يوم ، يلد حادثة طارئة ، بما لا يتصوره العقل »

« فلنستشف ضوءاً أكثر من الشمس ، حتى نزيح مشكل هذا القدر »

واضطربت أوضاع العقلاء وأركان الدولة ، وتألموا للتقلب الحدثان . وكان كل امرىء يصرح برأيه ، على قدر عقله ومدى مصلحته :

ما المرءُ إلا نُهزَةُ الحَدَثانِ   فوقَ العقول تصرُّف الأزمـانِ

ومن كان منهم محنكاً مجرباً ، مدركاً لأغوار الأمور قال : لقد بدا أن أمر ما وراء النهر قد خرج من أيدينا . وعلينا أن نبذل جهدنا حتى لا نفقـد ممالك العراق وخراسان . يجب أن تدعى الجيوش جميعاً ، وأن يخرج سائر الناس ، لنبني خندقاً على جيحون ، حتى لا تعبره الأقدام « عسى الله أن يأتي بالفتح ، أو أمر من عنده » . وقالت جماعة أيضاً : علينا أن نتجه نحو غزنين ، ونجمع هناك العساكر والرجال ، لنردّ على قدوم الخصوم ، وإلا فبلاد الهند سدّ طبيعي لنا . وقبل السلطان محمد هذا الرأي وفضله . وعلى هذا القرار اتجه نحو بلخ . وأرسل ابنه ركن الدين إليه عماد الملك في ذلك الوقت مع التحف والهدايا . كان عماد الملك رجلاً جيداً متمكناً محترماً . وكان يشرف على حل الأمور ، حباً بوطنه ومنزله . واقترح على السلطان أن يأتي إليه ، فهذا خير له . وقال : حتى إذا استولت هذه الجماعة نكون بعيدين عنهم ، ومن هنا نتوجه نحو العراق ، فنجمع الجيوش ، ونستعد لهم ، ونكون على بصيرة من أمرنا . لكن ابنه جلال الدين استنكر هذا الاقتراح قائلا : الرأي أن نعد الجيوش ونتوجه إليهم . وإذا لم يوافق السلطان على هذا فليتجه نحو العراق ، ويترك لي قيادة المعارك ، وأنا أتولى استقبالهم :

فيا لَرِزامٍ رشّحوا بي مُقدَّماً إلى الموت خواضاً إليه الكتائبا
إذا هَمَّ ألقَى بين عينيه عزمَهُ ونكّب عن ذكرِ العواقب جانبا
ولم يستشرْ في أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا[1]

وبذلك نعذر أمام الله وأمام خلقه :

ليبلغ عذراً أو ينال غنيمةً ومبلغ نفس عذرها مثل منجح[2]

فإن واكبنا الحظ غنمنا . وإن لم تحالفنا السعادة والمساعدة أمِنّا ملامة الناس والعبيد ، وحفظنا أنفسنا من لسان العتاب ، ولن يقولوا : ندفع الضرائب والخراج ولا تحمينا العروش . وقد كرر طلبه هذا عدة مرات ، وانتظر أن يجيزه أبوه ، حتى لا يتخلف أو يتقاعس . لكن الهلع استولى على مجامع السلطان محمد . فلم يحر جواباً . وكان يقول في نفسه :

« لا تفقد أيها التاج رأسك ، فما ولد أحد من بطن أمه متوّجاً » .
وكما هي العادة ، يعد الاعجاز آراء أبنائهم أفكاراً صبيانية ، فلم يعبأ برأيه ، فما زال كوكب الإقبال في برجه لم يهبط ، وما كان يعلم أن :

السيفُ أصدق انباء من الكتبِ في حده الحدُّ بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف ، في مُتونهنَّ جَلاءُ الشكِّ والرِّيب

وأخيراً ، اختار رأي عماد الملك وسارع نحو العراق ، وأمضى أياماً عسيرة في بلدة بلخ . وأرسل من هناك طلائع عسكرية إلى بنجاب[3] ، ليستطلعوا

---

(١) الأبيات لسعد بن ناشب ، من شعراء الحماسة : ١/٣٥ .
(٢) البيت لعروة بن الورد العبسي (الحماسة : ٢/٧) .
(٣) بنجاب : معناها المياه الخمسة . وهي معبر على نهر جيحون في حدود بلخ وترمذ (ت) .

له الأنباء • بينما عسكر السلطان عند منابع ترمذ ، وجاءته الطلائع الى هناك تعلمه استيلاء المغول على بخارى • وسمع بعد حين بنبأ ضياع سمر قند بينما كان يكبّر أربع تكبيرات على مملكته ، ويطلّق عروس المملكة ثلاث طلقات ؛ أنْ لا رجعة لها على هذه الصورة • وتابع هربه خيراً منه أو شراً « ليقضي الله أمراً كان مفعولا » •

كان أغلب عساكره تركاً ، من أتبـاع مملكة أمه ، من قبيلة تدعـى « الأوران » • حاولوا في وسط هذا الخضم المضطرب أن يقتلوا السلطان • لكن السلطان حين علم بما يبيّته له جنوده بدّل مكان نومه في الليلة الموعودة• ودنا الجنود ليلاً من خيمته المعتادة،وقذفوها بنبال كثيرة حتى غدت كالغربال وزادت هذه المحاولة من فزع السلطان واضطراب أمنه :

« كل نبل يقذف من الفلك الدوار ، ينزل كالملح على الفؤاد العليل »

وعجل مسيرته نحو نيسابور ، وكان حيث يحل يهدد ويتوعد ، ثـم يوصي بتحصين القلاع وتقوية الاستحكام • فيزيد من رعب الناس ألف مرة ضعف ما هو عليه ، ويصعّب عليهم السهل • حتى وصل حـدود كلات[1] التابعة لخابران[2] في طوس ، ومعه جماعة من أتباعـه • وكانت قلعة كلات شاهقة ، يبلغ ارتفاعها سبعة فراسخ ، وتضم عدة مزارع • وأمر أن يُبنى داخلها بناء ، تحفظ فيه الذخائر والخزائن ، وتقيم عساكره وعشائره في هذه المزارع • ومع ذلك ظل مشتت التفكير ، وفي الثاني عشر من شهر صفر سنة سبع عشرة وستمئة قصد نيسابور ، بعد أن أهمل مصالح مملكته ، وانغمس في ملذاته وفي معاشرة الغواني وسماع الأغاني •

---

(١) كلات : واسمها حالياً « كلات نادري » (بدون تضعيف) •

(٢) خابران : كانت صحراء قرب أبيورد •

ولما اعتقد أن الزمان الغشوم والقدر الظلوم لن يدعاه مرتاحاً خفّف من مراده ، وقلل من سعادته وقال :

«اليوم يجب أن يأكل واحد العالم كالسكر،وغداً تراه يمتص دم الكبد»

ويروى أنه كان يردد هذه الرباعية :

« فلننهض ساعة كالبراعم المفتحة ، وتتمتع بالخمرة التي تنسينا أسانا »

« ربما كان هذا في ربيع آخر أيها الرفاق ، الورد يتساقط على الأرض، وكذلك نحن »

واستمر ، على هذا ، مداوماً على شرب الكؤوس وقرعها من غير أن يتوقى قِداح الملام . وتجمع حول أصحاب اللهو والطرب وأرباب النشاط والعشرة ، والتف حوله الندمان والمشيرون . وما كان يعبأ بغير المسرات ، ولا يجمع بين زينة النساء وتربية الرجال ، ولا يدني وضع الحلل من رفع الخلل . وكان وزير نيسابور آنئذ مجير الملك كافي الدين عمر الرخي ، بعد الخواجه شرف الملك رحمهما الله تعالى ، ذا نفس شريف وطبع لطيف ، وقال السيد سراج الدين فيه حين أسندت إليه الوزارة :

قالوا : وزيركم فاستبشروا عمر الـ ـكافي من الرخ قلت : الفوز بالظفر
فالرخ[1] ما إن ترى في سيره عوجاً والعـدل ما زال منسوباً إلى عمر

ولما كان السلطان موجوداً في نيسابور،وقد توافد عليه أصحاب الحاجات من سائر الأطراف ، يرجونه حل مهماتهم ومصالحهم فإنه ما كان يلبي طلب أحد ويتركهم حيارى في قضاياهم . وفي أحد الأيام تجمهر جمع من الناس على باب

---

(١) الرخ : في حجر الشطرنج هو القصر (ت) .

قصر مجير الملك ، وأخذوا يشنعون على السلطان ، فخرج إليهم وقال لهم : ما تقولونه عين الصدق وما تشكون منه كامل الحق ، لكنني معذور تجاه أصحاب الحصافة ، لأن مصلحتكم مرتبطة بمصلحة القواد وهذا ما لا أصل إليه ، ولا أبلغ حل أمور الأرزاق ولا قراءة القصص والأوراق . ففي أحد الأيام أمر السلطان أن يزين القصر لنعد جلسة الطرب ، ولا ننشغل عن ذلك بأي أمر جلل . وامتثلنا أمر السلطان ، وأعددنا لوازم الاحتفال ، وخدمة أصحاب الحاجات كذلك واجبة ، وكانوا بالانتظار . وفيما كان الأمر كذلك وصل النبأ الحزين ، فقد قدم رواد الجيش معلنين عن دخول جيش المغول منطقة البنجاب ، وعلى رأسه يمه نوين وسبتاي بهادر ، وعبروا الماء . فهطل غبار الحزن على رأس السلطان ، واتقدت نار الآلام في صدره ، وخمدت ريح دولته :

فبتُّ كأنــي ساورتْني ضئيلــةٌ   من الرُّقش في أنيابها السم ناقعُ[1]

وكان أن تحولت كل جرعة في كأس السعادة إلى سم زعاف قادم ، وكل شراب صاف إلى آلام :

ما كــان ذاك العيشُ إلا ســكرةً   رحلت لذاذَتُها وحلَّ خمارُها[2]

« طارت من رأسي خيالات الخمرة والمعشوق، ورحل عن خاطري صوت العود والطنبور » وتبدلت كل لذة بالوهن ، وتحولت كل زهرة إلى شوك :

« حزن المحبوب ، وألم النديم ، وأنين المطرب ، دم الكبد خمر ، تذمر الساقي »

---

(١) البيت للنابغة الذبياني من اعتذارياته .
(٢) البيت للسَّري الرفاء (يتيمة الدهر : ١/٤٨٨) .

ولم يكن لديه من وسيلة سوى الفرار من سنة الأنبيــاء وهي فريضة من الله : « وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » . وقدم ساقي القضاء كاسات الصبر ذات الطعم المر ، وتواترت الغموم على العموم . وكان عليه أن يذوق حب الحنظل من رأس الحب الصادق . وقد أجاد مغنو الهموم هذا القول على ستارة الأحزان الحسينية ، على نغم حاد مخالف :

يا ساقي الهمّ إن دارتْ علي فلا تمزُجْ فإني بدمعي مازجٌ كاسي
ويا فتــى الحيّ إن غنّيت لي طرباً فغنّ : واحَزَنا من حــرّ أنفاسي

بهذه الحالة المضطربة المشوشة قصد العراق يوم الثلاثاء السابــع من ربيع الأول من سنة سبع عشرة وستمئة عن طريق أسفرايين . ولسان حالــه ينشد هذا الغزل :

« حينما عزف كوكب الزهرة صباحاً من وراء الأفق ، أرسل القدر نغمة عالية مع أنيني » .

« أطلق القدر الجائر من رأسي ، أنين الناي وعزف الصنج الجريح »

وانبعث النشيد الحزين من أعماق فؤاده الكسير :

« أين لذائذ الوصل وأين المعشوق ؟ لم يبق منهما غير الأوجاع وغير الجراح » .

« وامّحت حتى آثار اللقاء في موضع المحبوب من عيني »

حين وصل إلى الري وصلت من الجانب الآخر فجاءة طلائع خراسان ، والتي هي في الحقيقة طلائع آلام القلب ، وأخبروه أن جيشاً غريباً دنا . فندم على مبادرته في القدوم إلى العراق ، وأيقن صواب قولهم : « تركت الرأي بالــريّ » :

إذا كـان الغرابُ دليل قومٍ فناووسُ المجوسِ لهمْ مَقيلُ

فاتجه من هناك نحو قلعـة « فرزين »[1] حيث كان ابنـه ركن الدين يعسكر مع ثلاثين ألفاً من حشمه العراقيين . وحين بلغهم نبأ قدوم السلطان بادروا إلى استقباله ، وكحلوا أعينهم بغبار مواكبه .وفي هذا اليوم كذلك انتقل السلطان غياث الدين مع أمه وعدد من الحريم إلى قلعة قارون[2] لدى تاج الدين طغان ، وبعث رسوله يطلب مثول الملك هزارسف ، وهو من ملوك اللور القدماء ، بين يديه[3] . وتشاور مع أمراء العراق حول كيفية لقاء العدو وصده.ورأى أمراء العراق أن الخير هو الاحتماءمنهفيجبال«شيران كوه»[4]، وهناك يمكن التحصن والدفاع ومهاجمة الأعداء . فاتجه السلطان نحو تلك الجبال ليتفحصها . لكنه أعلن أن هذا المكان لا يصلح أن يحتمى به ، ولا أن نقاوم به جيش المغول . فتألم الحشم من هذا الكلام .

حينما عاد السلطان من تفحص الجبل كان الملك نصرة الدين هزارسف قد وصل . فدخل على السلطان ، وقبل الأرض سبع مرات . فشرفه السلطان بالجلوس . وحين عاد إلى خيمته أرسل إليه عماد الملك ودوخان يستشيرانه في كيفية تدارك هذا الحدث الجلل والواقعة الهائلة . فأجاب الملك : علينا أن

---

(١) فرزين : كانت قلعة على أبواب مدينة كرج ، على ثلاثين فرسخاً من همدان ، من الطرف الجنوب الشرقي (ياقوت) .

(٢) يبدو ـ من القرينة ـ أن قلعة قارون واقعة في جبال قارون . وهذه الجبال الكبيرة تقع بين طبرستان والري ودامغان (ت) .

(٣) حكم هزار اسب (وهذا أصل اسمه ومعناه : ألف جواد) من ٦٠٠ ـ ٦٢٦ ، كان أعظم أتابكة اللور (ت) .

(٤) شيرانكوه : معناها جبل الآساد (ت) .

نرحل من هنا قبل أن تفكر أو تتروى • وهناك جبل في وسط فارس يقال له « تنك تكو » ● ، فإذا تخطيناه نصل إلى ولايـة غنية خصبة[1] ، وسنعسكر فيها ، وبإمكاننا تجنيد مئة ألف رجـل من اللور والشول وفارس • ونعـين حراساً على مداخـل الجبل ، حتى إذا وصـل الجيش المغولي استقبلناهـم وحاربناهم • وبإمكان جيش السلطان أن يدب الرعب في نفوسهم وينتصر • وإن حققنا الغلبة انحلت قوى العدو وخارت،وبالتالي تقوت معنويات جنودنا •

فقال السلطان : إنه يهدف من وراء هذا الرأي مكاشفتنا لدى أتابك ، فارس، ومنعنا من حرب خصمنا في بلادنا • ونحن حين ننتهي من حرب خصمنا سيكون لدينا الوقت الكافي لدراسة وضع الأتابك • وفي رأينا أن نقيم هنا ، ونبعث إلى الأطراف لتجهيز الجيوش • وقبل تنفيذ الاقتراح وصلت طلائع من الري تعلن وصول جيش المغول وقتـل من فيهـا ونهبها • فاضطرب جيش السلطان لهذا النبأ وطغت عليـه الأحزان والكروب وتفرق الأهـواء ، وعلم « بعد خراب البصرة » أن :

« يجب أن تنجز الأعمال بوقتها، فالعمل المنجز في غير وقته يكون واهياً »

أخذ الملك نصرة الدين طريقه وعاد ، وتفرق الجيش ، واتجه السلطان مع أولاده إلى قلعة قارون • وفاجأه جيش المغول في الطريق ، فلم يعرفوه ، فرموه بالنبال فجرحوه عدة جراح عميقة من غير أن يسقط أو يؤسر ، ونجـا من الهلاك • ووصل أخيراً إلى قارون ، حيث أقام يوماً • وبعد أن حصل على بعض الجياد من الأمراء انطلق في طريقه ومعه الأدلاء • وادعى أنـه قاصد

---

(1) لعله يقصد منطقة « شعب بوان » التي ذكرها المتنبي • وهي تبعد حوالـي عشرين كيلو متراً عن شيراز الى الجنوب الشرقي (ت) •

بغداد . تغطية لخطته ، وكان جيش المغول قد وصل إليه الساعة ، ظناً منهم أن السلطان مع جيش عظيم في القلعة . ولم يعلموا بذهابه إلا بعد حين ، فتعقبوه . وفي طريقهم عثروا على الأدلاء عائدين ، فأعلموهم أن السلطان اتجه نحو بغداد الآن ، فتعقبوه بلا ترو . لكن السلطان كان قد عاد من طريقه ، ووجه عنان فرسه نحو قلعة سرجاهان[1] .

وأيقن المغول بعد حين أنهم فقدوه ، فقتلوا الأدلاء وعادوا . ومكث السلطان في قلعة سرجاهان سبعة أيام، ثم اتجه من هناك ناحية كيلان. فاستقبه أمير صعلوك من أمراء كيلان، وشجعه على الإقامة لديه. وأمضى السلطان سبعة أيام في ضيافته ثم قصد ولاية « أسبيدار »[2] . وكانت مخزوناته التي كانت معه قد تلفت، فقدم ناحية «دابويي» من أعمال آمل. فعرض عليه أمراء مازندران طاعاتهم وخدماتهم . وكان كلما أقام يوماً في مكان لحقه المغول. وكان حرمه قد وصلوا من خوارزم ، واتجهوا نحو القلاع . فطلب السلطان من أمراء مازندران ، المقربين لديه ، ومن محرم أسراره الائتمان والمشورة في موضع يختفي به . فاقترحوا له أن يختفي في إحدى جزر بحر آبسكون . فقصدها وأقام فيها بضعة أيام ، حتى إذا افتضح أمره انتقل ، من باب الاحتياط ، إلى جزيرة أخرى . وصاقبت مرحلة تحركه وصول جنود مغول كان يمه نوين قد أرسلهم من الري لتعقب السلطان . ولما لم يجدوا السلطان عادوا من حيث أتوا . وشغلوا بمحاصرة القلاع التي كان حريمه يحتمون بها مع الخزائن . واستطاعوا بعد حين أن يفتحوها ويحتلوها . حتى إذا وافته الأصوات الهائلة،

---

(١) سرجهان أو سرجاهان : قلعة محكمة كانت قائمة على جبل في محاذاة طارمين ، غير بعيد عن سلطانية ، قرب قزوين (ياقوت) ومعناها : رأس الدنيا (ت) .

(٢) أسفيدار : اسم ولاية على بحر الديلم تشتمل على قرى واسعة وأعمال (ياقوت) . وهي أمنع ناحية من نواحي مازندران ذات شعاب ومضائق .

وبلغه أن حريمه غدون بلا حرمـة ، وحشمه بلا حشمة ، ووقعت السيوف في رقاب أبنائه الصغار ، وأسرت المخدرات في أيدي الأعراب ، وصارت ربات الحجال في أيدي الرجال ، يتمسحن على أكف الشحاذين :

فالآن أبرزن خداً طالما ضربت   على كلاكلها أيدي التقى[1] كِللا

وقطعت رقاب أتباعه الموجودين في تلك البقاع ، وأدخلوا نافذة الفناء ، ووقعوا في شبكة العناء وفم الفناء ، وغدوا أسطورة ، وأثراً بعد عين :

« حين علم السلطان ذلك ذهل ، وأظلمت الدنيا في عينيه »

كذاك الليالـي وأحداثهـا   يجدّدن للمـرء حالا فحالا

خرج الداء من يد الدواء ، ومات النغم ، وفضله على الحياة ، وفضل البقاء الفناء :

فيا موتُ زُرْ إن الحيـاة ذميمةٌ   ويا نفسُ جِدّي إن دهركِ[2] هازلُ

وكبله القلق والاضطراب ، وأحزنه هذا الحدث ، حتـى سلم روحـه ، وتحرر من شعوذات الفلك الدوار :

سـلامٌ علـى الدنيا وطيب نعيمها   كأن لم يكن يعقوب فيها بجالس[3]

---

(١) غير معلوم وجه أفراد كلمة « خد » ، على فرض صحة النسخة . والصواب « خدوداً » ، وكذلك جاءت الكلمة « كلاكلها » مؤنثة ، والصواب تذكيرها ، مالم يكن الضمير عائداً على « الخد » بمعنى الجمع .

(٢) البيت لأبي العلاء في سقط الزند .

(٣) ذكر أبو الوفاء الفارسي أن هذا البيت وبيتاً آخر وجدا مكتوبين على صحيفة فوق قبر يعقوب بن الليث . انظر ترجمة يعقوب بن الليث في وفيات الأعيان .

وقــد نظم أحــدهم إثــر موتــه :

« أيا من مت باحثاً عن الصعاب ، ويا من مت وحيداً وأنت ابن الولادة»

« أيا من تحولت إلى تراب عطشان على شاطىء البحر ، يا من مت من العوز وأنت على رأس كنز »

ودفن في ذلك الوقت في الجزيرة . وبعد ذلك أمر السلطان جلال الدين أن تنقل رفاته إلى قلعة أردهين[1] .

وقال أحد الفضلاء في ذلك :

« أيها الملك إن أقل ما حدث لك كان بفعل الحسود ، قد رحلت فحلت المشاق الكثيرة بالعقيدة »

« أيا من كانت السماوات خوذة لتاج سلطنته ، إن الذي أمسك بثوب مملكتك هو[2] جين »

وتضعضع وضع الإسلام لهــذه الواقعــة ، وكبلت الأيدي . وقطرت الصخور الصماء لها دماء ، وكلّت أفئدة المؤمنين :

« انظر إلى الصخر وهو يبكي ، ولا تقل إنه يرشح»

---

(١) أردهين وأردَهن : كانت قلعــة محكمة من أعمــال الري من ناحيــة دماونــد (ياقوت) . ويذكر النسوي أن رفاته أرسلت بعد أردهن إلى أوكتاي قا أن حيث أمر بحرقها . وانظر تفصيلا آخر في النسخة الانكليزية : ٢/٣٨٧ ، حاشية ٧٧ .

(٢) يقصد بكلمة « جين » إما الصين وفيها المغول ، وإما ثنايا الثوب المذكور في البيت .

« واسمع أنين الجبل ، ولا تظن أنه الصدى »

وانطلق البكاء من كل كوخ ، والنواح من كل ركن • وكانوا يقطعون شعورهم ويرسلون عويلهم ، وهم ينشدون :

أين سلطانُ بـلادِ المسلمينا — أين برهانُ أميرِ المؤمنينـا ؟

أين من كان كحد السيف بأساً — أين مَن كان كقدِّ الرمح لينا

إن ذاك الخطب قد أوردنا — غمراتٍ ما نراها يَنْجلينا

والواجب يحدونا إلى التزام أصحاب التعسف،واجتناب سلوك التكلف، بمعنى أن عليَّ أن أعمل للأساس ولا أعبأ بالراحة أو باللون :

« لماذا تحكي مغامرات لص ؟ الأجدر بك أن تصغي إلى حكاية القدر »

« دعه يحكي للحكيم والأصم والأعمى ، لمن أعطى ؟ وممن أخذ الذهب والمقدرة ؟ »

« كيف قيَّد الأكاسرة أياديَّ ، وكيف تساوت قلاعهم مع الأرض ؟ »

« دعه يحكي كيف أنه بجبروته ، دقَّ أعناق الصُّلفاء ؟ »

« حتى إذا سمعت بكبرياء العظماء ، لا يتعلق قلبك بهذه الحياة المتقلبة »

يستشف البصير من هذه الحكاية أن عاقبة الدنيا هي أنها مكارة، خداعة غاضبة ، شريرة صفيقة • ينتهي وصالها بالانفصال ، وتختم معاشرتها بالمعاسرة، تشري القمح وتبيع الشعير ، عسلها ممزوج بالسم ، عجوز شمطاء تبدو صبية حسناء بحلة من حرير ، يذهل طالبوها فيئنّون ويزأرون :

« الدنيا مشعوذة ذات رأس مجعد ، تفكر بطريقة وتبدو بعكسها »

« تدعو بلطف وتهرب بحقد ، وهذا هو دَيْدَنها أبد الدهر »

« لا تعرف متى تدعوك ، ولا تعلم متى تهرب منك »

« لم تبتدىء بقصدك ، ولن تكون مع هدفك في النهاية »

« فأنت بين أملين غير متوقعين في الدنيا ، فكيف يحيا المرء في هذا العالم ؟ »

فعلى المرء أن يكون حاد النظر حتى يدرك أقصى لذته وأعلى أنسه ، وأن يتيقظ من أفعالها وحركاتها الغوغائية ، بشكل لا تمسه من الخلف ولا تغشه في المقابل . وليعلم أن النفع والأذى عندها سواء ، ويد البخل عندها مشحونة بالكلاب والجيف ، مغسولة بماء القناعة :

فما هيَ إلا جيفــةٌ مُستحيلةٌ عليها كلابٌ همُّهنَّ اجتذابُهــا

« ألا فاعلم أن أمرها ونهْـيـها حلم ، وأن شرابها سراب »

« فكن كالكلب لأجل الجيفة ، الذي حلمه قضم العظام »

ورفعوا عن القلب زخارفه :

« كيف يتجلى المجد الرباني عن قدسية الألوهية للقلب اللاهي ؟ »

وليلتفت نحو ملكوت الله ليتجلى له القدس اللاهوتي على صفحة الصدر النورانية ، وليطف روحه على جناح الهمة ودليل العقل في الآفاق ، ولينطلق مع أهل العقيدة في صف الصفاء ، وليتفق على العروة الوثقى مع الملائكة ، وليعلم أن موضع التراب المسقي بالماء (يعني الأرض) المعلق بالفضاء إمــا ليس له مستقر يعتمده وإما يرفع حسابه عنه ، وارتبط قلبه في النعيم والدلال:

«جدائل زلف المحبوب مصيدة البلاء، ربطنا القلب بها وهذا عين الخطأ»

لا يمكن للمرء أن يغضب أو يضعف ، ولا أن يُسرَّ ، ولا أن ينغمس في الألم . السراء والضراء متساويان لدى الرجل العالم :

وسواء علينا يخل ليلى وجودُها[1]

« لماذا يمدح أو ينتقد السرور والحزن؟ عندما تقع النظرة من هنا أو من هناك؟»

---

(١) وصدره : فأعرضتُ عن سلمى وقلت لصاحبي
من أبيات لمدرك بن حصن الفقعسي (الحماسة : ٤/٤٦) . والصواب أن يكون الاسم سلمى لا ليلى .

ذكـــر أسباب الوحشة التي جرت بين السلطان محمد وأمير المؤمنين الناصر لدين الله أبي العباس أحمــد

عندما جرت المنازعات في أيام السلطان تكش على ملك العراق ، وانهزم جيش بغداد أمام تكش ، وقتل الوزير ، كما سبق أن ذكرنا في المقدمة كـــان الخليفة ــ في كل مناسبة ــ يدفع خانات القراختاي سراً لحرب السلطان محمد، فقد كان يرسل الرسائل ويكاتب سلاطين الغور مراراً . وقد كشفت هــذه الأسرار فيما بعد حين دخل السلطان غزنين وفتش خزائنها . فرأى بأم عينه أن الخليفة كان يراسلهم ويحضهم عليه ، ويحثهم على الاستنجاد بجيوش الختا . لكن السلطان أخفى ذلك ، واحتفظ بها لأمر في نفسه ، ولم ير جلال الدين حسن[1] صلاحاً ، لخير الإسلام ، أن يشيعها ، وقبل الخليفة بهذا الرأي . وقد رغب في الحج وسار في سبيله ، فأمر الخليفة أن تكون رايته مقدمة على راية السلطان محمد . وحين وصل هذا النبأ الى السلطان تأثر كثيراً وتألم . كما طلب الخليفة من جلال الدين عدداً من الفدائيين ، فأرسل إليه طلبه من الفدائيين وأمرهم أن يرفضوا ما يأمرهم الخليفة بتنفيذه. وفي تلك الأثناء وقعت وحشة بين الخليفة وأمير مكة ، فأمر جماعة من الفدائيين أن يذهبوا إلى مكة ويطعنوه بالخنجر . فأخطأ هؤلاء ، فعوضاً عن طعن الأمير طعنوا أخاه وقتلوه . وقــد

(١) جلال الدين : حاكم الموت .

جرت هذه الحادثة المنكرة يوم عرفات وعلى الجبل • كما أرسل عدداً منهم ليقتلوا إغْلَمش[1] في العراق ، وكان السلطان قد أرسل إغلمش الى أتابك أوزبك • وكان إغلمش يعد نفسه ربيب السلطان وعبده •

هذه هي الأسباب الظاهرة ، ويضاف إليها أسباب أخرى • ولا يعتبر السلطان مرتبته أقل من مرتبة آل بويه أو السلاطين السلجوقيين ، بل إنه يعتبر بعض أمرائه في مرتبة آل بويه ، ومنزلته أعلى من منزلة السلاجقة ، وهم الذين يتصرفون في بغداد بما في ذلك الخليفة • وكان خلفاء ذلك الزمان كالطائع والمسترشد وغيرهما محكومين لهم ، ومنفذين لأوامرهم ونواهيهم ، وذلك كله مدون في كتب التواريخ ، يمكن للمطالع أن يدرك ذلك • ومع ذلك فإن السلطان احتاج إلى علة تسهّل عليه الوقيعة بين بني آدم وملوك الأطراف ، حتى لا يقال إن السلطان ، الحامي للإسلام ، يطمع في الملك فيبايع الإمام الذي هو ركن الإسلام • فرمى بإيمانه مع الريح • قال رسول الله ﷺ : « من مات ولم يبايع إماماً مات ميتة جاهلية » • وقال الشاعر :

نصلّي وإتمام الصلاة اعتقادنا ... بأنك عند الله خير إمام

واستفتى أئمة ممالكه في أن كل إمام يقدم على مثل هذه الحركات إمامته باطلة • ولما كان السلطان يستمد قوته من الإسلام ، ويصرف همته في سبيل الجهاد فإنه رغب في إيذاء هذا الإمام وتنصيب إمام آخر مكانه • كما أنه يعد السادات الحسينيين أصحاب الحق ، سلبه آل عباس منهم • واستمد من الأئمة جواز ما يريد ، فأمر الخطباء بأن يسقطوا اسم الخليفة من الخطب ، ورفض بالتالي تقديم طاعته لهم •

---

(١) إغلمش : كان عبد أتابك آذربايجان ، ثم دخل في خدمة السلطان محمد خوارزمشاه • قتله الحشاشون •

ذكــر استئصال سلطــان السلاطين وسبب ذلــك :

ينسبونه إلى إيلك وإلى بغراجان ، الذين كانوا خانات ما وراء النهر . وذكر خروجهم واستيلائهم مذكوران في اليميني لابن العتيبي[1] . وكانوا يدعون في بلاد ما وراء النهر سلطان السلاطين . وحين استولى خانات القراختاي على بلاد ما وراء النهر انضوى السلطان عثمان كذلك تحت حكم كورخان ، واتبع أوامره ونواهيه . وقد أبقاه كورخان على ملك ما وراء النهر ولم يضايقه ، واكتفى منه بدفع بعض المال سنوياً ووضع شحنة بموافقته لديه . فأمضى (السلطان عثمان) أيامه بالرفاهية واللذة . وكان كلما وفــد على كورخان أكرمه وأعزه . وكان لكورخان ابنة صبيحة تشبه القمر في طلعته ، وتزيحــه لتجلس مكانه :

« أيا نواصي الحسان إن شَممتنّ من مسكِكنّ ، حسبتنّ ثمانية عشر ألف عالم في ساحتكنّ » .

وكانت يوسف عصرها ، فعشق سلطان السلاطين جمالها ، وشق قميص صبره في هواها ، فغدوا أشبه بيوسف وزليخا شهرة في الهوى ، فخطبها سلطان السلاطين منه ، لكن كورخان لم يعبأ بطلبه بسبب تباين المقامين ، وأبى أن يزوجه إياها :

---

(١) التاريخ اليميني لأبي النصر محمد بن عبد الجبار العتيبي .

أيّها المُنكِحُ الثّريا سُهيلاً عَمْرَكَ اللهَ كيف يلتقيانِ ؟(1)

فتأثر السلطان عثمان وتألم . وزاد في ذلك فظاظة الجباة والشحنة الكورخانيين . وقد أنكر ملوك الأطراف وأصناف الأشراف في ذلك الزمان السلطان عثمان ، عزة الإسلام ، لأنهم عدوه سلطان بلاد الإسلام منقاداً للمشركين ويدفع لهم الجزية . فإن لم يكن لديه القوة الكافية فلم لا يعتمد على السلاطين المسلمين ، ويلتمس منهم العون والمساندة ؟ قال الله تعالى : « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعاً » .

وكانت هيبة السلطان وشوكته آنئذ متمكنة في القلوب ، وساحة مملكته بازدياد ، وكان كل امرىء يميل الى صداقته لا إلى ولايته ، ويترقب جواذب حوادث الدهر منه غير منتم إليه واقع في هواه ، ويترصد عاديات الزمان . وقد صاقبت مخالفة كورخان قوة السلطان . وأرسل عثمان الى السلطان رسله ، وعطر اسمه على منابر مساجد بلاد ما وراء النهر ، وضرب السكة بألقابه .

عندما توجه السلطان محمد لحرب القراختاي التزم السلطان عثمان معاوقته واتباعه . حتى إذا آبَ من حربه خطب ابنته درة صدف سلطنته،وبدر فلك سعادته ، واحتفى به وأعزه طوال مسيرته حتى خوارزم . فتأصلت العلاقة بين السلطانين . وحين أتم السلطان عثمان واجب الزفاف واستأذن بالانصراف ليعود إلى مقر عزّه لم تسمح له تركان خاتون ، على عادة الترك ، بالعودة وأجبرت صهرها على البقاء في ضيافتها سنة كاملة . وحين عزم السلطان ثانية على حرب الختاي ، ووصل إلى سمرقند تردد أهالي المنطقة وأعيانها وتساءلوا عن سبب تخلف السلطان عثمان . فأعاد السلطان جماعة من خواصه يحملون

---

(1) البيت لعمر بن أبي ربيعة القرشي (خزانة الأدب : 1/238) .

الإذن بالانصراف السلطان عثمان ، ويعدون العدة اللائقة لمسيرته ، وقد رافقه الخدم والحشم • وحين وصل السلطان الى خوارزم كان مقام الصهر (عثمان) بربو يوماً فيوماً • ووصل إلى السلطان رسول من ابنته يعلمه نشوء الخلاف مع السلطان عثمان وشروع الصداقة مع كورخان ، ووضعها في مقام الاستهزاء في مجلس الأنس ، وزواجه من ابنة كورخان •

فتجمل السلطان محمد بالصبر ، ولم يوافق على ما جاء به الرسول • حتى جاءه شخص آخر يعلمه ، من قبل أعيان سمرقند ، أن السلطان عثمان قتل مرافقي الأميرة • فتبين له في النهاية مخالفته واضحة • فاحتد السلطان وأمر أن يسجنوا أخاه أوتكين في خوارزم، وقد كان يرعاه، وعينه مشرفاً على بعض الأقاليم • وذهب السلطان الى سمرقند • فأغلقوا الأبواب دونه • وحين علموا أن الظباء لا تجرؤ على مقاومة الآساد ، حمل السلطان عثمان سيفاً وسوطاً واتجه نحو السلطان • فأمر السلطان أن يقتلوا الناس ، فذبح في ذلك اليوم ما يقرب من عشرة آلاف مسلم ، فحمل الصالحون والأئمة والعلماء المصاحف فوق أيديهم وقدموا إليه يتشفعون،فأمر السلطان أن تعاد السيوف الى أغمادها•

وحين دخل عليه السلطان عثمان نظر إليه بحدة وقال : يا عديم الغيرة ، إن كنت تستهزىء بزوجتك بسببي فهي ليست نِداً لك ، فكيف تجيز لنفسك أن تقدم على مثل هذه الحماقات ، وهذا ليس من الرجولية في شيء ، وبعيد عن الغيرة والحمية • فخجل السلطان عثمان وأطرق برأسه موافقاً على ما قرّعه به السلطان• لكنه لم ير صلاحاً بالإبقاء على حياته ، لأن ابنة السلطان تحمل اسمه ، وهكذا أمر أن يعدم ليلا • وكان ذلك في شهور سنة تسع وستمئة •

استمال السلطان أهالي سمرقند • وأرسل إلى أمراء فرغانة وتركستان رسله ، يدعوهم الى طاعته • وبعث جيشاً الى بنجاب[1] للمحافظة عليها ، ووجه بقية جيشه الى كورخان حتى لا يسمح له بأن يقوى ساعده ، ويشتد عضده. وحين وقف كوجلك على وضع السلطان وقوته وغلبة جيشه أرسل إليه يخطب وده ، ويبدي استعداده لحرب كورخان • فإن انتصر السلطان وصل حكمه الى حدود كاشغر والختن • وإن تمكن كوجلك من دفعه كان لــه حتى ماء فناكت • فوافق السلطان على رأي كوجلك • وشرع يرسل جيوشه ، حتـى بلغت بيش بالغ ، وغدت سمرقند دار ملك السلطان • فأمر ببناء مسجد جامع فيها وعمارات شاهقة • ومن عجب أنه حــين وقعت حرم السلطان بيد جيش التتار فإن خان السلطان التي كانت تأنف من السلطان عثمان وقعت في يــد صبّاغ في إيميل ، فتزوجها ، وعاشا معاً حتى آخر العمر •

---

(١) لعل الصواب هو « بسبيجاب » أي « باسفيجاب » وهي مدينة معروفة في ما وراء نهر سيحون •

ذكر السلطان جلال الدين

كان الشيطان الوسواس قد استولى على ضمير والده السلطان محمد والخوف والهلع ثانية . فقد كان السلطان يبحث عن منفذ في الأرض أو سبب إلى السماء لينجو من الجيش الذي لا يعد ولا يحصى . فكان يرخي عنـان الهرب من الأيدي الممتدة نحوه . حين انصرف من التتار ووصل سمر قند ، وكانت قوته قد خارت عزم على الفرار فقسم جيشه الجرار ورجاله الأشاوس والذخائر التي كان قد أعدها لمثل هذه الأيام ، على الرباع والبقاع رغبة منه في المحافظة على البلاد ، أما أولاده فكان أكبرهم صاحب الشهامة والصرامة ، وأهلاً لحمل التاج الملكي ومرعاة سراج الدين الوهاج :

سلالة ظل الله في الأرض إن جرت ... له ذكرة بين السلاطين بَخْبَخوا
ويَعْنو له صِيد الممالك خضَّعاً ... إذا اصطفحوليه كهول[1]وشرخ

والمقصود هو السلطان جلال الدين ، الذي كان ملازماً لوالده . أمـا أبناؤه الآخرون فقد انغمسوا في زينة الحياة الدنيا وهوسها ، وابتعدوا عن هدف الرشاد ومنهج السداد . وكان يقول لأبيه : إن توزيـع الجيوش في الأقطار ، والهرب من الخصم الذي لم تقابله بعدُ دليل الذليل، لاسبيل صاحب الدولة النبيل . وإن لم يقتحم السلطان ولم يناجز ، ولم يكن المقدام أو المبارز، ويصرّ على الفرار فليترك لي قيادة هذا الجيش الجرار ، ولأنتهز فرصة اللقاء به ، وسيرى مني ما يدهشه ويرهب عدوه ، وسأجعل منه عبرة للخلائق وأغرقه في مستنقع الندم ، وأتدارك خطوب الدهر العابثة :

---

(١) بخبخ : هدر . شرخ الشباب : أوله .

« ربما كان الحظ البراق غير صاح ، وإن لم يكن كذلك فإن مثل هـذا الأمر غير مستحيل »[1]

فأجابه والده على الفور : الخير والشر مكتوبان ، والنظام في الأعمـال وخللها مقدران منذ أزل الآزال ، فلا تعاند ما سجل في صفحة القضاء والقدر ، فقد قدر لنا أن نذوق الإهمال والإمهال • ويسعى بنو آدم ، في حالة بؤسهم وشدتهم إلى معاندة الزمان جهلا منهم ، وهم لا يعرفون خواتيم الأمور ، ولا يدركون لمن تكون الكعبتان • ولا يمكن تصور النجاح والفلاح ، والقوة والشوكة ، فلذلك تصور" معين ، ذلك أن لكل كمال نقصاناً ، ولكل بـدر مُحاقاً حتى لا يبلغ أسمى الدرجات • فقد وقع حسد الكرة الأرضية مـن الأفلاك ، فحلت بنا أحوال التحول حتى استحال علينا الرقي ، ومنع السيل من انحداره ، وأخمد النار ، وبدد الأذى تدارك الأمور ، وهـد الأركان • وما جدنا واجتهادنا ومحاربتنا وجلدنا سوى عنـاء وزيادة في البلاء ، لأن المعلوم والمحقق أن الاضطراب حل في الخناق • والمباشرة نوع من التوهـم والتخيل والجنون :

فإن تكن نشبت أيدي الزمان بنا ومسنا من عوادي بؤسه الضَّرر
ففي السماء نجوم" ما لهـا عدد" وليس يكسف إلا الشمس[2] والقمر

واستمر النقاش بين الطرفين وتكرر ، من غير أن يسمح الأب لابنـه بالتخلف عنه ، وإجباره على مراعاته والسهر عليه • حتى أزف أوان رحيل السلطان محمد عن هذه الدنيا الفانية ، وانتقل من السبخة الى الجنان • ثم

---

(١) البيت من الشاهنامة (ت) •
(٢) البيتان لشمس المعالي قابوس بن وشمكير (يتيمة الدهر : ٣/٢٩٠) •

انتقل السلطان جلال الدين وإخوته الصغار مع عدد من المقربين من جزيرة « آبسكون » إلى الشاطىء ، كما جاء في الشعر :

ولاتقعدن تغضي الجفون على القذى　　وفي الأرض مركوب ورمح وصاحب[1]

راغباً في إثبات رجوليته في ميدان البطولة ، وطامحاً في الفوز لولا غبار الفتنة الجامح الذي هب على البلاد ونشر البلاء • فراح يسكن الثورات ، ويبعد سيوف العناء المسلولة من القضاء والقدر :

وما ابتغى إلا الكرامةَ إنّها　　سجيّةُ نفسٍ حرةٍ مُلئت كِبْرا

لكن العارفين بدقائق الأمور ، والغواصين في بحار الحقائق يعلمون أن الرجل التعس ، الواقف على الثمار الجوفاء ، يلاحقه من خلفه الجفاء لا يمكنه أن يصيب هدفه• ولما كان ناب القهر والغدر حاداً فإن اللسان الناعم سينجرح• وقبل أن ينهض على قدميه يقع أسيراً ، وتكبل العواطف رقبته الشريفة • وتستهزىء عقد الخصام على الشفة المسالمة معاداة وعناداً ، وقبل أن يحل شعره ويرجل يعود الى تعقده كما كان ، ولا تحتويه الأذن لتماوج شعر لحيته• وإذا انحرف أعلى الظفر فإن الأنمل لا تقدر على تقويمه :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد　　إليه بوجه آخر الدهر تقبل[2]

وإن حالفه بعض الحظ ، على غير العادة ، وأعشبت خضراء الدمن فعاقبتها « هشيماً تذروه الرياح »[3] • وغير خاف على السلطان أن معاندة

---

(١) البيت لأبي بكر الخوارزمي يمدح شمس المعالي قابوس بن وشمكير ، أورده اليميني في كتابه •

(٢) البيت لمعن بن أوس (الحماسة : ٣/٧٨) •

(٣) من الآية : « فاختلط بـه نبـات الأرض فاصبح هشيماً تذروه الريـاح » (الكهف ١٨/ الآية ٤٥) •

الفلك نوع من اللجاجة والمعارضة للمقدور نتيجته العناء . وأن جريان الأمور تابع للقضاء إذ لا مرد لقضائه ولا معقب لحكمه ، وأن استرادد الحظ يطير مع الرياح ، لا بأيدينا ولا بأيديكم ، وأن الدنيا منوطة بأحبل البلاء الذاخـرة بالاعوجاج :

« تجنب الهمّ فحكماء هذه الدنيا ، ما وجدوا شاطئاً لبحر العالم »

« لا يندهشن قلبك من التحسّر والخرافة ، لأن أمور العالم جميعـاً مؤسسة عليهما »

ونُـكّس مستقبل أسرة « تِـكشي » وسعادتها تماماً ، وتقهقر حظهـا ، وانحط أملها ، وسرّ ذلك معلوم إذ « تؤتي الملك من تشاء » مكتوب علـى جبين دولة جنكيز خان وأولاده . وواضح أن « تنزع الملـك ممن تشاء » مسجل على صفحات أحوال معانديهم بوضوح . ولما لم يرد السلطان أن يكون كأبيه مطعون الحظ فقد سعى ألا يلام من عبيد الله :

عليّ طِلابُ المجدِ من مُستقرّهِ ولا ذنب لي إن حاردتْني المطالب[1]

لهذا ، فحين علم السلطان جلال الدين أن جيش المغول اتجه نحو العراق قصد « منْقِشْلاغ »[2] ، وحصل منها على جواد ، وأرسل المبشرين الى خوارزم ، وكـان أخواه : أزلاق السلطان[3] الذي كان ولي عهـد أبيـه وآق السلطان معه[4] . ومن أعيان خوارزم : نوح[5] البهلوان خال أزلاق

---

(١) الغالب على الظن أن هذا البيت لأبي بكر الخوارزمي وقد مر له بيتان قبـل صفحات .

(٢) منقشلاغ : كانت مدينة على آخر حدود خوارزم قرب بحر الخزر (ياقوت) .

(٣) في المتن « ارزلاق » . لكن المحقق (والمترجم الانكليزي) يفضل أن يكون أزلاق .

(٤) أي أن أزلاق سلطان وآق سلطان كانا متفقين مع جلال الدين في باديء الأمر (ت) .

(٥) الاسم كما هو مرسوم غير صحيح ولعله : بوحي أو فوجي أو بوجي .

السلطان ، وكوجاي ، وأوغول الحاجب وتيمور ملك[1] مع تسعين ألفاً من الرجال • وكان السلطان محمد قد عين ابنه أزلاق سلطاناً على خوارزم وعلى عاصمتها بدافع من « تركان خاتون » ، لكنه كان طفلاً وقليل الدراية والفهم وحين وصل جلال الدين كانت أهواء السلاطين متضاربة ، وكل واحد يتحزب للآخر • وبسبب ضعف أزلاق وعدم أهلية أركان الدولة أن كان لكل محكوم حاكم وعلى كل مظلوم ظالم • كما كان ، إلى جانب ذلك ، عدد من الأمراء المتنفذين الغالبين ، يتحكمون ظلماً وجهلا وحماقة • ولو أن السلطان كان جلال الدين ، الذي هو ركن أقوى وجانب أشد لوضع كل واحد منهم في موضعه ومرتبته ، بشكل لا يسمح لهم بالتمادي ، ولأعطى المناصب استحقاقها:

الحِجلُ للرِّجل والتاج المنيف لما فوق الحِجاج،وعقد الدر للعنُق[2]

ولما كان أكثر الحشم وأغلب العامة وكرام القوم يميلون إلى السلطان ، وكان خاصة العقلاء قد تذوقوا مع مرور الأيام حلو الحياة ومرها ، وعذبها وعذابها ، فقد رغبوا به وأقبلوا على خدمته • ومع أن الإخوة ارتبطوا بالعهود والمواثيق فإن أمراء السوء كانوا يوغرون صدورهم ، حتى يتحينوا الفرصة المناسبة فيهلكوا جلال الدين • وقد أعلم أحد هذه الفئة السلطان بنياتهم • وحين علم بما يبيته القوم وأنهم يناقشون من باب اللجاج والمعاندة وليس من باب المصلحة والموافقة تحين فرصة مناسبة ليهرب فيها من عرش خوارزم وقصرها • وهرب كالرجال عبر طريق نَسا إلى شادياخ ، حتى إذا وصل إلى

---

(1) ورد خطأ فادح في تاريخ كزيده : ٤٩٨ أن كوجاي وأوغول ابنا السلطان محمد خوارزمشاه •

(2) البيت لأبي العلاء المعري مذكور في سقط الزند • الحجاج : عظم الحاجب •

باستو[1] خلف شايقان اصطدم بجيش تتري ، واستمرت الحرب بين الطرفين عدة ساعات ، كان فيها يحمل عليهم حملات متواترة متعاقبة ، ولو كان ابن زال[2] مكانه لمالقي سبيلاً إلا الهرب . لكنه ظل مقاوماً حتى احلولك الليل :

«سلم القائد عنانه إلى الثعبان (الخرافي) ، فحول الدنيا المنيرة إلى مثار النقع »

وحين تخلص من القوم ، ولات حين مناص ، بلغه أن الجيوش تحتشد في خوارزم ضده ، واتجهوا نحوه من غير تريث . وتقابل الجمعان في المكان نفسه ، في اليوم التالي . آق سلطان في خدمة زلاق سلطان مع عدد من الأعيان ضد السلطان جلال الدين ، وحين رأى قوم التتار احتدام القتال بين الطرفين انسلوا انسلال الكواكب من أشعة الشمس وهربوا . ثم حملوا عليهم جملة . فشغل السلاطين بالشياطين التتار ، وراح أكثر أعيانهم ورجالهم طعمة ذباب السيوف الحادة ولقمة الذئاب والضباع . وبعد أن رأى السلاطين ذل الأسر بأعينهم تناسوا الأحقاد التي ورثوها عن سادتهم الملوك وأصحاب البيوتات العريقة ، فدفنوا قتلاهم تحت التراب ، بل في جوف السباع والضباع ، والحكم لله رب العالمين :

« إن هبت الرياح من الأطراف ، رمت البرتقال الفج على الأرض »

« أندعوه مستبداً أو عادلاً ؟ أندعوه عفيفاً أو شريراً ؟ »[3]

---

(1) ضبطها ياقوت « استوا » وهو أكثر صواباً . وهو اسم ولاية في خراسان ، قصبتها قوجان .

(2) زال هو بطل إيراني مذكور في الشاهنامة . وهو أبو البطل رستم (ت) .

(3) البيتان من الشاهنامة ، والبيت الذي يليهما كذلك (ت) .

وحين وصل السلطان جلال الدين إلى شادياخ أقام فيها ثلاثة أيام مستعداً للرحيل ، مشغولاً بأموره . حتى كان منتصف إحدى الليالي ، عندما :

« لم يكن غناء بلبل ولا صوت حيوان ، والكون مغلق فاه عن الحسن والسيء »

خرج مسرعاً كالشهاب الثاقب متوكلاً على الله في الخامس عشر من شهر ذي الحجة سنة سبع عشرة وستمئة ، قاصداً غزنين التي اختارها له أبوه . ولم يكن بين مسيرته وقدوم جيش المغول أكثر من مقدار ساعة . وحين علموا أن المدينة خلت من السلطان عادوا أدراجهم حتى وصلوا إلى طريق ذي فرعين . وكان السلطان قد ترك في هذه البقعة الملك « إيلدرك » مع عدد من الرجال، ليعوقوا دنو جيش العدو إذا ما قدموا إلى هذه البقعة . وبالفعل جرت معركة بين الطرفين . وحين شعر إيلدرك أنه لا يقوى عليهم هرب من وجههم ، فتبعه التتار على أمل أن يصلوا الى السلطان. لكن السلطان كان قد أخذ طريقاً آخر، وقطع أربعين فرسخاً في منزلة واحدة . لكن المغول عزفوا عن اللحاق به .

وحين وصل إلى زوزن وأراد دخولها ليستجم جيشه بها امتنع عليه الأهالي ، وتحصنوا . فالتمس منهم الإذن بالدخول ، لكنهم قالوا : إذا قدم الجيش المغولي لم نستطع أن نقاوم ساعة واحدة . ولم تجد سبله في دخول المدينة، لأن الشعب كان يخاف نبال المغول وسيوفهم التي ستوجه على السلطان جلال الدين ، وسيضطرون الى الدفاع عن أنفسهم بالحجارة ، كما جاء في القرآن المجيد في حكاية الخضر : « إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيّفوهما » .

وفي النهاية ، لما كان الكرم معروفاً في منازل الأعيان فقد فتحوا لهم باب

الغدر[1] وأنزلوهم في « مابزناباد »[2] . وتحرك في منتصف الليل عنهما ، ووصل صباحاً إلى حدود بَرْدَوِيَه ، وكانت من مضافات هراة . وانطلق من هناك نحو غزنين . وكان يعسكر فيها أمين ملك مع خمسين ألفاً من الجنود ، فاستقبله فيها . واستبشرت الرعية بقدومه وخرجوا للقائه . وخطب السلطان ابنة أمين ملك . وأقام في مروجها شتاءه . ولما شاع خبر وصوله واستقراره وفد عليه الناس والجنود « يأتين من كل فج عميق » . وكان ممن أتى سيف الدين إغراق مع أربعين ألفاً من رجاله الشجعان . كما اتصل به الأمراء الغوريون :

« تجمع عليه الجيوش من كل حدب ، وكان نبيلا كما كان حامل سيف »

وحين علا مقامه واشتدت همته وازداد حشمه ، وحل الربيع وتناثرت أزاهير غزنين قصد بَرْوان[3] . حتى إذا بلغها جاءته الأنباء التي تقول إن جيش المغول قد استولى على تِكِجَك ومَلغور وهم مشغولون بمحاصرة قلعة واليان ، وكادوا يستخلصونها . فوضع السلطان قوته وأثقاله في بروان واتجه بعسكره نحو تكجك وملغور . فقتل فيهما ألفاً من جنود المغول وطليعتهم . ولما كان جيش السلطان أكثر عدداً فقد تراجعوا وعبروا النهر ثم خربوا الجسر . فحالت المياه بين الطرفين . لكنهم استمروا يتراشقون بالنبال ، حتى إذا حل المساء رحل المغول في منتصف الليل . وعاد السلطان يحمل أغنامه الكثيرة . كما استخرج الخزائن الدفينة ووزعها على الجنود ، ثم آب إلى بروان .

---

(1) ويعني بذلك راعوه واستقبلوه ، وهذا مناف لرغبة المغول (ت) .
(2) مابزناباد : (أو ذات باء موحدة) قرب زوزن ، وهو اسم موضع .
(3) بروان : تقع على حدود باميان ، وتقع قرب غزنة . لفظها ياقوت (فروان) .

حين وصلت أنباء هزيمة المغول الى جنكيزخان أمام السلطان الذي برزت قوته في الميدان :

« وصلت الأنباء الى أفراسياب ، أن شهر آب رمى القارب في الماء »

« واختار الفرسان من الجيش ، وهم الخبراء في فن الحروب »[1]

فأمر « شيكي قوتوقو » مع ثلاثين ألف جندي بالتوجه لحرب السلطان. وما أن وصل السلطان إلى بروان وأمضى أسبوعاً فيها حتى فاجأه قدوم جيش المغول ذات صباح . فخرج السلطان من المدينة يجهز جيشه ويعده للمعركة على بعد فرسخ واحد . فعين أمين ملك على الميمنة وسيف الدين إغراق على الميسرة بينما وقف هو في القلب . وأمر أن يترجل الجنود جميعاً ، ويمسكوا بأعنة خيلهم ، ويجهزوا أنفسهم للموت . ولما كان عدد جنود الجناح الأيمن كثيراً ، وهو الذي يقوده أمين ملك ، ويزيد على جيش المغول المقابل له فقد أمر أن يقف في الخلف عشرة آلاف فارس ليمدوا الميسرة والقلب على التوالي حتى يتمكنوا من السيطرة على جيش المغول . والتحم الطرفان وقتل كثير من الجنود من الطرفين، وتصاول الشجعان من غير أن يتراجع أحد الجيشين. وظلوا كذلك حتى احمر وجه الأفق . فنزل الجنود في مواضعهم ، وأمر المغول أن ينصب الفرسان تماثيل توضع فوق الخيل[2] . حتى إذا وجه الأفق سيوفه نحو الأرض معلناً بدء الصباح اصطف الطرفان . وحين لاحظ جيش السلطان صفوفاً جديدة برزت في جيش المغول ظنوا أن إمدادات توافدت عليهم فدب فيهم الرعب ، وتشاوروا فيما بينهم ، ورجحوا الفرار إلى الجبال المغلقة والى

---

(١) البيتان من الشاهنامة .

(٢) وهي خدعة حربية يريدون بها إيهام العدو بكثرة عددهم (ت) .

« تيرهي » حيث يحتمون بها . لكن السلطان رفض ذلك ، وامتنع عن اقتراحهم الانهزامي ، وفضّل :

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي[1]

وعلى حسب قرارهم فقد ترجلوا في اليوم الثاني . لكن الجيش المغولي ذو صولة وبسطة كاملة ، فما كان منهم إلا أن هاجموا الأبطال ، حيث وجهوا ضربتهم نحو ميسرة جيش السلطان ، فأغرقوهم بوابل من النبال ، وضغطوا عليهم بحملات جارحة فتضعضعت صفوفهم . ولما لاحظ السلطان أن المغول يصبون كامل قوتهم على هذا الجناح أمر أن تقرع طبول الحرب ، ويعلو الفرسان جيادهم ، ويحملوا حملة واحدة ، فتراجع الجيش المغولي ، وفي أثناء ذلك كروا عليهم كرة ثانية وقتلوا منهم نحو خمسمئة مبارز . وأقدم السلطان إقدام الأسد الهصور وبقوة التمساح البحري ، فانهزم المغول من أمامهم .

وعاد الأميران[2] إلى جنكيز خان ، بينما شغل السلطان بجمع الغنائم والأسلاب . وفي أثناء ذلك تنازع أمين الدين ملك وسيف الدين إغراق بسبب جوادٍ . وضرب أمين الدين ملك رأس الملك إغراق بالسوط ، ولم يتدخل السلطان بذلك النزاع لأنه لم يكن يعتمد كثيراً على طليعة الجيش ولأن القضية قضية جواد وحسب . وتوقف سيف الدين ملك ذلك اليوم ، حتى إذا حل الليل رحل كما رحل جبلة بن الأيهم ، واتخذ سبيل العجلة نحو جبال كرمان وسيقران :

---

(1) البيت لعمرو بن الإطنابة الأنصاي (الكامل – طبعة لايبزيك : ٧٥٣) .

(2) يروى أن الأميرين هما تكجك وملغور ، بينما سكتوا عن شيكي قوتوقو الذي كان قائد الجيش .

تنصَّرتْ بعد الحقِّ عاراً لِلطمةٍ وماكان فيها لو صبرت لها ضرر(١)

وقد وردت أحوال إغراق مفصلاً . وتضعضعت قوة السلطان برحيل إغراق . ورأى الخير في العودة إلى غزنين ليعبر نهر السند . وكان جنكيز خان آنئذ قد فرغ من طالقان ، وبلغه انقسام جيش السلطان فاتجه نحو السلطان بسرعة البرق الوهاج والسيل الثجاج ، مشحوناً بالرغبة في الانتقام . سار بجيش عدده أكثر من عدد قطرات المطر . وحين وصل نبؤه الى السلطان كان جيشه لا يطيق المقاومة ، ولم يكن عنده القوة لمقابلة ملك البسيطة :

« لأجل ذلك كان الملك في الحرب تمساحاً ذكراً ، يسحب ذيله غيم البلاء »

« الجبل الصلد يغدو بحراً من الماء ، إذا سمع باسم أفراسياب »(٢) .

قرر أن يعبر نهر السند ، فأمر أن تجهز السفن لذلك . كان أورخان قائد الطليعة السلطانية فاصطدم بطليعة جيش جنكيز خان فاتح العالم ، لكنه انكسر وتراجع نحو السلطان . وحين وقف جنكيز خان على ذلك استعجل أمره واتجه نحوه . ترافقه جيوش كثيفة . وفي الصباح الباكر حين أشرق النور من بين عذار الليل ورضع الصبح حليبه من ضرع الآفاق وقع السلطان بين الماء والنار ؛ كان نهر السند من جانب ، ومن جانب جيش كالنار المحرقة ، بل إنه من ناحية قلبه متقد ومن ناحية أخرى المياه مقابل وجهه . ومع ذلك كله لم تهن عزيمة السلطان ، بل أظهر رجولية وجرأة ، وأبدى استعداداً للعمل ، واتقاداً لنار الحرب والوغى ، وبرز كالأسد الذي ارتدى جلد الفهد . وجلل جواده برداء الانتقام وارتكاب الاقتحام .

---

(١) قصة جبلة وتنصره طويلة ومعروفة (الأغاني : ١٤/٢ ـ ٨ ـ معجم البلدان في ذيل « الشام ») .

(٢) البيتان من الشاهنامة (ت) .

[illegible] على الميمنة التي عليها أمين ملك،
وحمل جيش [illegible] أمين ملك وسقط رجاله في بيشاور[1]
[illegible] أكثر جنوده [illegible] لكن المغول كانوا سدوا عليه الطريق ، وقتل
[illegible] على سفح الجبل ، [illegible] وثبت السلطان وخاصته
[illegible] ، كما انهزموا على ميسرة جيش السلطان ،
[illegible] في قلب الجيش ، وظل يقاوم من الصباح حتى منتصف الليل ،
[illegible] وكان في كل حملة يقتل عدة جنود ، واستمر
وكان يحمل ويصول يمنة ويسرة ، [illegible] السلطان دائرة تحركه ، وتواعد
جيش جنكيز خان [illegible] ، وضيق على
[illegible] ولما رأى السلطان أن الوضع تأزم ، وساق الجنود
[illegible] ، وكان أخاش ملك خاله قريبا منه ، فأخذ
[illegible] ، وحثت [illegible]
عنان جواده وأرجعه إلى الخلف ، وودع السلطان أكباده وأولاده بفؤاد محترق
وعين دامعة ، وكما قيل :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده	أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلا	به الخطب إلا وهو للقصد مبصر
فذاك قريع الدهر ما عاش حوّل	إذا سد منه منخر جاش[2] منخر

فأمر أن يسحبوا جواده ، ثم عاد يكر ثانية على بحر البلاء ، ويصول كالنمر ، وحين تراجع جيشه ، لوى عنانه وخلع درعه ورماه إلى الخلف ، وضرب جواده بالسوط نحو النهر ، وكانت المسافة بين الشاطئ والنهر مقدار عشرة أذرع أو تزيد ، فقذف نفسه وهو على جواده في النهر :

---

(1) في المتن ورد « برشاور » ، وما ذكرناه فوق يناسب رأي المحقق في الحاشية والترجمة الانكليزية (ش) .

(2) هذه الأبيات ـ مع ما يرد بعدها ـ وعددها ستة أبيات ، لتأبط شرا (الحماسة 1 / 36) .

فرشت لها صدري فزل عن الصفا ❊ به جؤجؤ عبل ومتن مخصر

وعبر نهر السند كالأسد الجري، حتى وصل الى شاطئ السلامة.

فخاض سهل الأرض لم يكدح الصفا ❊ به كدحة والموت خزيان ينظر

حين شاهد جنكيز خان طريقة عبوره النهر أسرع نحو الشاطئ، وتبعه المغول يريدون أن يقفزوا في الماء ليتبعوه، لكن جنكيز خان منعهم من ذلك، واكتفوا بأن وضعوا أيديهم على أفواههم وهم ينظرون إليه. وذكر الذين شاهدوا ماجريات الأحداث أن ماء النهر كان مصبوغا بالدم من كثرة القتلى بالنبال فيه. ووصل السلطان الى الشاطئ الآخر وهو لا يحمل إلا سيفا وسنانا.

فأبت إلى فهم ولم أك آيبا ❊ وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

وقال الملك متعجباً:

«لم ير شخصاً مثله في الدنيا، ولم يسمع مثله قديماً من بين المشهورين»[1]

وضع جنكيز خان وجميع المغول أيديهم في أفواههم مذهولين. واتجه جنكيز خان بعد ذلك إلى أولاده وقال لهم: كان يجب أن يكون الأب مثل ابنه. فها هو ذا هرب من مائين مغرقين ونار، ولاذ بساحل النجاة. سينجم منه أعمال كثيرة وفتن لا تعد ولا تحصى. كيف تبدو الفتنة من مثل هذا الرجل العاقل؟:

«لا يوجد رجل مثيل له في الدنيا، أكان ابن زال المشهور بلا مثل؟»

«سيذهب الى بطل في السماء، ولن يكون أقل منها ضياء»

---

(١) البيت من الشاهنامة.

ذكـر أحوالـه في الهنـد :

حين نجا السلطان من مصيبتي : الماء والنار ؛ من الغرق في السند ، ومن لهيب قوة جنكيز خان . ولم يلحق به غير خمسة غلمان أو ستة لم تغرقهم المياه ولم تفنهم نائرات الفتن ولا بلاء الفناء . اتصل به هؤلاء . ولم يفكروا إلا بالاختفاء في الغابة والتواري بين أدغالها . وتوقفوا فيها يوماً أو يومين ، فوفد عليه هناك نحو من خمسين رجلاً . وتبعته الجواسيس تتلقط أخباره ، فعادت بنبأ تجمع عدد من الأوغاد الهنود تجمعوا فرساناً ومشاة حول معسكره، وعلى بعد فرسخين منه ، وهم يعبثون ويفجرون . فأمر السلطان أصحابه أن يحملوا هراوات ويفاجئوا العابثين بها ، حيث يضربونهم على رؤوسهم ليلاً ، فهلك أغلبهم من ذلك الضرب . فاستولى السلطان على دوابهم وأسلحتهم . كما أغار على عدد آخر من الفرسان ، وبعضهم يمتطي ظهور الثيران وعددهم ألفان أو ثلاثة آلاف ، فانتصر عليهم برجاله الذين لم يزيدوا على مئة وعشرين رجلاً . فأعملوا فيهم السيف وغنموا منهم أغناماً كثيرة :

ومـن يفتقر منّا يعش بحُسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

وإنا لنلهو بالسيوف كمـا لهت فتاة بعقد أو سخاب[1] قَرَنْفُلِ

حين ترامت أنباء انتعاش قوة السلطان في الهند تجمع خمسة آلاف أو ستة آلاف فارس من جبال بلاله ونركاله ، وهاجموا السلطان . فاستعد لهم

(١) السخاب : قلادة تتخذ من قرنفل وسُك ومحلب ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء . وقال ابن الأثير : هو خيط ينظم فيه خرز وتلبسه الصبيان والجواري (اللسان) .

بفرسانه وعددهم خمسمئة • فانتصر عليهم وأباد أغلبهم • فتجمع له عدد كبير من شذاذ الآفاق والأجناد ، وكان عددهم ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف رجل •

ووصل نبأ جموعه إلى ملك العالم جنكيز خان ، وكان آنئذ في حدود غزنين • فأمر أن يجهز جيش لحربه ، وعيَّن مقدم الجيش توربای تقشي • وحين عبر المغول النهر لم يكن لدى السلطان قدرة على مقاومتهم ، فاتجه نحو دهلي[1] • لكن الجيش المغولي رجع إلى قواعده لما بلغه اندحار السلطان • وفي طريق عودته أغار على حدود « ملكفور » • ووصل السلطان بعد يومين أو ثلاثة إلى ظاهر دهلي ، فأرسل شخصاً يدعى عين الملك يحمل رسالة إلى السلطان شمس الدين ، بحكم أن :

إن الكريم للكريم محل •[2]

وبحكم الأعراف وجب حق الجوار لتداني المزار • وقدم له أقل ما يقدم للأضياف•ثم تضاعفت الموالاة وصبغت اللقاءات ، واصطفت كؤوس المؤاخاة، وتعاهدا على السراء والضراء ، وعلى المظاهرة والحماية ، وتم الاتفاق على ذلك كله • ولما كان المخالفون يعرفون هدفنا برزوا في مناقشاتهم ، وطلبوا تحديد موضع يلتقون فيه ويتناقشون •

ولما كانت شهامة السلطان وصرامته مشهورتين في الآفاق ، ووفور بطشه وغلبته مذكورتين في الدنيا فقد وصلت إلى السلطان شمس الدين هذه الأنباء،

---

(١) هذا هو الصواب في كتابتها • وكانت قديماً تكتب « ديلي » وكذا وردت في النص • أما الانكليز فيقدمون الهاء على اللام في نطقها ، فكتبها بعضهم عنهم « دهلي » (ت) •

(٢) وصدر البيت : أحللت رحلي في بني ثعل •
قاله عبد الرحمن بن الحكم في معرض نقاش جرى بينه وبين معاوية (محاضرات الأدباء : ١/٣٧) •

فطوى الأمر عدة أيام ، يفكر في هذه المعضلة • وقد خاف من تسلطه عليه ، وتورطه معه • ورووا أن الهجوم كان معداً عن طريق عين الملك وقد قتل في دهلي • وعلى أي حال فإن السلطان شمس الدين أرسل رسولا إلى النزلاء مع الأغذية ، يعتذر عن عدم ملاءمة الهواء لهم في هذا الوضع ، وهو ما لا يليق بالسلطان • فإن رأى السلطان أن يترك ظاهر دهلي إلى موضع آخر نعينه له، ويكون خالياً من الطغاة ، فنأمن بذلك على سلامته •

حين تسلم السلطان رسالة شمس الدين رجع إلى حدود بلاله وركاله ، حيث كان الرجال يتوافدون عليه زرافات ووحداناً ، حتى بلغ عدد رجاله زهاء عشرة آلاف • فوجه تاج الدين ملك خلج نحو جبل جود ، فأغار عليه وغنم منه أغناماً كثيرة • كما أرسل إلى كوكار سنكين يطلب يد ابنته فأجيب إلى طلبه • وأرسل ابنه إلى السلطان مع جيش لخدمته • فلقب السلطان الصبيّ بـ « قتلغ خان » •

كانت ولايات السند تحت حكم أمير يدعى قباجه ، يطمح إلى السلطنة • وكان بينه وبين راي كوكارسنكين خصام • فأرسل السلطان جيشاً لحرب قباجه ، وكان قائد جيشه أوزبك تاي[1] • وكان جيش قباجه يعسكر على ضفاف نهر السند على بعد فرسخ من « أوجه » ، وعدته عشرون ألف رجل • وفاجأهم أوزبك تاي في منتصف الليل بغتة • فانهزم جند قباجه وتفرقوا • كما فرّ قباجه بسفينة نحو قلعتين اسمهما « أكر » و « بكر » ● ، وكانتا مبنيتين في وسط إحدى الجزر •

أما أوزبك تاي فقد نزل في معسكره ، وأسر من تبقى من جنود قباجه،

---

(1) في النسخ الأخرى : أوزبك ما هي ، أوزبك مامي ، أوزبك نامي • وذكرها النسوي (ص : ٩٠) : ازبك باين •

وأرسل البشرى إلى السلطان . فتوجه السلطان نحو المعسكر وحل في بلاط قباجه . أما قباجه فقد انتقل من أكر وبكر إلى مولتان . ومن هناك بعث إلى قباجه رسولا يطالبه بابن أمير خان[1] وابنته . كما طالبه بدفع غرامة مالية . انصاع قباجة إلى طلب السلطان ، وأرسل له الولدين ومبلغاً كثيراً من المال . والتمس منه ألا يتعرض لولاياته . ولما كان الطقس حاراً فقد انتقل السلطان من « أوجه » إلى مصيف جبل جود وإلى بلاله وركاله . وحاصر في طريقه قلعة « بس راور » وحاربها . وفي هذه المعركة جرحت يد السلطان بنبل . وفي النهاية فتحوا القلعة ، وقتلوا كل من فيها .

وجاءته الأنباء أن المغول متجهون نحوه ، فعاد . وكانت مولتان في طريق عودته . فأرسل رسولا إلى قباجه يطلب منه السماح له بالعبور ويطالبه بالمال (قيمة النعل) . لكن قباجه رفض ذلك وعصى طلبه ، وأعد العدة لحربه . لكن السلطان لم يتوقف ساعة في حربه معه ، واتجه إلى أوجه ، حيث كان أهلها ثاروا وهاجوا . فتوقف هناك يومين ، ثم أحرق المدينة . واتجه بعد ذلك إلى سد وستان[2] . وكان فخر الدين سالاري حاكماً عليها من قبل

---

(١) لعل ذلك خطأ من النساخ وصوابه كما ذكره النسوي (٨٧) مكرراً : أمين ملك . والمصنف ذكره غير مرة وفي كل مرة بشكل مخالف : أمين الدين ملك ، أمين ملك ، يمين الملك . وذكره ابن الأثير : مَلك خان ، والنسوي : أمين مَلك . ورشيد الدين : خان ملك . وكل هذه الأسماء لمسمى واحد هو قائد ميمنة السلطان جلال الدين . وابنته التي تزوجها السلطان جلال الدين .

(٢) سدوستان : وجاءت في نسخ أخرى : هندوستان . وأغلب نسخ جامع التواريخ : سدوسان ، وكذلك لدى الاصطخري والمقدسي وابن خرداذبة وأبي الفداء . وفي تقويم البلدان : بفتح السين وضم الدال المهملة وواو ثم سين مهملة ثانية مفتوحة وألف ونون ، مدينة غربي نهر مهران ، عن ابن حوقل . فالنصوص جميعها تحذف التاء ، ولعله أصوب .

قباجه ، وقائد عسكره لاجين ختائي . فتقدم نحو جيش السلطان والذي عليه أورخان وحاربه . لكن لاجين ختائي قتل في المعركة . وحاصر أورخان مدينة سدوستان . وحين وصـل السلطان نزل إليـه فخر الدين سالاري متضرعاً ، وبيده سيف وسوط . فدخل السلطان المدينة ، وأقام فيها شهراً ، وفخر الدين سالاري بخدمه ويهيىء له سبل السرور.وشرّفه السلطان بأن أبقاه حاكماً على المدينة . واتجه من هناك ناحية ديول[1] ودمريله[2] . ثم انتقل إلى خنيسر[3] التي هرب حاكمها ، واتجه إلى البحر على ظهر إحدى السفن . وحط السلطان رحله في ديول ودمريله ، ثم أرسل خاص خـان بجيش ليفتح نهـر والـه . وأحضروا من هذه المدينة كثيراً من الجمال . وبنى السلطان في ديول مسجداً جامعاً في موضع معبد وثني .

وجاءته الأنباء في ذلك الأوان من جانب العراق أن السلطان غياث الدين قد تقوّى في العراق ، واستطاع أن يستميل أكثر جنود تلك الولايات ، وكانت على هوى السلطان جـلال الدين . واستطاع أن يضويها تحت رايتـه . كما ورد عليه نبـأ مفاده أن غياث الدين حاصر كرمان وعليهـا براق الحاجب ، ومدينة جواشير[4] . كما أن المغول يستعدون للتوجه نحوه . فاتجـه نحو مكران ، فهلك عدد من عساكره بسبب عفونة البلدة واختلاف هوائها . وحين وصل خبر قدوم السلطان إلى براق الحاجب ، أعـد كثيراً من المنـازل على الطريق ، وأبدى كثيراً من التبجح والاستبشار . وحين وصل السلطان التمس

---

(١) ديول : وردت في معجم البلدان « ديبُل » .وخراباتها اليوم قرب بلدة تتا (ت) .

(٢) دمريله : من مدن السند المندثرة (ت) .

(٣) خنيسر : في بعض النسخ : خيسر ، خيسبر ، حنسر ، حسيس . وفي جامع التواريخ : حنسر وجنسر .

(٤) جواشير (كواشير وبردشير) : اسمان لمدينة واحدة. ذكرها ياقوت «بردسير» .

منه أن يقبل ابنته زوجة له • فأجابه السلطان بالموافقة ، وعقد النكاح • وخرج كذلك حاكم القلعة ، وسلم السلطان مفاتيح القلعة • فدخلها ليتم فيها مراسيم ازواج • ثم خرج السلطان ، بعد يومين أو ثلاثة أيام ، للصيد • ثم ركب يتفقد أوضاع أعلاف الدواب • بينما تقاعس براق الحاجب بحجة آلام في قدمه ، وكما قيل : « تعارجت لا رغبة في العرج » • وقد أعلموا السلطان في أثناء طريقه أمر مرض براق الحاجب وتقاعده عن رفقته ، فساورته الشكوك في أمر تخلفه • وحتى يطمئن من جهته أعاد بعض خواصه يقول له إنه مضطر إلى ترك العراق مدة من الزمان، وهذه الفكرة مقدمة على أي أمر آخر ، وعلى براق الحاجب أن يحضر إلى الصيد للتشاور في هذا العزم لأنه مجرّب لهذه الأمور ، وخبير في أوضاع العراق ، وآراؤه نافذة في هذا الميدان • فأجاب براق الحاجب إن ما يمنعه من ملازمة السلطان ويكرهه على التخلف هذه الآلام المبرّحة • ويرى أنه من المصلحة أن يتجه السلطان فوراً إلى العراق ، لأن جواشير لا تصلح أن تكون مقر سرير العرش ولا تلائم مقام حشمه وأتباعه • ويجب أن يعيّن عليها نائب أو قائد من قبل السلطان ، وليس غيري يليق بذلك فأنا أكثر إشفاقاً ، وهذا المنصب يناسبني أكثر من غيري ، فأنا عبده القديم ، وابيض شعري على خدمته ، ولي خدمات جليلة في سبيل رضائه • وقد استخلص هذا الملك بسيفي وجلادتي •

أعاد الرسول ، وأمر أن تغلق أبواب المدينة بعد أن طرد من تبقى من حشم السلطان لديه • ولما لم يكن السلطان في دار مقامه ولم يكن عنده الاستعداد للانتقام اتجه نحو شيراز • وأرسل رسولا إلى الأتابك سعد ، فبعث إليه ابنه سلغور شاه يحمل إليه خدماته وتقديره ، يرافقه خمسمئة فارس ويعتذر : لم أتمكن من المثول بين يديك لقسم مغلظ ألا أخرج لاستقبال أحد • وقبل السلطان عذره وأعز سلغور شاه بأنواع عديدة من الإعزاز ، وخصه

بلقب « قرانداش خان » • ولقي لدى دنــوه من أطراف مدينــة شيراز ، في ولايــة بسا[1] ، أصنافاً من المنازل المعدة لراحته ، وزاخرة بأطايب الطعام ، وفاخر الثياب الرسمية والعادية ، وعامرة بأكياس الدنانير ، والمراكب والبغال والجمال ، والدروع وآلات الطرب والأنس ، والمطبخ • وكان على كل نوع عبيد من الترك والحبش • ويتمنى عليه أن يزيد الاتصال بينهما بأن يقبــل الزواج من ابنته ، وهي درة مصونة كريمة ، في حصن حصين ، وذات حصافة وتربية ورزانة •

وتم زواج السلطان بها[2] بعد أن اكتملت مراسيم الاتفاق من الجانبين . ومكث السلطان بعد الزواج عدة أيام • ثم عزم على الذهاب إلى إصفهان . وفي هذا الوقت كان الأتابك سعد قد وضع ابنه الأتابك مظفر الدين أبو بكر ، الذي أورثه حكمه الحق تعالى ، مع عدد من الملوك في صدف السجن • وسبب ذلك أنه حينما عاد من قبل السلطان محمد احترب مع أبيه وجرحه • فالتمس السلطان إطلاق سراحه • فأجابه الأتابك : مع أن ابني أبا بكر أهمل الواجبات واتصف بالعقوق ، ولبس ثوب الحرب وجرحني فإن إشارة السلطان تسري كالروح في الجسد • وسأطلقه بعد رحيل السلطان • ووفى بعهده وكلمته ، إذ أطلق أبا بكر وأرسله إليه •

وفي الوقت الذي سار فيه السلطان إلى قصده وصل غــلام من غلمان

---

(1) لفظها السائد : فسا •

(2) جاء في حاشية النسخة (ج) في هذا الموضع ما ليس من خط الجويني كتبها محمد منجّم : كان اسم ابنة الأتابك ملكة خاتون، زوجة البطل السلطان جلال الدين· وأقام السلطان هناك شهرين ونصف الشهر ·· وأطلق الأتابك أبا بكر إلى إصفهان · ثم استدعاه بعد عدة أشهر وعينه ولياً للعهد · وحين توفي الأتابك سعد سنة ٦٢٧ أو ٦٢٨ جلس على عرش شيراز ، وكان أفضل السلغوريين ·

عزالدين سكماز اسمه قليج من إصفهان. فأحضروه بين يدي السلطان. وكان غلاماً تركياً هارباً من سيده ، صوّره خالقه بصورة الشمس حسناً وأحسن تصويره، وهو قاسم صباحة يوسف وملاحته . كان خده ناعماً كالماء ، متلألئاً كالنار . وكأن الشاعر نطق هذه الرباعية على اسمه :

« أولئك الذين يؤمنون بالتناسخ ، نظروا في الأمس ونحوك »

« وأقسموا أن الواحد يعيش بروح الآخر ، فهذا هو يوسف عاد ثانية بجماله »

قدم السلطان قليج ، وجعله في خدمته. وإذ وصل السلطان إلى إصفهان جاءه خبر أن أخاه غياث الدين مع أركان القصر وأعيان الحشم كانوا في الري. فخرجوا منها بصفة فرسان . وظهروا على شكل جيش التتار بثياب بيضاء ورايات عديدة . ولم يطلع أحداً على هذا الخبر ، ولحقهم وحط فوقهم كأنه باز حط على حمام .

فخاف غياث الدين وجماعته فتفرقوا . لكن السلطان رأف لحالهم وأشفق عليهم . فأرسل إليهم يتألفهم مع أمه ، ويعلن أنه لا وقت للاختلاف فلا حاجة للاختفاء . وعليهم أن ينزعوا النزاع من أنفسهم ، ويأتوا بصدور منشرحة ، ومن غير تردد . فبرز للسلطان وجوه القواد والأعيان من الجند وقدموا طاعتهم له ، فحظوا بالقبول . ولما رأى غياث الدين أن ميلان الطبائع وسعي الخواطر في جانب أخيه قدم إليه مع خواصه القدماء . فاستقبل كل امرىء بحسب مقامه، وأنزلهم في مواضعهم المناسبة، ووزع عليهم الأعمال الصحيحة. واستكانت الولايات إليه ، واستقام الحال بوجوده . وكان منشىء الملك ومدبره نور الدين المنشي . ونور الدين هذا منغمس بالشراب والطرب ،

وفده إليه كمال الدين إسماعيل الأصفهاني مع عدد من أئمة أصفهان مساعدة
(لرفاقهم في تحية السلطان) لكنه كان ما زال غارقاً في شرب الشراب،ونظم
هذه الرباعية وأرسلها إلى السلطان معهم ، وعاد الأئمة :

« إن قصدك وهذه الخمرة معاً ، مثل المرتفع والمنخفض معاً »

« يبقى حالك في أعين الحسان ، مثل ذلك دائماً : نور وسكر معاً »

وقد أحسن نور الدين في نظم قصيدة في حق السلطان ، ومطلعها :

« تعالي أيتها الروح ثانية إلى العالم ، فقد آن وقت السعادة والسرور »

« بأبهة الخسرو الأعظم ألغ[1] السلطان جلال الدين »



---

(1) ألغ : العظيم (ت) .

ذكر تحرك السلطان جلال الدين نحــو بغــداد :

قرر السلطان في أوائل شهور سنة إحدى وعشرين وستمئة أن يتجه نحو تستر ، ليمضي فيها فصل الشتاء • فأرسل إيلجي بهلوان طليعة لمسيرته ومعه ألفا رجل ، وسار هو في عقبه • وفي طريقه وصل لخدمته سليمانشاه●، وقدم إليه أخته لتكون له زوجة • حتى إذا بلغ شابور خواست[1]، وهي مدينة كبيرة مشهورة معروفة ، ولم يعد لها ذكر في كتب التاريخ ، وأقام هناك مدة شهر • فقدم لخدمته أمراء اللور • حتى إذا اشتد أزره وقوي اتجه نحو بغداد وكان عليها أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، يعرض عليه عونه ومدده ، ويعلمه أنه قادم ليكون سداً على خصومه • لكن أمير المؤمنين لم يعبأ بكلام رسوله ، فما أقدم عليه والده وجده في الأيام الخوالي ما زال يستعر في الفؤاد • بل إنه عيَّن أحد مماليكه ، وكان برتبة أمير واسمه « قشتمور » ، ومعه عشرون ألفاً من الرجال الشجعان الأشاوس ، ليبعد السلطان جلال الدين عن ممالكه• وعن طريق حمام الزاجل أمر مظفر الدين● في إربيل ليستعد بعشرة آلاف رجل، ليوقعوا السلطان بين فكي كماشة •

وصل قشتمور قبل الموعد المحدد لوصول جيش إربيل • وقد اغتر بقوته وكثرة عدده وقلة مدد السلطان ، فخرج إليه بجيشه • وحين دنا السلطان

---

(1) تدعى مدينة « شابور خواست » اليوم : خرم آباد (ت) •

منه أرسل شخصاً إلى قشتمور يعلمه ضمان عدم حربه ، وأنه قدم لدفع الأعداء والخصوم الألداء عن أمير المؤمنين تحت ظله الظليل ، وليس لمقاومته . فإن حصلت من الخليفة على المدد والعون دفعت عنه شرّ هذه الجماعة التي استولت على بعض البلاد . لكن قشتمور صم أذنيه عن تلك النصيحة ، وباشر بصف جيشه وتهيئته . مما اضطر جلال الدين إلى نزول ساحة الحرب وصد هجومه عليه . ولما كان رجال السلطان لا يبلغون عُشر رجال قشتمور ، فقد أكمن فوجاً من الشجعان ، ووقف بخمسمئة من الفرسان لاستقباله في القلب ، وباغت جناحي خصمه بعدة هجمات ثم تراجع . فظن جيش قشتمور أن جيش السلطان انهزم ، فأسرعوا نحوه يتبعونه . ولكن برز عليهم في هـذه اللحظة الجنود المختبئون ،وعاد السلطان إليهم وهزمهم ، ثم تتبعهم حتى دنوا من بغداد . وعاد السلطان من هنالك من طرف دَقوقا ليخمد أوار المعركة والغنائم فيها :

ومُوقد النار لا تكري بتكريتا(١)

وحين عبر تلك المنطقة وفدت عليه الجواسيس تُعلمه بدنو مظفر الدين مع جيشه من إربيل ، وقد أرسل في المقدمة أحمالاً ، يريد بذلك تعبئة جيشه حتى يفاجىء السلطان بكمين . فأمر السلطان اتباع الخطة نفسها ، على أن يذهب هو مع كتيبة من الفرسان الشجعان عبر الجبال . وحين علم أن جيشه عبر باغتهم بهجوم صاعق جريء ، وفوجىء مظفر الدين بنزوله عليهم . وحين أيقن أنه وقع في قبضته القوية أغمض عنه ، والتزم شيمة العفو وأعزه ، لكنه

---

(١) هذا عجز بيت لأبي العلاء من قصيدة في سقط الزند . تكري : من كرى النوم أي تضعف . وصدره :

هات الحديث عن الزوراء أو هِيتَا

لم يسمح له بالعودة إلى المكان الذي كان فيه . فأظهر مظفر الدين خجله وأسفه ، ورجاه أن يعفو عنه ، وهو صاحب الحلم والعقل والاطلاع . عندئذ رد عليه السلطان بكلمات لائقة بالملوك . وامتدحه وأثنى عليه . وسبب ذلك أن مظفر الدين ، في أثناء حكمه غدت الطرق مأمونة ، كما هدأت الاضطرابات، على الرغم من وجود اللور والأكراد بين رعاياه ، والذين ما كانوا يتحرجون من سفك دماء الحجاج . كما أنعم عليه وشرفه . ثم سمح له بالعودة مشرفاً مكرماً . كما تقرب مظفر الدين إليه بأنواع عديدة من الخدمات والهدايا .

واتجه السلطان من تلك المنطقة نحو أرّان وآذربايجان . وكان حاكمها آنئذ الأتابك أوزبك . ولم تكن له القدرة على حربه . فهرب من مدينة تبريز بثلة من الفرسان ، تاركاً وراءه في المدينة زوجته الملكة ابنة السلطان طغرل[1]، « والفحل يحمي شَولَه مَعْقولاً » . وحين وصل السلطان مدينة تبريز حاصرها . فقاوم أعيان المدينة وحشم الأتابك كثيراً . ولما أدركت الملكة أن انزعاج السلطان غير ممكن ، وهي بالتالي منزعجة ضمناً من الأتابك فقد بعثت إلى السلطان رسولاً في الخفاء تخبره أنها كانت مع زوجها الأتابك في مكاشحة، وقد علق فتاوى أئمة بغداد والشام في معنى وقوع التطليقات الثلاث[2] ، وقد حصل الطلاق الآن . واتفقا على الصلح ، وطلبت إليه أن يسمح لها بالانتقال

---

(1) حكم السلطان طغرل الثاني من ١١٧٧_١١٩٤، وكان آخر سلاجقة العراق(ت) .

(2) قصدها أن الطلاق يتعلق على أمر يقع إن فعله . ففي حوادث سنة ٦٢٢ قال ابن الأثير : « وإنما صح له نكاحها لأنه ثبت عن أوزبك أنه حلف بطلاقها أنه لا يقتل مملوكاً له اسمه .. ثم قتله . فلما وقع الطلاق بهذا اليمين نكحها جلال الدين » .

مع أحمالها وأثقالها إلى نخجوان • ثم يتبعها السلطان إلى نخجوان لعقـد الزواج هناك • فأرسل السلطان إليها علامة الخاتم :

إنَّ النساءَ وعهدُهنَّ هَبَـاءُ   ريحُ الصَّبا وعُهودُهنَّ سواءُ

فاستدعت الملكة ، بعد يومين ، الأعيان والأمراء وزعماء البلدة وقالت لهم : سلطان عظيم نازل بظاهر المدينة ، وليس لدى الأتابك قوة تستطيع دحره، فإن نحن لم نهادنه ونصالحه استخلص المدينة بالغلبة والقوة • وهذا ما فعله أبوه في مدينة سمرقند[1] • فالرأي أن نبعث إليه القضاة وأصحاب المعرفة ، ونأخذ عليه المواثيق بألا يتعرض لحرم الأتابك وأتباعه بأن يذهبن حيث شئن، فنسلمه المدينة • هذا هو رأيي فانظروا في المصلحة • فوافق الجميع على رأيها، قائلين : إن رأي الملكة هو رأي ملكي واقتراح عاقل • كان قاضي القضاة عز الدين القزويني من الأعيان الأفاضل ومن علماء العصر ، فأرسلوه مع عدد من الحجاب إلى السلطان • فالتمس منه العفو والإغضاء ، على ألا يتعرض لقرار الملكة برحيلها ومن معها حيث شئن • فوافق السلطان على التماسه وعفا عنهم ، وسمح للحريم مع الملكة أن يذهبن حيث يرغبن •

وفي صباح اليوم التالي ، حين سلت يد الفلك سيف الشمس من نيام الآفاق حضر الأعيان وأمراء الأتابك وأركان المدينة بلاط السلطان يحملون كثيراً مـن الأصناف ، وقبلوا البساط الذي يظله الفلك ، فبدت آثار البشر والانطلاق ومكارم الأخلاق على محيا السلطان :

يُنبيكَ رَونق وجهه عن بشره

---

(١) إشارة إلى السلطان محمد خوارزمشاه وتركه مدينة سمرقند لجنكيز خان (ت) •

وخرجت الملكة على طبيعتها حيث شاءت . ودخل السلطان المدينة سنة اثنتين وعشرين وستمئة سعيداً . وخرج السكان يهنئونه . وأقام السلطان عدة أيام هناك ، ثم رحل إلى « نخجوان » ، وامتلك الملكة على فتاوى الأئمة ، ثم سلك طريق تتبع الأتابك ، وكان لاجئاً آنئذ إلى قلعة « ألِـنْجه » . وحـين وصل إلى الأتابك نبأ وصول السلطان إلى نخجوان أدرك النتيجة الحتمية . فتظاهر بالخروج لعلة ما ، وهناك أسلم روحه ألماً وغصة :

« قررت الروح الرحيل فقلت لها : لا ترحلي ، قالت : ماذا أفعل ؟ لقـد انهدَّ المنزل »

وللإنصاف والعدل لقد كانت له أفعال منكرة ، لاسيما ما يتعلق بالأهل والحريم ، وهي عادات مذمومة ، يشمئز المرء من أمثال هذه الحركات القبيحة والأعمال المرفوضة المنفرِّة . وقد صدق رسول الله ﷺ : « كلُّ شيءٍ مَهَهٌ ومَهَاهٌ إلا النساءَ وذِكرَهنَّ »[1] .



(١) هذا القول مثل مشهور وليس حديثاً . وأصل روايته بذكر كلمة « مهه » أو «مها » وليستا معاً كما سها المصنف . وانظر في ذلك مجمع الأمثال ، واللسان في مادة « مهه » . مه الإبل : رفق بها ، والمهاهُ : الطراوة والحسن كالمهه . والمعنى أن كل شيء يسير وسهل يحتمله الرجل حتى يأتي ذكر حريمه فيمتعض ، أو كل شيء باطل إلا النساء .. (ت) .

ذكر أحوال السلطان والكرج وقمعهم «١»

وعلى عادة الزمان ، فقد دالت دولة الأتابك وانتقلت إلى السلطان جلال الدين . واتجه نحوه الحشم والخدم من شتى الأنحاء . لكن الكرج الكفرة الفجرة طمعوا في تملك ولايته ، ليطردوا السلطان أولاً ، ثم يتسلموا حكم تبريز ، وبعد ذلك يتجهوا نحو بغداد ويجلسوا الجاثليق مكان الخليفة، ويحولوا المساجد إلى كنائس ، ويجعلوا الباطل حقاً . وقد تمثلت هذه الأحلام الباطلة في مخيلتهم بناء على غرورهم باعتمادهم على قوة رجالهم . فصنعوا الرماح والنصال ، وعبؤوا أكثر من ثلاثين ألف رجل[٢] ، وتحركوا :

الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عوارِ فحذارِ من أسْدِ العرينِ حَذارِ[٣]

وصلت الأنباء إلى السلطان ولما لم تتجمع جيوشه ، وقد اختلت أوضاعه وتحولت إلى بلاء خرج إلى الكرج بمن معه من غير تفكر أو تدبر ، وسار نحوهم من الصباح إلى المساء حتى وصل الى مهاجع الكرج ليلاً في وادي كربي ، وكانوا سكارى مخمورين :

---

(١) بلاد الكرج هي جورجيا الحالية - وستمر حيناً باسم بلاد الكرج ، وحيناً كرجستان (ت) .

(٢) يذكر النسوي : ١١٢ أنهم ستون ألفاً ، وابن الأثير : ٢٨٣/١٢ أنهم يزيدون على سبعين ألف مقاتل .

(٣) البيت مطلع لقصيدة أبي تمام في مديح المعتصم .

يا راقدَ الليلِ مسروراً بأوَّلـهِ   إن الحوادث قد يطرُقْنَ أسحارا

وقبل أن يمدَّ الكرجيون أيديهم إلى أسلحتهم انقض السلطان عليهم وأحسن القتل فيهم . وكان في وادي كربي غار فيه ممر ضيق ، عميق بعمق عقول العقلاء . فما كان من الكرج إلا أن امتطوا جيادهم ودخلوه واختفوا فيه ، إلا أن الجنود استطاعوا أن يأسروا رئيسي الفتنة وشرِّيريها وهما « شَلْوه » و « إيفاني » مع عـدد من أعيان الكرج ، فكبلوهم بالحـديد وأحضروهم أمام السلطان . كان شَلْوه ضخم الجثة والقامة شبيهاً بقوم عاد مع فخامة في الجاه والزعامة . وسأله السلطان حين دنا منه : أين صولتك التي ادَّعيتها ؟ أين صاحب ذي الفقار ليرى جراح السيوف ؟ قال : لقد قام السلطان بهذا العمل . ثم عرضوا عليه الإسلام ، فقال : للدهاقين رسم بأن يعلقوا رأس الحمار في بستان الخضار ليمنعوا عين الشيطان[1] . وكان شلوه أيضاً رأس الحمار[2] . لكنه كان ، حاشا السامعين ، مقعدحمار تماماً .

ولقد عاد السلطان المؤيد السعيد إلـى تبريز دار الملك ، وقد هابتـه الولايات ، وهلعت منه قلوب الأعداء ، وازداد عدد جنوده عما كان . وقـد أعزَّ شلوه وإيفاني على أمل مساعدته على استخلاص بلاد الكرج ، فمنحهما مع مزيد من الإكرام كلاًّ من : مَرَنْد وسَلْماس وأورمية وأشْنو :

« ماذا ترجو من القذرين ؟، الزنجي لا يبيضُّ جلده بالغسيل »

وأعدَّ جيشاً كبيراً من المشاة والفرسان ، ونطق شلوه وإيفاني الكلام على وفـق هوى السلطان ، وتقبَّلا ما عرض عليهما وتكفلا بـه . وغـرَّ السلطان بمواعيد عرقوب ، وقاداه بلجام الاحتيال إلى بئر الاغتيـال ، وقيدا

---

(1) اقتبس الجويني هذه الخرافة الطريفة من « بستان » سعدي (ت) .
(2) يعني أنه رفض الإسلام (ت) .

الأسد الجريء بأجل الثعلبان . وأرسل معهما الجيش ، بينما اكتفى برفقة ثلة من الفرسان لزيارة زوجته (زوجة أوزبك سابقاً)[1] ، واتجه نحو « خوي » . ومن هناك قصد بلاد الكرج ، وزوجته معه ، حتى وصل دُوين[2] والتي هي متاخمة لحدود الكرج ، فالتقيا هناك[3] وقبل كل شيء أرسل ملك طشت دار[4] برسالة إلى قِيز ملك ، وكانت امرأة ، وهي ملكة بلاد الكرج جميعاً . ويروى أن أمير المؤمنين أبا بكر رضي الله عنه حين بلغه أن ملك العجم امرأة قال : « ذلَّ من أسند أمره إلى امرأة » . وبينما كان ملك طشت دار يوماً يستحم على شاطئ نهر « كُرّ » دنا قسيس سكران من قوم شلوه ، وتعدى عليه وقال له : قريباً سيتجه نحوكم الملك بجيشه ويحارب السلطان في وادي « ماركاب » ، ونعاقبه عقاباً عسيراً . فقتل طشت دار القسيس في هذه اللحظة وطار نحو السلطان . فوصل إليه حين أذن المؤذنون لصلاة الصبح ، فشرح له صدق الحال وخديعة فرقة الضلال .

أحب السلطان أن يختبر الأمر ، فأمر أن يُحضر إليه شلوه وإيفاني مع أربعين أميراً في صحبتهما وسألهما : أريد أن أشاوركما عن أفضل طريق نتبعه، أطريق « غرس » أفضل بنظركما أم طريق وادي « ماركات »؟ فأجاباه : إن البلاد من جهة غرس حصينة منيعة ، وممراتها صعبة متعذرة ، ثم إن طريق

---

(١) اتبع الجويني التلاعب اللفظي هنا فقال : « خريدة نه بزر خريده خود » أي : خريدته وليست العبدة المشتراة بالمال ، فاستخدم الجناس بين (خريدة) العربية و(خريدة) الفارسية بمعنى المشتراة . وآثرنا الترجمة الواضحة كما ذكرنا(ت) .

(٢) دوين أو دون : إحدى مدن أرمينية (ت) .

(٣) أي مع الجيش الذي يرافق شلوه وإيفاني (ت) .

(٤) طشت دار : أي المسؤول عن المغاسل في القصر أو الذي يصب الماء على يدي الملك (ت) .

ماركاب أوسط الطرق وهو أقرب إلى تفليس • وحين نصل إلى هناك يتوزع الجيش بأمر السلطان ونستولي على تفليس ونحتلها • حين أدرك السلطان خبث نياتهم ونفاقهم شهر سيفه وضرب شلوه فقسمه نصفين فتلوث سيفه بدمه • ثم أمر أن يقاد الجميع إلى جهنم • /

ثم جلس يستشير أمراءه عن الطريق الذي يجب أن يتبعوه • وتعددت الآراء • ثم قال السلطان : إن رأيي هو أن ننتهز فرصة عدم معرفتهم بأمر شلوه وإيفاني ، وأولئك ينتظرون خبراً منهما ، فننقض عليهم بغتة • وفوراً أمر بتجهيز عشرة آلاف رجل قوي ، بينما اتجه وحده إلى سفح ممر « بَنْدي بَنْبه » ، التي يحسب العقاب حسابها في طيرانه • ونزل عن جواده، وجيشه خلفه يسيرون • ولمحه الوعول المتوحشون ، فنزلوا مترجلين إليه حياء وخوفاً منه ، ووصلوا إليه عند انفجار عيون الصباح • وجرت بين الطرفين معركة ضارية بالسيف والنبل ، حتى تمت في النهاية غلبة الحق على الباطل ، ووقع أكثر شيعة الشرك في شَرَك الفناء ، بينما تعطب الآخرون ، وانتصر أولياء السلطان المنصور وذل أدعياء الشيطان المقهور/ « ألم يَروا كم أهلكنا قبلهم من القرون ، أنهم إليهم لا يرجعون » ؟• وحين شاب نور النهار نزلوا،وأمضوا يوماً آخر حين :

والفجرُ يتلو الدجى في إثر زُهْرته   كطاعنٍ بسنانٍ إثْرَ منهزمٍ[1]

حيث اتجهوا نحو صحراء « لوري »[2] • فتناثر الغبار ، فلم يعرف أحدهم الآخر • وحين سكن الغبار وطلعت الشمس رأوا الكرجيين ، فكانوا

---

(١) البيت للأمير أبي المطاع يصف يوماً له بدير دمشق (تتمة اليتيمة ، ورقة ٥٠٠)•

(٢) لوري : المدينة الأولى من مقاطعة تأشير ، خراباتها اليوم في أرمينية الروسية • كانت عاصمة أرمينية في القرن العاشر الميلادي (ت) •

أمامهم كالقنص في الشباك خمسة خمسة وعشرة عشرة • وكان يقتل كل جندي من الكرجيين ، حتى زال أغلب هذا النوع من الناس • ثم عاد الى أصحابه ، فأخذوا لوري[1] بالأمان • واتجه منها إلى قلعة « علي آباد » • فاستأمنوا أهلها من غير أن يصيبوهم بأذى •

وأمضى السلطان شهري محرم وصفر مع الجيش • وفي غرة ربيع الأول خرج السلطان للصيد ، مع ثلة من الفرسان • وحين علم الكرجيون بذلك خرجوا عليه بخمسمئة فارس • وأجهدوا أنفسهم كي يفاجئوا السلطان برمية قوس يتخلصون بها منه ، ويطفئون شعلة الاسلام :

« فارس العالم ابن دستان بن سام ، ليس من السهل أن يقع رأسه في الشرك »[2]

وحين لمحهم السلطان من بعيد أيقن بسيلهم العظيم ، مالم تهب رياح نسيمية على دولته من عناية صاحب العزة والجلالة ، أو ينثر غبار الفرقة في أعينهم • وباشر بحربهم وحده وكأنه أمامهم خمسمئة •وحين وصل نبأ المباغتة إلى جنده قدم فوج منهم لنجدته • وكلما قتلت منهم فئة قدمت أخرى حتى زاد عددهم على عشرة آلاف • وكان أورخان محتمياً بجوار تفليس ويرقب أطراف جيشه ، وينتظر نتيجة المعركة • حتى كبَّر المكبرون من الجند فأقبل عليهم بالسيوف والنبال ، طوراً يميناً وطوراً يساراً ، فقتل منهم مقتلة عظيمة :

« أرأيت بحراً يمطر جبالا ؟ لقد أجاد استخدام سيفه »

« حسبت أن الشمس محجوبة بالغيم ، حين انحنت عليها هيبته »

---

(١) يقصد أهل البلاد (ت) •
(٢) البيت من الشاهنامة (ت) •

حين رأى أهل الكرج جراحهم بدبوسه فروا هاربين . ولما كانت مداخل المدينة مشحونة برجاله اتجهوا نحو نهر كُر" ، فنزلوه رعباً بخيلهم وكامل عتادهم ، فهب عليهم إعصار الموت ، وكان مصيرهم جهنم :

« على القلوب من هذا الحسد غدت صدورهم قبوراً ، علـى أجساد أعدائه صارت الجلود من الخوف كفناً »

حين رأى سكان القلعة هذا الوضع نزلوا إلى المعركة وباشروا الحرب ، لكنهم سرعان ما عجزوا أمـام جراح كوكب الحظ ونبـال الأكباد المحروقة فقذفوا خزانة قيز ملك في الماء ، وفي اليوم الثاني طلبوا الأمان . فقبل السلطان طلبهم . ووقف السلطان بنفسه بينما كان هذا القوم يعبرون تحت منزلتـه ومعهم أمتعتهم متجهين نحو « أبخاز »[1] . وقد استأصلوا من كل قرية وقلعة حول تفليس من تجمع فيها من أحزاب إبليس ، وحصلوا من ذلك على غنائم لا تعد ولا تحصى . كما هدموا الكنائس التي كانت مبنية من قديم الأزمان بعد أن نهبوا ذخائرها النفيسة . وأشادوا مكانهـا صوامع إسلامية ● .

وجاءته الأنباء فجاءة بأن براق مع بعض رفاق السوء نهد من كرمان ، عازماً على الاستيلاء على العراق . فأعد السلطان مراكبه بسرعة البُراق لحرب بَراق ، وعَدا نحوه بسرعة البرق مع ما قدر على جمعه من جيشه . كانت رياح الأرض تهب ، ولهيب النهار يعـلو في الفضـاء . وعبر محطات الطريق وطرقها ، بينما توقف بعض جيشه في الطريق . فقطع المسافة من تفليس إلى كرمان بسبعة عشر يوماً ، ولم يكن معه أكثر من ثلاثمئة فارس . وحين سمع براق الحاجب بقدوم السلطان ، أرسل إليه خدمات وهدايا ، ورجالا يحملون

---

(1) أبخاز : ليست أبخازيا ، ولكنها جزء من جورجيا (ت) .

تمهيدات عن أعذاره . كان السلطان قد عزم على المكوث في إصفهان بضعة أيام للاستجمام ، فتشرف أعيان العراق بخدمته . وظم كمال الدين إسماعيل هذه القصيدة المطولة في هذه المناسبة :

« عاد بساط الأرض إلى انتعاشه ، بيمن قدوم جيش ملك البسيطة »

« فتبادل الناس التهاني ، أن أبقى الحياة للناس وللبهائم »

« نما هذا الفنن في حديقة السلطنة ؛ ورقه العدل وثماره الإحسان »

« لذلك من الممكن أن يهبوا أنفسهم للسلطان في بلاطه ، فكانت الطبيعة قد شرعت في توالد الأجيال »

« جـلال الدنيا والدين مَنْكُبُرْنِي[1] ذلك الملك ، أدامه الله سلطاناً على الدنيا »

« ما أعظمها معارج قـدرة ترقى إلى الكمال ، وما ألطفها معاني حسن تسمو عن الوصف »

« هيا فاتح العالم ، لقد أرسلك الله، لتملك أطراف الدنيا الأربعة ،فخذها»

« إن شاهد ملكك عدلك في أرجاء المملكة ، ودليل هـذا العدل طيب خلقك العام »

---

(١) سجل المحقق عدة صفحات في التحقق من هذه اللفظة : ٢/٢٨٤ ، ونوجز رأيه هنا : اختلفوا كثيراً في وجه تسميته بمنكبرني ومفهومها ، ومـا زالوا علـى اختلافهم ، ولا سيما في الحرف قبل الأخير هل هو نون أو تاء . نقلها هوراس عن النسوي بالنون ، وهي كذلك عند الجويني ، وياقوت ، وطبقات ناصري ، ومسالك الأبصار .. وأغلب المستشرقين . ومن كتبها بالتاء اعتبرها كلمتين : مونغو : الأبدي والخالد (بالمغولية) + بِرتي : الماضي من الفعل بيرماك (الإعطاء بالتركية)، فالمعنى : هبة الله . ولم يتسن للمحقق أن يرجح إحديهما.

« فلتعش عمر نوح في هذا العالم ، وهاهي ذي عماراتك بادية من بعد الطوفان »

« أقمت منبر الاسلام على الصليب ، أحللت الأذان محل الناقوس »

« أزلت حجاب الظلم بصفحة عدلك، أزحت نقاب الكفر عن وجه الإيمان»

« بعضدك عَضد الإسلام ، حيث صدمت الكفار به فتهدموا »

« طار براق عزمك من الهند ، وحط في أقاصي أرّان »

« من غيرك من ملوك العصر ، أقضم جواده في تفليس وسقاه في عمّان ؟»

« مات الشاه[1] في لعب سيفك إذا ضرب الخصم، وما حاجة البيادة تجاه الجواد والفيل ؟ »[2]

وجاءته الأنباء ثانية تعلمه بعودة تجمع الكرجيين ، فأبقى الوزير « يلدرجي »[3] ، الذي أقامه السلطان مقامه ، في تفليس ، وقدم إلى تبريز مضطراً . كما أرسل الملك الأشرف[4] الحاجب علي[5] إلى أخلاط[6] ، حيث

---

(١) يستخدم الشاعر في هذا البيت حجارة الشطرنج في تعبيره (ت) .

(٢) ديوان الشاعر مطبوع ، والقصيدة فيه أطول مما ذكر الكتاب (ت) .

(٣) اسمه الكامل « شرف الملك علي بن أبي القاسم الجندي ، فخر الدين » (ت) .
ورد في جامع التواريخ: يولد ورجي ويولدوزجي، وفي تاريخ النسوي: بلدوجن» .

(٤) الملك الأشرف : من الملوك الأيوبيين في الشام (ت) .

(٥) هو الحاجب حسام الدين علي بن حماد ، من قواد الأيوبيين الفعالين في فتوح أرمينية (ت) .

(٦) أخلاط: وتدعى اليوم أهلات، تقع على بحيرة فان الى الشمال الغربي من شرقي تركية (ت) .

كان يغير عليها كل عدة أيام ، وانتقال الملكة من « خوي » إلى أخلاط ، بعد أن سمح لها الحاجب علي بالمرور ، وعودة الكرجيين إلى تفليس وتخريبهم المساجد ، وتعذيبهم المسلمين . فحامت الكآبة على حياة السلطان ، وعزم على الرحيل فوراً إلى آذربيجان :

كيف عيشُ امرئٍ له كل يومٍ عَلَمٌ دون بلدةٍ منشورُ ؟

وإذا الريحُ حركت صوت طبلٍ من بعيدٍ فقلبُهُ مذعورُ

يا غنياً عن العساكرِ والحشْ هنيئاً لكَ المَقيلُ الوثيرُ

من لهُ كِسرةٌ يعيشُ عن النا سِ غنياً بها ، فذاك الأميرُ

ومنذ حل السلطان في نواحي أخلاط كان يقتل الجنود الذين يلقاهم ، أو يقودهم أمامه ، حتى بلغ أبواب أخلاط ، فقذف بجنودها ، وأغار عليها وقتل سكانها . ثم أعلن النفير ، فأمر خاصته بإخراج رجالها ونسائها من المدينة . فأثار الشعب الشغب وقتلوا جماعة من جنوده وطرد بقيتهم ، وتمكنوا من المدينة ، ولم يسمحوا لرجال السلطان بالدخول .

وفي هذه الأثناء وصل خبر وصول « نايماس »● و « تاينال » من العراق ، وما كان هذا قراره . واتجه نحو العراق عن طريق تبريز ، ومنها إلى إصفهان . وكان المتفرقون من العسكر والجنود يتوافدون عليه من كل الأطراف . كما وصل جيش المغول إلى الري . واستعد السلطان ، وتشمّر للحرب ، وجمع جملة الأعيان والأمراء . فاستدعى المقدمين من الجيش وقال : لقد داهمنا خطب جلل وبلاء عظيم ، فإن داخلنا العجز والجبن فلن يكون لنا وجود . فعلينا أن نقاوم ونصبر أولا ، فقد يمنّ الله علينا وعليكم بالبقاء . أما إن كان الأمر غير ذلك فلن نحرم أنفسنا من درجة الشهادة وفضيلة

السعادة . قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » . ووقف جميعهم مع السلطان قلباً ولساناً .

أمر السلطان بالتعبئة العامة ، فنظم القلب والجناحين ، وسلم قيادة الميمنة إلى أخيه غياث الدين عديم الوفاء المحشو بالجفاء ، وعين على الميسرة ...[1] ، بينما تولى قيادة القلب . نظم الصفوف ، ورغب في إعطاء أوامره للميمنة والميسرة ، حتى تكون الإشارة ببدء الحملة واحدة . لكن أخاه غياث الدين مع إيلجي بهلوان وعدد من خواصه سارعوا إلى التقدم (من غير انتظار للأوامر) :

إنــي وتجربتي سعيداً بعدما	جرَّبتُ في غُلوائـهِ أخلاقَـهُ
كمُعيدِ شكٍ في خرا قد شمَّهُ	وأراد معرفـة اليقينِ[2] فذاقهُ

فتضايق السلطان جلال الدين من هذا التصرف ، ونفر من الجيش ولم يلو عنانه ، وحمل على القلب ، بينما هاجم جناح المغول الأيمن جناح السلطان الأيسر ، وجناح السلطان الأيمن جناح المغول الأيسر . واختلط الجمعان . حين هاجم المغول قلب السلطان ، وضاع موضع رايته ، وتبع جناحهم الأيمن جناح السلطان الأيسر ، لم يعد يعرف الواحد منهم الآخر . وتوقف السلطان في القلب وحيداً من غير أن يعاضده أحد ، فأحاط المغول به ، فغدا بينهم نقطة الدائرة . فضرب واحداً على جواده وجرح أعضاء آخر ، حتى تمكن من الخلاص وهرب نحو لورستان ، وأقام في أحد الوديان . وتتابعت الفلول

---

(١) بياض في الأصل جميعاً .
(٢) لأبي أحمد بن أبي بكر بن حامد من كتاب السامية . انظر يتيمة الدهر : ٥/٤ مع اختلاف في البيت الأول .

تتوافد عليه واحداً واحداً ، أو اثنين اثنين ، من غير أن يعلم به أهل إصفهان أو الجيش . فقد زعم بعضهم أنه قتل في المعركة ، وزعم آخرون أنه أسر . وتبعه جيش المغول حتى أبواب إصفهان ، ثم تابعوا بحثهم السريع حتى وصلوا إلى الري بثلاثة أيام مع لياليها[1] . واتجهوا من هناك إلى نيسابور ثم عادوا.

وانطلق السلطان نحو إصفهان بعد أن أرسل المبشرين طليعة له . فخرج الناس جميعاً رجالا ونساء لاستقباله ، وعدّوا قدومه عليهم حلول المسرات وذهاب البليات :

« حين رأى الإيرانيون وجهه ، ذهبوا جميعاً نحوه »

كان السلطان غاضباً من أكثر أعيانه. كما أنه استدعى الخانات والرؤساء المقربين والحاصلين على اسم دولته ولم ينزلوا المعركة ، وأمر بتغطية رؤوسهم بحجاب النساء والطواف بهم في الأسواق . في حين أن جماعة لم يكونوا في عداد الأمراء[2] ، وصمدوا يوم الفزع الأكبر ، وقاتلوا ونازلوا مخلصين فقد منح بعضهم لقب « خان » وآخرين لقب « مَلك » ، وخلع عليهم وشرّفهم ، فزاد سوقهم .

---

(1) زادت إحدى النسخ قولها هنا : « وحاصر بعض من الجيش كاشان فأخذوها بعد ثلاثة أيام ، فأغاروا وقتلوا . ومن هناك اتجهوا نحو الري » .

(2) كانت رتبة أمير أدنى مرتبة ، وفوقها ملك ، وفوقها خان . يقول النسوي :١٠٠ في معرض آخر : « وكان إذا ألح بعضهم في السؤال ولج في الطلب يرضيه بزيادة في لقبه ؛ فإن كان أميراً يلقبه ملكاً ، وإن كان ملكاً يلقبه خاناً » .

ذكر عودة السلطان إلى كرجستان :

وفي شهور سنة خمس وعشرين وستمئة انتقل من هناك إلى بلاد الكرج • فحل الهلع في قلوب سلاطين الروم والشام والأرمن ، فنفروا من تلك الرباع خوف بطشه واقتحامه • فبايع الواحد منهم الآخر على دفع السلطان، واتحدوا خوف بطشه واقتحامه • فبايع الواحد منهم الآخر على دفع السلطان ، واتحدوا • وتجمعت جيوش : الكرج ، والألان ، والأرمن ، والسرير[1] ، واللكزيين[2] ، والقفجاق ، والسونيين[3] ، والأبخاز[4] ، والجانيت[5] ، والشاميين ، والروم جميعاً • واتفقوا اتفاق الرجال الذين خبروا نيران الزمان وجربوا أيام الحروب •

وصل السلطان إلى جوارهم ، وحل في « مندور »● ، وكان مضطرب الحال من قلة آلات الكفاح ، وعدم رجال السيوف والرماح ، وتكاثر عدد العدو ، وتغير أحوال الزمان • فتشاور مع وزيره يلدرجي وأركان دولته • فقال يلدرجي : إن عدد العدو يفوقنا مئة مرة لذلك أرى أن نبتعد عن مندور ونمنع عنهم العلف والماء حتى يضعفوا في الصيف ، وتهن جيادهم ، وتتوافد

---

(١) سرير : تقع في مقاطعة داغستان (ت) •

(٢) نسبة الى (لكز) : ما زالت في مقاطعة داغستان (ت) •

(٣) يقصد بلاشك أقوام سوان SVANS ، وهم إحدى قبائل القفقاس •

(٤) تقع أبخاز على شاطىء البحر الأسود ، في الشمال الغربي من جورجيا (كرج)، وهي اليوم جزء من الأراضي السوفييتية (ت) •

(٥) جانيت : تقع في القسم الجنوبي من شاطىء البحر الأسود قرب ترابزون (ت)•

علينا أعداد الجنود المتخلفة . عندئذ نقدم على حربهم عن قــدرة وبصيرة .
حين بلغ في حديثه عن الاقتدار غضب السلطان منه وقذف عليــه دواة كانت
أمامه فوقعت على رأسه وقال : هم ليسوا أكثر من قطيع من الخرفان لقاء
أسد ، فما شكواك من كثرة القطيع ؟ تأسف يلدرجي من كلامه غير اللائق ،
وسلّم خمسين ألف دينار ضريبة خطئه هذا . وقال السلطان : مهما كان الأمر
صعباً وحساساً فلا بد من الحرب والاتكال على الله . فمن المستحيل معرفة
النتائج لمن تكون .

وفتحت الخزائن ، وجلبت قطعان الخيل ، وأنزل إلى الحرب كل قادر
من الأمراء والخاصة والأوساط والعامة .. واستعدوا . وحين قدم الجيش
انخرطوا في صفوفه مع الطبول والبوق والجمال والنوق . وتساوت الصفوف
واستعدت للحرب . فظن الخصوم أن جيش السلطان بالنسبة إليهم جدول
وهم بحر ، كلا بل كرة في حقل . قال الله سبحانه وتعالى : « إنْ يكنْ منكمْ
عشرونَ صابرون يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يَفْقهون » .

وحين قدم جيش الكرج كان مغموراً بالسلاح . ونظر إليه السلطان من
أعلى تل ، فــرأى راياتهم . كانت رايات القفجاق عن اليمين بعشرين ألفاً .
فاستدعى السلطان قشقر ، وأعطاه قليلا من الملح مع كسرة خبز وأرسله إلى
جيش القفجاق ، يذكرهم بأفضاله عليهم ، إذ كانوا في أثناء حكم أبيه مذللين ،
وسعى هو بوسائله لإنقاذهم والشفاعة لهم لديه . وقــال : والآن تشهرون
السيف في وجهي اعترافاً بجميلي عليكم ؟ ولهذا السبب أحجم جيش القفجاق
عن خوض المعركة .

وبينما كــان جيش الكرج ينظمون قــدم عليهم رسول من السلطان ،
وتقدم من قائدهم إيفاني وقال : قد قدمتم هــذا اليوم من بعيــد ، فخيلكم

منهكة ورجالكم متعبون . فلنتوقف اليوم عن الحرب ، بينما ننزل إلى الميدان الفتيان الشجعان من طرفنا ومن طرفكم فيتصاولون ويتطاردون ، ونتفرج نحن اليوم ، ونترك الحرب للغد . وافق إيفاني على هذا الاقتراح المناسب ، وأنزل إلى الساحة بطلا ضخماً شجاعاً ، أشبه بالجبل ، بينما قابلـه السلطان منكّراً[1] :

« برز من الجيش بطل كالأسد ، للقاء البطل هَجَير »[2]

وتوقف الطرفان للمشاهدة ، بينما قفز السلطان على جواده وكبَّر :

« ضربه بسنانه فأصاب خاصرته ، فقطع درعه وحزامه »

فسقط ذلك الملعون على الأرض وأسلم روحه . وكان له ثلاثة أبنـاء فخرجوا إليه الواحد تلو الآخر . ومنح الله عز وجل السلطان قوة فأتبعهـم بأبيهم إلى جهنم :

« بحملته البازيّة الرهيبة ، تحول الشاهين إلى حمام »

« أيا مَن رميت سنانك إلى المعركة ، لقد أغمضتِ الكواكب أجفانها »

ونزل قائد كرجي آخر ، وكان ضخماً أشبه بجبل بِيسْتون[3] ، يحمل سناناً طويلاً كالعمود على جواد ضخم كالفيل :

---

(1) في الأصل الفارسي « منكروار » ــ مع وجود الشدة ــ أي : صاحب التنكير . وترجمها بويل على أنها Munkar أحد الملاكين أنكر ونكير ! وهذا وهم (ت).

(2) البيت والذي يليه من الشاهنامة ، وقد حرف الجويني بعض الألفاظ . وهجير: أمير القصر الأبيض وهو الذي هاجم سهراب بطل الطورانيين (ت) .

(3) بيستون : جبل في إيران فيه قبر البطل رستم . والجبل كثير الذكر في تاريخ الفرس القديم . وهو جبل شاهق وصف بانه (بلا أعمدة) لوعورة الصعود إليه (ت) .

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معـاً كجلمود صخر حطه السيل من علِ[1]

وكان جواد السلطان قد أنهك فلم يعد يقوى على التقدم ، وكاد يقع من كثرة تراجعه . وكان القائد كلما حمل عليه تخلص السلطان منه بيده الخاطفة. وطالت مدة المصاولة ، جرح فيها السلطان عدة جراح حتى صعب الأمر على السلطان . وكاد الشيطان الرجيم ينتصر عليه ، والسلطان أمام عفريت أسود. ثم حمل عليه ثانية فما كان من السلطان إلا أن قفز من على جواده :

« فضرب سنانه على رأس مقبل الدموع ، فقبلت السماوات يده »[2]

فارتفعت أصوات الملائكة الأرضية نحو الملأ الأعلى،فسمع نداء « الحمد لله الذي نصر عبده » بين الثقلين . فذهل الطرفان من مشاهدة هذه القوة النادرة التي لا تبدو عند رستم . وكل واحد :

« كان يقول : هذا رستم ، أو هو الشمس في إشراقها »

وبعد أن قتل عدد من أبطال الحروب وحماة الجيش بلحظات ، وغدوا طعمة للكلاب والذئاب حل الرعب والانخذال في نفوس القواد والرؤساء ، في حين زال الفزع والخوف من نفوس الجنود المسلمين . وبإشارة من سوط السلطان نزل إلى ساحة الوغى عدد من الشجعان الأشاوس لكن جيش الكرج تراجع . فبدت علائم الظفر ، وأنوار حسن المآب أسفرت عن النصر . وماهي إلا لحظات حتى تناثرت أشلاء القتلى ، فتلونت الأرض بطيلسان الدم .

ولما رأى خبراء الحرب النتيجة واضحة لاذوا بالفرار ، وتمسكوا بأذيال الشام ، فتواروا تحت جنح الظلام ، وأدركوا أن الله لا يعين الظلام . فاتخذوا

---

(١) البيت من معلقة امرىء القيس (ت) .

(٢) البيت من الشاهنامة ، بعد أن تصرف المؤلف في عجزه (ت) .

الأطراف والأكناف من الوديان والجبال ملاذاً ، وعلت منهم أصوات الفزع وزفير الخوف ، وتزلزلت الأرض من صهيل البهائم وشهيقها . وكثرت الغنائم فلم يعبأ بالرخيص منها (القطعان) ، وعمت الأنعام حتى لم يحسب للأنعام حساب . وحين تقوت عزائم أصحاب الدين النبوي ، وشاعت أنباء هيبة السلطان في الآفاق ، وأرسلت البشائر إلى الآفاق حسب الملوك والأقوياء حسابها . وقرر السلطان من هناك أن يتوجه إلى أخلاط .

ذكر اتجاه السلطان نحو أخلاط وفتحها :

حين عاد السلطان من أخلاط أول مرة في طريقه إلى العراق حصّن زعماؤها بلدتهم ورمّموا أسوارها . أما الآن فحين دنا منها بعث رسله يعلمهم بقدومه ، ويأمر الزعماء بالمثول بين يديه . لكنهم أبوا الاستجابة ، وأغلقوا باب الممانعة ، وأحكموا بوابات البلدة . وما دروا أنهم يرفسون حظهم بالأقدام ، ويغطون إبر الشوك باللباد . وإذ يئس السلطان من نصيحتهم أمر السلطان بإحاطة المدينة ، وببناء المنازل[1] ونصب المنجنيقات وآلات الحرب الأخرى كرشاشات النبال والنفاطات . كما شغل جنود المدينة بالاستعداد للحرب . وباشرت مجانيق الطرفين بالقذف ، وشرعوا بتراشق النبال المضروبة من الأقواس أو الدواليب وكأنها حبات البرَد . كما برز المتبارزون ليلاً ونهاراً يحملون على البوابات ، فيردهم أهل المدينة بأنواع من التحايل . حتى مضت أيام وشهور فعم القحط وغلت الأسعار ، وبدا ذلك من وراء الأسوار . وكانوا

---

(١) لعله يعني بكلامه الإقامة حول الأسوار حتى الفتح ، أو أنه يقصد بناء مواضع عسكرية (ت) .

يرسلون رسلهم خفية إلى بغداد وبلاد الروم والشام حتى يشفعوا لهم لدى السلطان • وكتب أمير المؤمنين المستنصر بالله وسلاطين الروم والشام الى السلطان عدة مرات يرجونه العفو عن أهل أخلاط والتجاوز عن زلاتهم • ولما كان السكان يرفضون هذه الطاعة ، ولما أتخمت رؤوس الجهال بعفونة المدينة باشروا جميعاً بالشتم الصريح والهذيان القبيح • وسرت غواية الشيطان في عروقهم وعقولهم ، حتى صموا آذانهم عن قبول نصائح مسؤوليهم • وأصروا على المكاوحة ما يقرب من عشرة أشهر[1] حتى أسكتهم الجوع • فأمر السلطان عندئذ جيشه بأن يحملوا على الشاتمين ويدخلوا بهم إلى المدينة • فلقد تضايق السلطان والأمراء من الشتائم والفحش ، وثارت ثائرتهم • وثابر الجيش على القتل بهم من الصباح حتى المساء ، إلى أن سكنت ثورة السلطان فمنح عندئذ العفو عن هؤلاء المساكين ، وحقن دمائهم •

وأقام السلطان في قصر الملك أشرف ، بينما نزل مجير الدين أخو الملك أشرف ومملوكه عز الدين أيبك● إلى المعتقل السفلي بلا ماء ولا زاد • ثم خرج مجير الدين لخدمة السلطان ، فأعزه السلطان وأكرمه • وسلمه رسالة من عز الدين أيبك وفيها الإبقاء على حياته وعرض معاهدة بينهما ، فالتفت السلطان نحو مجير الدين وقال : إن كنت تزعم لنفسك لقب سلطان ، فكيف يسمح لك كبرياؤك بأن تتلقى رسالة من عبد مخصي ؟ إنه لا يمكن أن يعد مسؤولاً ، دعه يصنع ما شاء ، إنه يعلم[2] •

ولما لاحظا أن مزاج السلطان غير مستعد لتقبل الكلام أدركا أن الوقت غير مناسب للإلحاح في الحديث •

خرج أيبك ومعه قوم يرتدون الدروع تحت ألبستهم وبأيديهم حراب ،

---

(١) في إحدى النسخ : شهران ، كما أن ابن الأثير يذكر أن الحصار دام من مطلع شوال الى جمادى الأولى •

(٢) لم يستقم الكلام بين السلطان ومجير الدين (ت) •

حتى يثير الفتن وقت الدخول ، ويضرب السلطان بغتة . لكن الحراس أبصروا الدروع من تحت الثياب ، وأدركوا توقع شر مخبوء ، فلم يسمحوا لهم بالدخول ، بينما أدخلوا أيبك وحده على السلطان . فلم يعبأ السلطان بـه ، بينما أمر بحبس جماعته .

وحين اتجهت شمس الأفلاك في سفرتها ناحية الشام (الغروب) وعزم شمس الملوك على حلواء السماط ، اتجه نحو الإيوان مع ابنة إيفاني التي كانت زوجة الملك أشرف . وخلا بها تلك الليلة . وقد استطاعت الملكة أن تخفف من غلوائه والحقد الكامن في نفسه .

وأدرك الرجل صاحب البصيرة هذه الأحوال تماماً . ففي ذلك الوقت الذي دخلت فيه الملكة في طريقه ، خرجت منه الملكة الأخرى[1] . ولم تنته السنة حتى كانت زوجة الملك أشرف في حوزة السلطان : « لا ترضَ بمن لا يرضى عن نفسه » . واستخرجوا أموالاً وغنائم كثيرة من خزانة الملك أشرف ، كما غنموا من أعيان البلدة أضعاف ذلك . فعمرت خزانة السلطان بالمال والجواهر . واشتدت عزائم جنوده بالغارات والحروب . وقد أنشأ نور الدين المنشىء « كتاب الفتح » في هذا الباب . وإليكم صورة عن هذا الكتاب .

---

(١) المقصود بالأخرى الملكة ابنة السلطان طغرل زوجة الأتابك أوزبك التي تزوج بها السلطان عقب فتح تبريز عن طريق مشروع أو غير مشروع . وبالرجل الحاجب على نائب الملك أشرف بأخلاط .

نسخة كتاب الفتح

الشكر والحمد والثناء للخالق جل ذكره وعلا،الذي منحنا الظفر والنصر برأي من الدولة والمكللة برايات المملكة • وجعل التأييد والقـدرة قريني النهضات الميمونة والعزمات الهمايونية،بنهضة الدولة والتصرف بتدبير عبيدها، أدامها الله ، وبخطوات جيش حقق القهر ونفذ الأوامر ، و « هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكرُ أم أكفرُ ؟ » • حتى خفقت رايات نصرنا ، حفّها الله بالنصر، على حدود ممالك الأرمن • وأحاطت بمدينة أخلاط مدة ثمانية أشهر، ووجهنا آيات الوعد والوعيد الى جماعة المخالفين مرات ومرات،وكررنا عرض مقدمات الإنذار والتحذير بإلزام الحجة وإقامة البيّنة، حتى رأوا طريق سلامتهم بعينهم البصيرة ، وعلموا أن لا قدرة لهم على معبر عواصف القهر وصواعق السخط التي لا يتحملها جبل ، وأن لا ثبات لهم أمام تلاطم أمواج غضب حشم فاتح العالم ولا الجبل الجودي[1] • فتقدموا يطلبون الاستغفار والأمان • ففتحوا الأبواب • في حين أنهم طوال هذه المدة المديدة لم يعوا الدعاء : « اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون » • فقد كان جماعة المخالفين يزدادون غواية وضلالة يوماً بعد يوم ، « ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً » • وكان قد ازدحم جيش كبير ، توافد من ديار بكر وسواحل الفرات وبلاد مصر والشام وبعض البلاد

---

(١) الجودي : الجبل الذي رست عليه سفينة نوح ، ويروى أن موقعه في مقاطعة بوهتان الكردية (ت) •

الشرقية وطوائف التراكمة والأتراك ، ومن كل أوبٍ ووجهة فرق مختلفة ، واعتمدوا على قوة سواعدهم وحصانة أحمالهم وكثرة استعدادهم من الدواليب والنبال والمجانيق والنفط وآلات الجر الثقيلة . والحق أن بروج المدينة تبارت مع فلك البروج في الارتفاع . أما خندقها فيحكى أن قعره أبعد غوراً من قعر الثور السمكي[1] . كما تعاضدت العوامل والمؤثرات بين الأرض والسماء على الزيادة من إحكام هذه الأسوار وتثبيت قواعدها .

تلاحمت سوداء غرورهم مع ما في ضمائر المتمردين حتى جعلهم يرفضون كل موعظة . وتخليهم الفاسد زاد من تشبث المخالفين والمعارضين في عنادهم . حتى كان أواخر شهر جمادى الأولى ، لمس فيها رجال فاتح العالم فرصة ، نصرهم الله وقواهم ، للحرب والإقدام . فقد جاءتهم الأوامر أن على كل جندي أن ينقب في موضعه ، ويجد منفذاً إلى داخل الأسوار . أما الشجعان المغاوير فقد ملوا المكوث فاحتالوا بحثاً عن وسائل والتماسات حتى حظوا بالموافقة على بدء الحرب . ودامت الحرب ثلاثة أيام بلياليها ، وهم صابرون مثابرون ، حتى تسرب عدد منهم إلى داخل المدينة .

وفي يوم الأحد ، في الثامن والعشرين من شهر جمادى الأولى ، عند الشروق تزينت الأبراج والنوافذ بطلائع الرايات ، تماماً كالسماء وقد تحلت بنجومها ، بينما تحصن المعارضون في القلعة الواقعة في وسط المدينة ، وهم يصرخون وينادون . وشغل رجال المنصور،لازال منصوراً ، بالغارة والسلب . ولم يكن لأهل أخلاط سبيل إلى طلب الرحمة لكثرة معارضتهم وانغماسهم في

---

(1) جاء في النص : « كاو ماهي » بمعنى الثور السمكي أو الثور السمكة . يذكر بويل أنه مخلوق نصف ثور ونصفه حوت المفروض أنه يحمل الأرض على ظهره (ت) .

الغواية . لكن الرأي العطوف العادل منحهم الأمان ، وأوقف الغارة والسلب نعمَّ فيض من المكرمات نحو الشعب ، كما ساد الهدوء ، ودعوا للدولة القاهرة بقولهم : شيَّد الله أركانها . حتى المخالفون الفاروون شملتهم أبواب المرحمة بعد أن قدموا الاعتذار والاستغفار واعترفوا : « ربَّنا ظلمنا » . فعُفي عنهم وتُجووِز عن زلاتهم ، وعن سائر المجرمين .

وقد انسلك في سلك العبودية روعاً أو طوعاً كل من إخوة الملك أشرف: مجير الدين وتقي الدين ، وعز الدين أيبك ، وصاحب أرزن[1] ، والأمير أقسم بأسرهم وأجمعهم . وأسد بن عبد الله[2] وجميع أركان الأسرة الأيوبية المالكة اليوم . ولقد حالفتهم الحظوظ بمزيد من القدرة واستمرار الحكم وتحقيق الطموحات بما منحناهم من حق الحياة والسعادة التي نعموا بها . وبهـذه النهضة المباركة وهذه العظمة في ممالكهم الموروثة والمكتسبـة ، زادها الله بسطة ، اتسع حكمهم . حتى لم يكتفوا بما كان لهم في الأمس القريب من ممالك الشام والروم ، بل تصرفوا أكثر وخلدت دولتهم ، خلدها الله ونصرهم .

وزعت هذه السعادات ، وتحققت المطالب والأماني . فأرسلنا الأمـير الفلاني ليوزع هذه البشرى على الأمراء والأكابر والصدور والمعارف والقضاة والرؤساء والمشايخ والأعيان والمعتبرين وأهالي همدان كافة،عمرها الله وأحسن أحوال رعاياها . فابتهل الجميع الى الله تعالى عز وعلا في حقنا الدعاء لهذه الألطاف وهذا السرور ، وبما حظيت به دولتنا القاهرة ، لا زالت راسخة البنيان ثابتة الأركان . وعمت فوائدها على طوائف الأمم كافة ، وشغلوا بالدعوات الصالحات ، بما مُنحوا من وظائف وخير . إن شاء الله تعالى وحده .

---

(١) صاحب أرزن : يذكر النسوي أنه حسام الدين الهنجباك .

(٢) يذكر النسوي أنه أسد بن عبدالله المهراني ، من قبائل الكرد .

ذكر توجّه السلطان لحرب سلطان الرّوم

تيسر فتح بلاد الكرج على يد السلطان ، وأولئك القوم الذين كانوا يتمتعون بمناعة الجانب وحصانة المعاقل وكثرة المال وشوكة الرجال ، عاشوا بأمان من تصاريف الزمان وطوارق الحدثان. وزال تخوف المشاهير والصناديد من أهل الشام والروم من مسألة القتال . بل انقشع عنهم العجز والقصور . فتبعوه مقدّمين رقابهم في سبيله . وربط فتحه لأخلاط بتلك الفتوح ، وتحول غبوق ذلك النصر إلى صَبوح . وشاعت هيبتــه في تلك الأمصار ، وعمَّت خشونته وقوته الأقطار . فتسابق ملوك الروم والشام مع مدينة السلام بتقديم التحف والهدايا ، مطايا في مطايا إلى مقام السلطنة والبلاط ، معبرين عــن اعترافهم بتمكنه . وأعاد حضرته ترحابه وإكرامه لهؤلاء العظــام الكرام . وازداد حشمه ، وعلا مقامه ، وعمرت خزائنه ، وعم عدله . وقد نظم أحــد الفضلاء رباعية وأرسلها في ذلك الوقت :

« أيها الملك لقد غدا العالم كله يحيا بأملك ، الدنيا أصبحت عبدة لك »

« إنني صابر حتى سكة العالم ، والخطبة تزيّنان باسمك » .

وقدم السلطان من أخلاط إلى مَلازجِر°د[1]، ومنها إلى «خر°تبرت»[2].

(1) اختلف المؤلفون العرب في نطقها ، فقالوا : ملازجرد ، ملازكرد ، منازجرد ، منازكرد . وكل ذلك واحد . وهو الاسم الأصلي لأرمينية .

(2) واسمها اليوم : Harbut (ت) .

وكان قد داهمه المرض . ففي ذلك الوقت كان سلطان أرزروم[1] يمد أخلاط وقت حصارها بالأعلاف والدواب ، فنعم بكثير من المبرات والإكرام . وأخبره أن السلطان علاء الدين تصالح مع ملوك حلب والشام ، واتفقوا على حربه ، وأعدوا العدة لذلك ، وباشروا بتهديده قائلين : إذا لم تعط السلطان علوفة أرزروم وهو على أسوار أخلاط فإنه لن يصبر على الثبات ويتعذر عليه فتحها. ومع شدة ضعفه وضعف قوته استطاع أن يصل إلى هناك .

وحين وصل الجيش إلى صحراء « موش » تقابل مع جيش قوامه ستة آلاف رجل قدموا مدداً من الشام ، فأحاط بهم جيش السلطان ، وقتلوهم أجمعين بلحظات . وبعد عدة أيام توافدت الجيوش الواحد تلو الآخر ؛ سلطان الروم والملك أشرف وجميع ملوك تلك الممالك وسلاطينها . ومعهم كثير من الآلات والعدة والعتاد ، ولا يحصى من الرجال . واصطفوا على أحد التلال ، وأمامهم النفاطون وقاذفو النبال من الدواليب ، يحتمون بدروع من جلود البقر ؛ المشاة والفرسان .

وعندما التهب سعير المعركة ، وحمي وطيسها هبت نسائم الحظ وتبسمت براعم الآمال للسلطان . فبرز من محفّته وامتطى صهوة جواده ، لكن صحته ما زالت واهنة ، فلم يُحسن التمسك بزمام جواده . فانطلق الجواد يسرع على غير هدى . فقال الخاصة : يجب أن ينال السلطان راحته ، فعادت الرايات لهذا السبب . وحين رأت صفوف الميمنة والميسرة هذه الحال ظنوا أن السلطان انهزم ، فتراجعوا . بينما ظن جيش الخصوم أن هذا التراجع حيلة من السلطان ، ليسوقوهم إلى الصحراء . فنادى مناد من جيشهم يأمرهم بالثبات في مواضعهم وعدم اللحاق بجيش السلطان● .

---

(١) اسم السلطان : ركن الدين جهان شاه (ت) .

حين تفرقت جموع جيش السلطان ، وتوزعوا في الأطراف لم يعد بالإمكان إعادة ترتيبهم • فلبث السلطان حيران في موضعه • فاضطر إلى التراجع نحو أخلاط • فدعا الرجال المسؤولين على محافظته وتوجه نحو « خوي » • فصرف مجير الدين أخا الملك أشرف معززاً ، وسمح لتقي الدين بالعودة بعد شفاعة أمير المؤمنين المستنصر بالله ، وهرب حسام الدين القيمري[1] • وكانت هناك زوجته شقيقة الملك أشرف[2] ، فأعادها كذلك محفوفة بستر العصمة وأنواع العاطفة والمرحمة • أما عز الدين أيبك فقد لقي مصرعه في قلعة « دزمار »[3] •

من العجيب حقاً أن يمدنا الحظ بالعون ، وفي النهاية ينقلب على عقبيه :

« إن السماء لا تقدم لنا عوناً ، وليس ذلك صعباً عليها أصلا »

« لقد تذمرت من حظي الغافي ، أسفاً أنه لم يعد صاحياً »

« لقد تثاقل الصخر عليّ أيها الفلك ، ومن عجب ألا تمطر علي ! »

ولم يكد السلطان يصحو من لطمة حظه على خده حتى جاءته الأنباء تخبره أن «جورماغون نويان» عبر نهر «آمويه» • فعين وزيره شمس الدين[4] القيمري يلدرجي على قلعة كيران ، وعهد إليه بحريمه ، وقدم إلى تبريز •

---

(١) حسام الدين القيمري الحسني بن أبي الفوارس ، غدا فيما بعد حاكم الأيوبيين في حلب (ت) •

(٢) يذكر رشيد الدين في جامع التواريخ : ٣١ أنها ابنته •

(٣) دزمار : تقع غربي قراجة داغ (ت) • وردت الكلمة في معجم البلدان مشددة الزاي •

(٤) سيكتب المؤلف لقب الوزير « فخر الدين » من الآن فصاعداً •

ومع وجود الخلاف بينه وبين أمير المؤمنين وسلاطين الشام والروم فإنه أرسل إليهم الرسل تعلمهم بعبور جيش الشاه[1] ، وبأن كثرة عدد جيشه الجرار من الجند التتار الذي هو أشبه بالنمل والثعابين لن تبقي قلاعاً ولا أمصاراً . فدب الرعب في صميم قلوبهم المتمكنة . (وقال) : فإن وليت استحالت عليكم مناهضته . وإنني أستطيع أن أجعل بكم سد الاسكندر . فليقدم كل منكم فوجاً برايته ، وبذلك نستطيع قلع أنيابه ، ويقوى جيشنا ، وقد قضينا ما علينا . أما إن تهاوتتم فسترون بأنفسكم ما سيجري :

« فلينظر كل واحد منكم إلى حياته ، فأعملوا الفكر في هذه المسألة »

وهيهات هيهات لشجيرة الخلاف التي نبتت في الصدر ، وسقيت جذورها من دماء القلوب أن تثمر غير الشوك وجراح الزمان . وماذا ترجو من كأس مملوء بالسم الزعاف وإن مزجته بخمرة بابل ؟ وهل ينجع الاعتذار والاستغفار بعد إثارة الثار وطعن الرجال وقتلهم ؟ إنه كالدواء الذي سيعطى إلى سهراب بعد موته[2] :

ولست وإن أحببت من يسكن الغضى بأول راج حاجة لا ينالها[3]

لقد بدلت قوة ملك العالم جنكيز خان وطالعه السعيد من كلمتهم وزادت من فجوة الاختلاف ، فتحول أمل السلطان إلى يأس وخيبة . وبغتة

---

(١) حين يذكر كلمة « شاه » يعني جنكيزخان .

(٢) حين اضطجع سهراب اضطجاعة الموت أرسل رستم الى كي كاوس يرجوه جرعة دواء له .. لكن سهراب كان قد مات (ت) .

(٣) البيت مذكور في شرح الحماسة : ٣/١٤٨ .

وصل نبأ حلول جيش المغول في « سراب »[1] . فأسرع السلطان ، سرعة الماء ، إلى ناحية « بشكين »[2] . وفي الليلة التي وصل فيها سقط سقف القصر ، فتطير السلطان من ذلك ، وأيقن أن شرفات مقامه في انحدار ، وحبالى أمانيه في إسقاط ، ودولته التي طال ظهورها تؤذن بالأفول ، وناعو الحين وناعبو البين يعلمونه ، بلسان الحال عن سقوط ملكه ، وطبول النوبة الملكية تدردب لملك آخر . فأظهر تجلده ، فبان كالطير المذبوح ، أو كحيوان متوحش وقع في الشبكة ، وقد وضع الصياد في عنقه الرسن وهو يضحك ويلعب ، حتى يدعه نشيطاً ذا حركة ، حتى إذا وصل الحبل إلى غايته شده عليه . وهكذا فعلت به الأيام ، حيث منحته مغلطة من الكلام . قال عزّ من قائل : « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مُبلِسون » .

وتوجه في اليوم الثاني إلى « موغان » . ولحقته جيوش المغول بعد خمسة أيام من إقامته . فترك السلطان قصره ومقامه ليلا ورحل إلى « قبان »[3] . وحين رأى المغول قصر السلطان خالياً ، عادوا أدراجهم فوراً .

وأمضى السلطان شتاء سنة ثمان وعشرين وستمئة في « أورمية » و « أشنو » . وقد بلغه أن وزيره شرف الملك يلدرجي ، الذي أوكل إليه حريمه والإشراف على قلعة كيران ، قد اهتبل فرصة غيابه وطمع في حريمه وخزائنه . وحين وصل السلطان إلى حدوده لم يخرج إليه يلدرجي خوفاً منه

---

(١) سراب أو سراو : مدينة معروفة في آذربايجان . ذكرها ياقوت .

(٢) بشكين أو بسكين (وتدعى اليوم مشكين) : ناحية معروفة في آذربايجان على حدود خلخال واردبيل .

(٣) قبان : بلدة في أرمينية الروسية ، وتدعى اليوم « كافان » .

وهلعاً • وسأل السلطان ميثاق الأمان • فأرسل السلطان إليه بوقوخان نزولا عند ملتمسه حتى يخرجه بالنصيحة أو بالعنف • لكنه ما أن وصل إلى مرابط خيل الوزير حتى احتجزوه • ولما رأى المشاهير والأعيان من أهل الديوان فصرف الوزير انفضوا من حوله ، حتى غدا وحيداً في الميدان • فقال السلطان لأتباعه : لقد رفعت يلدرجي من حضيض الضعة إلى أوج الرفعة ، ومن درك السفساف إلى ذروة الأشراف ، فكان تصرفه هذا رد الاعتراف بالنعمة • ثم أمر عبيده بأن يغيروا على القلعة ويقبضوا عليه • وبعد حين من الزمان انقضى بالتعذيب وسعاية الحساد ووشاية الأضداد أسلمه إلى الحبس الأبدي ، بل إلى زنزانة اللحد • لكنه عاد بعد مدة فندم على فعلته •

واتجه السلطان إلى ديار بكر • وحين عاد جيش المغول إلى جورماغون من غير أن يجتهدوا في متابعة السلطان لامهم وعنفهم • وقال لهم : كيف تهملون خصماً يتوارى وقد بلغ به الضعف مبلغه ، ولا تلاحقونه ؟• ثم أرسل فوراً تايماس وبعض الأعيان من الأمراء مع جماعة من الترك الممتلئين حقداً وغضباً كحقد أفراسياب من كركين[1] •

فاستعاد السلطان بوقوخان الذي كان أرسله طليعة لمعرفة تحرك المغول • وحين وصل إلى آذربايجان بلغهم أنه فارق العراق ، فلم يعثروا له على أثر ولا على خبر • وعاد بوقوخان ، من غير احتياط على أمناء الحضرة بل على أمراء الدولة ، بشَّر السلطان بغيبة المغول ، حتى يحظى بالاستبشار والخيلاء :

« فليأت المغني للملك ، فقد غدا الإيوان قطعة من الربيع »

ولستُ أحبُّ السكرَ إلا أنه يُخدِّرُني كيلا أحسَّ أذى المحنْ

(١) كركين : من أسماء الخيل المشهورة في الشاهنامة (ت) •

وروي أن المتوكل عاتب أحد خواصه حين رآه غارقاً في أمر الملاهي مقبلا على المناهي . فأجابه الرجل : إنما أستعين على الدهر بالهزل ، لأن مقاساة هموم الدنيا لا تتأتى إلا بشيء من السرور . لكن هذا الأمر مختلف عن ذاك . والخلاصة أن أركان الدولة والأعيان غرقوا مع السلطان في معاطاة الكؤوس المذهلة للنفوس ، وانغمسوا في السماع من غير استماع إلى أي عمل ، وأبدوا استعداداً لضرب الدف والوتر وليس للضرب في الوغى ، وفضلوا بطون الإناث على متون الفحول ، ومالوا إلى العبلاوات والدقاق وعزفوا عن المرهفات العتاق ، وغلت نفوسهم بالدم الصّراح وقد ظنوه خمراً. فأنّت عروق الصنج وهم يدعونها البم والزير[1] . هذا هو الملك الذي جعل الصهوة عرشه ، والسرج فراشه ، والدرع قميصه ، هو الذي كان قائداً لأبكار المعارك والقتال فغدا بطل الأبكار العون ربات الحجال . خالف ما عُهد عنه ، فبدل الطرب بالحرب ، والمدام بجراح الأيام . نسي طعن الخصم وأقبل على عسل المحبة ، رجح الطرب بالأوتار على طلب الأوتار ، اختار الكُميت العتيق وعزف عن الكميت العتيق[2] . وقال أحدهم في هذه الحال :

« أيها الملك ماذا يكون أقوى من الخمرة ؟ وماذا سيأتي بعد السكر ؟ »

« سكر الملك والعالم خرب والعدو محيط ، وماذا بعد هذا ؟ »[3]

ومضت ثلاثة أيام أو يومان ، وبغتة وضعت الليلة أطفالا طوارق . وفي منتصف الليل ، حط شيطان الجهل محل سلطان العقل ، وتحول سويداء

---

(1) البم والزير : وتران في الصنج (ت) .
(2) « كميت » الأولى : يعني بها الخمرة . و « كميت » الثانية : الجواد الأحمر .
(3) ذكر ابن طباطبا هذين البيتين في كتابه « الفخري » (ت) .

القلب إلى الجشع الإنساني ، وألجمت معاقل آراء العالـم بلجام الأهـواء النفسانية ، وأخلى السكر تدبّر الأمير والوزير ، وسيطر جيش النوم على العالم ، وغدا أغلب الرجال سكارى مشلولي الحركة ، حتى :

« عندما مضى الهزيع الأخير من الليل ، وشرعت الكواكب تودع السماء »

وقف أشبال التتار على رؤوسهم ومقدمهم « نايماس » . ومن عجب أن يأتي نايماس مع أن القاآن ندب لحرب السلطان جورماغون . فقد جمع القاآن أمراءه جميعاً ثم خاطب نايماس : دع كل أمر وتتبع السلطان . وكذلك كان . وساروا خلسة ، بعيداً عن عين الرقيب ، يدبون دبيب النمـل . لكن أورخان أحس باقترابهم ، فأسرع نحو فراش السلطان ، وكان قد غفا غفوته الأولى ، فـ :

إن الحوادث قـد يطرُقن أسحارا[1]

ونومٌ أرى فيه خيـال مسرّةٍ ألذُّ جنى من يقظةٍ تجلبُ الوسنْ

وحين تنبه السلطان من نومه ، وخامره الشك في عون القهار له أدرك استحالة التدبير . فركبه العجز وانحنت سهام الحيل . وأحس بالخطر يداهمه وبالشر ينازله . تناوله الضيف الغريب في السحر قبل أن يحل المساء . فعقد العزم على الترحال في الحال طلباً للنجاة . لكن ضيفه هذه المرة آسر الآساد ، فعرف المضيف كيف يوقظ النشاوى . فطلب ماء بارداً وصبه على رأسه ليصحو بعد تلك الحرارة . وانطلق هارباً بقلب يغلي مثل كور الحـداد وعين تقطر كالكوز المشعور ، وحوله شرذمة من أتباعه . وودع معشوقه الملك ، بـل حصد حقول حظه :

لو أغمضتْ مقلـةُ الليالي عنـا زمانـاً فَنَسْتطيبُ

« أيا يوم الشباب ما أسعد مساءك ! لقد آن يوم القيامة لي ولك »

(1) لأبي العتاهية (ت) .

حين هرب السلطان مع شرذمته أمر أورخان ألا يرفع الراية ولا يقاوم . وما هي إلا طرفة عين حتى غـدا المغول سلطان أورخـان . فركضوا خلفه كالعقاب . وحين شعروا أنهم فقدوه عادوا أدراجهم ، فأعملوا السيف في رقاب الأعيان والأجناد وأركان الملك ، حتى جعلوهم طعمة الذباب ولقمة الذئاب . وباضت عنقاء الكبرياء على رأس الخيلاء بيضة على كل رأس . وعدا فـرخ الفرح بيضة الديك[1] . فأيقنوا بزوال الأماني ، وتمزقت ثياب الحياة بأسنان الفناء . بلغوا قبل الآن في عليائهم بنـات النعش ، فأصبحوا الآن من أبنـاء النعش ، فافترشوا الهشيم والتراب :

« وعلى هذا يدور الفلك العتيق ، مرة مثل القوس وأخرى مثل النبل »

« حيناً محبة وخمرة . وحيناً حقد وسم ، هكذا يدور فلك الزمان »

وحرم السلطان المرحوم من استعادة أمانيه :

« تمزقت الدنيا في القلب نصفين من الظلم والغصة ، وخوفاً من الظلم ظل الخوف مع الروح »

وسار هائماً على وجهه ..

إن كان الأمر كذلك فكيف تبقى الدنيا على وفائها ثم تنقلب إلى جفاء ؟ لكنهم أسموا الدنيا شبكة الحبائل ، والزمان شباك الغوائل . وكما قالوا : إن القلب مركز الهموم والروح مقام الفكر :

---

(١) إشارة الى المثل : « بيضة العقر التي هي بيضة الديك يبيضها في عمره مرة . وقيل : إنما هو كقولهم بيض الأنوق ، فهو مثل لما لا يكون » (لسان العرب) .

« يا من جعلت كامل وجودي واحداً ، لا أعلم هل جعلتني في المغمة وحدي أم برفقتك ؟ »

« لقد طرق الغم فؤاد القلب فصاح القلب : ادخل ، ليس ما يفصل بيننا فأنا أنت وأنت أنا »

●

« لا أعتقد إلى متى سنتعذب ، من صروف الزمن الحالكة بنا »

« إنها ليست مرحلة الهدوء ، والاستقرار ، بل هي موسم الآفات والفن »

« العالم كله يعج بالشرور والفساد ، لأن مستقبل دولة الملك في امتحان »

« إعلم أيها النبيل أن تلك الشرور والآفات التي تحرق القلب إنما هي امرأة عجوز »

●

ومن عجبٍ يُفني التعجب أننـا — نحيل ذنوب الحادثات على الزمن

ونُنْحي عليه بالمـلام وعنـدَهُ — كعام[1] على فيه ولو رزق اللسن

وهل هو إلا كابنِ آدم عاجـلاً — وكلٌ بأسباب المنيَّـةِ مُرْتهنْ

وقد اختلفوا في أمر نهايته ؛ فبعضهم يقول إنه وصل إلى جبال آمد[2]، فهاجمه ليلاً بعض الأكراد طمعاً في استلاب ثيابه ، وأثخنوا فيه الجراح وهم لا يعلمون ما فعلوا ولا أي صيد أوقعوا . وليس هذا عجباً ففي كل غابة فيها هما[3] لا بد من وجود البوم ، وحيث يوجد الأسد لا بد من الكلب . وقد

(١) كعم البعير فهو مكعوم وكعيم : شد فاه لئلا يعض أو يأكل . وما كعم به : كعام. والكعام : أفواه الطريق (القاموس) .
(٢) موقعها اليوم في منطقة ديار بكر (ت) .
(٣) هما: طائر خرافي يقال إن كل من وقع عليه ظله رفل بالسعادة (المعجم الذهبي).

استنبط هذا الرأي من تلك الجماعة القاتلة ، فقد نزلوا المدينة وهم يرتدون ألبسته . فعرف بعض الخاصة ألبسته وسلاحه . وقد قتل صاحب آمد هذه الجماعة حين تأكد من فعلتهم . ثم أمر ببناء قبر لائق له ، فدفنوا فيه السلطان. وتقول فئة : بل كانت ألبسة أخرى امتلكها بعض أعيانه ، أما هو فقد لبس خرقة المتصوفة وساح في البلاد [1] .

وعلى أي حال فقد انتهى أمره ، وصُرع ملك الدنيا وحيداً مظلوماً . وظل اسمه سنين عديدة مطبقاً الآفاق ، من غير أن يصدق الناس موته ، ويتحدثون عن وجوده هنا أو هناك . ولا سيما في العراق فقد شغل شرف الدين علي الطَّبْرشي [2] ، وكان وزير العراق حيناً من الزمان بهذه الأراجيف، ففي كل مرة تأتيه الأنباء المبشرة بظهور السلطان في إحدى المدن أو القلاع . كما ظهر رجل سنة ثلاث وثلاثين وستمئة في مدينة « اسبيدار »[3] وادعى أنه السلطان . فشاع صيته في البلاد ، وكان ذلك في عهد « جِنْتمور » . فأرسل عدداً من أمراء المغول ممن رأوا السلطان وعرفوه ، للتحقق منه . ولما عرفوا أنه كاذب قتلوه . وفي سنة اثنتين وخمسين وستمئة وصلت جماعة من التجار إلى شاطىء مياه جيحون ، فقال واحد منهم لرجال السفينة : أنا السلطان جلال الدين . فأخذوه واستفسروا منه حقيقة حاله . ولما أصرّ على ادعائه قتلوه . والجنون فنون . وعلى أي حال فإن كل هذه الادعاءات لم تنفع ولم تجد فتيلا . و « كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه ، له الحكم وإليه تُرجعون » .

---

(١) جاء في هامش النسخة ج : وتحقق من مقتل السلطان على يدي الأكراد ؛ فقبل قتل السلطان اتجهت الملكة خاتون مع عدد من الأفراد الى بلاد الروم ، فأرسل الأتابك مظفر الدين أبو بكر رجلا يستدعي أخته من شيراز ، فتحققت من أنه هو السلطان الشهيد ، الذي قتل من غير أن يعرف .

(٢) يذكر النسوي : ١٣٠ أنه « شرف الدين علي التفرشي » وزير السلطان في العراق .. من رؤساء تفرش وهي كورة من كور العراق . وسيأتي ذكره في ختام الجزء الثاني من أجزاء الجويني (ت) .

(٣) ولعلها : أوستندار ، وقد مر التعليق (ت) .

ذكـر يمين مَلك[1] وإغراق[2]

وخاتمتهمـــا

حين فر السلطان محمد من ساحل الماء (جيحون) ، تحول يمين ملك الذي خصصت له هراة إلى هراة، ثم اتجه منها إلى غزنة على طريق «كرمسير» . وكان في غزنة محمد بن علي خربوست الغوري أميراً عليها من قبل السلطان ومعه عشرون ألف رجل . وعسكر يمين ملك على بعد منزلتين أو ثلاثة من غزنة في « سورَه » ، وأرسل إليه رسولاً يأمره : حدّد لنا مراعي خاصة ، وقد تتفق معاً لأن السلطان انهزم إلى العراق واتجه التتار نحو خراسان حتى يتكشف أمر السلطان . وكان وزير السلطان جلال الدين في غزنة كذلك ، كما كان صلاح الدين النسائي حاكم القلعة وشهرستان موجوداً فيها . فأجابه خربوست والأمراء الآخرون : نحن قوم غوريون وأنتم أتراك ، فلا نستطيع

---

(١) ذكرنا أن المؤرخين اختلفوا في ضبط اسمه ، حتى الجويني ذكره مرة أمين ملك وأخرى أمين الدين ملك . وذكره ابن الأثير : مَلك خان وكذا في طبقات ناصري . ورشيد الدين : خان مَلك ويذكر أنه كان رئيس قبائـل الأتراك القنقلي ، وهو ابن خال السلطان جلال الدين ، وابنته زوجة السلطان . وقال النسوي : فوض إليه حكومة هراة . ثم انتقل لخدمة السلطان وغدا من رجاله المعتبرين . . ثم قتله المغول في حدود سنة ٦١٨ في « برشاوور » .

(٢) واختلفوا كذلك في اسمه ، فذكروا أنه : إغراق الملك ، سيف الدين إغراق ، عراق ، بغراق . وذكره ابن الأثير فقال : « سيف الدين بغراق من الأتراك الخلج » .

أن تعايش معاً . والسلطان قد أقطع كل قوم منطقة ومراعي . وليبق كل منا حيث مقامه بانتظار ما يبدو . وترددت الرسل بين الطرفين من غير نتيجة ، وظل الغوريون على إصرارهم . لكن شمس الملك الوزير وصلاح الدين اتفقا ضد خربوست ، وقررا قتله ، وقالا : إن الغوريين يعصون السلطان في قلوبهم ، ولن يسهلوا ليمين ملك تابع السلطان طريقاً لحكم غزنة ، وجميع جيش غزنة معسكر على بعد نصف فرسخ من المدينة ، ولهم معسكر خاص .

وصمما على قتل خربوست ، فدعاه إلى ضيافتهما في أحد الحقول . وهناك فاجأه صلاح الدين بطعنة من خنجره ، خرَّ إثرها صريعاً . وقبل أن يصل نبأ قتله إلى الجيش رمياه في المدينة ، وأحكما ضبط القلعة . فتفرق الغوريون . وبعد يومين أو ثلاثة أيام قدم يمين ملك إلى غزنة وحكمها . وبعد حين من الزمان وصلت أنباء تعلن عن وصول جنكيز خان إلى طالقان بلخ . وقدم ألفان أو ثلاثة آلاف من المغول عن طريق كرمسير يمين ملك . فجمع يمين ملك جيشاً واتجه نحو جيش المغول . وحين وجد المغول كثرة عدده عادوا من حيث أتوا دون حرب . وتبعهم يمين ملك حتى بُست وتكيناباد[1] . واتجه المغول من هناك نحو هراة وخراسان ، بينما تابع يمين ملك مسيرته عن طريق قُصدار نحو سيوستان[2] . وكان قد أخذ معه شمس الملك ، فحبسه

---

(١) تكيناباد أوتكين آباد أو تكنا باد : كانت بلدة من أعاظم بلاد بُست (= كرمسير ـ ياقوت) وهي واقعة على حدود سجستان قديماً . وهي اليوم في أفغانستان على بعد ١٦ فرسخاً جنوب شرقي قندهار . وذكرت في أحسن التقاسيم « بكر آباد » ولعلها مصحفة عما ذكرنا . وطبعت في الكامل : ٢٨٢/٩ و١٦٤/١٢ سهواً : تكيا باد .

(٢) سيوستان : وردت كذلك فاليستان وباليس ، وهي اليوم في مقاطعة سيبي (ت) .

في قلعة كُجوران في بُست وتكيناباد ، بينما ترك صلاح الدين في قلعة غزنة. ولكن الغزنويين ثاروا بعد غياب يمين ملك وقتلوا صلاح الدين ومثلوا به . فنصب الأخوان القاضي رضيّ الملك وعمدة الملك من ترمذ نفسيهما على غزنة ، ثم أجمعوا في النهاية على أن يكون رضيّ الملك ملك غزنة .

وفي هذه الأثناء خرجت قبائل خَلج والتركمان من خراسان وما وراء النهر ، واجتمعوا في برشاور ، وكان قائد فرسانهم سيف الدين إغراق مَلك . فطمع رضيّ الملك في محاربتهم والانتصار عليهم ، وبعد ذلك يتسلط على بلاد الهند . وبالفعل توجه بعسكره نحوهم في برشاور . فصدم التركمان والخلج وقتل أكثرهم . وكان أخوه عمدة الملك حاكم غزنة آنئذ . فتقدم نحو غزنة كلٌ من أعظم ملك بن عماد الدين من بلخ ، والملك شير حاكم كابل ، وتبعهما جيش غوري كان متفرقاً . وحاصروا عمدة الملك في القلعة الكائنة وسط المدينة . فانشغلوا معه في الحرب بالمجانيق . واستولوا عليها بعد أربعين يوماً . وفي اليوم الذي استولوا فيه على القلعة وصل غزنة شمس الملك الذي خلصه السلطان جلال الدين من قلعة كُجوران ، في أثناء انهزامه أمام المغول وقدومه إلى خراسان . فأرسله إلى غزنة ليهيىء له أمور الاستقبال الملكية . فبشر الناس بقدوم السلطان . وبالفعل حضر السلطان بعد أسبوع إلى غزنة . فتوافدت جموع الجيش إليه . وسمع يمين مَلك ، وهو في الهند ، بخبر وصول السلطان إلى غزنة لخدمته . كما قدم لخدمته إغراق ملك يرافقه أعيان خلج والتركمان من برشاور . وكذلك أعظم مَلك والملك شير وخلق كثير من الغوريين . حتى بلغ عدد الوافدين سبعين ألفاً من الجنود . فاتجه السلطان بهذا الجيش نحو بروان على حدود باميان ، وقطع طرقاً كثيراً هناك علّه يستشف بعض الأنباء . فتعقبه جيش مغولي قوامه اثنا عشر ألف رجل ، ووصلوا حتى غزنة . ولما كانت المدينة بلا حام ولا يوجد جيش فقد فاجؤوا

الناس بدخولهم المدينة ، فأحرقوا قسماً من المسجد الجامع ، وقتلوا كل من عثروا عليه في الطرق والأزقة . وبعد أن أقاموا يوماً في المدينة أخذوا دليلاً ليرشدهم حيث اتجه السلطان . والتقوا بالسلطان وحاربوه . لكن السلطان انتصر عليهم ، فهربوا إلى طالقان حيث يقيم جنكيز خان .

وبعد انتصار السلطان نشب نزاع بين الخلج والتركمان والغوريين من جهة والخوارزميين من جهة أخرى بسبب الخيل التي غنموها . فعاد إغراق ملك وأعظم ملك مع جميع الخلج والتركمان الغوريين واتجهوا نحو برشاور . بينما عاد السلطان مع جيش الترك والخوارزميين نحو غزنة . إلا أن إغراق ملك وأعظم ملك والأمراء الآخرين مـن الخلج والتركمان حولوا طريقهم نحـو بكر هار . وكانت مقاطعة أعظم ملك ، حيث أضافهم في بلاده وأنزلهم لديه . في حين أن نوح جانـدار ، وكان أحد أمراء خلج ، وكان في حوزته خمسة أو ستة آلاف خيمة ، كان يكره إغراق ملك ويظهر له العداء . فتبعه إغراق ملك بعشرين ألفاً من رجاله نحو برشاور . وتوقف نوح جاندار في مروج «بكرهار» . وحين توقف سيف الدين إغراق ملك على بعد منزلة واحدة من بكرهار أرسل رسولاً إلى أعظم ملك : أن الصلة بيننا صلة الأب بابنه ، أنا الأب وأنت الولد . فإن كنت ترجو رضائي فلا تسمح لنوح جاندار بالإقامة بدياره ، ولا تبقه فيها . فأجابه أعظم ملك : لا أرى الصلاح في إثـارة الحروب بين الجيوش المسلمة . وركب مع خمسين ألف فارس من خواصه واتجه نحو سيف الدين إغراق ، وقصده تقريب وجهات النظر بينه وبين نوح جاندار . فاستقبلـه سيف الدين إغراق ، وجلسا للشراب معاً . وبدأ أعظم ملك حديثه عن نوح جاندار وشرع يتشفع له . لكن إغراق ملك كان يرفض شفاعته .

ونهض سيف الدين إغراق ، وهو في حال سكره ، بغتـة واتجه نحو معسكر نوح جاندار يرافقه مئة من الفرسان . فظن نوح جاندار أنه قـدم لعرض مودته عليه ، فخرج لاستقباله ومعه أبناؤه . لكن إغراق ملك السكران

شهر سيفه ليضرب به نوح جاندار . فهجم عليه رجال نوح وقطعوه إرباً إرباً ، وحين وصل نبأ قتله إلى معسكره قالوا : إنها خديعة افتعلها أعظم ملك لأنه متفق مع نوح على قتله . وعلى هذا الظن تمّ قتل أعظم ملك . ثم هاجموا معسكر نوح وقتلوه هو وأبناءه . وقد نجم عن هذه المعارك عدد كبير من القتلى من جميع الأطراف . كما دخل الغوريون في هذه المعمعة وقتلوا عدداً وافراً من الرجال . وكان في تلك الأنحاء تكاجك وسيد علاء الملك قندز ، فتبعوهم بأمر من جنكيز خان . وكان تكاجك قائد جيش المغول ، في حين أن علاء ملك كان قائد المشاة . فأباد جيش المغول بقايا جيوش خلج والتركمان الغوريين . وقد بلغ عدد القتلى عشرين أو ثلاثين ألفاً منهم . ثم اتجهوا نحو السلطان جلال الدين ، وبأقل من شهرين أو ثلاثة أشهر أجهزوا على رجاله وفرقوهم . أكان ذلك فيما بينهم أو كان بقوة جيوش جنكيز خان ، حتى لم يبق لهم أثر .

ذكر تركان خاتون والدة السلطان

أصلها من القبائل التركية التي تدعى « قَنْقلي »● ، ويعتز الترك بانتسابها إليهم . وقد تقووا في عهدها ودعوا « الأعاجم » . وحظوا بكثير من عطفها عليهم ورأفتها تجاههم . وكانوا حيثما مروا زرعوا الخراب والدمار، وتحصن السكان في قلاعهم وخلف أسوارهم خوفاً منهم . والحق أن ظلمهم وفتكهم من أهم أسباب زوال دولة السلطان :

قوم ترى الصلوات الخمس نافلةً وتستحل دم الحجاج في الحرم[1]

كان لتركان خاتون بلاط خاص بها وأركان لدولتها توزع منه وتقتطع. كما أن نفوذها كبير على السلطان وعلى أملاكه وأعيانه . كما كان لتركان خاتون مجالس أنس خاصة تقام سراً ، ويؤمها كثير من أبناء أسرتها القديمة وليسوا من الأسرة السلطانية. وكانت كلما سمعت بملكٍ استولى على مقاطعة أو ولاية استدعته ضيفاً إلى خوارزم ، وأغرقته ليلاً في نهر دجلة . وقصدها من ذلك أن يتوسع حكم ابنها (السلطان) من غير عناء ، وتستمر إدارته من دون غبار . ولم تعلم أن الله تعالى كذلك يجازي في هذا العالم ، وهو في آخرته يحاسب الجميع :

---

(١) من قصيدة للمتنبي . وقد بدل المؤلف الكلمة الأولى ، وهي في الديوان «شيخ»، مع ما يتبعها من الضمائر .

« مَن كنتَ : عالماً أو كافراً أو ظالماً ، فإنه يسجل عنك بقلم دقيق » .

حين عبر السلطان مياه ترمذ هارباً أرسل إلى خوارزم رسولاً يطلب من والدته وحريمه الأخريات أن يتجهن نحو مازندران ، ويتحصنّ في القلاع . وانطلقت الأم تبعاً لوصية ابنها ، وأخذت معها الأطفال ، وكانوا أحفادها ، وباقي الحريم ، بينما تركت الجيوش والأعيان في خوارزم . وفي أثناء سيرها أمرت أن يغرق بعض الأعيان المحليين ، من الذين كانوا موقوفين لديها ، عدا من لم يكونوا على عداء مع السلطنة . واتجهت بعد ذلك نحو مازندران ومعها أولادها وخزائنها . وقد قام على خدمتهم ناصر الدين الوزير حين مروا بد هستان . وحين بلغ السلطان مازندران أرسل الترك مع الحريم إلى قلاع لارجان[1] وإيلال[2] . ووصل سُبِتاي إلى مازندران في أعقاب السلطان ، فأمر بمحاصرة القلاع المذكورة . فاضطرت إيلال إلى الماء ، لأن الناس لم يعتمدوا على خزن المياه متوقعين أمطار السحب . وبكاء السحب يُضحك فم الأهالي . لكن المطر عاندهم وقت حصار المغول لهم ، كما عاندتهم دولتهم :

« إنه هو السلطان الذي يأمر الفيلة بنقل المياه إلى الأرض ، الهاطلة من الجو عذبة » .

وبعد عشرة أيام أو خمسة عشر لم يبق لديهم قطرة ماء واحدة . فاضطرت تركان خاتون ومن معها من النساء وناصر الدين الوزير إلى النزول من القلعة . وفي اللحظة التي خرجوا فيها من القلعة فتحت سحب السماء وأرسلت نبالاً خلف نبال وراحت تبكي باستمرار . إنها مثل حكاية بطة إذ قالت للسمكة:

---

(1) لارجان : واقعة في منطقة آمُل ، على بعد خمسين ميلا من طهران الى الشمال الشرقي (ت) .

(2) إيلال : تقع عند نبع مياه نهر « ساري » (ت) . وفي تاريخ النسوي : ٦٠ « وهي من أمهات قلاع مازندران » .

« حين نموت ما يهم أن يكون في العالم بحر أو سراب ؟ »[1] .

ونقلوا تركان خاتون والنساء والأولاد وناصر الدين إلى طالقان لمقابلة جنكيز خان ، ومثلوا بين يديه في شهور سنة ثماني عشرة وستمئة . فعذبوا ناصر الدين ، وقتلوا الأطفال . أما النساء من بنات السلطان وأخواته والخواتين التركيات المرافقات لهن فقد أمرهن جنكيز خان يوم الرحيل بالنواح على السلطان .

حين رمى السلطان جلال الدين بنفسه في الماء كانت نساؤه يوزّعن بين المغول . فأرسلوا تركان خاتون إلى قره قورُم ، فأمضت هناك بضع سنوات في الآلام ثم ماتت في شهور سنة ثلاثين وستمئة . وأهدوا جغتاي اثنتين من البنات، فاحتفظ جغتاي بواحدة جارية له،بينما أهدى الأخرى إلى قطب الدين حبش عميد . وممن وُهبن إلى معسكر آخر كان لعميد الحاجب نصيب بواحدة.ومن تبقى بعد ذلك من حريم السلطان جلال الدين أخذه جورماغون، وكانت طفلة عمرها سنتان دعوها خاتون كذلك . فأرسلها إلى القاآن . فأمر القاآن أن تربى الطفلة في البلاط .

وحين توجه ابن ملك العالم هولاكو إلى الممالك الغربية أمر منكوقاآن أن تسير خاتون في ركاب هولاكو ، حتى يهديها إلى شخص لائق . ولما كان صاحب الموصل ذا سوابق وخدمات ، وذا صفات ممتازة فقد أهديت خاتون إلى ابنه الملك الصالح داود . فتزوجها طبقاً للسنة والشرع ، وجهزت طبقاً لعادات المغول . وكان ذلك في شهور سنة خمس وخمسين وستمئة .

---

[1] من رباعية للخيام بتصرف (ت) .

ذكر أحوال السلطان غياث الدين

كان اسمه «بيرشاه»[1] ، وكان ملك كرمان ، لكن العبدَ يدبِّر والله يقدِّر . فحين ذهب أبوه من العراق إلى مازندران أرسل نساءه إلى قلعة قارون ، وترك هناك غياث كذلك . حتى أنار الله برهان السلطان محمد في جزائر آبَسْكون غريق بحر الهلاك ، وعاد جيش المغول ، فخرج من القلعة . ولما كان أبوه قد عينه على كرمان فقد اتجه إليها . كان غلامه شجاع الدين أبو القاسم ، من جملة ملك زُوزَن ، حامي الأسوار والقلعة . فحين رأى الأوضاع مضطربة منع عنه القلعة ، بينما أرسل إليه محطات استراحة معتذراً بأن هذه القلعة لا يمكن تركها من غير حماية . وأنا ما زلت عبدك القديم ، وبأمرك جلست هنا .

أدرك السلطان غياث الدين أن غلامه في ضلال فلم يرغب في مكاوحته . فلوى عنانه ، ومن معه ، وجهة العراق . فتجمع لديه كل من كان مختفياً . كما اتصل به بَراق الحاجب وأغول ملك ، واتجهوا جميعاً لحرب الأتابك سعد . وهاجموه في معسكره الذي يدعى « دِينه » . لكنه هرب منهم . فظفروا من جيشه كثيراً من الدواب على اختلاف أنواعها وعادوا . وصدر من وزيره تاج الدين كريم الشرق ما أغضب براق الحاجب ، فترك الجمع واتجه بجيشه نحو الهند .

وفي سنة تسع عشرة وستمئة اتجه غياث الدين لحرب فارس . فأخلى

---

(1) بيرشاه : أي الملك العجوز (ت) .

الأتابك المدينة وخرج[1] . فأغار جيش غياث الدين على البلدة ونهبوهـا ، واتجهوا منها إلى خوزستان . وبعد نقاش مع مظفر الدين وجـه السَّبع[2] تصالحا وافترقا . وحين حل الشتاء قرر الإقامة في الري . وبغتة وصل السلطان جلال الدين كالأسد الذي هاجم قطيع الغزلان ، ونزل في معسكره . كـان السلطان غياث الدين قد أخبر عن قدومه لكنه أحب أن يتأكد . وفي الصباح ذهب هو وأمراؤه وأعيانه لزيارته وتقديم واجب الاحترام . فمن كانوا أصحاب حكمة ، ويرغبون من قلوبهم في خدمته اتجهوا نحوه وأولوه التقدير الخاص به . أما من لم يكونوا على صواب فقد أثاروا الفتن . فأمر رجاله أن يقتلوهم جميعاً قرب مقامه .

ومكث السلطان غياث الدين مع جمع من خواصه على خدمة أخيه . فنظر إليه السلطان بعين الأخوة الشفيقة . كان لغياث الدين ضابط ، تـرك خدمته وقصد خدمة الملك نصرة بن خرميل[3] . وفي أحد الأيام ، وفي أثنـاء جلسة نشاط وشراب سأل السلطان غياث الدين ابن خرميل عن سبب السماح لضابطه بالعيش تحت كنفه . كان الملك نصرة من ندماء السلطان جلال الدين المقربين ، ومن أمرائه ومحل اعتماده ، وكان يمازحه في أثناء خلوته ، ويقول له ما يضحكه . وأجابه الملك نصرة على سبيل الدعابة : يحتاج الضابط إلى خبز حتى يؤدي خدماته . لاحظ السلطان جلال الدين تغير ملامح أخيه (إثر سماعه

---

(1) لعله يقصد بالمدينة « شيراز » ، لأنها عاصمة فارس (ت) .

(2) وجه السبع : كان عبداً تركياً من مماليك الخليفة الناصر .

(3) لم يكن نصرة الدين بن محمد ابناً لخرميل بل كان حفيداً له ، فقد كان ابنه حسن . وكان في خدمة قُباجه قبل اتصاله بالسلطان جلال الدين (النسوي : ١٤٦) .

السلطان غياث الدين بقية يومه حتى آخره ، وغلب عليه السكر ، فعاد . وفي أثناء مروره بمنزل الملك نصرة أرسل إليه رسولاً يعلمه أن ضيفه منتظر بالباب، هذا الجواب) ، فأشار إلى الملك نصرة بإيماءة من عينه أن يخرج . ومكث فخرج إلى غياث الدين وأنزله من على صهوة جواده ، ودخلا المنزل ، وأعدا مجلس شراب . ودارت الكؤوس بين الاثنين حتى غرقا في سكر عميق . فأراد السلطان غياث الدين أن يعود . وعلى حسب العرف أركبه الملك نصرة وسار قليلاً في ركابه ولكن بغتة طعنه السلطان غياث الدين بخنجره ، فمزق له طرفي كتفيه[1] . وصرخ : لقد قتلوا الملك . وسرعان ما قذفت النبال والحجارة من سطوح المنازل . فأعدى غياث الدين جواده ، وقفز من ذلك الحي ، وقصد منزله . فأعلم السلطان جلال الدين الأمر فوراً . فذهب لعيادته في الصباح الباكر،وأمر استقدام الجراحين لكن جراحه كانت عميقة فلم يستطع الجراحون إنقاذه لأن السكين دخلت بين العظام . وسلم روحه بعد يومين . فأمر السلطان جلال الدين الأمراء جميعاً والأعيان والحشم وأركان الدولة والخدم وأعيان مدينة إصفهان أن يعلنوا العزاء ويلبسوا الحداد عليه . ولقد تقاعس غياث الدين عن زيارة أخيه مدة أسبوع خجلاً من فعلته الشنعاء . وبعد ذلك أمر السلطان جلال الدين أن يحضر إليه . فطلب من الأمراء أن يعتذروا باسه للسلطان . وتوسطت فئة معتبرة في الأمر ، وأحضروه إلى السلطان . لكنه من فرط حيائه وأسفه لم يجرؤ على رفع رأسه ، وتلعثم في اعتذاره .

ومضت بضعة أيام ، وما زال على خجله ، متخوفاً من أخيه . وحين بلغ تاينال أبواب إصفهان ، وجهز السلطان جلال الدين جيشه ، عاد غياث مع خواصه ، قاصداً خوزستان عن طريق اللور . وكان تصرفه الصبياني هذا

---

(1) يذكر النسوي طريقة أخرى لمقتله .

سبباً في تألم السلطان منه . حتى إذا دنا من ديار أقاربه (عن طريق زواجه) هزارسف والأمراء الآخرين أعزوه وأكرموه . لكنهم توجسوا خوفاً من السلطان (جلال الدين) ، فرأوا الصلاح في إبعاده عن ديارهم . فترك أمه وأمراءه في تستر ، وكان قد تسلم هدايا عديدة من الخليفة ، واتجه نحو قلعة ألموت . فأقام هناك رَدَحاً من الزمان ، كان فيها ضيفاً معززاً لدى علاء الدين صاحب ألموت، حيث أكرمه وعظمه ،وأنزله المنزل اللائق بابن ملك. لكنه ، ومن غير إعلام ، رحل عن ألموت ، وقصد خوزستان، فأرسل إلى براق الحاجب رسولاً إلى كرمان يعلمه عن دنوه . وجرت بين الاثنين مواثيق ، واتفقا على موعد محدد يلتقيان فيه في صحراء « وَرْكوه »[1] . واستقبله براق هناك وكان معه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف رجل. وهناك وضعا الشروط بينهما . ولم يكن مع السلطان أكثر من خمسمئة من خواصه . وكان قد أدخل في رأس براق أن يتزوج أم غياث الدين . فرفع من مقامه ، وجالس السلطان على بساط واحد ، وهو لا يعدو أن يكون أحد خدمه . وخاطبه بلفظ « الابن الأعز » . ثم أرسل إليه مَن يخطب والدته منه . ولما لاحظ السلطان اهتمامه ، وحتى يتدارك الأمر ، فوّض أمر القبول إلى أمه . لكنها، بعد الامتناع والجزع وافقت على عقد القران . وبعد إلحاح من وصيفاتها وافقت على ارتداء درع تحت قبائها[2] ، وذهبت إلى المنزل ، وتمت مراسيم الزفاف . ووضعت روح الفردوسي هذه الحالة بعبير فردوسي حتى كأن هذا المعنى قيل في هذا الوضع الخاص :

---

(1) وركوه : المراد بها « أبرقوه » وأهل فارس يسمونها وركوه ومعناه فوق الجبل (ياقوت) .

(2) لم يوضح المؤلف سبب تخوفها ولبسها الدرع (ت) .

« حين يختفي شجـر السرو من مكانه ، يحتل العشب موضـع السرو الشاهق »[1] .

ومن اللائق المناسب جداً أن نذكر هنا بيتاً للأديب الظريف فريد الدين البيهقي أنشده بمناسبة رجل تسلم دست الوزارة بعد شرف الملك :

« ارفع رأسك من مكانك لترى ، أي وضيع جلس هنا مكانك »

وحين وصل السلطان غياث الدين إلى المدينة وأمضى فيها بضعة أيام قدم عليه اثنان من أقرباء بَراق وقالا له : إن براق ليس أهلاً للثقة . لقد وجدنا فرصة لنكتشفه . أنت السلطان ونحن عبيدك ومطيعو أوامرك . لكن الطيب القلب الحسن الطينة لم يسمح لهما بنقض المواثيق والأيمان ، أو هجر هـذا العمـل :

« لا تسمح للطافة بالتدخل دائماً ، اعبس حيث يتطلب الأمر ذلك »

« فإن لم يتحقق المراد باللطافة ، فالصرامة أكثر نفعاً من النعومة في هذه الحـال »

لكن الوقت حان لزوال ملك أسرتهم ، وحلول دولة أحد الثائرين عليهم ؛ وكان أحد غلمان غياث الدين المقربين . وقد صرح بذلك لبراق في إحـدى خلواته . وفي الحال تباحث السلطان غياث الدين مع أحد أقربائه في هذا الأمر واتفقا على إحضارهما . وأمر أولاً أن تقطـع أعضاؤهما قطعة قطعة حـال وصولهما إليه . ثم سجن كل من له علاقة بهما . وبعـد مضي أسبوع أو اسبوعين ربطوا السلطان من رقبته وقصدهم خنقه ، فصرخ : بعد كل هذا ، ألم نضع عهداً بيننا على ألا يحارب أحدنا الآخر ، فكيف تقدم على نقض العهد من

---

(1) البيت من الشاهنامة بتصرف (ت) .

غير أن أسيء التصرف ؟ وحين سمعت الأم صوت ابنها ، وعلمت أنهم ربطوا رقبته بحبل لم تستطع أن تحبس عويلها وبكاءها،فعلا نشيجها من كبد حرّى. لكنهم خنقوه • وعلى هذا المنوال أوردوا الجيش جميعه تنور البلاء• وخالفوا العهود ونقضوا الأيمان وقذفوا التراب في عين العهد :

رضوا بصفات[1] ما عدموه جهلا   وحُسن القول من حسن الفَعال

أيا أيها الفلك الدوار كم فيك شعوذة ومكر ؟ وإلى متى الظلم والجور؟ أترمي كل سلطان في أحبل شيطان ؟ وتجعل كل لئيم أميراً ؟ وتوقع كل ملك في قعر بئر ؟ وترفع كل حقير من موقع المذلة إلى سرير العزة • فاتعظ أيها الصديق الغافل حتى لا تقع في حبال النفس الأمارة • اعتبر بهذه الأحداث والأخبار ، وانتبه من الزلل حتى لا يطير رأسك إلى دار البقاء :

كفاك عن الدنيا الدنيّة مَخْبرا   عُلوُّ مَواليها وحَطُّ كرامها
وأنّ رجال العزّ تحت مَداسها   وأنّ عبيد العر فوق[2] سَنامها

« كل سهم ينطلق من صنارة القضاء والقدر ، لا يصده إلا العزيزان : العين والصدر »

« كل محنة أو غم يحلان من الفلك ، لا يحطان إلا على مساكن المساكين الغرباء »

« كل من دخل الباب كيف يغدو آخر الليل ؟ يغدو التعس الغريب بلا مأوى ولا باب »

«الحسرة الحرّى المنبعثة من رأس الغريب،نهايتها الهاوية كذلك الشرر»

« العبرات التي يرسلها الغريب من عينيه ، هي أشبه بالصديد أو بدم الكبد »

« فلا تسخر من حال الغرباء ، فأنت لا علم لك بمن أصابتهم الفجائع »

---

(١) لم يتيسر للمحقق تصحيح المصراع الأول •
(٢) العر(مثلثة العين):الجرب، ورجل عر بين العرر والعرور : أجرب (القاموس)•

ذكـر السلطان ركن الدين

حين عاد السلطان محمد من العراق ندب ابنه السلطان ركـن الدين غورسانجي[1] ملكاً على العراق ، ووجهه بأهبة وعدة لائقين لهذا الملك من هذا السلطان . وأرسل معه عماد الملك ساوه أتابكا ومدبراً للمملكة . وحين وصل إلى الري اتفق الأمراء المحليون في العراق على معارضته وعصيانه . فأرسل السلطان محمد شرف الدين أمـير المجلس ، وكان خادماً ، بجيش مدداً له . واستطاع بعد صراع عنيف أن يظفر بهم ويأسر أكثرهم من غير أن يؤذي واحداً من هؤلاء الأمراءأو يصيبه بمكروه . ومع أن قوته كانت كفيلة بقتلهم إلا أنه أبقى على حياتهم وعفا عن هفواتهم وزلاتهم ، وحدد لكل واحد منهم إقطاعه وولايته . فأطاعوه لما لقوا منه من رأفة وعفو ، وطهّروا مافي ضمائرهم من نفاق . حتى ترامت الأنباء بانهزام السلطان محمد من ما وراء النهر وعودته . فأرسل إليه عماد الملك يدعوه لزيارة العراق على أمل تجهيز جيش منه لمساعدته . واستقبل ركن الدين أباه . ولما لم يتيسر لهما إعداد الجيش ، وتوجه السلطان نحو مازندران ، طمح ركن الدين في

---

(١) ورد هذا الاسم بأشكال مختلفة في كثير من المراجع ، ولم يتضح رسمه بشكل قاطع . إلا أن بعض القدماء المعاصرين أكدوا ما رسمناه . فالنسوي : ٢٦ يقول : « وكان سبب تسميته عور سانحى (كذا) أنه ولد يوم وردت البشارة على السلطان بتملك الغور » . وظل القسم الثاني من الاسم غامضاً ، بينمـا اكتفى المؤرخون بتسميته بلقبه « ركن الدين » . وظل الإخوة الثلاثة : جلال الدين ، غياث الدين ، ركن الدين غير معروفي الأسماء .

احتلال كرمان • ووصل إلى « كواشير » بثلة من خواصه • وكان هناك عدد من أفراد جيش ملك زوزن ، وحين علموا بدنـو الجيش هربوا من مواقعهم • إلا أنهم حين تثبتوا من أن القادم هو السلطان ركن الدين بادروا إلى خدمته ، وبرز الناس لاستقباله من كل زاوية • وفتح خزانة ملك زوزن، وكانت هناك ، ووزعها على جنده • واتجه من هناك نحو العراق ثانية • وما أن وصل إلى إصفهان حتى تجمـع لديـه شذاذ من الجيش ومتفرقون من الأمراء ، فتقوى بهم • لكن قاضي إصفهان أحس بتضعضع أمنه ، فانعزل عنه واحتاط للأمر • كما أن السلطان ركن الدين لم يجـد صلاحاً بدخول المدينة ، فتراجع عنها وعسكر خارجها ، بينما كان جيشه في حركة دائبة بين المدينة وخارجها • واستطاع القاضي أن يثير الشعب بتحريض الشعب ، وباشروا برمي النبال والحجارة من أعلى المنازل حتى قتل وجرح قرابة ألف رجل • كما أن جيش السلطان قتل عدداً من أفراد الشعب • ولهذا السبب رحل ركن الدين عن إصفهان واتجه نحو الري ، فأقام فيها قرابة شهرين •

وحين وصل جيش المغول بقيادة •• [1] مرة أخرى هرب إلى قلعـة « فيروز كوه » فحاصروها • واستمر حصارهم لها خمسة أشهر أو ستـة أشهر حيث أنزلوه من الحصن • وقد أجبروه على الركوع والانحناء لكنه أبى الخضوع لهم • وفي النهاية قتلوه وقتلوا كل من كان معه في القلعة •

ما هذا التلاعب ؟ إلى متى تستمر ألاعيب القدر من أسفل قدح الفلك السحري بخفة لا يكاد المرء يرى يديه ؟ فهو يدس السم في كأس ضحيته دون أي خطأ ! أيهذا الصديق إن هذا الداء لا علاج له ، فلا تتدخل كيلا تضار • وضع قدمك ثابتة في مركز الاستسلام ، وثق بالله حتى لا تنهار ، كما لا تتقدم خطوة (بغير حق) لا تزلق قدمك •

---

(1) بياض في الأصل •

ذكـر استخلاص نواحي كرمـان
وأحـوال بـراق الحاجب

كان براق الحاجب وأخوه خميـد بور من القراختاي . وفي عهـد خان قراختاي أرسل خميدبور رسولا إلى السلطان عدة مرات ، إلى أن أسر تاينكوطراز وقدموه للسلطان تقرباً . وهكذا وبالتدريج غـدا خميدبور أميراً ، وبراق حاجباً . وحين ذهب السلطان إلى بخارى ترك خميدبور في ما وراء النهر مع عدة آلاف من الرجال . لكنه توفي في مراحلـه الأولى . كما أن براق اتجه إلى حدود العراق واتصل بغياث الدين ، وغدا من أتباعه ، ثم من كبار أمرائه ، وتلقب بقتلغ خان . وبعد أن وضعت له العهود والمواثيق تسلم إمارة إصفهان . وحين وصلت أنباء اقتراب جيش المغول بقيادة تولان جربي[1] استأذن غياث الدين بالتوجه نحو إصفهان ، ومن ثم التوجه لفتح الهند عن طريق كرمان بجيشـه . وحين بلـغ جيرفت[2] وكمادي[3] نصب فتيان قلعة جواشير عليهم شجاع الدين أبا القاسم ، وطلبوا إليه أن يتعقب براق ويغير عليه . فجند عبيداً من الختا ، واتجه نحوهم بخمسة آلاف رجل

---

(١) وورد اسمه كذلك في الكتب : طولان جزبي ، تولون جربي ، طولون حربي ، كان أحد القواد المعتبرين لدى جنكيزخان ، وأميراً لألف جندي ، وابن زوج أم جنكيز خان . وجربي : أي ذو القلب السليم والطاهر الذات وهي كثيرة الورود مع الأسماء المغولية .

(٢) خرائب جيرفت معروفة باسم « شهر داقيانوس » (ت) .

(٣) كمادي : إحدى ضواحي جيرفت (ت) .

أو بستة آلاف . فظن أنهم وقعوا في شباكه ، أو أنهم سماط معد لطعامهم .
حتى إذا دنوا وظنوا أنهم احتووهم أمر براق الحاجب أن يلبسوا النساء
ثياب الرجال ويتأهبن للحرب . وانتظم الجيش بأربع فرق ، وبرزوا عليهم
من جهاتهم الأربع . كان في جملة جيش شجاع الدين فوج من الترك
فانسحبوا من جيشه وانضموا إلى براق بحكم جنسيتهم . وكان بقربهم
قلعتان الأولى « حرق » والأخرى « عباسية »[1] ، فحاولوا أن يحتموا
بهما ، فاتجهوا نضوهما ، لكن أتراك براق أسرعوا كالبرق البرّاق، وفرقوهم
وقتلوا كثيراً منهم . لكن شجاع الدين احتمى بالقلعة مع بعض الرجال .
فحاصروهم يوماً أو يومين . ولما كانت ذخيرتهم ضئيلة فقد خرجوا من
القلعة ، فسجنوا شجاع الدين وكبّلوه بالحديد ، ثم عادوا إلى جواشير .
وأحضروا شجاع الدين إلى باب القلعة حتى يسلمهم ابنه القلعة حفاظاً على
روحه . لكن ابنه لم يعبأ بتهديدهم فقتلوه . ثم حاصروا القلعتين . وفيما
هم كذلك نزل إليهم أحد الحراس وقال لهم : سأدلكم على طرف من القلعة
غير محمي ، وأدخل بعض الجيش منه . فأغراه براق ووعده خيراً ، غير أنه
لم يطمئن لكلامه تمام الاطمئنان ، فطلب منه وثيقة مكتوبة بذلك . وفي
الليلة الثانية ذهب الرجل إلى القلعة ، وأنزل امرأة محجبة[2] من القلعة ،
وفتحت الباب الذي اتفقوا عليه ، فدخل منه الرجال . وعند الصباح قرعوا
الطبول وصرخوا ثم نزلوا من القلعة وفتحوا الباب ، فأتبعهم براق بأحماله
وعتاده .

---

(١) الاسمان غير معروفين شكلا ومكاناً (ت) .

(٢) لم يتضح لنا قصد المؤلف من قوله « يك سر بوشيده » ، فالمعنى : رأس مغطى فهل يقصد رجلا مقنعاً أو امرأة محجبة ؟ وكذلك أشكل الأمر على بويل الإنكليزي (ت) .

كان في القلعة ابن شجاع الدين فحاصروه • وبغتة وصلت أنباء وصول السلطان من جهة بلاد الهند • فأرسل براق الحاجب على الفور النزل ، وأعد فيها سبل الراحة • ثم اتجه نحـوه لاستقباله ، وقـدم إليه إحدى بنـاته (للزواج) • وبعد أن استراح السلطان وأتم عقد القران أرسل رسولا إلى ابن شجاع الدين يعلمه بوصول السلطان ويطلب حضوره • فأجاب الرسول: إنني لا أطمئن إلا إذا رأيت مظلته بعيني • فاتجه السلطان نفسه إلى القلعة • وفوراً خرج من القلعة وبادر للمثول بين يديه ، ومعـه أنواع عديدة من الهدايا وسيف وسوط • فعطف عليـه السلطان وأولاه لطفه • ثم دخـل السلطان القلعة •

وعجل براق لخدمـة السلطان • كان السلطان في ظاهر القلعة يتسلى بالصيد مع أكثر رجاله في أحد الأيام • ولما لاحظ أن براق الحاجب لم يخرج معه مدعياً المرض أدرك أن وراء تخلفه لأمراً • فأرسل إاليه رسولا قصـد اختبار توجسه منه ، وادعى السلطان أنه يرغب بحضوره ليستشيره في بعض المهمات الطارئة • فرد عليه بقوله : لقد استخلصت هذه النواحي بسيفي ، ولا مكان هنا لمقر عرش السلطان ، ولن تترك هذه القلاع من غير أيد أمينة • وإنني عبدك القديم ، وقد برهنت على خدماتي كثيراً • والآن وقـد أنهكتني السنون ، وشلت حركتي ، أرجو أن أظـل في هذه القلعـة مشغولا بالدعاء للدولة الهمايونية • وإن أراد السلطان القدوم إلى القلعة فلن يجد أبوابها مفتوحة •

ولما كان السلطان في وضع نفسي غير مناسب رد عليه بجواب لطيف ، واتجه نحو شيراز • وهكذا تقوى براق الحاجب ، واستولى على المناطق المجاورة جميعاً ، وكثرت عدته وعتاده • وبعـد أن استعان بـه السلطان

غياث الدين ، وأمّنه « كالمستجير من الرمضاء بالنار »[1] قتله . ثم أرسل رسولا إلى أمير المؤمنين يعلمه دخوله الإسلام ويلتمس تشريفه بلقب السلطنة . فعاد الرسول محملا بالموافقة وبتلقيبه « قتلغ سلطان » . وتتابعت مراتب تمكنه ، وازداد رجاله وفرسانه . إلى أن شغل الأمراء بمحاصرة سجستان[2] ، فأرسل إليه قائدهم طاير بهادر رسولا يدعوه فيه إلى الطاعة ويطلب منه جيشاً ومدداً . لكن براق الحاجب كان رجلا داهية ؛ فقد أيقن أن الحكم يتحول شيئاً فشيئاً ليغدو بيد أبناء جنكيز خان لذلك أبدى الخضوع والإذعان لدى تلقيه الرسائل ، ووقى نفسه من غائلة الفتن بالخشوع والخضوع ، فأجابهم : إنني وخدمي أكفي حكم سجستان من غير أن أضايق الجيش المغولي . وإن العمر قد طال ، والقدرة على الحركة استحالت ، لذا فإنني مرسل إليكم ابني عبداً على الفور . ونفذ بالفعل ما قاله . وأرسل ركن الدين خواجه مبارك على جناح السرعة في شهور سنة ...[3] إلى قاآن .

وقبل أن يصل ركن الدين إلى مقصده وصلته أنباء وفاة والده وقيام ابن عمه قطب الدين بمصالح كرمان . ولم يتوقف بل تابع مسيرته نحو القاآن . وعلى عادة القاآن المعهودة فقد بذل له أنواع مرحمته وعاطفته . وبالنظر إلى سبقه بالوصول إلى خدمة القاآن ورؤيته فقد منحه حكم ممالك كرمان ، وأصدر أمراً بتلقيبه « قتلغ سلطان » على لقب أبيه وعين عليه مربياً هو جينقاي ، كما أمر باستدعاء قطب الدين إليه لملازمته .

---

(١) مثل ، وهو عجز لبيت معروف ورد ذكره في حرب البسوس (مجمع الأمثال في المثل : أشأم من البسوس) .

(٢) سجستان : مقاطعة ، ولعله يقصد قصبتها « زرنج » (ت) .

(٣) بياض في الأصل . ولعلها كانت سنة ٦٣٢ ، أي قبيل وفاة براق الحاجب .

وخرج قطب الدين بأحماله وأثقاله في أثناء عودة قتلغ سلطان متخذاً طريق خويص[1] حتى وصل إلـى زوزن ، واتجه من هناك نحـو القاآن . وأمضى في خدمته حيناً من الزمان ثم ذهب إلى الختا وانضوى تحت خدمة محمود يلواج ، الذي أولاه بعطفه ورعاه رعاية الأب لابنه وأعزه وأكرمه . كما أن كيوك خان حين عينـه القوريلتاي استمر على مراعـاة قطب الدين سلطان . وكان يرى أن من المصلحة تعيين قطب الدين على السلطنة . ولما كان جينقاي مربي ركن الدين فقد كف يده عنه . ثم انتقل إلى حكم القاآن ، ليغدو ملازماً للصاحب يلواج . وأنهى إلى ركن الدين أمـره كله إليـه ، ليتصرف بنواحي كرمان ، على أن يحول الضرائب والدواب عن طريق الأمراء المخصصين لهذا .

وحين جلس منكو قاآن علـى سرير العرش وفد قطب الدين برفقـة الصاحب يلواج لمقابلة القاآن ، فأولاه عطفه ومنحه وسام الرضا ، فغمرته شفقة ملك العالم إذ منحه حق سلطنة تلك الأصقاع[2] ، وعين لـه مرافقاً مغولياً . وحين وصلا إلى هراة أرسل في البدء رسولاً إلى ركن الدين يخبره بما منحه إياه ملك العالم وما تعطف عليه به . وحين أدرك ركن الدين أن الوضع انقلب عليه أعاد الرسل . وفي شهر رمضان من سنة خمسين وستمئة نقل ما قدر عليه ، ورافقته حاشية قطب الدين سلطان بحيث توجه نحو اللور. واتصل به في يزد ابن أخته علاء الدولة ووالدته . واتفق الجميع على الذهاب إلى بغداد لزيارة أمير المؤمنين[3] . فأرسلا رسولاً إليه من غـير أن يقدروا صلاح أمرهم في هذا الذهاب حتى لا يزيدوا من مقدار وحشة القاآن عليهم .

---

(١) خويص : هي اليوم « شاه داد » الى الشرق من كرمان (ت) .
(٢) يقصد كرمان حيث يحكم أخوه ، كما سيأتي .
(٣) بياض موضع الاسم ، ولعلها في عهد المستعصم الذي حكم من ٦٤٠ ـ ٦٥٦ .

وترك ركن الدين أثاثه وحاجياته في لورستان واتجه بشخصه نحو الخليفة . وحين وصل إلى « كردكوه » تفرقت البهائم باحثة عن مرعى لها . فأرسل الملاحدة عليه قوماً ، حتى إذا استرخى هو ومرافقوه للقيلولة ، وحلوا سرج الجياد هاجموهم وسقوهم شراب الهلاك . لكن ركن الدين تنبه لزحفهم وترصدهم فاستعد لهم على جواده هـو وبضعة رجال أشـداء فهاجموهم وصاولوهم ريثما استعد بقية رجاله وساندوهم . واستطاعوا في النهاية أن يقتلوا أكثر الملاحدة . وتابع من هناك مسيرته . ولحق به بوقـا في اليوم التالي حين بلغه أمر المعركة فأثنى على قوته وقدم له عظيم احترامه . واتجه من هناك نحو مقام ملك العالم منكو قاآن[1] في رمضان سنة إحدى وخمسين وستمئة . وفي أثناء عودة منكو قاآن من معسكره العظيم تلاقى بركن الدين فبدت عليه علائم الرعب والخوف ، بينما غامت أنوار الفرح بلقاء قاآن .

حين وصل ركن الدين إلـى منكو قاآن وصلت رسالـة كذلك من قطب الدين يعلمه فيها بتوجه ركن الدين إلى بغداد بعد أن أرسل وراءه من يتتبعه . فسئل الاثنان عن صحة الأمر . وفي النهاية سُلم ركن الدين إلـى قطب الدين لينفذ فيه حكم القضاء . فقتله بالسيف . وغدا قطب الدين ملك كرمان من غير منازع . وتوهّم أن الزمان ، على غير عادته ، صفا له . فقد عاد إلى مقر مملكته ، وضبط أحوالها وأمورها ، وزار هولاكو في بلاطه عدة مرات ، وغنم منه بأنواع الهدايا والتحف . وفجاءة هاجمه الأجل المحتوم في شهور سنة ست وخمسين وستمئة :

« إذا عشت سعيداً كل العمر ، ورضعت لذات الدنيا كل العمر »

« فلا بد في خاتمة المطاف من الرحيل ، حينئذ تغفو بقية العمر »

---

(١) أي أنه غير طريقه عن بغداد إما بسبب الهجوم عليه وإما لملاقاة بوقا له (ت) .

ذكـر جنتمـور

وتوليـه إمـارة خراسان ومازندران

كان جِنْتِمور أول أمير يعين على خراسان ومازندران . أصله من القراختاي . وحين فتح توشي خوارزم استدعى جنتمور وعينه شحنة على البلاد . وحين أصبح قاآن ملك العالم اختار جورماغون أميراً على الإقليم الرابع ، وأصدر أمراً يقضي بعودة القواد والشحنة إلى مواضعهم الأصلية ، فغدا معاوناً لجورماغون . واتجه جنتمور من خوارزم إلى « شهرستانه » ، ورافقه عدد من أبناء الملوك والأمراء . ولهذا عيَّن جورماغون لكل ملك أو ابن ملك أميراً . وكُلْبُلات[1] من قبل القاآن ، ونوسال من قبل باتو ، وقزل بوقا من جانب جغتاي ، وييكه[2] من قبل سرقويتي ، وكوركوز[3] كان آنئذ من خدم جنتمور . وترقى جنتمور في مراتبه حتى بلغ مرتبة الحجابة . وتمكن من إخضاع يازَر ونَسا وكوكروخ وجريستان جميعاً ؛ بعضها بالسلم واللطف وبعضها بالحرب والمقاومة بعد إذ أعلنت العصيان .

حين ترك جورماغون خراسان كان وضعها مضطرباً . فاحتل بعضها وعين عليها شحنة وبعضها ما زال معارضاً ثائراً ، وكان بعض الأتراك وأصحاب الفتن

---

(١) يذكر رشيد الدين أنه من قبيلة النايمان .

(٢) ييكه بالمغولية : العظيم (ت) .

(٣) كوركوز : أصل الاسم أرمني من «جورجيوس» . وهو ابن حمي حفيد قوبيلاي (عن بويل) .

يبرزون يوماً بعد يوم ، فيثيرون الشغب بين الأهالي • وتمكن بعض الشذاذ والأوباش من الاستيلاء على بعض الأنحاء • ومع أنه تمكن من إخماد أغلب الفتن إلا أن بعض الاضطرابات كانت مستمرة في بعض الجوانب • فقد نهد قراجه ويَغان سنقور في نيسابور وضواحيها ، وكانا أميرين تابعين للسلطان جلال الدين ، إذ ما زال السكان فيها على هوى السلطان جلال الدين • لهذا كانت هذه الأطراف مصرة على المعارضة ؛ فترى الأمـراء في بعض المواقع ، والقواد في بعض القلاع يظهرون تأييدهـم للسلطان ومعارضتهم للمغول ، وكانت نهاية كل واحد من هؤلاء القتل أو الأسر • كما أن الترك وقراجـه التابعين للسلطان كانوا يقتلون الشحنة والحراس الذي يعينهم جورماغون ، ويقتادون كل من أظهر الطاعة للمغول • لهذا السبب أعدّ جنتمور كلبلات مع جيش لطرد قراجه من حدود نيسابور • فهرب أبي مع عدد من أعيان نيسابور وأفاضلها من البلدة ، واتجهوا نحو طوس • وكان في تلك الأيام في داخل طوس رجل يدعى تاج الدين الفَريزَني[1] فاق الكفار في القتل والفتك • وكان يقيم في قلعة داخل طوس • وحين دنا أبي مع أعيان القوم مـن طوس « والغريقُ يتعلق بكل شيء » أعلموه بقدومهم ، وطلبوا منه الأمان • فأعـاد الرسول يطمئنهم « بمواعيد عرقوب » • فاعتمدوا كلامه المموه ، وتابعوا طريقهم حتى وصلوا القلعة :

المستجيرُ بعمرٍو عندَ كُربتـهِ   كالمُستجير منَ الرَّمضاءِ بالنارِ

حين عاد كلبلات بعد دحر قراجه ، وسمع بأنباء هذه الجماعـة أرسل رسولاً إلى الفريزني يطالبه بإعادة هذه الجماعة (أبيه ومن معـه) • فأراد الفريزني أن يكفي كلبلات أمر هذه الجماعة ، ظناً منه أن كلبلات سيقتلهم •

---

(1) فريزن : قرية على باب هراة يقال لها « فريزة » ، ينسب إليها •• الفريزني (ياقوت) •

فاستدعاهم إليه وقربهم ، وأولى أبي وكبار القوم عنايته ، واستمالهم إليه بكثير من الإغراءات . وقد نظم أبي قطعة في هذا المعنى :

وفدتُ على الأفريزنيِّ الذي لهُ صنائعُ تحكي عن ركاكةِ عقلِهِ
خبيثٌ كثيرٌ في الدَّنايا حديثُهُ يعزُّ على الراوينَ أيسرُ نقلِهِ

وحين وصلت إلى القاآن أنباء الاضطرابات ثارت ثائرته وأمر أن يتجه طاير بهادر بجيشه من بادغيس إلى تلك البقاع ليتدارك أمر قراجـه ، ويُفني بقايا الاضطرابات بسيفه ، ولا يبقى في خراسان ديّاراً ، ويقطع المياه عـن السكان ، حتى لا يبقى منهم أثر أو طلل . وكما قيل في المثل : « يجب أن يُعلَّم الذئب الخياطة ، أما النهش والتمزيق فمن طبعه » . وكان جيش بهادر مثل ما جاء في المثل ؛ فهم يبحثون عن القتل والنهب داخل التراب . وانطلقوا بسرعة فائقة سرعة النار . ووصلت إلى بهادر ، وهو في منتصف الطريق ، أنباء انهزام قراجه أمام كلبلات ، وقد طرده من خراسان ، وهو الآن في سجستان وقد تحصن في أرك . فاتجه طاير بهادر نحو المدينة وحاصرها . وقد عانى مايقرب من السنتين في حصارها حتى احتلها . ثم أرسل رسولاً من سجستان إلـى جنتمور يخبره أن القاآن فوَّض إليه أمر خراسان ، فلا يتدخل في شؤونها . فأجابه جنتمور : إن حديث عصيان أهل خراسان مفتعل وغير صحيح ، ولقد سقيت كأس الفناء لعدد من الولايات في سبيل جرائم قراجه . وإنه من غير السليم ، بعد أن أمضيت سنين عديدة من المشقة والعناء في هذه البلاد ، أن تتملك البلاد بقرار صغير . فعد إلى حيث كنت ، وسأخطر القاآن بالأمر عن طريق مبعوث من قبلي . وهكذا عادت رسل طاير بهادر غاضبة إليه تأمره بأن يكف يده عن قتل الناس .

وقد أمر جورماغون رسله أن يدعوا إليه جنتمور مع جيشه، ويدع أمر خراسان ومازندران إلى طاير بهادر . ولكن ذلك الذي غدا أميراً يوماً كيف

يتحول إلى خادم ؟ ومَن باشر الأمور الجسام كيف يتحول إلى التافه منها ؟ وكيف يتحول الحاكم إلى محكوم ؟ فاستشار الأصحاب والثقات في الطريقة المناسبة لدفع هذه الغُمّة . فأجمعت الآراء على أن يذهب كلبلات (إلى البلاط) ، وهو المعدود من خواص ملك العالم ، ويرافقه عدد من أمراء خراسان ومازندران ، ممن خضعوا للمغول واستجابوا . وفي هذه الأثناء أنزل الملك السعيد بهاء الدين الصعلوك أخاه من القلعة[1] واشترط : أعلن خضوعي لكم وأنزل من القلعة إذا وافقتم على إرسالي إلى القاآن[2] . لاءم هذا الاقتراح هواهم . فعاد جنتمور من داخل مازندران ، ومر بخراسان لأخذ الأمراء . وقد استجاب أكثر الأمراء حينما سمعوا بخضوع صعلوك . في حين أنهم قتلوا كل من رفض الخضوع .

حين وصل الملك نظام الدين[3] إلى القلعة تحرك موكب الملك بهاء الدين، فأعزه جنتمور بأنواع من الكرم اللائقة به . وعيّن من مازندران الإصْفَهْبد نصرة الدين حاكم كبود جامه . واتجه الاثنان بصحبة كلبلات إلى حضرة القاءآن كان ذلك في شهور سنة ثلاثين وستمئة . ولما كان هذان الأميران أول الأمراء الذين قدموا إلى القاآن وقدموا له الطاعة من غربي بلاد النهر فقد اهتز لوجودهما لديه، وأمر بإقامة الاحتفالات احتفاء بقدومهما . ومضت أيام أعاد القاآن فيها جنتمور وكلبلات وهما محملان كثيراً من التحف والهدايا الملكية ، لما قاما به من جليل الأعمال قائلاً (الملك) : في غضون هذه المدة التي ذهب فيها جورماغون واحتل عدداً من الولايات الكبيرة لم يرسل إلينا مَلكاً ما . . في حين أن جنتمور ، مع قصر أمد غيابه وقلة عَدده ، قدم لنا مثل هذه العبودية . ولقد قبلنا منه ذلك ، ونعيده أميراً أصيلاً على إمارة خراسان ومازندران . وليكفّ

---

(1) إحدى قلاع إصفهان (ت) .

(2) يعني : أوكتاي قاآن .

(3) يبدو أن نظام الدين أخو الملك بهاء الدين الذي ورد ذكره قبل قليل .

جورماغون والأمراء الآخـرون أيديهم عنه . وليكـن كلبلات شريكاً لـه (لجنتمور) في الحكم ، والإصفهبد ملكاً من حدود كبود جامه إلى ظاهـر تميشه[1] وإستراباد ، والملك بهاء الدين ملكاً على خراسان وأسفراين وجوين وجاجَرْم وجُور ْبَد وأرْغيان . وخراسان آنئذ كما كانت[2] . ومنح كل واحد منهم « بايزَه » ذهبية ، ومرسوماً ممهوراً بـ « آل تمغا » . وطلب إليهم الرأفة بأهالي خراسان والصفح عنهم . وبعد فضل الله أن « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » حظيت خراسان بعنايـة جنتمور والملك المرحوم بهاء الدين من طوارق الزمان . ولقد تمكنت فئة قليلة العدد من الهرب بسرعة، تخلصاً من ألف طامة ، فأنقذوا رؤوسهم من السيف بكثير من العناء والنصب، أملاً منهم في الحياة . ولقد نكسوا الآن أعلامهم بإرادة القدر ، واستسلموا لضربات السماء المتوالية .

لما تمكن جنتمور بحكم الأمر الملكي رقى شرف الدين إلى منصب الوزارة لقدمه وخدماته السابقة لـدى باتو وتقرر أن يكون أبي صاحب الديوان . وأرسل الأمراء الآخرون كتّاباً الديوان ممثّلين لأبناء الملوك . وحين نُظم العمل الديواني وضُبط أرسل (باتو) كوركوز سفيراً إلى مقـام القاآن ، يرافقه أبي بعد أن أناب المرحوم نظام الدين منابي في الديوان . وحين وصل إلى القاآن واستعلم منه عن أحوال كل فرد سأله عن أوضاع الولايات . فكان التقرير مناسباً هوى القاآن ورأيه . وأهدى والدي هدية ملكية مع مرسوم ممهور بتعيينه صاحب ديوان الممالك . وشمله بعنايته وخصه برأفته . ثم عادا من بلاط مقضيّ الحاجات . ومات جنتمور ولم يتحقق أمله بالملك . كان ذلك في شهور سنة ثلاث وثلاثين وستمئة .

---

(1) انظر ياقوت تحت مادة « طميس » .
(2) لعله يقصد كما كانت في عهد المغول في تلك الأيام ، أي قبل أن تخضع كلياً لهم كلياً لهم (عن بويل) .

ذكـــر نوســـال

حين مات جنتمور أرسل في الحال رسول إلى مقام ملك الدنيا (يعلمه النبأ) . فأصدر أمراً بتعيين نوسال مكانه . كان نوسال أميراً مسناً يدنو من المئة . وقد تحول الأمراء وكتاب الديوان والوزراء من منزل جنتمور إلـى مخيمه بأمر منه . واستمر العمل الديواني في تقدمه . وقد انتقل شرف الدين إلى مقام باتو ، أما كركوز فكان ينتقل من هنا إلى هناك باستمرار .

وفي هذه الأثناء تأزم الموقف بين الملك بهاء الدين ومحمود شاه أمـير سَبز َوار بسبب النزاع على بيهق ولأسباب أخرى ، فسافر[1] إلى مقام القاآن ثانية ، حيث عرض عليه شكايته . فأصدر أمراً مفاده أنه لما كان الخصم غير حاضر فلا يمكننا الجزم في الأمر ، فعد مرة أخرى وأحضر معك خصمك حتى تمكن من بحث الموضوع . وأعاد أبي في الباب تقرير القاعدة عليه وسلمـه الأمر الملكي . وحين وصل الملك بهاء الدين وسمعوا بأمر الأمر الملكي لـم يوافق استدعاء كوركوز مزاج نوسال وكلبلات[2] . وحين رحل كركوز حلَّ محله في الإدارة نوسال إلى أن عاد كوركوز ، فاكتفى بإمارة الجيش حتى سنة سبع وثلاثين وستمئة[3] حيث ولى في أعقاب أصحابه الذين ذهبوا ولم يعودوا (مات) .

---

(١) اي الملك بهاء الدين (ت) .
(٢) لم يفهم المقصود .
(٣) في إحدى النسخ : سنة ثلاثين وستمائة .

ذكـر أحـوال كركوز[1]

مسقط رأسه قرية صغيرة تبعد عن بيش باليغ أربعة فراسخ اسمهـا « يَرليغ »[2] في بلاد الأويغور ، من الطرف الغربي للمسافرين من هناك . وفي شهور سنة إحدى وخمسين وستمئة ، وفي أثناء عودتنا من معسكر ملك العالم منكوقاآن غفونا هناك ساعة غفوة القيلولة . فعاد إلى خاطري بيت كان المرحوم نظام الدين عليّ السديدُ البيهقي نظمه على حال كركوز إبان عبوره من تلك القرية ، وكان هذا البيت قد محي من صحيفة ضمير المؤلف :

غداةَ نزلنا في كنيسةِ يَرْلـغٍ   تحقّق لي أنّ الرجال من القُرى

وفي تلك اللحظة نظمت بعضة أبيات أخرى ، على نية ضميره ، مع اعترافي أنها دون مستواه :

وأيقنتُ أن المرءَ يسمو بجِدّهِ   وهمته ، إنّ السري إذا سرى[3]

ولن ينفعَ الأصلُ الزكيُّ لجاهل   إذا هو عن طود المعالي تَحدّرا

فجِدَّ تنلْ مجداً وعزّاً مؤثّلاً   ولا تكُ مِقوالاً قضاء لقد جرى

فإنْ نال ما قد يبتغيه من العُلى   فذلك غَرْس آن أنْ يتثمّرا[4]

---

(١) ورد الاسم مرة بواوين ومرة بواو واحدة . كما ورد حيناً بكاف فارسية (ت) .

(٢) يرجح بويل أن اسم القرية بالباء « برليغ » (ت) .

(٣) إشارة إلى المصراع الأول من البيت المعروف :

إن السري إذا سرى فبنفسه   وابن السري إذا سرى أسراهما

(٤) لم يرد في كتب اللغة « تثمر » على باب « تفعل » .

وإن خاب عما يرتجيه وخانَهُ
أمانيُّهُ، والدهر جار على الورى[1]

فقد يَعذر الدِّهقان إن جاد زرعه
وأخطأهُ غيثٌ ولم يتمطّرا

وقد يعذر المقدام في موقف الوغى
إذا مُهرهُ بين الصفوف تَعثّرا

فجِدَّك ، حتى لا يلومَك لائمٌ
ويقضي إلهُ الخلق ما كان قدَّرا

وقد سئل سكان القرية عن نسبه فأجابوا بأن أباه كان من أوحد الناس، لكنه توفي ولما يتم كوركوز مرحلة الطفولة . فلم يبق حوله إلا زوجة أبيه ، التي لم تعبأ به لصغر سنه وسوء وضعها . وقد أمضى بعد موت أبيه مدة ترعاه هذه المرأة الغريبة ، حتى بلغ أشده وقارب سن الزواج . عندئذ ذهب كوركوز إلى إيدي قوت وشرح له وضعه ورغبته بالزواج من زوجة أبيه . ففي عُرف المغول والأويغور أن الصبي يتحكم في مصير زوجة أبيه ، وبإمكانه أن يتزوج منها . فوافق إيدي قوت على هذا العرف . ومضى الأمر على هذا الحال حيناً كان فيه راضياً ، حيث شُغل كركوز بتعلم الخط الأويغوري . وما هو إلا حين من الزمان حتى برع فيه واشتهر . فلم يعد يقنع بالقليل ولا بالذليل ، فعليه أن يزيح عنه دثار العفاء ويتخلص من ديار العناء . لكن استطاعته لم تكن كافية لتغطية مصاريف رحلته ، ولا وسيلة يتعلق بأهدابها ، ولا قريب يخلصه من آلام الفاقة ، ولا صديق ولا معين يهبه أو يقرضه ، أو يكون مدده عليه واجباً :

أبَى لي قبول الضيم مطمح همتي
ومسرح آمالي ومَسرى تفرُّجي

وفيما كان غارقاً في همه تقدم منه ابن عم له يسعى لتحقيق هدفه يُدعى بيش قَلاّج . فأعانه على استدانة ثمن جواد ، وجعل نفسه كفيلاً لذلك .

---

(1) استعمل الشاعر المصنف « جار » في موضع « جائر » ، وهذا سهو واضح . ولا يمكن أن تكون « جار » هنا فعل ماض لأن المقام يناسب اسم الفاعل .

وهكذا اشترى الجواد ، وقصد معسكر باتو • وحين وصل إلى هناك عمل لدى أحد أمراء البلاط ويدعى بكله باني • ومضت أيام أظهر فيها كفاءة فقربه الأمير منه وخصه بملازمته • ورافقه يوماً في رحلة صيد مع توشي • وفيما هم كذلك وصلت إلى توشي أوامر من جنكيز خان كانت تتضمن أخباراً سارة ، ولم يكن بين الحضور أحد من الكتبة ليقرأ له هذه الأوامر • وكان من أعلمه أن في الحاشية من يعرف القراءة ، وهكذا تقدم كركوز إلى خدمة توشي ، وقرأ عليه أوامر الخان ، محافظاً على الآداب والاحترام على خلاف ما يعهد من مثله من رجال الحاشية • فسرّ توشي من أدبه وحسن قراءته ، فأمر أن يدخل في عداد كتابه • وكان يزيد من مراعاة جانب الأمراء في الآداب والخدمات • وبدت عليه آثار الخير شيئاً فشيئاً ، حتى اشتهر بمهارته في الكتابة والبلاغة • فعين معلماً لأبناء المغول • وحين غدا جنتمور شحنة أوركانج اختير لمرافقته ، فلازمه هناك • وقد أبدى رجاحة عقل بكل ما فوض إليه من مهمات ومصالح حتى أصبح محل اعتماده اعتماداً كاملاً ، ورقي إلى مرتبة الحجابة ، ثم مرتبة نيابته • وحين أرسل الى القاآن واستكشف منه الأحوال عرضها على مقامه بما أرضاه وأعجب الحضور • حتى إذا بلغ بحث أوضاع خراسان ، وسئل عن مراعي الربيع والصيف والشتاء قال : إن عبيد الدولة في نعيم ودلال ، وطيور أفئدتهم تتطاير في أفق التنعم والسعادة بين منازل الشتاء وكأنها فصل الربيع وهو في ألوان النرجس والرياحين كقطعة من حقل • وجبالها صيفاً أشبه ببساتين الجنان ، وأنواع نعمتها المختلفة كنغمات طيورها المؤتلفة • وحين عرض حديثه على هذا الأساس ، وأظهر ثياب الشكر والثناء ازداد اعتقاد القاآن برأيه ودرايته وعقله • وكان الأمير جينقاي حاضراً ، ولما كان هو أيضاً من الأويغور، وهو الذي أعان كركوز على لقاء القاآن ، فحين كان القاآن يثني عليه زاد من الثناء عليه •

عاد كركوز محملا بالهدايا والرضا • وصادف وصوله إلى مازندران رحيل جنتمور وحلول نوسال محله • واستمر على عمله حتى وصل الملك بهاء الدين من عند القاآن وأعلمهم أن يرسلوا كركوز ليشرح له أحوال خراسان • لكن نوسال وكلبلات لم يوافقا على سفره فقد توجسا منه لأنه إن وصل في هذه المرة إلى مقام القاآن فسيجعل خضرة عيشها هشيماً وطعم حياتها وخيماً • وكان كركوز نفسه يبحث عن وسيلة توصله إلى معسكر القاآن • فاهتبل هذه الفرصة وسعى إليها لتحقيقها • فذهب يوماً إلى أبي صاحب الديوان وقال له : الحظ كالطائر،لا يعرف المرء على أي غصن سيحط• وسأسعى لتخطيط قدري وأتبع ما تريده لي السماء • وفي النهاية وافق نوسال وكلبلات على سفره ، ورافقه الملك بهاء الدين ومحمود شاه وعدد من أكابر خراسان • وقد تكلموا حول الضرائب وإحصاء الولايات وعدد السكان ولا سيما في خراسان وما زندران والتقصير الذي نجم حتى ذلك الوقت • كان دانشمند الحاجب وآخرون معه على خلاف مع رغبات جينقاي ، لأنهم على هوى ابن جنتمور • ولما كانت جماعة أعيان خراسان حاضرين وكان كوركوز موجوداً كذلك ، ورضى جينقاي مقرون بحال كركوز فقد ترقب جينقاي فرصة اختلى بها بالقاآن وقال له : إن عظماء خراسان يرغبون بكوركوز • فقال القاآن : ربما كتبنا له أمراً ملكياً نختبره به ، حيث نرسله ليكشف لنا المحصول السنوي ويراجع حسابات عدد من الأمراء لعدة سنوات سابقة ، ويحسب لنا كم يملك كل واحد منهم ، ويحسب لنا سكان الولاية ، ولا نعتقد أن أحداً غيره يستطيع أن يفعل فعله• ونحن واثقون من إتقان عمله•

حين حصل كركوز على هذا الأمر الملكي طار كالباز من المعسكر ، فاجتاز الطريق إلى خراسان ومازندران بمدة وجيزة• فأسمع الملأ أمره الملكي ، وألزم الكتبة وأصحاب الأشغال بمتابعة أوامره ، وشغل بالأمارة والحكومة •

كان نوسال رجلا سليم الطوية ، خرِفاً ، عاجزاً عن السؤال والإجابة . في حين أن كلبلات رجل داهية خبير . كلما أراد أن يتكلم بشيء أصدر أمراً أميرياً ، فيصدر من فمه : فرمان يقضي بعدم تحرك أي رجل في الموضوع الفلاني أو في المصلحة المعينــة . فكيف يتمكن المرء من أن يناقش وقــد صدر الأمر الأميري (فرمان) ؟ حتى إنه عزل نوسال بهذه الطريقة عن عمله من غــير أن ينفصل عن كرسيه (جمده) . ومنح أمور خراسان ومازندران إلى كركوز . فحفظ الضرائب ، والتقط من الأطراف التحف اللائقة بالملوك ، وجدد حساب عدد السكان وأضاف ضرائب أخرى ، وأسس مصــانع ، وعدل بين الناس ونصف . ولم يدع مجالا لمخلوق أن يلمس أنملا من الماء من غير علمه . وقطع على الطامعين جشعهم . وفرّق بين أرباب الدراية والكفاءة وأصحاب الحماقة والجهالة . فبدا الأمل يحوم في فضاء الولاية بما شملها من أنواع العمــار (مرة ثانية) .

وصل في هذه الآونة شرف الدين كذلك من معسكر باتو . لكن كركوز لم يدع له ولا لجماعته أي نوع من أنواع التحكم . وعزل بعض من كانوا من أتباع جنتمور ، مما دفعهم إلى السعي لتنصيب إدكو تيمور[1] الابن الأكبر لجنتمور مكان أبيه . وهم إن سكتوا حالياً عن طلب الإمارة لــه فإنهم فيما بعد سيزيدون من محاولاتهم ، وسيعملون على إزعاج كركوز قبل استحكام أمره في ملكه ، وسيوغرون صدر القاآن عليــه . واختار إدكوتيمور تنقوز وبعثه رسولا إلى القاآن يحمل له أكاذيب ومفتريات ضــد كركوز . فانتهز خصوم جينقاي هــذه الأكاذيب ونقلوها إلى مسامع القاآن[2] . فاختــار

(١) ومعنى اسمه : الحديد الجيد (ت) .
(٢) يعني أوكتاي قاآن (ت) .

القاآن لهذا السبب أرغون ، وقربقا[1] ، وشمس الدين كمركر للتأكد من صحة ما ترامى إليه .

حين علم كركوز بقدوم الوفد أبدى استعداده لاستقباله . فأناب أبي صاحب الديوان منابه في حكومة البلاد وذهب إلى البلاط القاآني . والتقى الوفد حين بلغ فناكت . فطلبوا إليه أن يعود أدراجه لأنهم قدموا لتفحص أوضاعه . لكن كوركوز رفض الانصياع لطلبهم ، فجرى بينه وبين تنقوز مشادة عنيفة ، أدت إلى أذى الطرفين وكسر سن لكوركوز . فأرسل كوركوز ليلا ثيابه الملوثة بالدم مع تيمور إلى القاآن ، وعاد مكرهاً إلى بيته . وحين وصل إلى منزله تجمع الأمراء المغول جميعهم مثل كلبلات وإدكوتيمور ونوسال ، وساقوا أمامهم الكتاب والملوك والوزراء[2] جميعاً بالهراوات إلى منزل كوركوز ، وقد أصابهم الغرور من عملهم هذا . وباشروا بتفحص الوضع ودراسته .

كان كوركوز يستمهل الحضور بانتظار رسوله تيمور ويراوغهم بأجوبته . وفي هذه الأثناء ثارت جماعة طائشة من سكان مازندران ومن مناطق أخرى فأثرت ثورتهم في عاقبة التقرير . وصل تيمور (رسول كوركوز) في اليوم التالي إلى سلطان دوين[3] قرب استراباد ، وتبعد عن قراقورم مسيرة خمسة وأربعين يوماً ، وأمر الأمراء والملوك جميعاً أن يحضروا معه من غير أن يسألوا شيئاً . وقد غضب القاآن كثيراً بسبب ثياب كوركوز الملوثة

---

(1) وهو رسول ادكو تيمور (ت) .

(2) كذا في الأصل (ملكان وتمامت أصحاب) (ت) .

(3) دوين : هضبة تقع بين نهر جرجان وقره صو (ت) .

بالدم • وثـار مرة أخرى رجـال كوركوز من الملوك وأصحاب الدواوين واتجهوا نحو مخيم إدكو تيمور منزعجين ، لكن رجال إدكو تيمور ، امتطوا جيادهم وفرقوهم بالهراوات •

وقد اضطرب وضع أتباع كوركوز (من الموظفين) ؛ فهـم إن راعوا كوركوز هاجمهم رجال الوفد ، وإن سالموا رجال الوفد توجسوا خيفـة من كوركوز • وكان شرف الدين يظاهر إدكوتيمور ليلا ، ويأخذ جانب كوركوز نهـاراً •

وأرسل كوركوز رسالة إليهم يعلمهم بعودة رسوالـه تيمور ، ويطلب إليهم الحضور إليه ليسمعوا الأمر الملكي الذي يحمله • ومن غير أن ينتظر وصولهم ركب جواده وذهب إلـى بيته • ومن منزله قصـد البلاط الملكي يرافقه جماعة من أعيان خراسان ، ممن يثق بهم ويعتمد عليهم • ولم يستطيعوا اللباث حين علموا برحيله • فاتجه كلبلات وإدكوتيمور مع فئة من النمّامين والغمازين جميعاً ، ووصلوا بخارى ، فأضافهم ملك بخارى صاين ملكشاه في قصره • واحتاج كلبلات إلى التبول فخرج من المنزل • وكان بعض الفدائيين يتعقبونه ، ثم انتظروه مدة في بخارى • وحين وصل كمنوا له في زوايا الرواق، حتى إذا خرج ليقضي حاجته طعنوه بالسكين مع نفر أو نفرين كانا معه • وقتل كلبلات •

واضطرب وضع جماعته إثـر هذا الحادث وأصابهم الأسى وأذهلتهم الحيرة ، حتى غدوا كالأطفال الذين وضعوا اللباد في الماء ثم لم يقدروا على حمله من الشاطىء • ووصلوا في النهاية إلى المعسكر • فدخـل القاآن أولا الخيمـة التي ضربها جنتمور ، وجلس على العرش يتمتـع بمجلس الطرب •

واضطر القاآن إلى الخروج من الخيمة لقضاء حاجته . وما أن وضع قـدمه خارج الخيمة حتى هب إعصار اقتلع الخيمة ، فسقطت أعمدتها على جاريته فآذاها . فسببت تلك الرياح حرق آمال إدكوتيمور ، فانصبت الميـاه على تراب مذلته . وأمر القاآن أن تقطـع الخيمة وتوزع أجزاؤها علـى الخدم والجمّالين . ونصبت خيمة كركوز بعـد أسبوع ، وحفلت بأنواع التحف والهدايا التي أحضرها للقاآن ، مما ضاعف من سرور القاآن وطربه . فعلا مقام كركوز بينما انكسر جناح خصومه . وكان من جملة التحف حزام مرصع من حجر العوز[1] ، ويدعى حجر اليرقان ، وهو من صنع كركوز نفسه ، ولم يكن هذا وحده الذي أعطاه قيمته . وحـين رأى القاآن الحزام استطرفه ، فلفه على خصره ،لكن خصر القاآن كان ممتلئاً فلم يلفه الحزام . واعتبر هذا الأمر فألا حسناً ، وأمره أن يصنع له واحداً على قياسه . ثم قال لإدكوتيمور : لماذا لم تفعل أنت وأبوك مثل هذه الطرائف والغرائب ؟ ولم ينتبه أحد مـن مرافقي إدكوتيمور إلى هذا التلميح ، ولم يقدروا مصلحته :

ذو الجهل يفعـل ما ذو العقل يفعله في النائبات ، ولكن بعد ما افتضحا

وبعد أن مكثوا حيناً في مقامهم تفرغ القاآن لدراسـة أحوال جينقاي وتاينال[2] وعدد آخر من أمـراء المحاكمة ، وباشر في استعراض القضيـة .

---

(1) في المتن : حجر العور (بالراء) . وما ذكرناه أقرب الى الصواب ، لأن العوز في العربية : حب العنب ، وهذا أقرب الى الأحجار الكريمة (ت) .

(2) في المتن (تار نال) . وما ذكرناه رواية إحدى النسخ ، ونطقه كذلك أفضل وأقرب الى أسماء المغول (ت) .

فالذين كانوا إلى جانب كوركوز كانوا أصحاب حصافة وروية وخبراء في الضرائب وأبناء نعمة من الملوك ، أمثال الملك نظام الدين أمير أسفراين ، واختيار الدين أمير أبيورد ، وعميد الملك شرف الدين أمير بسطام . ومن الكتبة نظام الدين وأمثاله . وكان كوركوز نفسه بألف منهم :

عدّوهُ في الأجناد من أفرادها فرأوهُ في الأفرادِ كالأجنادِ

وكان يتشاور مع جماعته حتى تكون الإجابة واحدة . وكان كركوز يرحب بشرف الدين ويقدمه ، لما كان يبديه من آراء صائبة . أما أصدقاء إدكوتيمور ، فكان هو نفسه كالطفل ، ولم يكن أبناء كلبلات أكثر من أولاد . وإلى جانبه اثنان أو ثلاثة ممن تميزوا برجاحة في العقل . لكنهم أدركوا الوضع فلم يوغلوا في المناقشة ، خشية أن يتعذر عليهم التراجع في الوقت المناسب . وكان المازندراني بينهم قصير النظر قليل العقل ، فقد تحمل بنفسه الرد عليهم في حين أنه لا يقوى على مناقشة رجل واحد . كما أنهم لم يعتبروا كلامه ولم يعتدّوا بروايته . فقد كان يعكس كلام كل واحد في المجلس أو في الحكم ، مما لفت نظر القاآن ونظر عدد من الأمراء غير مرة . « وعناية القاضي خير من شاهدي عدل . ولقد صدق من قال : لا مُلكَ إلا للرجال ، ولا رجال إلا بالمال واختلفت هذه القصة بين الطرفين ؛ فمن جانب كوركوز مال ورجال ، ومن جانب الخصم لا وجود للأمرين مطلقاً لديهما .

مضت بضعة شهور على هذه الحال ، من غير أن يصل الطرفان إلى نتيجة ، حتى مل الأمراء . وفي النهاية صدر أمر ملكي يقضي بعيش الطرفين معاً في حياة مشتركة ، وعلى كل واحد من الخصم أن يلازم آخر من الطرف الآخر ؛ في خيمة واحدة ، وطبق واحد ، وفراش واحد . كما أن كوركوز وإدكوتيمور عاشا في منزل واحد ، وأكلا من طبق واحد . وأمر أن تؤخذ

منهم أسلحتهم الحديدية ، وكذلك كان • وهدف الملك من ذلك أن ينتهي الأمر بمصالحة الطرفين وتنازلهما عن دعاواهما • ومع ذلك فلم يتصالحا •

وعرض جينقاي والوفد أحاديثهم وماجريات الأحداث على شكل تقرير • فجلس القاآن يوماً مرة ثانية يستمع إلى أحاديثهم المكررة • وشرع يسأل كل واحد بنفسه • وركع تُومن[1] وأخـوه وأبناء[2] كلبلات ، وهـم من زمرة إدكوتيمور يسألهم • وبغتة صرخ في وجههم وقال لهم : ما مبرر وجودكم بين الخصوم ؟ تقدموا وقفوا إلى جانب حملة السلاح • وهكذا حسم حديثهم • ثم وجه التهمة إلى إدكوتيمور وأصحابه ، وقال له : أنت من أتباع باتو ، كما يتضح من كلامك ، وسأرسلك إليه ، وهو يعرف كيف يجادلك • ومـع أن القاآن لم يتم كلامه فإن جينقاي ، من غير عناية ومن غير اعتناء بهذه القضية كان يلقن إدكوتيمور • ثم تصرف من عنده وقال : يقول إدكوتيمور : إن حاكم باتو هو القاآن ، وأي كلبٍ أنا حتى أحتاج إلى مشاورة ؟ إن دولة الملك حاكم الأرض القاآن يعلم ما هو اللازم • ولهذا عفا القاآن عنه • فلو أن مثل هذه الأحاديث وصلت إلى باتو ، ومع أنه أعز صديق لديه ، فأي نوع من العفو سيلقاه منه ؟

وأخيراً أمر القاآن أن يذهب إدكو تيمور وصحبه إلـى كوركوز • فتضاربا بالهراوات ، وتأذى الطرفان ، فوضع هؤلاء المتمردين في السجن • وأمر أن يُعطى الباقون بغالاً ليعودوا برفقة كوركوز • وطلب أن يقال لتلك الجماعة:على حسب الحق وأوامر جنكيزخان يجب أن يقتل الكذاب حتى يعتبر

---

(1) في المتن : نورين • ونرى أن تقرأ كما ذكرنا فلهذا الاسم ذكر في الكتاب(ت) •
(2) في إحدى النسخ : أبناء (من غير واو عاطفة) ، ولعله أصوب •

به الآخرون • وقد حق عليكم القتل • ولما كنتم قد قطعتم كل تلك المسافة حتى وصلتم إلينا، ولما كان نساؤكم وأطفالكم ينتظرونكم، وأنا لا أريد إيصال أنباء سيئة للأهل والمنزل، فقد عفوت عنكم، شريطة ألا تُقدموا على مثل هذا مستقبلاً •
وأن يقال لكوركوز كذلك: إنهم عبيدنا، ولقد عفونا عنهم، فليتك تعايشهم من غير أن تترك في نفسك أي حقد دفين • ثم أنت كذلك مخطئ ، وقتلك ليس صعباً علينا •

حين بُلغت الأوامر القاآنية اتجه كوركوز إلى متابعة مصالح مملكته على النسق الذي يرتئيه ويريده • وحين احتل جورماغون آمويه منحه القاآن أمراً ملكياً يقضي بحكم ما فتحه • وأعطاه « بايزَه » على ذلك •

أما شرف الدين فكان قد قال ، حين أصدر القاآن حكمه : يرجع السبب إلى مشاكلهم أنهم قوم تازيك[1] ، لكن كركوز علّم فتيانه مــاذا يجب أن يفعلوا • وإذا كان شرف الدين يرافق كوركوز فحتى يثنيه عن جادة الصواب • وأدرك كوركوز ذلك ، ولاحظ شرف الدين علائم غضبه عليه ومظاهر عتبه ضمناً ، وخاف من انتقامه • وكم كان شرف الدين سعيداً حين علم أنه سيتخلف في مسيرته عن كوركوز ، وهو رأي جينقاي • لكن هذا الرأي لم يوافق عليه كوركوز ، لأن إجراء حسابات عدة سنوات لا يمكن أن يتمّ بدون حضوره • فإن كان غائباً فإن المسؤولين عن الضرائب وأصحاب الأعمال سيرجعون الأمر إليه حتماً • فاستأذن القاآن بضرورة ذهاب شرف الدين معه ، وهكذا أكرهه على العودة برفقته •

---

(١) صفة إهانة (ت) •

أراد ملوك خراسان وأعيانها ، ممن كانوا ملازمين كوركوز في رحلته ، حين تمت المحاكمة وحلت القضية ، أن ينال كل واحد منهم ما جاء في الأمـر الملكي . إلا أن كوركوز اتفق مع جينقاي سراً : أئذا حصل كل واحد منهم على نصيبه فماذا يبقى له ؟ وبناء على هذا الاتفاق لم يُعط أحد من حقه الذي ورد ذكره في الأمر الملكي أو البايزه . وهكذا عاد القوم جميعاً . وأرسـل كوركوز في المقدمة الرسل إلى خراسان تحمل بشارة العطف القاآني وانكسار الخصوم . وكان هناك آنئذ جماعة من المغول الموالين لإدكو تيمور ، فقبض عليهم واحتجزهم . بينما أخرج تنقوز وتومن من المعسكر مقيدين . ووصل كوركوز إلى مقامه .

ذكـر وصول كوركوز إلى خراسان وأحوالـــه

عاد كوركوز بعد أن غنم عطف القاآن ، وانتصر على الخصوم . وقصد زيارة تنكوت أخي باتو في أثناء ذهابه إلى خوارزم . وكان أبي قد جهز لـه الأطعمة اللازمة والخيام مع آلات الطرب وأنواع الأطباق اللازمة لمجلسه من الذهب والفضة ، وأرسلها إلى خوارزم . كل هذه الأمور قد أعدّت لاستقباله وكذلك اتجه أبي وبقية أعيـان خراسان للأمر نفسه . وقد قدم عـن طريق « شهرستانه » . وحط رحاله في شهر جمادى الأولى من سنة سبع وثلاثـين وستمئة ، هو والوفد المرافق له ، كما حضر الاستقبال لأمراء المغول . وكان أبي قد نصب خيمة أخرى ضخمة عجيبة الصنع والألوان ، وفيها كل وسائل الراحة ، ورتبت فيها الأواني والصواني وكلها من الذهب والفضة . وتوالت أيام الطرب والسعادة والأعياد، وقرئت في أثناء ذلك بعض الأوامر والفرامانات. وأسمع الناس القوانين الجديدة . كما توافدت في هذه الأثناء جموع أعيان العراق .

وفي هذه الأثناء أرسل كوركوز ابنه إلى العراق وأرّان وآذربيجان ، يرافقه البارعون من الكتاب ، إلا أن مدار العمل كان بيد نظام الدين لكفاءته وخبرته . وما أن وصلوا إلـى تلك الممالك حتى أثيرت قلاقلهم مع أمـراء جورماغون . واستمرت قلاقلهم ومخاصماتهم حتى استخلصوا الولايات من أيديهم ، وحددوا الضرائب . واستمر الأمر كذلك حتى صار (فيما بعد) لكل

ولاية أمير ولكل مدينة حاكم • وكانوا قد فاضلوا لفرض جزء من الضرائب لصالح الديوان ، غير ما كان عليه قبلاً ، لكنها أخذت جميعها منهم •

وجعل كوركوز مقر إقامته في طوس ، وحوّل كل شيء إليها ، وبدأ بالبناء فيها • ولم يكن فيها آنئذ غير الاسم ، وكانت (قبل ذلك) تضم حوالي خمسين منزلاً مسكوناً ، حتى هذه المنازل كانت متفرقة هنا وهناك ، يخيم عليها السكون • وبين هذه المنازل بقايا أسواق ، لا يتمكن من عبورها حماران لكثرة ما فيها من أشواك وأعشاب ، حتى غدت أشبه بقوله تعالى : « التفّت الساقُ بالساقِ » • فأمر كوركوز ببناء المخازن والحقول • وأقبل الصدور والملوك على شراء الأراضي وعمارتها وعمارة أسواقها واستخراج قنواتها وتدارك الضياع الضائعة • وكانت الزاوية لكل قصر تباع في اليوم الأول بدينارين ونصف الدينار ، ثم غدت تباع في الأسبوع الثاني بمئتين وخمسين• ومنذ ذلك التاريخ شرع بإعادة بناء المدينة • وأحكم كوركوز ضبط الأعمال• وأمر ببناء محطات للدواب وخيل البريد حتى لا تتضايق الرسل والوفود • وكان حكمه صارماً ، فقد كان الأمراء قبل ذلك يقطعون الرؤوس التي لا يريدونها من غير أن يجرؤ أحد على الاعتراض ، بينما الآن لا يسمح لأحد منهم أن يقطع رأس طير • فاطمأن خاطر الناس وهدأ روعهم • وحتى غدا ، إذا نزل جيش مغولي في مزرعة ما،لا يجرؤ واحد منهم على مخاطبة المزارع وأمره بالمحافظة على جواده أو تأمين العلف له أو المبيت • والأمر نفسه منطبق على الوفود والقادمين والذاهبين • وقد هابه الشعب وحلّ في قلوبهم الروع منه •

وفيما بعد فكر بوسيلة ناجعة يوقع فيها شرف الدين بشَرك البلاء ودار الفناء • كان هناك ابن أحد دهاقنة بلدة « رُوغَد »[1] يدعى « أصيل » •

---

(1) روغد : يحتمل أن تكون في مقاطعة « كبود جامة » • انظر نزهة القلوب في فصل « مازندران ولواحقها » •

كان في البدء وكيل الجباية والخراج . وحين سما مقام كوركوز تحسَّن مقام أصيل قليلاً ، إلى أن باشر كوركوز في مهاجمة شرف الدين ، حيث شاركه في سعايته ، حتى أسراه وسجناه . ونُقل منصب الوزارة بعد ذلك إلى أصيل الروغدي . كان في بادىء أمره نحاساً . وكان ، وهو في الديوان وفي حضور الأعيان لا يتحرج من الضراط[1] .

وأرسل كوركوز رسوله تيمور إلى القاآن يُنهي إليه ما جرى لشرف الدين ، ثم تبعه شخصياً . وقابله في الطريق مبعوث من البلاط فأعلمه بموت القاآن . وبعد موته اضطربت الأوضاع في البلاد . وفي أثناء طريقه تخاصم مع واحد من أمراء جغتاي العظام ، ومن أقرباء جنكيز خان[2] . ووجه إليه جواباً متغطرساً عن طريق كبير المنشئين ، مع كلمات شخصية حادة أدقّ من رأس الشعرة وحد السيف . واعترضا على ما وُجّه إليهما صحيحاً أو غلطاً :

وما اعتذارُك من شيءٍ إذا قِيلا ؟[3]

وتخوّف كوركوز من عاقبة هذا الغضب فعاد ولم يتمّ طريقه . ودوّن ذلك الأمير ما جرى بتقرير مفصل . وفي هذه الأثناء قدم الرسول الذي أرسله شرف الدين (من سجنه) سراً كما لو أخذ مكانه . فاستدعت زوجات جغتاي وأبناؤه وأبناء آخرون أرغون وقربُقا وقالوا لهما : إذا لم يأت كوركوز إلى البلاط أحضرناه مخفوراً .

---

(١) المعروف أن النحاسين معروفون بعدم تماسك قواهم الطبيعية .

(٢) ذكر رشيد الدين أن اسم الأمير كان « ستراق كوجئور » (عن بويل) .

(٣) وصدر البيت :

قد قيل ذلك إن حقاً وإن كذباً

من أبيات للربيع بن زيـاد العبسي قالها في النعمان بن المنذر (خزانة الأدب للبغدادي : ١٧١/٤) .

حين وصل كوركوز إلى طوس كانت الرسل قد وصلت ، فطلبت منه شرف الدين وجعلوه مِلْواحهم[1] . وخلافاً لعادات المغول فقد بنى كوركوز خزانة محكمة[2] داخل الأسوار ، وجعل مقامه فيها . لذا أرسل المغول إلى قواد الجيش يطلبون مدداً ، فتعلّلوا لهم واعتذروا وأظهروا أساهم لعجزهم عن مساعدتهم . وكانت أعداد من الجيش المغولي وصلت في الحال ، فأخرجوا شرف الدين من سَبْزَوار . واحتاط كوركوز للقاء الوفد المغولي ، كما أن أصيل روغدي لم يسمح له بلقائهم والذهاب إليهم ، وخوّفه من عاقبة ذهابه إليهم واستحالة التخلص منهم . والسبب الذي جعل كوركوز خائفاً أنه لم يفهم مضمون الفرمان ، وهذا الذي جعله يُبقي الحرس على الخزانة داخل السور . إلى أن قدم الوفد المغولي ومعهم الجنود المغول وقد ارتدوا الدروع تحت الثياب ، ودخلوا البوابات . فأمر كوركوز أن يغلقوا باب الخزانة . وبهذه الحيلة رموه بالنبال . فقال كوركوز : أنا لست متمرداً . وفتحوا الباب ودخل المغول وأسروا كوركوز وأصيل. وأرسلوا رجالاً إلى البوابات فأسروا الملوك وكل من كانوا فيها ، إلا الملك اختيار الدين فقد هرب من بينهم وذهب إلى أبيورد . فاضطربت أمور ملوك خراسان وأوضاعهم . وأحسن أحدهم من أهل العصر في وصف الحال ، فقال :

أرى الأقدامَ في الإقدامِ تكبو ... إذا مرّت على غيرِ الصّراطِ
وإنّ الرّيحَ تَركنُ عن قريبٍ ... إذا كان البناءُ على الشّراطِ

---

(1) الملواح : في الأصل طائر (ويكون بوماً غالباً) يربط من رجل واحدة ، تصاد به الطيور الأخرى (اللسان ، القاموس) .

(2) لعله يقصد في (الخزانة) المنزل أو القصر ، وإلا فلا يعقل أن يجلس فيها الأمير (ت) .

وعادت الرسل بعد عدة أيام ، ومعهم كوركوز وأصيل أسيرين . ولم يعبأ كوركوز بهم ولم يلتفت إليهم . ولدى وصولهم معسكر ألغ إيف[1] جلس أمراء المحاكمة وبدؤوا في محاكمتهم . فقال كوركوز لهم : إذا قررتم دراسة قضيتي بإخلاص فلنبدأ بالكلام ، أما إذا انحرفتم عن الصواب فلا كلام يقال :

« إذا لم تستطيعوا أن تقولوا ما يمكن قوله ، فذلك الكلام ، مع ذلك ، لا يمكن إخفاؤه »

فأحجموا عن الكلام ، ثم قالوا له إنه سيتشرف بلقاء توراكينا خاتون . وأُحضر شرف الدين كذلك إلى المحاكمة،وحاولوا أن يُقحموه في بدء الحديث مع كوركوز ، إلا أنه تلعثم في الكلام وغيَّر مجرى الحديث . فنظر أحد أمراء المعسكر إلى شرف الدين وقال : يبدو أنه احتُجز لموضوع آخر ! أيّ رجل هذا الذي يبحث عن الخلاص ؟ أرى أن الاعتذار والاستغفار لحالك أكثر اعتباراً من حديث مخاصمتك .

وتوجهوا من ألغ إيف نحو معسكر توراكينا خاتون . كان جينقاي في تلك الأيام هارباً من سطوة توراكينا خاتون ، لاجئاً إلى بلاط كيوك خان . وكان الوزير محمود يلواج وكركوز موضع اهتمام جينقاي ، مقصِّرين في خدمة توراكينا خاتون . ولم تكن حاشيتها عابئة بهذه القضية ، ولم يكن كوركوز في تلك المرحلة يعيرهم أي تقدير ، كما لم يكن يملك مالاً كافياً ليحسِّن أوضاعه معهم ويتدارك تقصيره . كما أن في البلاط فاطمة خاتون ، صاحبة الكلمة الأولى ، والتي تُناط الأمور إليها تماماً . وهي التي جذبت

---

(1) الغ إيف (بالتركية) : البيت العظيم (ت) .

شرف الدين إليها وربته . وعينته في خدمة الأمير أرغون في ممالك خراسان ومازندران[1] .

بسبب الكلام الذي تفوّه به كوركوز في معسكر ألغ إيف نُقل ثانية من القصر إلى ألغ إيف. وحين سئل ثانية أجاب إجابات قاسية كالسابق . وفي النهاية أمر قرا أغول أن يُملأ فمه حجراً ويُقتل . كان كوركوز في أخريات حياته دخل في الإسلام وهجر عبادة الأوثان● . ونقلوا أصيل إلى سمرقند حيث سجن هناك . ولدى عودته[2] أمر أن يُجيعوه . كما أمر السجان أن يضع في طعامه مخدراً حتى يهلك (في النهاية) .

إن عمل هذه الدنيا شبيه بالبرق الذي يلمع ثم ينطفيء نوره ، أو هو ريح ينفخه المرء في قنينة ، وحين يُبعد فمه عنها لا يرى شيئاً :

« إن لبثتَ مئة أو مئة ألف ، فاليوم هو نفسه ولا تغير لأي شيء » .

---

(١) لم يذكر المؤلف شيئاً من هذا في أثناء التعريف به (ت) .
(٢) من هو صاحب الضمير ؟ لعله قرا أوغول ، أو رسوله (ت) .

ذكر أحوال الأمير أرغون

هو من قبيلة « أويْرات » ، وأبوه « تايجو » أمير ألف . وتعد قبيلة أويرات من أشهر قبائل المغول . ينتسب إليها أخوال أبناء جنكيز خان وأحفادهم . وسبب هذا الانتساب أنها كانت أسبق القبائل إلى إظهار تبعيتها إبان خروج جنكيز خان ، وأولاها في المساندة والمعاضدة . فصدر فرمان منه يقضي بمراعاة حقوقها ، وكان أن تزوج بناتهم بأمراء الأسرة المالكة ، فتأصّر النسب بين الطرفين . كما أنه (جنكيز خان) اختار لنفسه ابنة أكبر زعماء هذه القبيلة[1] وتدعى « جيجكان بيكي »[2] ، وهذا هو سبب إقبال الأمراء جميعاً على اختيار زوجاتهم من بنات هذه القبيلة .

بعد أن أتمّ الأمير أرغون تعلمه للخط الأويغوري ، وأمضى مرحلة الصبا واكبته أصناف الحظوظ والسعادة . وتمكن من زيارة القاآن ، على رغم صغر سنه ، فدخل في جملة الرسل . وكان القاآن يرعاه شخصياً ويرقب تربيته يوماً فيوماً . ومنذ كان يافعاً أرسله في وفد كبير يرأسه قبان إلى الختاي . وحين عاد لخدمة القاآن أوكل إليه أمر تفحص أحوال إدكو تيمور وكوركوز ، ورافقه في هذه المهمة كل من قوربغا وشمس الدين كمرْكر . وحين وصل الأمير أرغون إلى خراسان باشر بدراسة الأوضاع . وانصاع الجميع لأمره بالذهاب إلى حضرة القاآن . واستمر على إشرافه على القضية ومعاونة القاآن

(١) ورد في كتاب تاريخ المغول السري: ٢٣٩ أن الذي تزوجها احد أبناء جنكيزخان.

(٢) ومعنى الاسم الزهرة الصغيرة (ت) .

على مسألة كوركوز • وهو الذي عين رئيس شحنة خراسان والعراق حين توجه كوركوز إليهما أميراً • وكان شريكه في تدبير أمور الممالك وتابعاً له • حتى غدا كوركوز لا يتقدم على أمر لا يأخذ فيه رأي أرغون •

وحين عاد كوركوز ثانية إلى خراسان ، وباشر حكمه الاستبدادي فيها تركه أرغون وعاد • حتى إذا بلغ معسكر ألغ إيف أعيد إلى خراسان مع قريغا وجمع من الرسل لاستدعاء كوركوز وإطلاق سراح شرف الدين ، وقد شُرحت هذه القضية قبل ذلك • وحين وصلوا إلى معسكر تواركينا خاتون وضعوا كوركوز في السجن لما قاله من كلام غير مناسب • وعينت تواركينا خاتون الأمير أرغون على الممالك التي كانت تحت يد كوركوز ، والممتدة من آمويه إلى فارس والكرج والروم والموصل ، وعينت شرف الدين لخدمته بمنصب كبير الكتاب • كما حددت مناصب أصحاب الدواوين الأخرى •

وصل الأمير أرغون إلى خراسان في شهور سنة إحدى وأربعين وستمئة، وقرأ القرارات الخاقانية ، وأعاد تنظيم البلاد • ثم وجه الرسول سيراقجين وعدداً آخر من الرسل الذين كانوا قد قدموا من معسكر تواركيناخاتون لجباية الضرائب المتبقية • بينما توجه إلى العراق وآذربيجان وبصحبته نظام الدين شاه • وحين وصلا إلى دِ هستان وردت الأنباء إلى شرف الدين تعلمه بدسائس تحاك ضده في بلاط باتو • فاتجه إلى حضرته ، بينما قصد الأمير أرغون تبريز بعد أن اختار الأمير حسين وخواجه فخر الدين وعدداً من الكتبة نواباً عنه في خراسان ومازندران • وحين وصل تبريز أدرك أن حدود ممالكه غير منتظمة بسبب جوارها لممالك أمراء عظام أمثال جورماغون وتايجو • فأعاد تنظيمها وجبى ضرائبها وحدّ من تدخل الأمراء العظام بها • وخصّ حمايته بالسكان، سواء من كانوا يرغبون في الانضواء تحت حمايتهم أو من ذاقوا مرارة الظلم منهم،

وأعاد تنظيم الأوضاع كاملة ، وراعى فيها الكبير والصغير ، وأولاهم انتباهه فمالوا إلى حسن معاملته جميعاً ، وتبعوه وشايعوه وغدوا أصحاب هواه .
وتوافدت عليه رسل سلاطين الروم والشام وحلب تطلب ودّه وتتوسل إليه طالبة منه حمايتها . فأرسل الأمير أرغون الجباة إلى تلك البقاع ليستوفوا منها الأموال التي يجب أن يدفعوها له .

حين وصل شمس الدين من معسكر باتو إلى تبريز حاول أن يزيد من جباية الضرائب المفروضة على سكان تبريز بحجة تراكمها عليهم ، لكن الأمير أرغون رفض طلبه وأصر على موقفه ، فترسخ ولاء الأمير أرغون في قلوب الشعب . وحين قدمت الرسل تحث أمراء الأطراف والسلاطين والملوك على الذهاب[1] أرسل (أرغون) رسله تدعو ملوك النواحي وعمالها . وعين أبي صاحب الديوان مشرفاً على ممالك آذربيجان والكرج والروم وما حولها ، كما عين بوقا شحنة معه . وفي أثناء وصوله إلى طوس كان شرف الدين قد عبرها . وأمر الأمير أرغون بإعادة الأموال التي أخذت من الناس جوراً وبغير حق ، وأبطل بدعة المصادرات . ووجه الأموال المجمعة (إلى مقره) وتابع مسيرته نحو الحضرة ، يرافقه الملوك والكتاب وكبار الموظفين .

وبعد موت القاآن عاد أبناء الملوك إلى نواحيهم وولاياتهم ، وأطلقوا أيديهم في الأموال والممتلكات، ووهبوا البايزات والأوامر(المسجلة بأسمائهم)، وهذا مخالف لأحكام يساقهم . ولهذا السبب أمر الأمير أرغون أن تجمع البايزات والأوامر التي كان الأمراء قد منحوها الناس عقب موت القاآن .

وحين قدم إلى كيوك خان قدّم إليه كثيراً من الهدايا . كما حرص على إرضاء أبناء الملوك ، بأن قدم لكل واحد منهم تحفة أو هدية . ووزع الأموال

---

(١) الذهاب إلى بلاط القا آن للاحتفال بتنصيب كيوك خان .

كالمطر السجال على أركان الدولة وأعيانها • حتى إذا أتم توزيع هداياه توجّه لعرض مصالح الدولة ومهماتها ، وباشر بموضوع البايزات والأوامر التي كان الأمراء قد وزعوها واسترجعها من أصحابها • وكان عمله هذا أعظم خدمة قدمها ، فأثر هذا في نفس كيوك خان وأثنى عليه وشرّفه برضائه وإنعامه ، وأقره على ما تحت يده ومنحه أمر هذا الاقرار وبايزة رسم عليها رأس الأسد، وأوكل إليه أمر الملوك والوزراء ، من غير أن يمنح واحداً منهم الأمر الملكي ، ولم يبقِ أحداً من الأمراء على منصبه أو في خدمته إلا صاحب يَلَـوَاج وابنه في بلاد الختا وما وراء النهر ، وإلا الأمير أرغون في غربي البلاد • وكان شرف الدين قد توفي فعين مكانه الخواجه فخر الدين بِـهشتي كبير الكتاب • ورغم أن مولده كان في خوارزم وفيها نشأ ، إلا أن اشتهاره بهذه النسبة (بهشتي) كان كما قال الشاعر :

أدعَى بأسماءَ نَـبْزاً في قبائلها كأن أسماء أضحت بعض أسمائي[1]

كان رجلاً خيّراً سليم القلب •

ولدى عودة الأمير أرغون لبّى ملازموه، كلٌ على حدة، رغباته ومطالبه بينما تفرغ للأعمال الخطيرة والأشغال الكبيرة حيث عين لها مسؤوليها ؛ كلاً على قدرته ، وأنعم عليها ، فاتفق على ولائه جميع ولاته ، وأجمعوا على ثنائه، ومضوا في خدمته سعداء مشروحي الصدور • وفتح الأمير أرغون يده كالبحر أو كمطر نيسان ، وانغمر بإحسانه كل بلاد تركستان وما وراء النهر ، وتوافد على سخائه الغرباء • وأرسل طلائعه تبشر بعودته إلى خراسان وسائر تلك الممالك ، فتسابق الناس لاستقباله وتجمعوا في مقامه بمرو • ونزل لدى الملوك

---

(1) من قصيدة مشهورة لأبي محمد الخازن في مدح الصاحب ابن عباد (يتيمة الدهر : ٣/٣٤) •

والأمـراء والوزراء بتاريـخ ...[1] في « أزْرَنْقابادمَرو »[2] ، وأقاموا احتفالاً في القصر السلطاني دام عدة أيام . فأمر الأمير أرغون أن يعـاد بناء القصر والحديقة . وباشر كل وزير في أرزنقاباد بتنفيذ جانب من الحديقـة وجناح من القصر . ثم اتجه من هناك نحو طوس ، وفي طوس أمر أن يعاد بناء « المنصورية » وقصورها التي اندرست تماماً ، وزالت آثارها منذ حقبة من الزمان ، وأوكل أمر بنائها إلى الملك اختيار الدين أبيورد . وجعـل الأمير أرغون مقر إقامته في مروج « رادكان » ، حيث انغمس بضعة أيام في لذاته مع لذاته . وقد توافد عليه من الأطراف كبار الأشراف حيث سيَّروا أمور المملكة على حسب إرادته . وأقبل لزيارته الوزراء والملوك تباعاً يوماً بعد يوم، ونفذوا أعمالهم على هواه ووفق رأيه المبارك .

وحين باشرت الليالي تعلن عن مفارقة أيام الصيف، جاذبة الرياح الباردة، وقد حلَّ الخريف ، فتساقطت أوراق الأشجار من هزهزات نسيم الأسحار ، عزم الأمير أرغون على الذهاب إلى تبريز عن طريق مازندران . وكان حيث يحلُّ يوجه عنايته نحو إنجاز مهمات تلك المنطقة . وشيئاً فشيئاً وصل الـى حدود « آمل » . وكان أبي قد وصل ، ومعه الأموال والنفائس المرصعـة والجواهر التي كان قد أعدَّها ، من ممالك آذربيجان . وأضاف إلى ما جلبه كثيراً من البُسُط والأدوات اللازمة لمجالس الأمير ، فأقيمت الاحتفالات يوماً أو يومين .

---

(١) بياض في الأصل . وفي النسخة ج : سنة ثمان وأربعين وستمئة ، وهـذا خطأ واضح لأنه سيقول في الفصل نفسه إن أرغون عاد ثانية إلى المعسكر وحين وصل إلى طراز بلغه موت كيوك ، وذهب مرة أخرى إلى المعسكر سنة ٦٤٧، فالحادث كان حتماً قبل ٦٤٧ وقبل وفاة كيوك سنة ٦٤٤ أو ٦٤٥ .

(٢) أرزنقاباد : من قرى مرو الشاهجان (ياقوت) .

وحين أزف موعد رحلة الأمير أرغون نحو آمد جاءه تقرير[1] عن منكفولاد، فقد كان مغولياً، ويعمل شحنة لدى جورماغون على رأس المحترفين في تبريز، حيث عرّف نفسه بأنه شحنة. وقد اهتبل فرصة الاحتماء بقداق نوين وعنايته به، فغدا حل الأمور وعقدها بيده في عهد كيوك خان. وقد فعل ذلك لأن قداق كان ينتمي إلى قبيلة النايمان، مما أوجب بينهما التقارب مستغلاً هذه المزية. فنجده يلجأ إلى بلاط كيوك خان كي يطلع البلاط على نشاطاته وإمكانياته. في حين أن قداق نوين حصل على مرسوم ملكي يثبت به مكانة منكفولاد كشحنة وأمير. كما استطاع[2] تأمين مرسوم ملكي يعين فيه نصرة الدين أتابك قائد تومان تبريز وآذربيجان. ونصرة الدين هو ابن أتابك خاموش، وكان كل تلك المدة مختفياً في بلاد الروم، فظهر الآن وأعلن عداءه للملك صدر الدين.

حين اطلع الأمير أرغون على هذه المعلومات، ووعى ترقب حساده وخصومه أنف أن يتغاضى عن تلك المكيدة، فأشار على أتباعه أن ينظموا رحلة وينقلوا أموالا إلى البلاط. وأرسل في المقدمة نظام الدين شاه رسولا ليحد من اضطراب الأمور ويمنعها من الانتشار. وتحرك هو بعد شهر وأمر باستدعاء الملك صدر الدين حتى يسير هو أيضاً من تبريز. وعزم الأمير أرغون على التوجه إلى القاآن، وأرخى عنان المسير. وصاحبه في رحلته هذه فخر الدين بهشتي وأبي. كما رافقه محرر هذه الكلمات بإشارة منه (أرغون). وحين أبلغهم المسير إلى طراز جاءهم نبأ موت كيوك خان، كما

---

(1) جاءه التقرير من آذربيجان (ت).

(2) فاعل هذه الأفعال قداق نوين وليس منكفولاد، كما يبدو.

وصل إلى تلك الحدود إيلجيكتاي • فتوجه الأمير أرغون مع جمع من المغول نحوه بعد أن أمر الملوك والوزراء بالتريث في كنجك • فألح عليه إيلجيكتاي بأن يعود ليعد الجيش العظيم ويجهز لوازمه ، فبدونه لا يتم ذلك • فعاد الأمير أرغون ، حيث وجه الأمير حسين إلى المعسكر ليعلم البلاط سبب عدم قدومه وبالتالي عودته ، ويشرح لهم أموراً أخرى • وقام الأمير حسين ونظام الدين بهذه المهمة على حسب رغبته تماماً •

وحين وصل الأمير أرغون إلى خراسان أعد مجلس الطرب والشراب من أجل إيلجيكتاي • وأرسل أمـــراء الأطراف مبعوثين يطالبون الناس بدفـع الضرائب لعدة سنوات مقدماً عن طريق الحوالات • فعجزت الرعايا وافتقرت من تتابع جبـــاة الضرائب المغول عليهم وكثرة الحولات وطلبات إيلجيكتاي المتكررة • كما عجز الأمراء والملوك والكتبة •

حين عادت الرسل أقـــام الأمير أرغون مدة وجيزة ثم انتقل بعدهـــا إلى إيلجيكتاي في بادغيس • وعـــاد منها ليتوجـــه نحو سرخس • حتى إذا ولى الشتاء وجلا الربيع عن وجهه ، ومال الطقس إلى الاعتدال ، وغنت الأطيار في الرياض ظل الأمير ارغون ملتزما طرف الحزم والجزم ، فسار في جمادى الأولى سنة سبـــع وأربعين وستمئة (نحو البلاط) • ومنذ عـــدم استجابة تبرز لنكفولاد رحل عنها كذلك بأمر الأمير أرغون • وحين وصل الأمير أرغون إلى البلاط[1] ذهبت عدة لجان تحقيق (يارغوها) وتفحصت أوضاعه • وحين

---

(١) يدنو من اليقين أن المقصود هو بلاط أغول غايمش زوجة كيوك خان وولديها خواجه وناقو ووزيرها جينقاي ، لأن أغول كانت تحكم بلاد المغول بعد وفاة كيوك زوجها حتى جلوس منكو على العرش بين ٦٤٤ ـ ٦٤٩ • ويقع هـذا البلاط في حدود إيميل وقوناق •

اتضح صدق الأمير أرغون تجاه كذب منكفولاد وغلبت بينته حجة خصمه وأظهرت بطلانها لأن جوهر منكفولاد[1] خبا ورنق ماء مراده ، وتغلب الأمير أرغون عليـه بعون الباري تعالى . وبعد أن توقف حيناً من الزمـان حظي بالموافقة على العودة محفوفاً بالنجاح في أعماله .

ولما بدت مظاهر الوحشة عليهم لم يقـدر الأمير أرغون أن يتوجه نحو بلاط بيكي ومنكو قاآن . فأرسل الملك ناصر الدين علي ملك ــ والذي كان من أعيان الملوك ، كما كان شريكاً لبيكي وخادماً للأمير أرغون ــ والخواجه سراج الدين الشجاعي مبعوثين من قبلـه إلى بلاط بيكي ومنكو قاآن[2] ، يحملون لهما هدايا وتحفاً ويمهدان لعذره عن تخلفه بالمثول بين أيديهما . كما أنه أرسل نظام الدين شاه مبعوثاً إلـى البلاط ، لكنه توفي بعـد أن وصل البلاط . ونظام الدين هـذا خلف شرف الـدين في منصب الرسول لـدى قوسقون[3] بن باتو .

وعاد الأمير أرغون بعد ذلك . حتى إذا وصل إلـى حدود ألماليغ أقام مدة شهرين تقريبـاً في بلاط ييسو بسبب زواجه من ابنة أحـد أمراء ذلك البلاط . بينما تابع الخواجه فخر الدين ومنكفولاد مسيرتهما في الرحيل . أما كاتب هذه الحروف فقد ظل مرافقاً للأمير أرغون .

وحـين انطلق من هناك[4] كان الشتاء ما زال مخيماً على الأرجـاء ،

---

(1) استغل اسمه الشبيه بكلمة « بولاد » وأجرى تلاعباً لفظياً في الجملة .

(2) المقصود أنه بلاط سرقويتي بيكي ومنكو قا آن الواقع على أطراف قراقورم .

(3) لعله « قوشقون » بالشين لا بالسين .

(4) لم يحدد الجويني المقصود من « هناك » . فهي ليست ألماليغ حتماً (ت) .

والثلوج تغطي الوهاد والجبال والبرد يشل حركة الأعضاء ، مما عرقل مسيرته فلم يستطع الوصول إلى مرو إلا بعد ثلاثـة عشر يوماً . كان الأمـير حسين صاحب الديوان قائمقامه في تلك المدينة ، إلا أنه كان غائباً آنئـذ بأمر من باتو في بلاطه . وبعد حين من الزمن وصل خواجه نجم الدين علي جيلابادي من بلاط باتو جالباً المرسوم الملكي من قوسقون في تعيينه رئيس الكتاب ، يرافقه كبار الكتاب ، لتنفيذ ذلك المرسوم . وحين وصلت الرسل لاستدعاء الأمير أرغون ومعهم الأعيان والأشراف ، عيَّن ناقو وخواجه نجم الدين نائبين عنه في خراسان ، ثم ذهب هو لحضور القوريلتاي ، كما ذكرنا آنفاً .

ذكـر توجـه الأمير أرغون

إلى القوريلتاي الكبـير :

صمم (الأمير أرغون) في جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين وستمئـة على التوجه لحضور القوريلتاي ، وانطلق المبعوثون يدعون جميـع الملوك والأمراء والكتاب كما جاء في الأمر الملكي • وحين وصلوا إلى طراز سمعوا بنبأ جلوس منكو قاآن السعيد على العرش الخاني • فحثوا سيرهم • ومع أن هطول الثلوج عرقـل من حركتهم فإن الأمير أرغون لم يمنعه من التعجيل في مسيرته • حتى إذا بلغ أطراف قلان تاشي فوجيء بالثلوج قد غطت الوهاد والهضاب ، وسدت الطرق وغطت المنافذ : فاستحال على الخيـل العبور • فأقام هناك ليلته • وفي اليوم الثاني أمر الأمـير أرغون الفرسان جميعـاً أن يسيّروا البغال في المقدمة ، فاتضح له الطريق وعبر جدول المـاء ، ثم تخطى قمم الهضاب• وكان الفرسان يترجلون عشرة عشرة بالتناوب ليشقوا الطريق• وكانوا كلمـا مروا بحفرة ملؤوها بالثلج ، ثـم يأتي الفرسان خلفهم • وإذا تعذر عليهم جواز موضع غطوه بالقماش المشمع لتعبر عليه الدواب • ولطف الله بهم أن كان ذلك اليوم مشمساً • وتمكنوا بعد كفاح مرير من أن يقطعوا في ذلك اليوم فرسخاً ، فتخطوا المهالك بفضل الباري سبحانه وتعالى • وكانت نفسه العزيزة ترفض التريث والإقامة ، حتى وصل بيش باليغ ، إبـان عودة الأمير مسعود بك من بلاط منكو قاآن ووصل إلى هناك • فرحب كل واحد

منهما بالآخر ، وأقاما احتفالا لهما . وبعد ذلك تابـع طريقه ، بعـد أن بعث رسولا إلى بلاط منكو قاآن يعلمه عن تعبه وإعيائه ، ويحمل إليـه أكداس الأموال . والتقى الرسول مبعوثاً آخـر ، فنصحه بالسرعة والمبادرة إلـى البلاط . بنفحات نسيم العناية الإلهيـة ، وببرعم الآمال والأماني رحب بـه (القاآن) مع غاية من العاطفة الملكية . وأسرع الأمير أرغون خطاه بحكم الأمر الملكي . فوصل إلـى البلاط الملكي في منتصف شهر صفر سنة تسع وأربعين وستمئة[1] .

وفي اليوم الثاني وصل مرافقوه ، فقدموا هداياهم . وانخرط في زمرة أعيـان الدولة . ووصل فيما بعد الملك صـدر الدين والخواجه فخر الدين بهشتي وجماعـة آخرون من الأعيـان والمشهورين ، ممن عاقت الثلوج من مسيرتهم ، وحصلوا على شرف تقديم هداياهم (تكشميشي) . وعندما تمت مراسيم تقـديم الهدايا استفسر الملك عن أحوال الولاية وأوضاع الرعيـة . واستدعي الأمـير بلغاي مع عدد آخـر من الأمراء للمثول ، وبحث الملوك والصدور أوضاعهم . ومن ثم تحدث الأمير أرغون (مشافهة) عن اضطراب أمـور العمال وأسباب قصور الأموال ، وبيَّن أن أسباب ذلك تواتر جنـي الحوالات في غير موضعها ، وتعاقب الجباة ومحصلي الضرائب الجائرين ، ونتج عن ذلك تقصير في الأعمال . وبعد أن أقر بالاهمال واعتذر عن زيادة توضيحه وتبيانه وافق ملك العالم على ما سمعه ، وأقره على سابق خدماته

---

(١) كذا في أغلب النسخ وهو خطأ ، وصوابه « سنة خمسين وستمئة » ، لأن المؤلف نفسه بعد ذلك سيذكر أن الأمير أرغون وصل إلى البلاط سنة خمسين . كما أنه ذكر في مطلع الفصل أن الأمير أرغون « توجه في جمادى الآخرة سنة ٦٤٩ ، فكيف يصل إليه في منتصف شهر صفر ؟ » .

الماضية ، بعد أن لم يترك له شيئاً مخفياً • وأولاه مزيداً من العناية والعاطفة ، وخصه بالمزايا والإنعام بما لم يفعله لأقرانه• وأمر منكو قاآن أن يحضر جميع الصدور ، وطلب منهم أن يستقدحوا آراءهم ليستشيرهم • وسأل كل واحد منهم عن السبل المساعدة على تخفيف الأعباء عن الرعيـة ، والكفيلة بضبط الولاية ، بحيث يغدو الفقراء كالمنعمين وتعمر البلاد • فكل ما كان يشغل بال الإمبراطور هو أن ينفخ عطر عدلـه ونصفته أطراف المعمورة ، وأن يشـل أيدي الظلا م والمتعدين على رعايا المملكة ، فيعم دعـاء عبيد الله عز وجل لدولته الظافرة ، وتتواصل بركاته المتتابعة والمباركة • فلم يبق شك أو شبهة يراود أحداً في مدى غيرته على مصلحة الدولة وعلى رعيته ومدى وقوفه على كل ثلمة ، وتداركه لها • لهذا فقـد أمر الجميع أن يدونوا تقريراتهم بتدبـر وتفكر عميقين ، ويذكروا أسباب الجيد في الدولة والفاسد ، وكيفية تدارك التقصير • حتى يدرس ما يعرضونه ويرى الوسائل الكفيلة لتلافي النقص • وليس خافياً أن الطبيب الحاذق يعمد إلـى استكشاف علامات الـداء ومتى استشرى وما هي قوته أو ضعفه قبـل أن يشرع في معالجته ، ويحرص علـى جس النبض وكشف الأدلة • لأنه إذا لاحق تلك المسببات ودقق في نتائجها سهل عليه أمر المداواة ، وأجـاد في مزج أدويته • وطموح الملك إلـى العدل بمثابة الطبيبالمشفق الذي يحاول أن يزيل علل الظلم والجور بشراب سياسي واحد ، يمزج فيه هيبته • بل إنه سيمنح الرعية حيـاة ملؤها الإنصاف بإشارة منه ، تماماً كنفس المسيح الذي يعيد الحياة إلى الموتى •

وبناء لأوامره انزوى كل واحد يسجل رأيه ، ويشرح أسباب العطب • وفي اليوم الثاني أمر أن يحضر مجلسه كل الأعيان • وبعد أن حضروا باشر في حديثه عن رغبته في مصلحة البـلاد والرعية ، وكانت زبـدة الآراء وخلاصة

الأقوال : لما كانت الضرائب كثيرة ومنوعة ، ولما تعددت التماسات الرعية في التخفيف منها ، وكانت سبباً في تفرق الشعب فالرأي اتباع خطة الصاحب يلواج في بلاد ما وراء النهر ، وتعيينه مقرراً للضرائب ، حيث يقرر كم يدفع كل امرىء سنوياً بحسب قدرته وثروته ، على أن لا يطالب المرء بدفع غيره ، ولا تفرض عليه أي حوالة أخرى • وقد تقرر هذا ، حيث فرض على كل امرىء متمكن عشرة دنانير سنوياً ، ثم تخف الضريبة حتى تبلغ ديناراً واحداً للفقراء • وعلى الجباة أن يسيروا على هذا المبدأ ، ولا يجوز لهم أن يتعدّوا هذه الحدود مع الناس ، ولا أن يجوروا في المطالبة • كما لا يجوز لهم أن يقبلوا الرشاوى • ووضع لكل عمل قانوناً ، ذكر بعضها في فصل جلوس منكو قاآن على العرش •

وبعد أن صدرت الأحكام والأوامر ، ونظمت أمور المملكة تقرر أن يعهد إلى الأمير أرغون أمر حل بعض الأمور وعقدها وإبرامها • وكان قد منحه في بادىء الأمر وسام (بايزه) رأس الأسد ، وعين له قايمتاي[1] وترمتاي[2] مساعدين له • كما حدد لكل أخ من إخوته أميراً مساعداً ، وإخوته هم : قبلاي وهولاكو وأريغ بوكا[3] وموكا[4] • وأصدر قرارات عدة أغلبها في التخفيف على الشعب من أعباء ، ومنح من هم في خدمته مراسيم وأوسمة •

ومن الملوك الذين فوّضهم ناصر الدين علي ملك ، وكان شريك الأمير

---

(١) أي المنسوب إلى قبيلة النايمان (ت) •
(٢) ومعنى اسمه : طائر الجثث الصغير (ت) •
(٣) ويلفظ : أريق بوقا (ت) •
(٤) هو الابن الثامن لتولي بن جنكيز خان •

أرغون في الحكم ، فقد عينه على قيادة (تومان) نيسابور وطوس وعلى قيادة إصفهان وقم وكاشان • وأمَّر الملك صدر الدين على أر"ان وآذربيجان ، كما كان في السابق • ومثلك هراة وسجستان وبلخ وسائر تلك البقاع حتى حدود الهند سلمها إلى الملك شمس الدين محمد كرْت • ومنح الأمير محمود حكم كرمان وسيقران • ووهب كلاً من هذه الجماعة وسام رأس الأسد ، أما الآخرون فمنهم أوسمة ذهبية وفضية ، كلاً على حسب مقداره ، مع المراسيم الملكية المناسبة • ثم أشار عليهم بالعودة إلى قواعدهم ، وإحصاء الأقوام التابعين لحكومته جميعاً • وشر"ف الجميع بألبسة ختائية بما في ذلك الحمارين والجمالين ، واستجابوا لأمره، وعادوا تحت إمرة الأمير أرغون محفوفين بمزيد من العواطف والإكرام •

وتوقف ، عدة أيام ، كاتب هذا التاريخ وسراج الدين شجاعي • وبعد ذلك ، وبناء على تقرير مكتب صاحب الديوان نال أبو الكاتب وسراج الدين ـ الذي كان كاتب بيكي ثم كاتب إريغ بوكا ـ المرسوم والوسام • ثم رحل الجميع في شهر رجب سنة إحدى وخمسين وستمئة •

حين وصل الأمير أرغون إلى خراسان حضر بين يديه الوزراء والصدور واستمعوا إلى المراسيم ، واستجاب العمال والمتصرفون لأوامر منكوقاآن ، وعرف كل واحد منهم واجبه ، لا ينحاز عنه ، ولا يهمله أما من سار على خلاف ذلك ، وظلم الرعية فقد عرض نفسه إلى عقاب عنيف• وحد"د (أرغون) أعمال الأمراء والكتاب على وفق المرسوم الخاني ، وذلك أيام صدور قرار جباية الضرائب والتشاور بشأنه • وقرروا في النهاية على كل عشرة أشخاص سبعين ديناراً ركنياً وذلك حين يتم إحصاء السكان ، تدفع سنوياً • وعين الأمراء والكتاب الذين عليهم تقرير الإحصاء والضرائب • أما في خراسان ومازندران فقد حدد اثنين أو ثلاثة من أمراء المغول ، الذين كانوا قد عُينوا من قبل

الأمراء ، ومعهم ناقو ــ وهو من أقرباء الأمير أرغون ــ والخواجه فخر الدين بهشتي ــ وكان كبير الكتاب ــ والصاحب عز الدين طاهر الذي كان النائب المطلق • وأرسل إلى العراق ويزد نايمتاي وأبي صاحب الديوان • وكم حاول أبي أن يعتزل العمل وينزوي ؛ فقد أبلغه الدهر إلى العقد السادس ، وأنهكته الطموحات والغيرة ، ومل ملازمة العمل الديواني • وكم حاول أن يلزم ذيل القناعة مع بقية عمره قبل أن يقع في مستنقع الحسرة والندامة ، ويعزف عن أيام اللهو • وهذه القطعة الملمعة[1] تصف حاله :

إلامَ ارتكابُكَ غيرَ الصَّوابِ وحتّام سحبُكَ ذيلَ التصابي ؟

« يا جويني يا جويني إن كان طلبك الشعير ، فلم تتعجّل في طمعك ؟ »

تُحاسبُ غيرَكَ جهلاً وتَنْسَى سريعَ الحسابِ شديدَ العقابِ

« لقد صورت تقريراً عن نفسك من غير جمع عام ، فيالك من رجل بارع حاذق ! »

لئن أعتبَ الدهرُ يوماً سِواكَ تُعاتِبُ دهرَكَ شرَّ العتابِ[2]

« يجعلك جبنك تتلوى طوال الليل والنهار ، بسبب سوء طبعك »

سنا بارق الشَّيب يعلو سناءً[3] ومرَّ شبابُكَ مــرَّ السَّحــابِ

---

(1) الملمع : القصيدة التي تنظم بالعربية والفارسية ؛ بحيث يرد بيت عربي فآخر فارسي ، وكأنها بروح واحدة (ت) .
(2) أعتبــه : أرضاه .
(3) يبدو أن (سناء) نائب مفعول مطلق للفعل (يعلو) .

« لقد ولى الشباب وحل المشيب ، ونهاية الأكذوبة هي السبات العميق (الموت) »

تَولّى الشبابُ وحلّ المشيبُ   وجلّ المُصابُ فلُذْ بالمَتابِ

« إن الشيخوخة تضغط على مهماز البقاء ، فلم تدير عنان الرغبة تجاه ما لا طائل وراءه ؟ »

فلا يُغْوِيَنْكَ الغواني ، فدون   عذابِ الثنايا ثَنايا العَذاب

« اخلع عنك قناع القناعة ، فلن يصلك ضياء القمر من قمر المقنع[1] »

ولا يَخْلبَنْكَ ولوعُ الشرابِ   فما هيَ إلا وُلوغُ[2] السرابِ

« إن لم تكن ذواقة حقيقة ، فلمَ تملؤك الخمر دائماً مثل كأس لايفرغ؟ »

أتحشَرُ في مَكْمن الخازنينَ   ويحشر دودُ النُّهى في الخراب ؟[3]

« لا يقرّ لك قرار طوال الليل والنهار كمزن السماء أو كمثل (الحشرة) قطرب الكثيرة الحركة . كل عمرك في تحرك دائب » .

لكن الأمراء لم يحققوا له رغبته في الانزواء ، فحملوه معهم إلى العراق مُكرهاً . حتى إذا وصل منطقة إصفهان داهمته الأوجاع وأسلم روحه إلى بارئها . رحل من منزل الفناء إلى محطة البقاء .

---

(١) المقنع الكندي : أحد المتنبئين . صنع بئراً وملأه بالزئبق فصار له قمراً كأنه معجزته (ت) .
(٢) ولغ الكلب في الإناء ومنه وبه : شرب ما فيه بأطراف لسانه (القاموس) .
(٣) لم يتضح للمحقق فهم معنى البيت . وقد رأينا جعل الكلمة الأخيرة بالخاء (الخراب) فلعل هذا التصحيف ينفع في إدراك المقصود (ت) .

وأرسل الأمير أرغون ترمتاي وساريق بوقا بصحبة الملك صدر الدين لتنظيم الإحصاء وترتيب الآلاف بالتعاون مع الخواجه مجد الدين أمير تبريز، بينما توجه الأمير أرغون لزيارة باتو لدراسة بعض الأوضاع وحل بعض المعضلات ، وكان يرافقه الخواجه نجم الدين[1] في رحلته هذه . واستعرض الطرفان قضاياهم وفق قرارات منكوقاآن واقتراحاته . واتجه بعد ذلك عن طريق « دَرْبَنْد » إلى بلاد « كرجستان » وأرّان وآذربيجان ، وشغل بالإحصاء وتقرير الضرائب وكيفية جبايتها . ثم قصد العراق .

وفي أثناء غيبة الأمير أرغون اتفقت جماعة من القصر الهمايوني على الضغينة والحقد ضده . فقدموا ومعهم مرسوم يقضي بتعيين جمال الدين خاص الحاجب مشرفاً ومفتشاً . وحين بلغ خراسان ولم يجد في الساحة أحداً من أولئك الرجال باشر حساباته ، وتصرف في البلاد ، وامتدت يده كما شاء.

وبعد أن أنجز الأمير أرغون مهماته في العراق وآذربيجان ، عجّل في استقبال الملك هولاكو ، فوصل إليه في « كيتو »[2] . وقدّم إليه واجب الخدمة والضيافة . ثم تابع مسيرته إلى قصر منكوقاآن . فجاء إلى خابَران. وقد اتجه جمال الدين خاص الحاجب ، بعد عودة الأمير أرغون ، إلى هولاكو، وعرض عليه خلاصة استطلاعه عن الملوك والوزراء والأمراء وأعيان الرجال وقال له : لديَّ مآخذ كثيرة على كل واحد من هؤلاء ، وعلي أن أذهب إلى بلاط منكوقاآن . فأجابه هولاكو : إن أرغون مفوض في هذا كله ، وصواب رأيه منوط باتفاقه مع منكو قاآن ، وكنا اتفقنا معه على تنظيم أمور البلاد . وذكر جمال الدين اسم مؤلف هذا الكتاب في هذه القائمة من الأسماء . وحين

---

(١) اسمه الكامل : نجم الدين علي الجلابادي كما مر (ت) .
(٢) اختلف ذكر اسم هذا الموضع في النسخ الأخرى . ولعلها « كِش » المعروفة الواقعة غربي سمرقند . وانظر ياقوت مادة « كِس » .

وصل الملك في قراءته إلى اسمي قال : إذا كان لديك ما تقوله ضده فليكن بحضوري حتى يكتشف هنا ويُدرس هنا . لكن (جمال الدين) أسف من إقدامه وندم على فعلته واعتذر ، واتجه من هناك إلى مقام الأمير أرغون في مرو .

وتمت هناك بينهما، وبحضور الخواجه فخر الدين[1]، المصافاة، وتناسيا الماضي . واتجه الجميع نحو البلاط . وفي شهر ربيع الأول سنة أربع وخمسين وستمئة وجّه الأمير أرغون ابنه كِراي ملك والأمير أحمد وكاتب هذه السطور نحو خدمة الملك هولاكو لترتيب المهمات وتنظيم المصالح . كما أمرهم بإدارة ممالك العراق وخراسان ومازندران .

ووصل الأمير أرغون بنفسه إلى بلاط ملك العالم ، وكان في مقدمة المنتظرين لقدومه جماعة النمّامين والحاقدين ، فلعلهم يوفّقون إلى عمل ما ، أو يدبّرون له شيئاً يؤذيه ، أو يقومون لدولته التي يحفظها الله ما يُدني من مقامها . وانضم خاص الحاجب إليهم وقدّم تقريراته . فشُغل الكتّاب الختائيون بدراسة محاسباته ، بينما تفرغ رجال الحكم والقضاء لدراسة أوضاع الأمير أرغون . لكنه كان محروساً بعناية قاضي القضاء الأزلي، فلم يجن خصومه سوى البلاء والعناء ، ولم يحصلوا ، بعد المناقشات ، سوى على الخجل والندم . فحوّل أمر سادة الوشاة في البلاط وفيهم خاص الحاجب وغيرهم من الوشاة إلى الأمير أرغون ، بينما قُتل بعضهم في البلاط (بأمر القاآن) ، وقُتل آخرون بطوس حين وصلها الأمير أرغون . أما خاص الحاجب فقد أعيد مخفوراً يرافقه فارس واحد .

وفي هذه الأثناء تمّ إحصاء الولايات جميعاً . فوزع ملك العالم الولايات على أقربائه جميعاً وإخوته . وسيأتي ذكر هذا التوزيع في مكانه المناسب .

---

(1) يبدو أنه فخر الدين بهشتي .

ومنذ تحركت مظلة منكوقاآن الضخمة الشبيهة بالفلك نحو أقصى بلاد الختاي، أمر الأمير أرغون أن يعود مع جميع الملوك والأمراء التابعين لولايته ، معززاً مكرماً ، محملاً هدايا خاصة • ومنح الأوسمة والمراسيم للأمراء الذين لم يمنحوها في المرة السابقة • ومات الخواجه فخر الدين بهشتي في البلاط ، فخلفه على منصبه ابنه حسام الدين أمير حسين • ومع أنه لم يكن أكبر إخوته فإنه تقلد المنصب لأنه قام بعملية كتابة اللغة المغولية بالخط الأويغوري • وهذا هو الفضل الذي عرف بـه في زمانه • وعيَّن باتو خواجه نجم الدين كبير الكتاب • واستمر الكتّاب والملوك والأمراء الآخرون مَن كانوا على مناصبهم السابقة حتى هذا التاريخ • وتوجه خواجه نجم الدين إلى بلاط باتو •

حين وصل الأمير أرغون إلى خراسان في شهر رمضان سنة ست وخمسين وستمئة ، اضطر ، لسبب خطير ، إلى مقابلة القاآن ، والتباحث معه في هـذا الأمر • كما ناقش عدداً من المسؤولين السياسيين • وناب منابـه في الأمور الديوانية والخاصة خواجه عز الدين ، الذي كان يتحلى بأخلاق طاهرة شبيهة باسمه « طاهر »[1] ، ويتصف بدراية ظاهرة للناس جميعاً • كما كان ملتحم الوشائج ، مشتبك الموالاة ، بعيداً عن المراءاة ، فقد :

تجاوزت القُرْبَى المودةُ بَيننَا وأصبح أدنى ما يَعُدُّ المُناسب

وبشأن موضوع الإحصاء وتعيين الضرائب في خراسان فقـد كانوا يسهبون ويطنبون • ثم امتنعوا عـن ذلك ، وتوقفوا عن الإحصاء لهـدف التخفيف من كثرة الضرائب التي كانت على خراسان •

واتجه الآن الأمير أرغون إلى بلاط هولاكو والذي كان في حدود أرّان• وبعد أن تشرف باستقباله وتدارس معه بعض القضايا اتجه إلى كرجستان ، وباشر فيها مسألة الإحصاء وتقسيمها بناء على الآلاف • ففي المرحلة الأولى

---

(١) اسمه أصلا عز الدين طاهر (ت) •

قرروا على كل عشرة أشخاص سبعين ديناراً . ولكن لما كانت مصاريف التجنيد والجيش والدواب باهظة وزيادة عن الحد ، ولم تكن الضريبة المفروضة كافية، فقد صدرت الأوامر المالية بزيادة النسبة عن طريق الحوالات. كما كان أصحاب العقارات والأغنياء ، قبل تحديد الضريبة ، يشترك الواحد منهم مثلاً في عشرة مواضع ، وبالنظر إلى هذه الشركة الموزعة يُطالب بدفع حوالات ذهبية كثيرة، قد تبلغ خمسمئة دينار أو ألف دينار. وحين أقر القانون المالي الجديد لم يعد يدفع الواحد منهم غير عشرة دنانير ، فليس عسيراً على الأغنياء ، في هذه الحال ، إذا دفعوا ضعف هذا الرقم الزهيد . في حين أن الفقراء لا يتحملون دفع الضعف . وحين عُرضت هذه القضية على الأمير أرغون أمر أن يعاد وضع القانون المالي بحيث يدفع الأغنياء خمسمئة دينار فما دون ، في حين أن الفقراء يدفعون ديناراً واحداً . وبهذه الطريقة يمكن تأمين المصاريف . وسارت عملية الضرائب على هذا المنهج تماماً ، بعد أن تمت عملية الإحصاء بكل دقة .

وذهب الأمير أرغون في بادىء الأمر إلى كرجستان لأن داود ملك بن قيز ملك عصى وتمرد هناك . وكان هولاكو قد أرسل جيشاً كبيراً من المغول والمسلمين لإخماده . فاتجه الأمير أرغون مع جمع من خواصه وعدد من سكان مدينة تفليس . كما وصلت جيوش من شتى الأطراف . فقتلوا كثيراً من الكرجيين وأسروا آخرين . ثم عاد الأمير أرغون . وفي أواخر شهر رمضان سنة سبع وخمسين وستمئة قدم إلى بلاط الملك (هولاكو) في تبريز حين توجه (هولاكو) إلى الشام[1] ، وعرض عليه أوضاع بلاد الكرج . فعين له جيشاً مغولياً، ومجنَّدين (حشراً) من آلاف بلاد العراق وعينه لإخضاع بلاد الكرج، وفوض إليه قيادة الجيش . وحين وصل إلى تفليس طالب داود الملك الكبير

(١) كيف يلقاه في تبريز سنة ٦٥٧ وهو في هذا الوقت ما زال على أبواب حلب . فإما كان ذلك في ٦٥٨ وإما قبل ذهابه إلى العراق (ت) .

بدفع ما تبقى عليه من أموال الضرائب ، لكنه تمرد ورفض الدفع . وكانت نتيجته قطع رأسه[1] .

ذكر أحوال شرف الدين الخوارزمي

حاكم محكمة بلاط مَن « ردَّ مَن ردَّ لا لعلةٍ ، وقبِل مَن قبِل لا لعلة » ، مَن حرص على تكوين أرواح طائفة السعداء ، وسدَّ على الأشقياء في حظيرة الشقاء . والسعيد سعيدٌ في الأزل والشقيُّ شقيٌّ لم يزل . حين نفخ الروح في خلقه ومزجها في الأفئدة ، وعيَّن عن طريق التناسل والتوالد أوان ظهور كل امرىءٍ ، فبرزوا بناء على قضاء تقديره ، وهبطوا من المقام العلوي إلى الدرك الأسفل . فطـرز ذلك الإنسان بلباس وجوده السعيد طبقاً لآثار الخير من أفعاله وأقواله من غير أن يتكلف أو يتعمد . بينما وشم الآخر بميسم الشقاء المناسب لحركاته وسكناته . ومصدّق هذا المعنى اللفظ الدري الذي صدر عن النبي ﷺ : « منَ الناس ناسٌ جُعل مفتاح الخير بيده ، ومن الناس ناس جعل مفتاح الشرّ بيده » . وإيضاح خاتمة هذه المقدمة وإفصاح تشبيب هذا التقديم هذا البيت :

إني امرؤ أرسم القصائد للعِدى   إنَّ القصائدَ شرُّها أغْفالُها[2]

ترجمة شرف الدين آتية : مهندس معمل الخلق والإبداع صنعه مثل شجيرة القذارة وجعله مُستفرغ الشوائب ومستودع الأخلاط والرجس . حتى اسمه موافق لفعله ، فصحّ عليه قول : « الألقاب تنزل من السماء » .

---

(1) في النسخة « ب » بياض قدر ثمانية أسطر، وربما كانت نسخة المصنف الأصلية بيضاء كذلك وقصده إضافة بعض الأخبار ، ثم لم يتيسر له .

(2) البيت لبشامة بن حزن النهشلي، وهو من شعراء الحماسة (الحماسة : ١/٢٠٧).

فقد تركب لقبه من حرف الشين والراء فصار منهما « الشرّ » ، فغدا لقبه « شرٌ في الدين » • ولما كانت العادة في النطق تخفيف المضعّف وحذف حروف العلة من الأسماء المتداولة فقد أسقط من اسمه تضعيف الراء وحذفت الياء فقالوا له : شرف الدين[1] • ولا بدّ من ذكر لمحة عن طبعه الطّبِع[2] المجبول فيه ، وعن داخله النجِس المشمول بالنحس :

وما أهجو لرفعتـــهِ ولكنْ   رأيتُ الكلب يُرمى بالحجارة[3]

وامتثالاً لإشارة صاحب الرسالة : « اذكروا الفاسق بما فيه » ، وحتى لا يغيب عن الرجل البصير شيء ، ولا يسهو عن هذه الإشارة فلا بدّ مـن إشاعة معايب أخلاق الفسّاق بين الخاص والعام •

وذلك محصور في قسمين : الأول : حين تسير في المحافل والمنتديات أنباء مثالب السفيه ومساوئه يُعرض عنـه ، عندئذ ، أصحاب العقول المتزنـة ، والمتزينون بحلية السعادة • ويجتنبون أمثاله ، ولا يهملون إقبالهم على مكارم العادات ، فتثبت معانيها في ضمائرهم ، ويرقون بها مراكب المعالي • فقد سئل أمير المؤمنين علي عليه السلام : ممَّن تعلمت الأدب ؟ قال : ممَّن لا أدب له • والثاني : أن المعيوب المذكور إذا كان مستعداً لقبول أنوار الكرامات فإنـه

---

(١) يلاحظ القارىء أن الجويني كثيراً ما يربط عواطفه من حب وحقد بالأحداث والأشخاص ، وهذا مالا يجـوز للمحقق • فالتاريخ شيء والعواطف شـيء آخر (ت) •

(٢) الطبع على وزن كتف: الصديد والوسخ، وبمعنى قليل الحياء وعديم الناموس •

(٣) البيت لأبي يوسف يعقوب بن أحمـد من معاصري الثعالبي (ورد ذكـره في التتمة) • وأصل البيت مع ما قبله :

وقالوا لـي : أبو حسن كـريم   فقلت : الميم هـاء في العبـاره
ومـا لجلالـه أهجـوه لكـن   رأيـت الكلب يرمى بالحجـارة

يُعرض ، بلا شك ، عن تلك المقامات ، وينقبض عن ملامة اللائمين ، ويعتبر اعتراضهم عنه واحترازهم عين الفرض ، ويقدِّم على كل الأمور إحراز كمالات السعادة حتى يسلِّم بديمومة شينه وعاره على صفحة الزمان،ويتظاهر بتمسكه بالخصال المقبولة والخلال المنتخبة ، وبإزاحة سيئات أعماله عن نفسه ، حتى يُذكر بين الأقران في زمـان وجوده بحسن الصفات . وإن ، والعياذ بالله ، بدت عليه علامة الإدبار والخذلان فإنه لا يتراجع عن خطئه مطلقاً ولا يرفع قطن الغفلة عن أذنه ليستمع إلى التنبيه ، ولا يرتدع عما هو فيه بل إن الزمان يحثه على الإصرار والمزيد ، ويحضه على رسوخ سيئات أعماله في نفسه أكثر:

والشيخُ لا يتركُ أخلاقَهُ حتى يُوارى في ثَرى رمسهِ[1]

« لا يمكن لمخازيه أن تنفصل عنه ، كيف يمكن فصل النتانة عن الروث؟»

« يقول (الروث) : لمَ هجوتَني ؟، هو الهجاء فماذا الذي به تجهوه؟»

كذلك كان الفاسق الذي لا تليق به العظمة :

لا يليقُ العُلى بوجهِ أبي يَعْـ ـلى ولا نُورُ بَهجة الإسلام[2]

إنـه أفعى الصورة ، عقرب السيرة ، لئيـم ، شتام ، مؤنث الشكل ، مخنث الفعل :

أبو الرضا القاري لـهُ منظـرٌ يُعـربُ عـن بِنْيـةِ تأنيثِ
مخنثُ الطبْع وليستْ لهُ خفَّـة أرواحِ المخانيثِ[3]

نمَّام ذو وجهين ، قرين عوار وشين ، شؤم على كل مخدوم ، مذموم من محاسن السيرة محروم ، فاجر متفاخر بالظلم والعَدْوى[4] ، مؤاجرٌ موجود

---

(١) البيت لصالح بن عبد القدوس الزنديق (الأغاني : ١٥/٣) .
(٢) البيت لابن الحجاج الشاعر الخليع (محاضرات الأدباء : ١٤٨/١) .
(٣) البيت لأبي الخير المفضل بن سعيد المعري (تتمة اليتيمة ــ القسم الأول) .
(٤) العدوى : الظلم (القاموس) .

في الدنيا في المرتبة القصوى ، ناقص المنظر ، يزيد المخبر[١] ، سيء الجوهر قذر الأثر ، غدار للأصدقاء غماز للأولياء ، في التصلف والضلالة شبيه بنمرود، وفي التعسف والجهالة شريك ثمود ، فرعون ذو الأوتاد ، عادٌ في إبداع الظلم والفساد في البلاد وبين العباد ، مفعول مسمىً فاعل ، مخذول عن أمر الدين غافل ، جماد كالراكب حمار كالمركوب ، قاتل للمظلوم جالب للظلم ، عفريت بصفة ابن آدم ، مُدين الأخيار موثوق الأشرار، هاتك الأستار فاتك الخطاب، أسود الطاس أبيض العين ، عبوس كالرُوسي[٢] ، متصل بالغضب مطعون لدى كل لسان وملعون على كل لسان :

فما دَعوتُ عليهِ قَطُّ ألعَنُهُ   إلا وسامِعُها يَتْلُو بآمينِ

حيوان بأربعة أطراف يدين ورجلين ، شيطان بهيئة آدمي ، شرير بأفعال عفريت ، خنزير في لباس بشر ، إبليس كثير التلبيس ، وضيع دنيء خسيس ، خناس[٣] في زي الناس ، نسناس كثير الوسواس :

« إنها معجزة في هذا العالم ، رؤية آدميٌّ وليس من أبناء آدم »

« هو كالعفريت في تلبيسه ، لا يخلو من خبث وبهتان »

إنْ كانَ يَقْبلهُ أبونا آدمٌ   فالكلبُ خيرٌ من أبينا آدمِ[٤]

---

(١) لعله يشير إلى يزيد بن الوليد الملقب بالناقص، ويزيد بن معاوية، وقصده بين الزيادة والنقصان .

(٢) تشبيه غريب أن يشبه الرجل العابس بالرومي . وتعجب المحقق له كذلك(ت).

(٣) الخناس : الشيطان (القاموس) .

(٤) البيت لأبي الحسن علي بن الحسن اللحام من شعراء الدولة السامانية (يتيمة الدهر : ٤/٤٢) .

أستغفر الله من هفوات اللسان ، قادر بجذر الجهـل ، درويش متزيٍّ بالفضل ، نفـور من واجب الكرم ، غيور على الحرم ، ضخم الجثـة ضيق الأخلاق ، عديم الحمية ، فارغ من الاسم والحياء ، صاحب نظر دقيق لكنه في الحساب شعيرات ودوانيق ، فهيم في التحرمز[1] أبلـه في التبرز ، فحاش ، كثير النخالة في الشعير ، نباش جذاب الكلام من الأوباش ، عازف عن الأوامر ، حريص علـى المناهي ، مطلق العنان في الشر ، قابض على البنان في الخـير ، جافٍ إلا عن الجريمة حارم الناس من كل رحمة ، أعور بالفنون عُوّار[2] ، أعمى من الفضل غفار ، كالكلب الحريص على الدنيا الفانية ، غـير عابىء بالعاقبة والآخرة ، سجل على جبينه : « آيسٌ من رحمة الله » ، حجبت أنوار اليقين عن صحيفة صدره المظلم بحجاب الشـك والشبهة • وحقيقة الحـال وصدق المقال أنه :

« لو أدرك إبليس فعلك ، لأوصى لك بحرفته »

« أو عرف آدم بولادتك ، لخصى نفسه خجلا منك »

والحق أن مقدمه على أهل خراسان شؤم ، فكأنه مقدمة لمقدم الدجال ، بل كان طليعة هجوم الآجال :

عينـاهُ عُنوانُ شؤمٍ	والشـؤمُ في العُنوانِ
في صُلبِ آدم سُمٌّـي	مُبشّـرَ الأحـزانِ[3]

---

(١) الحرمزة : الذكاء (القاموس) •

(٢) العوار : القذى (القاموس) •

(٣) البيتان لأبي الفضل الكسكري ، عزاهما الثعالبي إليه (ختام تتمة اليتيمة) •

وشرح السر المغطى والرمز المكنّى أن هذا الإنسان العديم الأصـل ، المعرى من ثياب الفضل كان ابن حمّال من قرى خوارزم :

ألا حبذا أهـلُ المَلا غيرَ أنّـهُ إذا ذُكرتْ ميٌّ فلا حبّذا هيا[1]

وحين فطم ونشأ برز بجماله لطفاً ومنظراً بفعل اعتدال الطقس ولطافة الماء ، طال شعره حتى بلغ معقد إزاره ، يخجـل القمر من صباحة وجهـه ، أسنانه مثل الدر اللامع ، وفمه شبيه بالفستقة الضاحكة ، والخلق من عشقه باكون :

على وجـه مي مسحة من ملاحـة وتحت الثياب الخزي لو كان باديا[2]

بينما كان ملك خوارزم يوماً يمر وقع بصره عليه ، فجذبه وجهه المتجانس التقاطيع ، وأعضاؤه المتناسبة ، فأغرم بمحاسنه ، وقربه من بلاطه ، واتصل به فزال حجاب الحياء بينهما . وحـين مضى حين على ذلك ، بـرع في آداب الخدمة ورسومها . غدا سكرتير (دواتي) الملك ، بل دواة لقلمه ، ودواء لدائه ، بـل إناء لثمالتـه . وبسبب ملازمته للقلم أدرك الفرق بين السواد والبياض[3] ، وهلم جراً حتى بلغ مرحلة بروز شعرات لحيته فانحط جماله . ومعلوم أن جمال الأمرد ينحسر كوفاء النساء :

« لن يبقى وجهك مزهراً دائماً ، كما لن تدوم الحسرات والأوجاع في فؤادك »

والعشق الشيطاني وسواس ، يقذف الرماد في عين العقل ، وثار ذلـك الهوس تريق ماء الإطفاء بأقل إراقة ، وتهب كالريح :

« ذلك العشق الذي لا يغدو قليلا ، ومهما طال أجله فلا يبتعد »

---

(1) البيت لذي الرمّة يهجو به مية (الأغاني : ١٦/١١٩) .
(2) المصدر السابق .
(3) يقصد أنه تقدم في مجال الكتابة بشكل جزئي (ت) .

وقد اعترى الملك الملل منه حين امتدت به السن ، واشتد به الكلل :

كنتُ أخشَى جَفوةَ الغيـ ـدِ إذا ما ازداد سِنّي
فَحَبانِي الشَّيبُ عنهُنْ نَ سُلُوّاً فوقَ ظَنّي
خِفتُ أنْ يُعرِضْنَ عنّي فإذا الإعراضُ منّي

إلى أن وصل من البلاط مرسوم ملكي (فرمان) بأن يتوجه جنتمور بجيش خوارزم إلى خراسان ، بمعونة جورماغون ، واستخلاص تلك البلاد . فاحتاج جنتمور إلى كاتب ، فلم يرغب أحد من المشهورين من الكتاب بتلك السفرة لسببين : الأول أنها تهدف إلى هدم بلاد الإسلام ، والثاني أن خاتمة العمل غامضة وغير معروفة النتائج . فألزم ملك خوارزم شرف الدين بالسفر ، وكلفه بخدمة (جنتمور) :

أوجُهُ المُرْدِ مُضيّهْ وثَنَاياهُمْ شَهِيَّهْ
ولهمْ دَلٌّ وغَنَجٌ وشَفَاعاتٌ قَوِيَّهْ
فإذا الشعرُ بدا في صفحةِ الوجهِ الوضيّهْ
فرّقَ الإلفُ عن الألْـ ـفِ كتفريقِ[1] المنيّهْ

« يا من رهنت حديقة الورود مقابل الأشواك ، فاحصد الشوك الذي زرعته »

« كنت قد قلت : تعال يا جميل ، والآن أقول لك : ابتعد أيها القبيح »

وأعطوه حماراً بعين واحدة ، كالدجال[2] ، فحين امتطاه غدا كقولهم :

« ركب زنبور عقرباً إلى جحر حية » . وسار في رحلته ، فقطع مئة ألف محروماً :

---

(١) القطعة لأبي محمد طاهر بن الحسين المخزومي (تتمة اليتيمة . مع اختلاف) .
(٢) يروى أن الدجال سيسير على حمار (ت) .

« هذا النتن هذا المفلوج ، هذا المجهول الشريد »

« من لا يعرفه أحد في بلدته ، ومن لا أهل له في أي مكان »

وبعد أن لازمه زماناً تعلم اللغة التركية ، فغدا ترجماناً إذ لم يتوفر لديهم أحـد :

إذا مـا الأمورُ اضطربْنَ اعْتَلى سَفيهٌ يُضامُ العُـلا باعتِلائِـهْ
كذاكَ إذا المـــاءَ حرَّكْتَـهُ طَفـا عَكَرٌ راسبٌ في[1] إنائِـهْ

كانت أوضاع خرسان آنئذ في اضطراب ، والفتن والقلاقل محتدمة . ومع أن المنطقة كانت معبراً للجيوش ، إلا أنهم لم يستطيعوا ، بعـد ، إخماد تحركات الشعب . وسبب ذلك أن المغول حين كانوا يخمدون منطقة أو قرية كانوا يكتفون منها بأخذ العلف وبعض الكتان ، من غير أن يتعرضوا لها . حتى القرية التي يفتحونها عنوة وبحرب كانوا يحملون منها أقمشتها ويسوقون دوابها ، وعلى حسب ما يبدو ، من غير أن يعملوا سيوفهم ببقية أهلها ، ولا أن يتعبوا أنفسهم في إذلالهم . ولم يكن المغـول في بادىء أمرهم يعبؤون بالذهب والجواهر . ولكن حين تمكن جنتمور حلى ، هذا النبيل[2] ، في أنفس جنوده حب المال ، كإبليس إذ أوقع في قلوب الناس حب زهرات الدنيا ، ثم حول هذا الحب إلى بلاء . وكان حيثما حل أو مر فرض الضرائب علـى الأهالي الخاضعين . وإذا مر في مكان أُخذ حرباً فرض أشد العقوبات على سكانه حتى يسلموا كل ما يملكون ، ثـم لا يتركهم أحياء . أما من أبقاهم أحياء فقد اشترى منهم حياتهم بالذهب . فأقبل الناس في تلك البقـاع على

---

(١) القطعة لأبي القاسم الحسين بن علي الوزير المغربي (تتمة اليتيمة) .
(٢) يقصد به شرف الدين حتماً (ت) .

شراء عزتهم بالذهب .. وهكذا . حتى غدت خراسان ومازندران ترزح تحت حجارة البلاء ، وتطحن بحجر الرحى المدور ، وتداس بأقدام القضاء حتى لتغدو كالتراب .

وتقرر أن تكون تلك البقاع تحت إمرة جنتمور بعد أن أخمد الفتن وأزال القلاقل . أما ذلك الفاسق المذكور فبعد أن كان في فقر وفاقة غدا صاحب جمل وناقة ، واغتنى بدماء قلوب اليتامى والأرامل . قال الله تعالى : « يوم يُحمى عليها في نارِ جهنَّمَ فتُكوَى بها جِباهُهم » . وبسبب طول مدة خدمته واختفاء أصحاب الكفاءة عينه رئيس الكتاب ، ودمعت عين الفضل والمعالي بدم ممزوج بالماء ، وهذا يقودنا إلى الإشارة :

أصبح وجهُ الزمانِ مُنْقلبا	وصارَ وجهاً قفاهُ يا عَجبَا
استأخرَ الرأسُ عن مَرَاتبهِ	وصار من بعدِ عزِّه ذَنَبا
وأُسْرِجَ العَيرُ بعد ذِلَّتهِ	سرْجَ نُمورٍ مُكلَّلاً ذَهبا
كم مِن دَعِيٍّ ونسلِ فاسقةٍ	لا يدَّعي أكرمَ الرجالِ أبا
قد راشَهُ الدَّهرُ واستقام له	فاكتسب المال وادَّعى الحَسَبا

وكانوا كلما أقروا ضريبة في ولاية ، أو وصلتهم أموال منها سجلوه على ورق البقال[1] . وعلى هذا دونوا حساباتهم على قطع من الورق حتى أقدم بعض أعيان خراسان على وضع دفاتر رسمية نظموا فيها الحسابات . واستمر الحال كذلك حتى توفي جنتمور وخلفه نوسال . وذهب هذا الطاغية إلى بلاط باتو ، فحصل منه على مرسوم يبقيه على منصبه الذي هو عليه . واستمر على عمله حتى جاء كركوز إلى الحكم . وظل مواظباً على مقامه . ولما كان كركوز

---

(١) يقصد الجويني أن كتابته لم تكن منظمة ، بل كانت على أوراق متهافتة أشبه بورق البقال .

داهية ومن الكفاة الذين يُشار إليهم بالبنان فقد استحال على شرف الدين أن يُبرز كفاءته أو يتحكم ، أو يقدم على أمر ، أو يظلم أحداً من غير مشورته وأمره . بل كان عمله في تلك المرحلة ضعيفاً . وحال أن يحرّض ابن جنتمور ، واسمه إدكو تيمور ، ليحتل منصب أبيه . وكان يرسل ، سراً ، الرسول تلو الرسول إلى إدكو ، يحملون التقارير عن كركوز ، وكان في كل رسالة يغرس شجيرة الخلاف في فؤاده . بينما كان يتظاهر بولائه لكركوز ، ويؤيده في عداوته لإدكو تيمور . كن امرأة تكن امرأة ، أو تكن رجلاً فأنت رجل . واستطاعت وسوساته أن تجد طريقها في نفس إدكو تيمور ، فأرسل مبعوثاً إلى القاآن يعرّفه بأحوال كركوز . فعين القاآن ملك العالم الأمير أرغون وعدداً من الأتباع لتفحّص أحواله واستخراج الضرائب . وحين وصلوا إلى خراسان رافق شرف الدين كركوز ، بهدف النفاق ، إلى القاآن . واستمر على ملازمته لكركوز في البلاط ، بينما كان ينهي إلى إدكو تيمور ما يجري . وحين ظفر كركوز بعطف القاآن ومرحمته ، وانخذل خصومه ، وقُرّع عدد من أصحاب إدكو تيمور بالعصا ، قدّم واحد من القوم تقريراً يتضمن خطاً بالياً يشبه خرء الذباب إلى كركوز فاتضح الشك وانجلت الحقيقة ، والتي بيّنت أن أكثر ذلك الشغب كان بفعل ذلك اللعين وتقرير هـذا الشرير وأقول هذا الذئب . وحين وصل النبأ إلى مسامع الملك العادل والإمبراطور العاقل أرسل أمـره الذي نطقه باسمه الأمير جينقاي : إن شكله ووجهه ينبيان عن خبثه وفساده . إن كان تابعاً لكركوز فعليه أن يبعد رأسه عن منهج الصواب . فبكذبه وتحايله اضطر كركوز إلى الانشغال عن الاهتمام بالبلاد التي عُيّن عليها . فيجب أن يُبعد إلى مكان آخر لتنصلح أحوال خراسان وتعود المصالح إلى أوضاعها المعهودة .

حين علم شرف الدين هذا الجواب ، وخاف من انتقام كركوز ، شعر بسعادة بتوقفه في البلاط وتأخره عن مرافقته . لكن بعض الرجال حرّضوا كركوز بأن شرف الدين عدو ضعيف ، وعلى العظماء أن يتداركوا أمورهم في جميع الأوقات قبل أن تستفحل، ولا يهملوا مصالحهم ولا يمهلوها ، ويتدبروها بكمال العقل وبعد النظر . فليس العالم خالياً من الفساد ومن غِيَر الزمان . فإن بقي في هذه الأرجاء فقد يجد طعنة أو ثلمة ، أو ينتهز فرصة لفتنة أو تشويش . وكان كوركوز يقول : إنه ثعبان قفز من سلته ، وسيعض كل من يلقاه ، وهدفه : « دعِ الشرَّ يَعبُرُ » . وظلت تلك الجماعة تصرُّ على الحزم والاحتياط ، حتى نزل كوركوز عند رأيهم ، وادعى أن حسابات خراسان ومازندران لما تتم ، فيجب ألا يعزو عمال الخراج تقصيرهم إلى غيابه ، وأموال الديوان غير منظمة ، فطلب الإذن بعودته . وأعيد ذلك الظالم الذي لا مثيل لظلمه بأمر ملكي من غير مرسوم . ولم يُظهر نحوه أي علامة من علامات الغضب والسخط حتى عبروا نهر جيحون ، وخرج أمراء خراسان والعراق وملوكها وأعيانها لاستقباله ، ولكن من غير أن يعير شرف الدين أي التفاتة . وكان يتنقل راكباً كأي فرد من الناس ، ويغدو ويجيء :

إنَّ الوزيرَ هو الذي   يُمسي وزيراً عندَ عَزْلِهْ

إنْ غابَ سلطانُ الولا   يةِ عادَ في سُلطان فَضله

حتى وصلوا إلى طوس ، واستقر كركوز وأركان بلاطه في معسكره ، وهناك أوقفوه وأسروه ، وباشروا في التحقيق بجرائمه . وبعد أن أقرَّ واعترف أرسل (كركوز) مبعوثاً إلى القاآن . وفي الطريق وصلهم نبأ وفاة القاآن ، فأغلقت الطرق ، وعم الفساد فعاد المبعوث من منتصف الطريق وقابل كركوز . فسجنوا شرف الدين بأمر كركوز ، وعهدوا بأمره لدى أحد الملوك . وفي

الوقت الذي غلوه ، وأنزلوا فيه عذاب أبي لهب وبلاء حمالة الحطب أرسل إلى الأمراء مبعوثيه يشكو لهم حاله . فأسر بعضهم في الطريق قبل أن يبلغوا مقاصدهم . وقد تمكن واحد من مبعوثيه أن يبلغ بلاط ألغ إيف . فاختار عدداً من الأمراء لكي يستدعوا كركوز ، فأرسلوا مبعوثين لذلك ولمصلحة شرف الدين . وحين وصلوا إلى طوس كانوا قد أوكلوا إلى محمود شاه سَبْزوار أمر قتل شرف الدين بعد أن وُجهت إليه تهمة : قلة العقل وكثرة الجهل وعدم المبالاة بأوامر الله ونواهيه ، والإقدام على المنكرات كإباحة أموال المسلمين ودمائهم . حتى إذا تدخل بشأن خصم أسر معه ، ووقع الاثنان بأحبل نبل واحد،وتخلصوا من الاثنين بخطة واحدة.ولكن يبدو أن سيل محن أهالي خراسان لما ينته ، وقد تبقى لهم جرعة من كأس البلاء . فقد وصلت أنباء قدوم المبعوثين قبل أن يعدم ، فأرسل كوركوز إلى سبزوار يطلب إليه أن يتريث في قتل شرف الدين من باب الاحتياط ، ولا يستعجل ذلك . وفي التأخير آفات" . وعن عليّ عليه السلام : « عرفت ربي بفسخ العزائم ونقض الهمم » . أدرك محمود شاه سبزوار أن مزاج العالم غدا موافقاً هواه ، وقد استل سيف الخلاف من نيام الزمان ، واستيقظت الفتن النائمة ، وأطفال الأيام اشمأزت من أمّات الأمان . فشرع يُعزّه والتزم إكرامه . حتى وصل المبعوثون ، واستاقوا كوركوز ، وأرسلوا من يطلب شرف الدين . وعاد الرسول به . وقبل أن يصل باشر بظلمه وعدوانه ، وأرسل الكتائب والجور إلى الرعايا ، « عادة ترضّعت بروحها تنزّعت »[1] ، ونقض العهود والمواثيق التي عاهد الله عليها أيام خلوته

---

(١) هذه العبارة من الأمثال المستحدثة المولدة الملحونة ؛ إذ يبدو أن الفعل «ترضّع» لم يرد في كتب اللغة . ولا يعلم هل الفعلان في صيغة المبني للمعلوم أم في صيغة المبني للمجهول .

ولیالي محنته . قال الله تعالى : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » . وأتم في تلك المدة المصادرات والمطالبات . ثم تابع مسيرته مع المبعوثين إلى البلاط . وحين وصل إلى معسكر ألغ إيف حــاول في أثناء المحاكمة أن يقول شيئاً لكوركوز ويجادله . إلا أنه أرتج عليه حين وقع بصره على كركوز ، وانشل لسانه عن الحركة ، فاعترته الدهشة وشمله الخجل . فنظر إليه أحد الأمراء وقال : يُروى أن كركوز يدعي أن سبب العثرات التي وقع فيها إنما هي بسبب كفاءتك . فالأولى أن تعتذر عن صلاح الأمر أكثر . فإن أعفاك من تهمتك فلن تكون رجل ميدانه بعد ذلك .

وتوجهوا من هناك نحو تواركينا خاتون . وقد أهمل أمره هناك لأحقاد قديمة ترسخت في الصدور ، واختل وضعه . وكانت توراكينا خاتون كثيرة العناية بالأمير أرغون . فأوكلت إليه أمره . فقرر له قراراً وأربعة آلاف بالش ذهب هي من بقايا خراسان وما زندران يحصّلها بنفسه . ولهذا السبب عاد لخدمة الأمير أرغون . حتى إذا بلغ خراسان تسنّم مصالحها كلها :

غلبَ الزمانُ بجِدِّهِ فَسما بهِ وكبا الزمان لوجهه والكَلْكَل[1]

وأوكل إليه الأمير أرغون المهمات . ولكن حين وصل إلى دِهستان قدم وفدٌ يطلبه للمثول بين يدي باتو . وبسبب حماية الأمير أرغون له واهتمامه به ، وبالتالي لضرورة إتمام حسابات الضرائب فقد نجا من ذلك السعير أيضاً بعد أن حوكم وحُقق معه . وساعده على النجاة من هذه المحاكمة كذلك أن خصمه لم يكن حاضراً . وكان الأمير أرغون آنئذ قد وصل إلى تبريز ، فلم يلوِ عنان فرسه ليتبعه . ولم يأت بأي إقدام ما دام كوركوز حياً ، حتى إذا وصله نعيُه عاد إلى جبلّته السيئة وطويّته القذرة التي كانت خامدة في نفسه،

---

(١) البيت لأبي محمد اليزيدي (شرح الحماسة : ٤/٥٧) .

فشرح بنشر الظلم وهيجان الغدر : « وكلُّ إناءٍ بالذي فيه يرشح » ، فألغى الضرائب التي كان يلتزم جبايتها ويعامل الناس عليها ، وعمد إلى المصادرات والمطالبات،وعين الجباة على كل ولاية وأجبرهم على جباية الضرائب الإجبارية، وأجبرهم على رفض أي محاباة أو مراعاة ، وعلى أخذ الأموال من الأغنياء ذهباً ، وإذا لم يكن لدى المرء ذهب فليسجلوا اسمه وما عليه في الدفاتر . وأن يستولوا من الأشخاص قدر ما يقدرون عليه . واستعد بنفسه في تبريـز ، وأشرف فيها على سير العمل . وحكم على المسلمين أن يدفعوا أكثر من طاقتهم في هذه الضرائب الإجباريــة ، وكانت قد فُرضت على الشريف والوضيـع والرئيس والمرؤوس والغني والمعدم والمصلح والمفسد والشيخ والفتى.وأوكل لهذه المهمة بعض الكفرة يرافقون الجباة حتى يُذلوا سراة القوم . فأقدم عدد من عباد الله الصالحين على نصحه بإعفاء الغرباء عن الدين من هذه المهمات ، وحضُّوه على احترام هؤلاء القوم . كما طلب أرباب المدينة الرحمة والإحسان للسكان عامة ولهم خاصة ، فلم يلقوا جواباً غير الإذلال والإهانة ، واستمع إلى شكاواهم بأذن أصم من ولادته :

تَلقّاهمْ بوجـهٍ مُـكفهِرٍّ كأنَّ عليه أرزاقَ العبادِ [1]

وضاعف ما حكم عليهم به ، وأصرّ على ذلك . قال الله تبارك وتعالى حكاية عن نوح عليه السلام : « وإني كلما دعَوتهم لِتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ». وغالباً ماكانت الأرامل واليتامى، ممن يعفيهم الشرع الإلهي، ولا يكلفهم القانون الجنكيزي، يلقون الشتائم وقبيح الكلام ، ولا يجدون باباً للمسامحة والمواساة ، ويعودون

---

(1) عزاه صاحب الحماسة (٤/ ٥٧) إلى امرأة من دون تسمية . وفي البيت في الحماسة « تلقاه » مكان « تلقاهم » .

خائبين خاسرين إن طرقوا درب الرحمة والعطف . فأمر الأمـير أرغون أن يُصرف لهم العون من خزانته الخاصة ، بعد أن علا نفير النساء وزفير الأيتام وتضرع المصلحين وأنين المفسدين واستغاثة المظلومين وألم الدراويش إلى عنان السماء . وغدا في كل زاوية أذى ، وفي كل منزل غريب" دخيل ، وفي كل بيت جابٍ لا يزعه خوف الخالق ولا يردعه لوم أو حياء . وقد وصف سيّد مُجتبى هذه الحالة ، تغمده الله برحمته :

« احذر على المرء أن يحفظ شرفه من العار ، والآن كذلك عليـه أن يحفظ اسمه من العار »

« إنهم لا يعطون دانقاً ويأخذون ذهباً ، فلا بد للمرء من أن يحافظ على اسمه من العار »(1)

وبعد أن مسح طبق تبريز انتقل إلى مدينة قزوين، والتي هي بلدالموحدين وثغر الإسلام . وكان وصوله إليهافي شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وستمئة، فنزل في قصر الملك ، فاستدعى الأكابر والأعيان ، وعين على كل واحد منهـم الضريبة الإجبارية . وقد أبقاهم على سطح المنزل بلا زاد ولا ماء ، ولم يفرج عنهم وقت الإفطار ، كما لم يسمح لأحد بإحضار طعام لهم . وعين الجبـاة منفصلين على كل محلة . وأمر الطائفة الدون أن تحرق مئة شخص ليحصلوا على رغيفين . وفوّضهم بأن يصبوا تراب المذلة على ماء كل صاحب مروءة ، ويستولوا على ما له وعرضه ، وتكليف الصغير والكبير بما لا يطاق . فعلت أصوات العقوبات ، وأنين الممثّل بهم ، وتضرع المساكين ، وآهـات الناس الحارقة إلى السماء . فلم يتمكن أخ من تحمل أحزان أخيه حين يراه يتعذب ، ولم يقدر أب على فداء ابنه ، ولا قريب على مساعدة قريبه ؛ فدماؤهم جميعاً

(1) لا نظير لسخافة هذه الرباعية ولا لبشاعتها .

تجري : « يومَ يفرُّ المرء من أخيه وأمه وأبيه » • وأقام هناك بضعة أيام ، يشهد بنفسه ما يجري • فكان يراهم يضطرون إلى رهن أبنائهم ، وأحياناً إلى بيعهم • ولقد قدموا يوماً إلى فقير كان في حالة نزع ، ولما لم يجدوا عنده مالاً وعدوه بأن يأتوا بعد حين • لكن هذا المسكين سلم روحه ، وجهزه أهله وأعدوه للدفن • وحين جاء الجباة يطالبونه بالمال لم يجدوا شيئاً يأخذونه ، فحملوا كفنه وتركوه بلا كفن ، وظل المتوفى طريحاً عارياً • ولجأ فوج من الضعفاء والمساكين ، وكانوا في غاية من العجز والعدم ، إلى صومعة شيخ الإسلام زبدة الأنام جمال الملّة والدين الجيلي ، منَّ الله تعالى على كافة المسلمين بامتداد ظله ، على أمل أن يعظ الشيخ هذا الشقيَّ • لكنه بعد أن فكر جيداً صرَّح بلفظه المبارك : إن ظلمات ظلمه تلقاء قلبه الظالم أشبه بقوله تعالى : « فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوةً » • فقد سُدت عليه الحجب وانقطعت عنه أنوار السعادة والإيمان • إن مثل هذا الرجل لا تنفع معه النصيحة ولا تؤثر فيه الموعظة ، ومثله مع النصيحة مثل المطر فوق الصخر الصلد • وهو يحتاج إلى فؤاد خالٍ يرميه بدعاء طاهر وقت السحر ينزل عليه كالنبال ، فلعل الله يهدف حياته من غير أن تبرز آثار النبال :

إذا كان نبض السهم من باطن الحشا فكيف تجُنُّ المرءَ منه دروعُ ؟[1]

وكم أتمنى أن أشارككم في واقعتكم هذه ، وأشترك معكم في تحمل الظلم • وإنه يصلني من الديوان العزيز[2] ـ لا زال عزيزاً ـ مرتب سنوي ، ولم يبق منه غير خمسة دنانير ، ولا أملك من حطام الدنيا في داخل المنزل وخارجه ذخيرة تُذكر ، فأمر أن تؤخذ هذه الدنانير لمصالحهم •

---

(١) البيت لأبي الغوث بن نحرير المنيحي(المنبهجي ؟) يصف الحمى(تتمة اليتيمة)•
(٢) يقصد ديوان الخلافة العباسية ببغداد (ت) •

حتى إذا عم الهرج والمرج انتقل إلى الري ، وباشر عاداته المذمومة في سلب أموال المسلمين ، وفي إخراج المحجبات سافرات الوجوه ، والرجال حفاة الأرجل من منازلهم ليحصل على الضرائب . ووصل الجباة إلى مواضع أخرى كإصفهان وقم وكاشان وهمدان وغيرها . وأحضروا الأموال المحصلة . فأمر أن تجمع في المسجد الجامع . وأدخلوا الدواب إلى صحن المسجد لتحميل الأموال . وحين احتاجوا يوم الرحيل إلى أغطية للأحمال أمر أن تؤخذ بُسط المسجد وتجعل أغطية ، وأشرف بنفسه على هذه العملية . ورحل من هناك ، بينما أرسل شخصاً في المقدمة ليقرر الضرائب على أعيان دامغان ، وكانت فوق طاقتهم . وحين وصل الجباة إلى هناك علقوا النساء من صدورهن والرجال من أقدامهم (ليجبروهم على دفع الأموال) لكنهم عجزوا . فاتصلوا بالملاحدة ، ومنحوهم دامغان . فقدم الملاحدة إليها ، وقتلوا جموعاً من أهاليها ، ونقلوا أكثرهم إلى قلعة كرد كوه ، ودمروا الأسوار بالمياه ، وسوّوها في مستوى الأزقة ، وحصدوا الغلال ، ودمروا القرى والمنازل . وفعلوا الأمر نفسه في آمل وإستراباد وكبود جامه .

كما أرسل شرف الدين محمود شاه لجباية الضرائب من أسفراين وجوين وجاجرم وجوربد ، وكل المناطق التابعة لسيطرة نظام الدين . وبسبب تعصب الشيعة على السنة ، وبسبب نزاع قديم بين محمود شاه وأعيان إسفراين فقد اندلعت نار الظلم بشكل لم يقم بمثله الحجّاج مطلقاً . فقد أجلس أغلب السكان على التراب الأسود من إفلاسهم ، وأهانهم . ثم أرسل أشخاصاً إلى أبيورد ليقتادوا اختيار الدين أسيراً ويقتلوه إن لم يتمكنوا من الاستيلاء على أمواله .

حين وصل شرف الدين إلى أستوا[1] نزل قرب مدينة مشهد • فذهب خادم ذلك المشهد[2] إلى الأمير أرغون ، فسلمه الأمير صدقته لتحسين بناء المزار وشراء الأبقار والثيران بإشراف المسجّل • ولما وصل المسجّل إلى تلك المنطقة ، وكان جاهلاً بالعمل غافلاً عن الله الخالق أمر أن يُلكم الخادم عدة لكمات على أذنه ، فأحسن الضاربون ضربهم ، فسقط مغشياً عليه • وظل غائباً عن وعيه مدة شهر كامل منذ نوروز[3] الماضي • ثم أمر بنقل الغلال على الدواب •

وقد امتدت أنواع ظلمه حتى طوس ، وكان مبدؤها تبريز • وكان يحث رجاله على متابعة الظلم :

وتَجلّدي للشامتين أريهمُ أني لريب الدهر لا أتضعضعُ[4]

وعرض ملك الموت بأنياب الأجل وبلسان القضاء أنه :

وإذا المنيــةُ أنشبت أظفارَهــا ألفيت كلَّ تميمــةٍ لا تنفعُ[4]

وفي النهاية وهنت قواه ، وترامت عليه العلل ، وغــدا طريح الفراش ، وزال بصره :

« لقد شربت من كأس الدم الطاهر ، وجاء أوان عودة الكأس الآن »

ومع أنه ملقى على فراش الموت ، فإنه لم يقلع قطن الغفلة عن أذنيه ، ولم يشبع بطنه الجشع • وكان دائماً يفغر فاه ويحرك لسانه بمراده ، فيقول :

---

(١) في الأصل « أستو » • وما ذكرناه من ياقوت (ت) •

(٢) مدينة طوس غدا اسمها « مشهد » لأن فيها مزار الإمام الثامن • فالأولى اسم المدينة والثانية اسم المزار (ت) •

(٣) نوروز : عيد أول السنة الفارسية الذي يبدأ في ٢١ آذار (ت) •

(٤) البيتان لأبي ذؤيب الهذلي يرثي بهما أولاده (خزانة الأدب : ١/٢٠٢) •

فلان يجب أن يدفع كذا ، وفلان يزيد كذا ، كذا مرة لعامة الناس ولخاصته وأقربائه • حتى بلغ به الأمر أن هاجم أملاك زوجته وفرض عليها مبلغ عشرة آلاف دينار •وقد استولى عليه المرض العضال حتى عجز الأطباء عن مداواته. ومع أنه كان في صراع مع ملك الموت فإنه ظل يقاومه • فاستدعى بعض صحبه وأوصى ، وبعث بوصيته إلى الأمير أرغون يقول له فيها : إنني على شفا حفرة من الموت ، ولا أمل في شفائي • ولقد مهدت الأمور كلها ، فإن نقص مافرضته على كل شخص مقدار شعرة اختلت الأوضاع • وأولئك الذين أقصيناهم وسجناهم يجب أن يلقوا حتفهم ولا يجوز الابقاء على حياتهم •

وقبل أن تصل رسالته إلى الأمير أرغون انتقل بأمره تعالى إلى ناره وسقره • لكن الأمير أرغون لم يعمل بوصيته ، ولم يتبع ما كان قرره من الضرائب ، وأطلق سراح المسجونين • واطمأنت الخلائق كلها لموته • وعدوا ذهاب بلائه قدوم الحسنات • قال الله تعالى : « وما يستوي البحران ؛ هذا عذب فرات سائغ شرابه،وهذا ملح أجاج • سبحان الله يخلق ما يشاء بقدرته» • يخلق في مكان شخصاً مثل هذا المذكور ، فيلقى لعنات عبيده ، ويخلق آخر مثل الصاحب يلواج محمود قِبلة الآمال ومقصد المخلوقات • يبتلي الله قوماً بذلك البلاء ، ويمنّ على آخرين بهذه النعمة :

قد يبعد الشيء من شيء يشابهه إن السماء نظير الماء في الزرق[1]

حين كان ذلك الوضيع في تبريز انضم إلى خدمته واحد من أعيان العراق يدعى جمال الدين التكّرشي ، وكان ضليعاً في تصرفاته • وكان معارضوه

---

(١) عزاه الثعالبي في القسم الأول من التتمة إلى أبي الضياء الحمصي ، وفي القسم الثاني إلى أبي الرماح المصيصي وأورده في كلا الموضعين « اللون » مكان « الزرق » •

يتطيرون منه ، ويتهمونه بأنه شؤم • وكانت هذه التهمة إما بسبب حسدهم له ، وإما لحقيقة فيه • وقد رفع شرف الدين من شأنه بسبب مساعدته وتأييده له في الشر والظلم ، بعد أن كان جمال الدين يعاني من انفضاض الناس عنه وعزلته بسبب هذا التشاؤم الذي عرف عنه • « وإنَّ الظالمين بعضهم أولياء بعض » • وبعد أن نصبه شرف الدين مات • فأقبل كل فرد من أهل عصره على نظم الشعر في هذا الموضوع • من ذلك قول أحدهم :

يالهفَ على فَوت ثِمالِ الدينِ	كانت ببقائـهِ مَعالي الدِّيـنِ
بالجصِّ على مَرقدهِ قد كتبوا :	« هذا عمل الصدر جمال الدين»

وفي تبريز شاعر يقال له الزجاجي ، قال هذه القطعة :

« آه يا جمال علي ، أيها المحظوظ ، إن الدنيا بأسرها سعيدة بك »

« لقد تقفَّيت أثره حتى طوس ، لكنه لم يفلت منك في النهاية »

« ومن شدة خوفه منك يا سيدي ، لن يبدو لك سيد الزمان »

« لقد هرب منك من تبريز ، سيد العالم مدبِّر الأمور »

« لا يأمن منك حي ، وإن هرب منك إلى السماء »

وقال آخر ، من أهل زمانه :

لقد ماتمَن أحيا رسوماً ذميمةً	من الظلم،واستعصى علىالله ماردا
أتانـا نعيٌّ حين كان نَعيشُـهُ	على الكبد الحرَّى اربرق[1] باردا
فيا سادتي عِشـْتم بخيرٍ تناشدوا	سألت بريداً عن خراسان[2] واردا

---

(١) لم نتمكن من تصحيح الكلمة مطلقاً •

(٢) المصراع الأول تضمين من بيتين للصاحب ابن عباد بعد وفاة أبي بكر الخوارزمي ، وهما :

سألت بريـداً عـن خراسـان وارداً	أمات خوارزميكم ؟ قيل لي : نعم
فقلت: اكتبوا بالجص منفوق قبره:	ألا لعن الرحمن مـن كفـر النعـم

فالذين رأوا شرف الدين وعرفوا أفعاله (الذميمة) أدركوا أن ما جاء في التقرير عنــه كان نموذجاً ، ووجيزاً من وسيط ، وجملــة من تفصيل ، ومختصراً من مطوّل ، وجزءاً من ألفٍ ، وقليلاً من كثير • وأعوذ بالله إن كان مطالعو هذه المسوّدات ، ممن لم يشهدوا أفعاله ، أن ينسبوا إلى المؤلف مجاوزة الحد ، والشماتة من الدناءة والخساسة • وقال النبي عليه الصلاة والسلام : « الشماتة لؤم » • وإن نجا المرء من هذا العذاب فــلا يحق أن ينسب إليه اللؤم والجحد :

فقــلْ للشّامتينَ بنــا : أفيقوا سيلقَى الشامتونَ كما لقِينا[1]

أما من وفقه الله في نظرته فقد استفاد من ذلك واتعظ ، وعزف عن مثل هذه التجربة ، وانشغل بصالحات الأعمــال ، وتلافى موجبات النقصان ومــادة الخسران في الدين والدنيا • ورأى ضرورة الابتعاد عن مثل هــذه الأمور ، ليضمن الاسم العطر في الدنيا والظفر في الآخرة ، إن شاء الله تعالى •

« عش بالشكل الذي يجعلك في موتك حراً ، ولا تعش بالشكل الذي تجعل الآخرين أحراراً بموتك »

تم المجلد الثاني من تاريخ جهانكشاي تاليف الجويني

حامــداً لله تعــالى ، ومصليــاً على نبيه محمد وآله

---

(١) عزاه في الحماسة (طبعــة بولاق : ٣/١١١) إلــى الفرزدق • وفي الحماسة البحترية (طبعة ليدن : ١٥٤) إلى مالك بن عمرو الأسدي • وفي خزانة الأدب للإمام البغدادي إلى ذي الإصبع العدواني •

الجزء الثالث
من تاريخ جهانگشاي

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسّر

الشكر لله الحق ، الذي تتألق النجوم اللامعة بضوئه الطاهر ، ويتحرك الفلك الدوار بخلوده . الذي عبادته لائقة ، ولا مثيل لعطائه السخي . وجوده من العدم ، ولا وجود بعد وجوده ، العالم المنزّه العبيد عن المذلّة ، ومنزل الرقاب من الرئاسة . كل ما في الكون من نفع وعلاء ورفعة من عتباته . كل ما عداه بريق وخداع وهوس . كل ما في الوجود عائد إليه ؛ الحسن والسيء ، النفع والضرر :

« أيتها الدنيا منك الرفعة والانخفاض ، لا أعلم غيرك في الوجود »[1]

والسلام على خاتم الأنبياء ، المقدم على سائر المرسلين ؛ حلاّل العقد ، معلم الحكمة ، مرشد الضالين ، نصير المذنبين من مريديه ، رسول الله إلى الناس وملائكته ، المنبيء عن الإنصاف ، الذي بلغ اسمه كل لسان ، واستمعت إلى نُصحه كل أذن . وعلى أصحابه الأخيار ، وآله المقربين إنه خالق الهواء والماء والنار والتراب ، ومنبت الزهر على الأغصان الخضراء بين الأشواك .

●

(1) البيت من الشاهنامة (ت) .

لما كنا شرحنا في المجلد السابق أحوال خروج جنكيز خان ، واستيلائه على الأقاليم ، وجلوس قاآن وكيوك خان ، وكيفية مجرى الأحداث في عهدهم وسطّرنا أحوال سلاطين خوارزم وغيرهم من الجالسين والواقفين ، من بدء الأمر حتى انتهاء زمان كل واحد ، فإننا الآن في هذا المجلد سنذكر جلوس ملك العالم منكو قاآن ، وأحوال البلاد في عهد ملكيته ، وكيفية مسيرة الأمير هولاكو إلى البلاد الغربية ، وأحوال كلٍّ من ملوك الزمان وتابعيهم آنـاء إطاعتهم وعصيانهم ، من أول الأمر إلى آخره ، ومجمل أخبـار حضرته ذي الجلالة ؛ من بادرات أعماله ، وصادرات أقواله . ونطلب غفرانه عن هفواتنا ، ومزلات أقلامنا . طالبين الصفح من فيض فضله العميم ، الذي ليس غـيره يعفو عن العصاة .



ذكــر أحوال

ألــغ نوين وسرقويتي بيكي

ينتقل مقام الوالد بحكم قانون المغول إلى الولد الأصغر • وقد كانت خاتون أكبر الأبناء ، وكان ألغ نوين[1] هو الأصغر ، إلا أنه أكبر من خاتون• ولما كان قانون جنكيز خان أن يكون أوكتاي الخان ، فإن المساعي التزمت بإشارة الأب في إجلاس قاآن على العرش • وبرزت بين الإخوة المودة التامة بتعيين قاآن :

تجاوزتِ القُربى المودّةُ بيننـا وأصبح أدنى ما يَعُدُّهُ المناسِبُ

واتجه القاآن مع الجيش إلـى الختا ، وأبرز عزيمة وصرامة وكفـاءة وشجاعة ، وأخضع تلك الولايات الشرقية • وحين تم له المراد عاد أدراجه ، والدنيا صاغرة ، والفلك الدوار مستجيب ، فأمضى أيامه في معاطاة كؤوس الراح من الصباح إلى الرواح • ولم يمض على سروره يومان بل ثلاثة حتى وافاه الأجل ● :

« إنها عادة الفلك الداكن دائماً ، فإن رأى امرأً بلا غمٍ سلبه حياته »

فتألم قاآن ألماً شديداً لفقده ، وعمّه القلق والضجر ، حتى عاف الدنيا على ذكره ولهفته عليه ومعاشرته له :

---

(1) الغ نوين (نويان) : الأمير الكبير • وهو لقب « تولي » الابن الرابع لجنكيز خان • (انظر : جامع التواريخ طبعة بلوشيه : ١٩٩) •

فلما تفرقنا ، كأني ومالكاً　　لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً[1]

وكان كلما تذوق الصبوح والغبوق ، وسرى في عروقه وانتشى بكى القاآن ، وأعلن أنه إنما يشرب ليزيح عن كاهله الضيق من الفراق المؤلم ، ويختار السكر كي لا يفيق ويتذكر غلواء تلك الساعة :

« السكر حلو ، لأنه يفصلني عن ذاتي ، وإلا فكيف يرضى العقل على الجهل ؟ »

واستمر القاآن حتى آخر حياته متألماً متحرق الفؤاد • وأمر ، بعد حادثة الوفاة ، أن تسير الأمور والمصالح برأي زوجته سرقويتي بيكي • وهي ابنة أخي أونك خان • وكان إخوة منكو قاآن الكبار هم : قبلا[2] وهولاكو وأريق بوكا • وقرر الإخوة جميعاً أن يكون الحل والعقد وتسيير الجيوش تحت تصرفها ، من غير اعتراض • وقد تمكنت بيكي من ترتيب الأمور وتربية الأبناء وضبط أحوال الدولة بكفاءة وهمة وحسن رأي ودراية • كما أشرفت على المباني ، ولم تسمح لأحد بخداعها • كما كان القاآن كلما أقدم على مصلحة ، أو توجيه جيش ابتدأ باستشارتها ، حتى لا تنحرف الأمور عن مسراها الطبيعي •وكانت الرسل والوفود تقدم لها واجب الاحترام والتوقير ، وأبدت الرعية في أقاصي البلاد وأدانيها ، شرقاً وغرباً ، مع أبناء الأمراء ،

---

(1) البيت لمتمم بن نويرة في مرثية أخيه مالك من جملة أبيات مشهورة جداً • (انظر الأغاني : ١٤/٦٦ ، وطبقات الشعراء لابن قتيبة : ١٩٣ ، والكامل للمبرد : ٧٢٥ و ٧٥٧ ، وابن خلكان في ترجمة « الوشّاء » ، وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادي:٣/٤٩٨،وشواهد المغني للسيوطي في شواهد اللام •

(2) يقصد « قبلاي خان » الذي سيغدو امبراطور الصين (ت) •

الطاعة والحرمة . وبالغت في رعاية السكان شرقاً وغرباً ، من ترفيه وتخفيف . والتزم العمال والشحنة والعساكر طريق النَّصَفة مع الرعايا خوفاً من سياستها وضبطها .

حتى إذا أزف موعد « القوريلتاي » ، واجتمع الأمراء وأبناء الملوك بدت بتمام زينتها التي لم تقل زينة من توافد إلى الاجتماع عنها ، تقليداً لها .

وبلغ من حمايتها حداً أن جماعة من الملوك في عهد القاآن تحدثت بشأن الضرائب المرسومة على الرعية ، واستكثرتها . فأمرت رسلها بأن يحضروهم . وبعد أن درست الأمر أصدرت قانوناً بذلك . ومع أن ضبط الأبناء صعب لأن كل واحد منهم خان ، وفي عقله جان فإنها كانت أدهى منهم وأذكى . وكلما أعلنوا عن ضرورة تعيين الخان الجديد بعد وفاة القاآن ، أقدمت على تبديل القانون المغولي الذي حكمه نافذ ، الذي لم يطرأ عليه تبديل منذ جلوس كيوك خان على العرش . وكان الأمراء منذئذٍ يبحثون عمن يحرف في هذا القانون ، ومن الذي يوزع البايزات[1] ويأمر بالمراسيم من غير مشورة ، ليستعيدوها ممن تسلمها بعد وفاة القاآن . وقد خجل في « القوريلتاي » العام كل من شمله الأمر بإطلاق الأموال والتولية وصرف العمال حين عرضت على الأمراء ، إلا بيكي وأبناءها ، فإنهم لم يأبهوا ، وهذا غاية في التعقل وضبط النفس والتفكر في عواقب الأمور ، التي سها عنها الحصيفون :

فلـو كـان النساءُ كمثلِ هذي   لفُضّلتِ النساءُ على الرجالِ[2]

---

(1) البايزة : لوحة من الذهب أو الفضة أو الخشب ، يقدمها الخان للمقربين (ت).
(2) البيت للمتنبي يرثي به (من قصيدة) والدة سيف الدولة ، والصدر في الديوان:
ولو كان النساء كمن فقدنا

واستمر الأمر كذلك إبان جلوس منكو قاآن على كرسي الخانيّة كما كان في عهد كيوك خان . كما أن بيكي منـذ تسلمت سعت إلـى استمالة الأطراف ، بإنفاذ التحف والهدايا إلى العشائر والأقارب واصطناع العساكر والأجانب ، فتبعها الجميع ، ووالوها وساروا على هواها . وحين توفي كيوك خان اتجهت الأنظار نحو ابنها منكو قاآن لتفويضه أمر مفاتيح الخانية . وكان الأمر منطبقاً مع رغبتها ، لما تتحلى به من ألمعيـة وذكاء ، وحسن رأي ودهاء حتى وثق بها سكان الأقطار ، فلم يرد كلامها رادٌ . وقد أحسنت تنظيم القصر، وكيفية الدخول والخروج ، من قبل الحاشية المقربة والغرباء ، بشكل يعجز عن تنظيمه خانات العالم .

واستمر الأمر كذلك حتى أذن الله تعالى أن تغدو عروس الملك في حجر تربية منكو قاآن بحكم خبرته . فأطلق يده بالبذل والإحسان . ومع أنه كان تابعاً للديانة المسيحية وسنداً لها ،فإنه بذل المال والعطاء نحو الأئمة والمشايخ ، وسعى إلى إحياء شعائر شريعة دين محمد ﷺ . وعلامة هذا الكلام نقدُهُ ألف بالش لبنـاء مدرسة في بخارى ، وتكليفه شيـخ الإسلام سيف الدين الباخرزي أمر تدبير المدرسة والإشراف عليها . كما أمر بأن تشترى القرى وتصبح وقفاً عليها ، كما أجلس المدرّسين وطلاب العلوم .وكان يرسل دائماً صدقاته إلى النواحي والأطراف ، ويخصصها للمساكين والفقراء من المسلمين. واستمر أمره كذلك حتى هاجمه هادم اللذات وناداه بواجب الرحيل ، وذلك في ذي الحجة من سنة تسع وأربعين وستمئة .

ذكـر أحوال بجمن* واستئصالـه

حين أرسل قاآن[1] منكوقاآن وباتو وأبناء الملوك الآخرين لاستصفاء حدود ولايات : بلغار وآس[2] والروس وقبائل القفجاق وآلان وغيرهـا ، وخلت تلك البقاع من المفسدين بعد أن وضعوا السيف في الرقاب . وتابعوا أمر السلطان ، فتتبعوا أحد المتهتكين من أمراء القفجاق واسمه بجمن . فقد نهد مع قوم من الكماة القفجاقيين، وتبعه عدد من الهاربين والمنشقين. ولما لم يكن لهم مقر يكمنون فيه فقد كانوا يتنقلون من مكان إلى مكان ليلاً ونهاراً. وكانوا كالذئاب تهرب خلف الكلب من مكان إلى مكان ، حاملة ما يمكن حملـه . وشيئاً فشيئاً أخذ شرهم يستطير. وكان رئيسهم يثير الفتن والفساد هنا وهناك، وكلما حاول الجيش تعقبه لم يظفر به ، لتنقله من مكان إلى مكان واختفائه . وكان أكثر ملجئه على أطراف « إيتيل » ، حيث يختفي بين الأطراف ، ثم يخرج فجاءة كالثعلب ، ويسطو على شيء ثم يعود إلى الاختفاء .

فأمر منكوقاآن أن تجهز مئتا سفينة، وعلى كل سفينة مئة مغولي مسلح، وهو وأخوه بوجك[3] سيسيران من طرفي الماء ، بحثاً عنه ، حتى وصلوا إلى دغلة من القصب من دغلات إيتيل ، ولاحظوا آثار حوافر الجياد وقد رحلت

---

(1) يعني « أوكتاي قاآن » (ت) .

(2) بلغاروآس : اسم واحد ، ولا حاجة الى فصلهما (ت) .

(3) هو شقيقه لأبيه وليس اخاه لأبويه (ت) .

صباحاً ، ورأوا بقايا عجلات مكسورة ، وروث الدواب الطري • وبين هذا الركام لمحوا امرأة عجوزاً متألمة ، فسألوها عن وضع الفرسان ومتى رحلوا وإلى أين؟ وحين علموا الواقع والحقيقة، وأنه ربما رحل منذ حين إلى اليابسة، طوقوا الجزيرة والشواطىء ، وزادوا الحماية ، وأصلحوا ما أفسده بجمن في تلك الجزيرة • كان الماء هائجاً كالبحر بشكل لا يسمح للسفن بأن تبحر ، ولا لأحد أن يسبح ، فكيف يمكن للخيل أن تعبر الماء ؟

وفجاءة برز عدد من الفرسان ، وعبروا الجزيرة بعد أن خاضوا في الماء • فأمر منكوقاآن أن يتبعوهم على الفور • وتمكنوا من أسره وإبادة جيشه بساعة ، ففرق بعضهم وقتل بعضهم ، وأسروا نساءهم وأطفالهم ، وغنموا منهم أغناماً كثيرة • ثم عاد الجيش بعد أن هدأت الأوضاع واستتب الأمن من غير أن يصاب جندي واحد بمكروه •

وحين سيق بجمن إلى حضرة منكوقاآن رجاه أن ينفذ قتله بيده • فأمر أخاه الأصغر بوجك أن يقسمه نصفين ● • وهذا علامة انتقال الدولة ومفتاح المملكة إلى ملك العالم منكوقاآن ، ولا حاجة إلى بيِّنة أخرى •



ذكر جلوس ملك الأقطار السبعة ، الملك العادل منكو قاآن على عرش الخيانة وبسط العدل الأنوشيرواني واحياء مراسم العالم وتمهيد قواعد الملك

إذا أراد الحقّ ، جلّ وعلا ، أن يعزّ أحد عبيده ، ويزين رأسه بتاج الملك ، حتى ينصف العدل بشخصه ، ويعمر ما تهدم من خراب في الدنيا ، ويعمّ بواسطته فيضان مرحمته على ربع المعمورة المأهولة ، زيّنه بطراز السعادة منذ بدء الخليقة ، منذ خلق الأرواح قبل الأجساد ، وأنار روحه بأنوار الحصافة . حتى إذا انتقلت الأرواح من مقامها العالي العلوي إلى مكانها السفلي ، رباه بالعقل والكياسة ، وأرضعه من ثدي الحلم الحاضن ، بفم الدراية الباطن ، وألهمه الأعمال الرشيدة والأقوال السديدة ، وألجمه في تسيير أعماله بلجام العقل ، ورقاه يوماً فيوماً إلى أعلى المراتب ، ومهد له طرق الإقبال والحظ ساعة فساعة :

« ستنمو السعادة كما تزهر الأزهار ، وتعلو (الأزهار) لكنها ستموت»

« والحظ في البدء قد يخاط على القبعة ، ثم ما يلبث أن يزيّن مفرق شعر الملك »

« يغوص الغواص ويخرج اللؤلؤ ، وبمدة وجيزة تراه يزين التيجان الخاصة »[1]

حتى إذا آنَ ظهور الحكمة والمقدرة عليه أشرقت تباشير صباح الدولة بعزته وجلالته . وبادىء ذي بدء ، ولما كان « وبضدّها تتبيَّن الأشياء »[2]

---

(1) هذه الأبيات من « خسرو وشيرين » تأليف الشاعر نظامي .

(2) عجز بيت للمتنبي ، وصدره :

ونديمهم وبهم عرفنا فضله

فإن القضاء المبرم لفضاء العالم زاخر بظلمات الجهل والعدوان ، وحلاوة العيش متأثرة بمرارة الحنظل حتى يدرك عبيد الله مدى العناء للوصول إلى السعادة، ويقدّروا مقام تلك الموهبة الجسيمة ، ويشكروا الله على تلك النعمة العظيمة. والمصداق على ما ادّعيناه ، والبرهان على هذا المعنى ، أنه بموت القاآن انحرفت أمور الدنيا عن السنن المستقيمة ، وانعطفت أعنة المعاملة والمجاملة عن صوابها ، وتراكمت المظالم حتى غدت « بعضها فوق بعض » ، وتلاطمت أمواج الأحداث ، وانسحقت الرعية بأيدي المتسلطين ، وعام الناس بالجور من كثرة العسف والضرائب ، وطفح كيل الدنيا بشراب الأذى . وحين رأت الرسل قطار الأمطار تهطل على الأقطار ، والجباة يدأبون على تحصيل الضرائب بغير حق ، ينقضون بطلباتهم انقضاض النبال من الأقواس ، والناس تائهون من هذا الامتصاص الجائر ؛ (حين رأت الرسل ذلك) وقفوا حائرين فلا هم يقدرون على التنفيذ ، ولا هم يجدون مكاناً آمناً يهربون إليه :

« لقد بلغ جفاء الدنيا مرحلة ، لا يمكنه أن يزداد في مكنون الضمير »

حين بلغ الظلم والأسى غايته ، وعمّ الغشم والفساد نهايته تحقق القول: « اشتدي تنفرجي »[1] ، وجاء مصداق الآية : « إن مع العسر يسراً » ، وتفتحت أبواب :« ما يَفتح الله للناس من رحمةٍ فلا مُمسك لها »، وأسباب:

إذا تضايقَ أمرٌ فانتظرْ فَرَجاً ... فأضيقُ الأمرِ أدناهُ من الفَرَج

تهيّأت :

« حلّ الطرب بعد الغمّ ، تماماً كازهرار النّور في فصل الربيع بعد الخريف »

« عزفُ العود وصوت الشدو ورنين الصنج ، وصل من مجلس أنس الفلك الأخضر إلى العالم »

« إن مثل هذه الأمور انبثقت ، إلينا مدداً من ألطاف الخالق »

---

(١) في الحديث : « اشتدي أزمة تنفرجي » (وانظر اللسان) .

أي إن مفاتيح مملكة : « إن الأرض لله يُورثها من يشاء من عباده » قد غدت في قبضة ملك الملوك ، أعظم ملوك بني آدم ؛ ملك ملوك العرب والعجم منكوقاآن ، أطال الله عمره حتى انقراض العالم ، حتى يعم العدل وجه البسيطة ، لتعود ثانية إلى كامل زينتها وبهائها ، ويسمو العالم عامة وأهل الإسلام منهم خاصة . وسيتضح ما أشرنا إليه في أثناء شرحنا ، ويُفهم من مقالتنا ما سطرناه هنا ، وعلى فضل ربّنا التكلان إنه هو المستعان .

وخرج باتو من معسكره بحدود سَقْسقين وبُلغار متجهاً نحو كيوك خان ، لكنه حين وصل إلى « آلا قَماق » الذي يبعد عن مدينة « قياليغ » مسيرة سبعة أيام بلغه نبأ نعي كيوك خان . فتوقف في مكانه ، ودعا الأقارب والعشائر إليه عن طريق الرسل . ولبى منكوقاآن الدعوة وكان على حدود « قره قورم » ، وسيرامون ، وبقية الأحفاد وزوجات القاآن اللائي كنّ في تلك الديار ، أرسلن قنقور تقاي[1] ، الذي كان أمير قره قورم ، قائماً مقامهن ، وحملنه كتاباً إلى باتو يقضي بأنه رأس الأمراء ، وما يأمر به ينفذ عن طيب خاطرنا ورضانا ، ولن نعصي له أمراً .

وكان من جملة الأمراء الآخرين أبناء كيوك خان . فقد كانوا في الجوار ، فقدموا إلى باتو . إلا أنهم ما لبثوا غير يوم أو يومين ، ثم رحلوا ، من غير إعلام أو استئذان ، نحو معسكراتهم ، بحجة أن محامي العلم الديني لم يُجز لهم البقاء أكثر . وعينوا نائباً عنهم هو تيمور نوين ، وأمروه أن يُقرّ رأي الجماعة من غير اعتراض ، ويوافق على آراء الإخوة الكبار والصغار .

وحين حضر الأبناء من الأطراف ، ومن أبناء القاآن حضر قَدْغان أغول ، ومن الأبناء والأحفاد لجغتاي : قرا هولاكو[2] وموجي[3] . وكذا منكوقاآن

---

(1) في الأصل : قنقور بقاي ، ولعل رأينا هو الصواب (ت) .
(2) قرا هولاكو : المقصود به ابن ماتيكان بن جغتاي . والذي قد يرد في الكتاب : قرا أغول او قرا .
(3) موجي : هو الابن الأول لجغتاي .

وأخواه : أريغ بوكا وموكا . ومن أمراء « أوهتا » ، وييسوبوقا[1] . ومن الأطراف الأخرى الأمراء وأبناء الامراء وأحفاد باتو ، حتى تجمع حفل كبير ، وأمضوا أياماً معاً . وبعدئذٍ رأوا أن يفوّضوا الخانية لشخص ذي أهلية ، خبر الحياة ؛ حلوها ومرّها ، خيرها وشرّها ، وجاب البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، هو في ساحة الوغى علم وفي مجالس الطرب سعيد . ولعب دور المشاورة ، وأعملوا الفكر في المصلحة العامة ليلاً ونهاراً ، لينتخبوا واحداً من زمرة أبناء جنكيز خان أو أحفاده يتصف بالرأي الصائب والفكر الثاقب ، وحفظ المسالك وضبط الممالك . لأن عمل الدولة العظيمة إذا أهمل اختلت قاعدة الأمور ومصالح الجمهور ، وانحلت عقود الأعمال ، واستحال تدبير الفتق والرتق مهما وَقِدَ الذهن :

وليس يَهلكُ منّا سيدٌ أبداً   إلا افتلَينا غلاماً سيداً فينا[2]

وبعد التدبّر والتفكّر قرر الحاضرون جميعاً أن باتو هو أسن الأبناء ، وأحصف الحضور في إدراك الصلاح والفساد في أمور المملكة . فله أن ينصّب نفسه خاناً ، أو أن يختار واحداً لائقاً . وإذ اتفق الجميع على هذا الرأي ، ووقعوا على العهد ، لا يحيدون عنه ولا يعترضون عليه ، أمر بختم المناقشة هنا ومدّ بساط الانبساط من عزف وشراب ، حتى حل اليوم الثاني بنوره وبهائه ، وكشف حجاب الليل بظلمائه :

« اليوم الذي سطع فيه مصباح العالم ، تفتحت الأعين في ذلك النهار »
« واستيقظ الصباح من الجنة ، ريحه من نفس المسيح »[3]

فانتظم عقد اجتماع الأمراء كما كان كالثريا بالأمس . فكرر باتو كلام الأمس ، حتى لا يضيف أحد بعد قراره شيئاً . وبناءً على هذه المقدمات أعلن

---

(1) ييسوبوقا : شقيق جنكيز خان . وكان اسمه وهو صغير « بلكوتي » (ت) .

(2) البيت لبشامة بن حزن النهشلي (شرح الحماسة للتبريزي ، طبعة بولاق : ١/٥٣ . الكامل للمبرد : ٦٤ ، طبقات الشعراء : ٤٠٥) .

(3) البيتان لنظامي من « ليلى ومجنون » .

أن المملكة بحاجــة إلى ملك عظيم ، يتمكن من تسيير دفــة الأمور بلطف ، ويتقصى حلّ المداخل والمخارج بناء على القانون الجنكيزي والرسوم الخانية التي يجب أن يكون مدركها تماماً ، يحظى بقصب السبق في حلبات البنوّة والرجولة ، ويفوز على الأكفاء والأقران ، ويباشر بنفسه الأعمال الخطيرة ، ويكون أهلاً لعظائم الأمور ؛ يذلل الصعاب ويذلّ الرقاب .

ومنكوقاآن خير خلف لجنكيزخان بدهائه وشهامته وذكائه وصرامتــه وشهرته ، وهو الذي يحسن عمل الخانية بحسن رأيه العالمي ، ويقيم مصلحة الولاية والرعية باليمن والعزيمة وحل المعضلات :

«تبدو في هذا العالم دائماً معضلات،لكل رجل عمل وكلّ عمل لرجل»[1]

ولكل عمل رجال ، وكلّ ميسّر لما خلق له عنان ، وإنني أضع هــذه المهمة في كفه الكافية ، وأحلي أنمله العازمة بخاتم الملك ، حتى يذلل وحش الزمان بساق سياسته وصرامته ، ويسلّ سيف رعاية الجمهور وحماية الثغور بعزيمته وشهامته .

حين أصغى الحاضرون إلى هذه الكلمات ووعوها بعقولهم ، أيقنوا أن هذا الأمر سيحقق للعالم جميعاً ، ولا سيما الموافقون عائدات جمة ، لأن الحق من طبيعته « أعطيت القوس باريها وأسكنت الدار بانيها »[2] . فلا محيد عن هذا المنزل ،ولا أبعد من هذا المطاف ، وليس وراء عبادان قرية[3] . وامتثل كل واحد منهم ، لوجه الحقيقة ، بـ :

---

(1) البيت لسنائي .

(2) الجملة منقولة من المقامة السادسة من مقامات الحريري .

(3) مثل ورد في مجمع الأمثال ، في باب اللام ، من أمثال المولدين ، بلا تعريف .

« إن تمزّق قلبي منك واستولوا على حبي ، فلمن أخصّ حبي ولمن أسلم قلبي ؟ »[1]

وعاد كل جوهر إلى مكانه ساكناً . إلا أن منكوقاآن لم يرض بهذا ، وأبى أن يطيع أياماً ، رافضاً قبول هذه الوثيقة الجسيمة ، متأبياً عن هذه الوديعة العظيمة . وحين بلغ رفضه حداً كبيراً نهض أخوه موكا أغول وبألمعيته وحصافته ووقاره ، تقدم وخطب في الحاضرين : « لقد وقعنا جميعاً وأعلنا في هذا المحفل ألا نخرج عن أمر باتوقاآن[2] ، وألا نبدل من إشارته ، وألا نزيد عما يريد . ورأى منكوقاآن الآن أن من المصلحة ألا يعدل عن رأي الأخ الكبير حتى لا يسارع الآخرون إلى مخالفته كذلك » . قال هذا الكلام بلسان ماسيٍّ ضم به لؤلؤ المصلحة ، بحجة قاطعة وبراهين ساطعة . وأثنى باتو على هذا الكلام وأيد موكا أغل فيما قال .

والتزم منكوقاآن . ومن صنايع الإله مدّه مهاد الملك في جدولٍ ، « وجعلناكم ملوكاً » ، ثابت الأصل ، سامي الفرع ، عند ذاك ، وعلى حسب رسم المغول ، نهض باتو وشدّ على أيدي الأمراء وأبناء الملوك ، ورفع كأساً في صحة الخانية ، فأقرّ له الحاضرون بذلك :

أتَتْكَ الإمارةُ مُنقادةً إليكَ تُجرِّرُ أذيالها
ولم تكُ تصلحُ إلاّ لهُ ولم يكُ يَصلحُ إلا لها

---

(١) البيت مطلع غزلي لكمال الدين اسماعيل الإصفهاني (المحقق) ، علما أن البيت ورد في كليلة ودمنة النسخة الفارسية ، التي كتبها نصر الله قبل مئة سنة قبل هذا الشاعر (ت) .

(٢) من عجب أن يلقب الجويني باتو بلقب قاآن ، ولعل هذا من فعل النساخ ، إذ حوروا الكلمة (آقا) .

ولو رامها أحدٌ قبلَهُ
لزُلزتِ الأرضُ زلزالها(١)

وأقبل الجميع يبايعون ويعلنون التبعية وقرروا أن يقيموا في مواطنهم(٢) احتفالا عظيماً في مطلع السنة الجديدة . وعلى هذه العزيمة قفل الحاضرون إلى مواطنهم . وطار الخبر في أرجاء المعمورة ، وسرى في أكناف العالم . وتلطّفت سرقويتي بيكي مع الضيوف الأجانب ، واستمالت ، بأساليب الرفق والذكاء ، العشائر والأقارب . وكان بعضهم يُظهر اعتراضه ، ويبدي امتعاضه ، ويسعى إلى إطالة المفاوضة بأفانين من المكر والحيلة ، ويؤلف القصص والروايات ، بحجة أن تظل الخانية في نسل كيوك قاآن ، لكنهم غفلوا لحظة عن : « تُؤتي الملكَ مَن تشاء » ، وكم أرسلوا الرسل إلى باتو ، وكم شرحوا له هذا المعنى ، وأعلنوا له : إننا مخالفون لهذا الاتفاق ، معرضون عن هذا الميثاق . فأخبرهم باتو بجوابه : نحن قررنا هذه المصلحة بالاشتراك مع الإخوة الكبار والصغار ، وانتهى الأمر : « قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان » ، ولا يمكن فسخ الاتفاق . وإذا لم تسيروا معنا عليه ، ورشحتم شخصاً آخر غير منكوقاآن انحلّ عقدُ الأمور ، واختلّ قانون المملكة وأمر الرعية ، فتلافي أمرٍ آخر محال . وإن أنتم أمعنتم الفكر في هذا العمل أدركتم في النهاية أن هذا الأمر راعى جانب أبناء قاآن وأحفاده . لأن مثل هذا الملك الذي بلغ من مبتدأ المشرق إلى منتهى المغرب لا يجوز أن يسلم إلى أطفال ، لقلة معرفتهم .

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية في مدح المهدي ، وقد تصرف المؤلف بكلمة (الإمارة) وهي في الديوان (الخلافة) .

(٢) ورد في المتن (آنان كلران) . ويقترح جون بويل المترجم الإنكليزي معنى الكلمة (مواطنهم الأصلية) . غير أن المحقق الفارسي (القزويني) يرى أن (آنان) و (كلران) اسمان لنهرين في شمال شرقي مغولستان ، وهو المكان الذي استقروا فيه قبل بناء قره قورم . ولهذا المكان مكانة كبيرة لديهم (ت) .

واستمرت المراسلات بين الطرفين مدة سنة ، وانتصف عام آخر من غير أن تجدي المحادثات فتيلاً . وكان العالم يزدهر عاماً فعاماً ، وبهاء الناس يزداد شهراً فشهراً . وأرسل باتو أخويه بركه وتقا تيمور مقامه ، وأرسل «قدغان» كذلك . وتوجه قرا هولاكو ، وانطلق المتفقون من أبناء الملوك . وقدم من « ألغ إيف »[1] ، الذي هو معسكر جنكيز خان ، عدد آخر من الأمراء . وفي أثناء ذلك كان منكوقاآن وسرقويتي بيكي يراسلان الجماعة المعاندة،ويسيران معهم في طريق المراعاة والموالاة والمناصحة و « الإيناس قبل الإبساس »[2] . وحين لم تنفع معهم سبل المواعظ والنصائح ، واستمر التفاوت بين الطرفين اتخذا معهم سبل المراسلة بين اللطف والتشديد والتكلف والتهديد ،يدمغانهم بالحجج،فلعلهم ينزجرون بالرفق،أو يصحون من غفلتهم، ويتعظون بتفكيرهم:

يا عـاذلَ العاشقين دعْ فئـةً أضلَّها اللهُ كيفَ ترشِدُها ؟
ليس يُحيكُ الملامُ في هِمَـمٍ أقربُها منكَ عنكَ أبعدُها[3]

« نصح العاقل : لا تدبِّر العمل ، لا يمكن بالحيلة أن تحوِّل المدبر إلى مقبـل »

حين انتهى العام وبشارات ربيع السنة التالية أهلت ، سما الملك من منازل الهبوط والوبال تدريجياً إلى أوج درجات العز والجلال . وعزم على الانتقال إلى دار الشرف ، مثل خسرو برويز[4] البطل جلس على عرش الدولة، وحملوا

---

(1) ألغ إيف : اسم معسكر جغتاي ، ولعل ورود اسم جنكيز خان خطأ هنا من النساخ أو من المؤلف نفسه ، أو أن الكلمة نفسها وردت خطأ .

(2) انظر مجمع الأمثال ، طبعة مصر ، في باب الألف .

(3) البيتان للمتنبي .

(4) خسرو برويز : آخر الملوك الساسانيين العظام .

المحمل فبدا فيه كأنه الحمل ، واعتدلت اللواقح من الرياح وتحولت إلى نسيم الشمال وقت النوم حاملة عبير الأوراد ، واهتز الريحان واحتبس في بـرد شهر دي[1] ... ومثل شهر بَهمن[2] الذي ظل سجين الصقيع ، وأرسلت ريح الصبا عنان السعادة :

« بدا على صفحة الماء بفعل ريح الصبا ، ألف موج ومع كل موجة ألف صُرّة مسكية »

والتهبت أتربة الأرض بنفثات الجمرات النارية فغدت سعيدة ، واهتزت قوى الطبيعة طرباً وتمايلت ، وعزفت الأطيار ألحانها في مروجها :

« فلنشرب الآن خمرتنا اللذيذة ، فالخمرة المسكية تسلسلت من الجداول»

« ازدحمت الحقول بالأزهار تحت الأوراق ، تلون الجبل بالشقائـق والسنابل »[3]

وشملت النضارة وجه العالم ، واخضوضرت الأغصان الباسقة ، وتمايلت البساتين كالخواتين بإيقاعاتها علـى حسب إرادة القلوب ؛ فبدت الأنـوار والنيلوفر بأبهتها وكبريائها ، واحمرت صفحة الأرض ، واستعار الأقحوان بريقه وصفاءه من أسنان العاشق ، وتطبع البنفسج بعبير زلف المحبوب المعطر، وتتابعت الأزهار كوجه المحبوب ، واحداً فوق الآخر ، وتعانقت الأوراد مـع البراعم بغنج ونعمة ، والياسمين في المرج كالأنامل ، وزين زهر النسرين الأرض فغدا كنسري الفلك، والنرجس قذف سهامه قذف الأتراك سهامهم على العصاة وأفواه الشقائق النعمانية كأفواه الكؤوس الخمرية ملأت الكون سعـادة ،

---

(1) شهر دي يعادل : كانون الأول وكانون الثاني (ت) .
(2) شهر بهمن يعادل : كانون الثاني وشباط (ت) .
(3) البيتان من الشاهنامة ، من مطلع قصة رستم وإسفنديار .

وسخت سواقي الأنهار ، وتشبّهت تثار الأزهار بصفائح السيوف الهندية ، والبلابل تملأ الحقول والرياض بسقسقتها وكأنها السوسن ذو عشرة الألسن، والمطربون يصدحون كأنهم العصافير السعيدة.. والكل ينشد قصيدة ملمعة[1] من نظم صاحب الممالك ، مدّ الله في عمره مدّاً[2] ، الذي كان في أيام الصبا كأنفاس ريح الصبا ، ، وتردد وردها صباحاً ومساء على أوتار الصنج[3] والأرغنون :

لقد ناحت على العودِ القماري وفاحَ الروض كالعود القَماري

« فتعطر الفضاء كالمرء الممسك ، اللائق به إن ظلّ صاحياً طيلة الليل في خلوته »

أدرْ يا صاحبي الكاسات نطربْ على وجهِ الخزامى والبَهارِ[4]

« تفتحت البراعم ضاحكة ، حين بكى غيم الربيع »

تبسّمتِ الرياضُ عن أقحوانٍ كما لاحت على الأفق الدّراري

« فما دامت وسائل المتعة والنظر قد تهيأت ، فلم لا تزورنا ذات ليلة ؟»

وإذا اعتدلت أيام الوصال ذات الخال مع حال الهواء على وفق الهوى ، وتبدلت سنو الجفاء بالسعادة غدت الدنيا روض أزهار ، والزمان منيراً :

هذا الربيع وهذه أنوارهُ طابتْ لياليهِ وطاب نهاره[5]

---

(١) القصيدة الملمعة : المؤلفة من بيت عربي وآخر فارسي ، يتسلسل بها المعنى ، كالقطعة الآتية (ت) .

(٢) صاحب الممالك : أبو المؤلف (ت) .

(٣) الصنج : نوعان ؛ وتري ونحاسي . والوتري هو الذي يمر في الشعر (ت) .

(٤) البهار : نوع من الأزهار أو أكمامها (ت) .

(٥) لأبي الغنائم بن حمدان الموصلي ، ذكره الثعالبي في تتمته ، ورقة : ٥١٣ .

وتجمع أغلب الأمراء في موطنهم (كلران) . وأرسلوا شيلامون[1] رسولاً إلى أوغول غايمش وولديها : خواجه وناقو . كما أرسلوا علم دار إلى يسو منكو ومع الرسولين الرسالة : لقد تجمع أغلب نسل جنكيز خان، وعمل « القوريلتاي » سيبقى مستمراً حتى قدومكم،ولا نقبل أي عذر منكم. فإن كنتم تطمحون إلى الانضمام فعليكم الحضور ، لنعيد دراسة مصالح المملكة ، ونزيل النقاب عن الشوائب ونمحو النفاق عن وجه الوفاق . وكان سيرامون كذلك بعث رسولا إلى خواجه وناقو بادىء ذي بدء . ولدى المصادقة والمصافاة نفذ القول : « عند الشدائد تذهب الأحقاد »[2] .

حين علموا أنْ لا مناص من تلبية الدعوة سار ناقو أغول[3] وقداق نوين وعدد من أمراء كيوك خان . كما وصل يسنبوقه أغول أخو قرا هولاكو نحو سيرامون ، تاركاً مقامه بناءً على طلبهم . وهكذا وصل الثلاثة إلى موضع واحد ، وفي نفوسهم شيء نحو المسلمين[4] ، في حين أن خواجه أخذ يتحرك للرحيل ، وفي كل مرة يقول : اليوم وغداً ، ولعل وعسى ، مسوّفاً في تزجية الوقت ، ولما يجتمعوا في أمر القوريلتاي ، أو لن يوفقوا ، أو أنه ليس له مصلحة ...

ولما كان سيرامون وناقو أكثر قرباً ، والأمراء وأبناء الملوك في خدمة منكو قاآن فقد أرسلوا إليه جميعاً : إذا لم تبادر إلى الاجتماع فإننا سنعين منكو قاآن . وحين أيقنوا أن مماطلته ذات هدف معين أعلنوا : إننا سنصل

---

(1) شيلامون : لعل الاسم ، والذي بعده بأسطر : سيرامون ، أصله سليمان (ت) .
(2) عجز بيت لعويف القوافي (حماسة التبريزي — بولاق : ١/١٣٩) .
(3) أغول : معناها الابن (ت) .
(4) لعل هذه الضغينة بسبب الرسول المسلم (ت) .

في الموعد الفلاني•وحقاً،وكحركة الكواكب الثابتة ساروا بعساكرهم وكتائبهم ومراكبهم وفرسانهم ، ترافقهم الجمال المحملة :

ما للجِمالِ مَشْيُهَا وئيدا أجَنْدَلاً يَحملْنَ أم حديدا

أمِ الرجالَ جُثَّماً قُعوداً ؟[1]

وحين انقضت المدة الموعودة، وما زال متوانياً ، وقد جاوز حد الاعتدال أعلن الحكماء والمنجمون الحاضرون أن اليوم التاسع من شهر ربيع الآخر سنة تسع وأربعين وستمئة خير وقت ، إذ يصادف طالع سعود الفلك ، إذ به تقطف السعادة ، والمشتري يعينه ، والزهرة تنيره • والدليل على أيام الخير تكاتف الغيوم وتكاثف الأمطار،واختفاء الشمس وراء نقاب السحاب وانسدام حجاب الضباب • وكان المنجمون ينتظرون ساعة الاختيار ، وظلمات الغيم حاجزة منافذ الشعاع، حتى أطلت أشعة الشمس فجاءة كعروس انجلت بجمالها على عروسها بعد المراقبة والممانعة • فقد انقشع الستار في الساعة المطلوبة ، وانجلت فتحة من السماء بمقدار جرم الشمس ، وانصقلت الكدورة عنها ، فأقبل المنجمون على عملهم ، وكانت الدنيا قد أشرقت ، وزالت آثار الاكفهرار• وحين تبين لهم طلوع درجات السعد الأكبر من حركة الفلك ، وتعينت درجات النحس والمظلمة ، وكان النيِّر الأعظم في الأوج العاشر المستقيم ، والقواطع في الثاني عشر رفع قبعته من كان حاضراً هذا الاجتماع ، أمثال : بركة أوغول أخيه تقاتيمور ، وعمهما الكبير إيلجيتاي ، وأبناء : أوتكين وكوتان[2]

---

(١) من أبيات منسوبة الى الزباء في قصتها مع جذيمة الأبرش ملك الحيرة ، والقصة مشهورة (الأغاني : ١٤/٧٥ • مجمع الأمثال ــ حرف الخاء ، خزانة الأدب : ٣/٢٧٢) •

(٢) كوتان : هو ابن أوكتاي قاآن الذي توفي عقب جلوس أخيه كيوك على العرش، لهذا فإن أبناءهم الذين يذكرون •

وكولكان[1] ، والأمراء وأبناء الأمراء ، والمعتبرين من معسكر جنكيز خان ، وغيرهم من القواد ، وعددهم يفوق عدد الجيش ، وعلقوا الأحزمة على أكتافهم، ورفعوا منكوقاآن ، وأجلسوه على سرير العرش ، ودعوه منكوقاآن . وجاء هذا النداء من صرير الأفلاك إلى آذان ضمائر الأرواح فألاً حسناً :

« فلتعش ألف عام أيها الملك ، والعز وراحة البال يرفلان حولك كل هذه المدة »

« ولتكن السنة ألف شهر والشهر مئة ألف يوم ، واليوم ألف ساعة والساعة ألف سنة »

واصطف الأمراء والجنود خارج المعسكر ، وكان عددهم أكثر من ألف من الرجال العاملين والمبارزين المشهورين ، الذين هم كالأسود في ساحة الوغى وأوان الثار :

خيلٌ كليلٍ دامسٍ وصفائحٌ لاحتْ كصبح الليلةِ الطَّخياء[2]

وبموافقة الأمراء جميعاً ، الذين كانوا داخل المعسكر ، ركعوا على ركبهم. وحين جلس ملك العالم بيمنه وسعادته وصباحته في أوج قوته على العرش ، فإن الهمة العالية اقتضت أن تحلّ السعادة والرفاهية جميع المخلوقات والجمادات[3] . وأصدر أمراً ملكياً ، في هذا اليوم الميمون ، يقضي بعدم المنازعات والمخاصمات ، وبالإقبال على السرور والمتعة ، حتى ينال كل فرد من

---

(1) كولكان : من أبناء جنكيز خان ، جرح قبل فتح موسكو سنة ٦٣٤ وتوفي متأثراً بجراحه .

(2) ليلة طخياء : ليلة مظلمة (ت) .

(3) انساق بعض مؤرخي الغرب مع الجويني في الثناء على منكو ، انظر على سبيل المثال : Sykes, Sir percy . A History of Persia, 2/94, London. 1963 (ت) "

البشر حقه من العيش ، ولا تبقى الحيوانات كذلك بعيدة عن نصيبها . وعلى الإنسان ألا يثقل حمولته على الدواب ، ولا يؤذيها بالأحزمة الشديدة . أما ما كان لحمه يؤكل[1] فلا يجوز سفك دمه إلا على شريعة العدل ، حتى الأطيار يجب أن تطير براحة وأمان ، والطيور الجارحة والحيوانات القاضمة يجب أن تبقى على ترابها وقرب مائها منعمة بعيداً عن نبال الصيادين بأمنها وأرباضها :

خلا لك الجو فبيضي واصفري ونَقّري ما شئتِ أنْ تُنقّري
قد رحلَ الصيادُ عنكِ فابْشري[2]

ولما حظيت حيوانات الدولة بسعادتها فقد أزف دور الجمادات ، لأنها من مخلوقات الله ، عزَّ اسمه ، ولكلٍّ ذرة من ذرات مخلوقاته حكمة : « سبحانك ما خلقت هذا باطلاً » وسرُّ ذلك : « وإنْ من شيءٍ إلا يسبِّح بحمده » ، فلا يجدر بالجمادات أن تُحرم من الرحمة ، فلا يجوز دق الأوتاد في الأرض بقسوة (!) ، ولا أن تحفر بعنف ، ولا أن تلوث المياه الجارية بالنجاسات . فسبحان الله[3] ، هو الذي وضع الوجود في محل رحمته ومجمع عدالته . حتى تفيض أمثال خيراته على ما اسمه « شيء » من الحيوانات غير العاقلة ومن الجمادات .

فإن تأمل صاحب البصيرة ، على سبيل الاستدلال ، في هذه الدقائق ، واستحضر شرائطها ، وأبقاها على صفحة الزمان ، بهذا المعنى ، على مرور الشهور والسنين ، أدرك ضرورة التدبّر ، وقرر أن حسن التفات الخاطر الهمايوني[4] نحو إصلاح حال الضعفاء والمساكين ، وفرط اهتمامه بنشر العدل

---

(١) ويقصد بذلك الحيوانات الأهلية غير الدواب التي ذكرها قبلا (ت) .
(٢) الشعر لطرفة بن العبد أو لكليب بن ربيعة التغلبي (انظر مجمع الأمثال - باب الخاء ، ولسان العرب مادة : ق.ب.ر) .
(٣) سبحان الله هو هذا الخان الذي أمر أخويه بتدمير آسية من الصين الى الشام! (ت) .
(٤) الهمايوني : السعيد ، المبارك ، ويقصد به الملك (ت) .

والرأفة على العام والخاص ، قد بلغ غايته . منحه الله جلّ جلاله عمراً مديداً على كرسي العرش ، ومتع ملكيته بالسعادة .

وعلى هذه الوتيرة وصلوا نهارهم بليلهم ، وحين المساء نهض كل فرد إلى مكانه ،حتى يحل نهار آخر يهزم فيه جيش الليل الحالك ، حيث تبدو طلائع تباشير الصباح ، ويبزغ خسرو السيّار[1] السعيد المؤيد . فعاد الأمراء إلى لهوهم وطربهم عودهم على بدئهم ، وبسطوا سماط النشاط ، وردّدوا وِردهم :

« انزاحت طرة الليل عن وجه الصباح ، حين استهل الشرب طربهم »
« وشغل السقاة في تقديم الخمرة الحمراء ، التي نسيمها من نفس الخمرة المعتقة »[2]

وجرى في ذلك اليوم احتفال في الخيمة ، فقد أمر الصاحب الأعظم يَلَواج[3] ، ثبّت الله قواعد دولته ، أن تظهر فاخرات الثياب ، المنسوجة على شكل القبة الخضراء،ذات نمط نادر من النقوش والألوان السماوية (الزرقاء)، والشبيهة بالمصابيح المنيرة كالكواكب ، أو ذات النقوش الحقلية بأزهارها وأنوارها ، المنثور عليها الدر واللؤلؤ . وأن تمدّ أرض الخيمة بالمفروشات الملونة والبسط المزخرفة ، والتي هي أشبه بالمروج ، يحسبها الناظر إليها زاخرة بأنواع الرياحين كالبنفسج والأرجوان والنسرين ، ولم ير أحد مثل هذه البسط ، ولا يصدق أن يصنع مثل هذا العمل الملكي ؛ فداخلها جنة إرم وخارجها السعادة والبهجة . وما إن اجتمع شمل المجلس حتى علا صخب الطرب أقصاه ، فترامى صوت شدوٍ من بعيد :

---

(1) كناية عن الشمس اللماعة (ت) .
(2) البيتان لسيد حسن بن ناصر الغزنوي ، وديوانه مخطوط ، ورقة : ٤،في باريس.
(3) هو الوزير محمود يلواج (ت) .

« ما أسعدك يا صورة منصورية ، أأنت بستان وقصر ، أم جنة أرسلها الله ؟ »

« بل ، لن أقول : أنت دنيا فلا دنيا كهذه ، فهي تقصّر العمر وأنت على عكس الدنيا تطيلين الأعمار »[1]

وجلس ملك الدولة ، كخسرو الذي يمشي وحـده في منزل الشرف ، واستقر على سرير العرش ، واتكأ على مسند الدولة ، ووقف علـى مُرتقى العظمة والهيبة ، وثبت مقامه على مركز السعداء ، وامتطى مركب العز والرفعة، واجتمع الأمراء المضيئون كالثريا عن يمينه • ووقف إخوته السبعة ، وكـل واحد في سماء الملك كالبدر : قبلا وهولاكو وأريغ بوكا وموكا وبوجك وسيكر[2] وسوبيتاي[3] ، وكأنهـم سبعة عروش • وإلـى اليسار جلست السيدات (الخواتين) وكأنهن البساتين حسناً وجمالاً ؛ كل واحدة كالقمـر والشمس « على سُررٍ مَوضونة مُتكئين عليهـا متقابلين » • والساقيات الحوريات الصبيحات ، اللائي سطرت سورة الحسن على صفحة وجوههن ، يطفن بالكاسات والشراب بأباريق وأكواب ، فخلت ساحة الأفئدة من أشواك الحزن والوحشة :

« ماذا أقول عن هذه الساقيات وكيف يا ربّ ، إنهن كالأقماز الزهرية جاذبات بعنبرهن »

---

(١) الشعر للأنوري •

(٢) سيكر : وتلفظ سكتو وسكتور وسلكر ، وورد في جامع التواريخ سيلكر خطأ •

(٣) سوبيتاي : هو الابن التاسع من أبناء تولي العشرة• وقد صاحب هولاكو في زحفه غرباً ، غير أنه توفي على أبواب سمرقند سنة ٦٥٣ •

« إن قطرة دم تغدو بحجم المريخ من خنجرهن ، ويوم النصر يسلبن الأرواح كما تفعل قبضات الخناجر »

« ترقص الزهرة في كأسهن كالحباب ، وآناء الغزل يضممن كالكأس في الكف »[1]

وتثبت الزمان المعاند كالقدم في الطريق الصحيح . ولا جرم أن الصنج عزف على لوحة الألحان، وزهرة السعد أنشدت شعراً يناسب المقام،وألقت، على لسان الدولة كلاماً من فم الدنيا ، وترنمت :

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا والدهر ذو ندم مما جفا وعدا[2]

وبهذا الغزل انصرف الوقت ، وركض الفلك الدوار بعين الرضا :

« أدام الله الملك عليك يا خسرو ، وسلمت لك الدنيا بأجمعها »

« بعهدك تهدمت صروح الظلم ، وبك أحكم بناء العدل »

وبهذا « الدوبيت »[3] الذي يناسب الحال ترنموا ، فكان كالضربة الجارحة في مخلب الزمان :

« غسل جدك[4] الظلم من ورق الزمان ، وكرم عمك[5] قوم كل انكسار »

---

(1) من أبيات سيد حسن بن ناصر الغزنوي ، انظر قبل هذه الصفحة .

(2) البيت لأبي محمد الخازن من شعراء الصاحب ابن عباد (انظر يتيمة الدهر : ٣/٧٤ .

(3) في الأصل الفارسي « ترانه » ومعناها : الشعر المحلي أو الدوبيت (ت) .

(4) يعني بجده جنكيز خان (ت) .

(5) يعني بعمه أوكتاي (ت) .

« وأحكم قباء الخانية بك ، فاسعدْ فقد آلت دولة الحكم إليك »[1]

واصطف الأمراء وأبناء الأمراء بموافقة رؤسائهم ، بكامل أسلحتهم ، برأسهم منكسار نوين ، بينما وقف الرسل والوزراء والحجاب المقدمون ورئيسهم بُلغاي آقا في موضعهم . أما الأمراء الآخرون والحشم ، ممن كانوا خارج البلاط ، فقد ألفوا مئة صف وأسلحتهم في أغمادها :

قومٌ إذا قُوبِلوا كانوا ملائكــةً   حُسناً،وإن قُوتلوا كانوا عَفاريتا[2]

« الملوك الترك عقلاء أذكياء ، حورٌ سود الشعر وجن ترتدي الحديد »

« جنٌ مُدجَّجون وقت الحروب ، حور في مجالس الأنس والشراب »

وهكذا مضى أسبوع مُفعم بالسرور والحبور ، انجلت فيه الضغائن والأحقاد . وكان كل يوم يمضي بلون خاص ، أشبه بكسوة الملك. يرتدون الثياب ويكرعون الكاسات ، وألفا ناقلة تنقل من بيت الشراب والمطبخ ، وثلاثمئة رأس حصان وبقرة ، وثلاثة آلاف رأس خروف . ولما كان عدد الحضور كثيراً فقد رأوا اتباع الحكم : « ولا تأكلوا مما لم يُذكرِ اسم الله عليه » قبل الشروع بالطعام[3] .

وفي أثناء هذه الاحتفالات وصل قَدْغان أغول وابنا أخيه ملك أغول وقرا هولاكو ، وقدموا واجب التهاني والطاعة ، ومقابل ذلك قوبلوا بأنواع من الإعزاز والملاطفة . وبوصولهم توقعوا قدوم أبناء آخرين بعدهم .

---

(1) الشعر لرشيد الدين الوطواط مع بعض التصرف من قبل المؤلف عمداً ليتناسب والمقام (المحقق) .لكنه لم يذكر التصرف في تحقيقه ، ومنه الحاشيتان ٤ و ٥ في الصفحة السابقة (ت) .

(2) البيت للغزي يمدح الترك .

(3) ما ذكره الجويني هنا مخالف لشدئر المغول (ت) .

واستمروا في سرورهم وانبساطهم ، وهم على ما عرفوا به ، حازمون يقظون. لكنهم لما أيقنوا بعدم وجود مخالف لقانون ملك العالم جنكيزخان ، أو مبدّل له ، وبعدم وجود خلاف بين الأطراف ، وليس هناك من يخلّ بأعراف المغول، وليس من يخطط لسوء ، فقد أهملوا جانب الاحتياط .

وعلى حين غرة ، ومصادفة حسنة ، بل من علامات السعد ، ومن تتمة ذي الجلال ، وجود صياد● يدعى كشك● ومعه جمله ، وكان كناقة صالح النبي عليه السلام التي بها أنقذ المؤمنون وهلك الظالمون . وكان هذا الصياد قد فقد جمله ، فأخذ يجدّ لمعرفة مكانه . فكان يهيم شرقاً وغرباً . وظل على حاله هذا يومين أو ثلاثة أيام. وفجأة وجد نفسه وسط جيش سيرامون وناقو. فرأى جيشاً كبيراً ، وعربات كثيرة تحمل الأثقال والمأكولات والمشروبات ، متعللين بإقامة مراسم التهنئة والتزام الخدمة. كان كشك غافلاً عن مقصودهم، فأخذ يسأل كل واحد منهم عنه . وفيما كان منشغلاً بالبحث مرّ بعربة مكسورة ، وإلى جانبها فتىً ، كان من جملة أنصار المسافرين . فاستعان بكشك على إصلاحها ، فلبى له الطلب . وفيما كان يصلح العربة للفتى وقع بصره على الأسلحة والمعدات الحربية محمولة على العربات . فسأل الفتى عن هذا السلاح الذي يحمله ، فقال له : إنه من نوع ما تحمله العربات جميعاً . فتصنع كشك العاقل عدم فهم المقصود . حتى إذا أنهى مهمته مع الفتى راح يسأل الرجال واحداً واحداً ، فأيقن أخيراً سرّ أحمالهم وأهدافهم « وأبدى الصريح عن الرّغوة » . ولا شك أنهم يضمرون المكر والخديعة ، بنقض الميثاق ونقض الوفاق فيما هم يشاركون في الاحتفال . وسيتحينون فرصة نشوة أصحاب العقول وسكر الشيوخ والعقول فيخرجون عليهم ، وينجزون ما اتفقوا عليه : « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » .

وما كان من كشك إلا أن أرخى عنان جواده ، ونادى المثل : « حبلك على غاربك »(1) فقطع مسيرة ثلاثة أيام بيوم واحد ، ووقت صلاة العشاء بلغ المعسكر . ودخل البلاط بلا إجازة أو تردد ، وابتدر كلامه ، برباطة جأش ، بقوله : لقد بسطتم بساط النشاط والطرب ، واستهنتم بغموم الدنيا ، وعدوكم كامن في بعض الأماكن ، قد أعدّ أسنان السنان ، يهتبل الفرصة لينقض عليكم:

وإنْ لـم تَلجْ بابَهـا مُسرعاً أتـاكَ عدوُّكَ مِن بابِهـا(2)

شرح هذا المعنى مشافهة ، وحثهم على المبادرة ؛ فمثل هذه الأمور غير واردة أصلاً في أعراف المغول، ولا سيما في عهد أسرة جنكيز خان، ومستبعدة تماماً . وكرّر كلامه مرات ، وقصده توضيح المراد . لكن الخان لم يُعر هذا الكلام التفاتاً ، وكأنه ظن أن كشك يبالغ في عرضه واضطرابه ، وظل الخان هادئاً . لكن أبناء الملوك والأمراء المعتبرين ، الذين كانوا في حضرته اعترضوا على هدوئه هذا ، خشية ، نعوذ بالله ، أن تصاب عين بأذى ، فيندمون ولاتَ حين ندامة :

فإياكَ والأمرُ الذي إنْ تَوسَّعتْ مداخلُه ضاقتْ عليكَ المصادرُ(3)

وقبل أن تَقصر اليد عن تلافي الخطأ ، أو أن يستحيل علينا الأمر ، وتضيق السبل عن حل المعضلة ، فيغدو الأمر دقيقاً كالشعرة الرفيعة فيصعب على العين البصيرة إدراكها ، وقبل أن يسهل على خدم العدو السيطرة علينا أن نتبصَّر للأمر ، فإن كان ما يقوله صحيحاً تتبعناه بحزم واحتياط . ووضعُ الخصم ، وإن كان ضعيفاً فلا ينبغي أن نتهاون به . وإن لم يكن له أساس من الصحة فلا نخسر شيئاً ولا نتضرَّر :

---

(1) انظر مجمع الأمثال ـ باب الحاء .
(2) البيت لابن المعتز .
(3) البيت في الحماسة ، مجهول القائل : ٣/٨٩ ، مع اختلاف .

ولا تَحقرْ عزيمةَ مُستكينٍ فإنَّ الجزلَ يُشعَلُ بالدِّقاقِ

وعلينا أن تتلقّى الأمر ، في بدئه ، بالروية والكياسة ، والرفق والمداراة حتى لا تستعلي نار الفتنة . وأن نُخمد الريح النكباءقبل أن تثير غبار الأمن على عرصة الدنيا ، ويبقى ماء حياة الناس في عين العالم ثابتاً :

« لا يجوز لك إنجاز الأمر بسرعة وقسوة ، فالثعبان يُخرَجَ من وكره بلطف »

فإن لم نقدم على الأمر بهذه الطريقة ، ولم نعمد إلى المواساة والمجاملة أولاً ، فإن آخر الدواء الكيُّ(1) ، فنستعد عندئذ للمقاومة اللازمة :

« أغلق الجيش المجال أمامك برأسٍ قاطع ، كسنان الرمح وقت الخدمة أو العداوة »

« كخسرو أمام كأسه يحل كل قضية بالحكمة ، كرستم ممتطياً جواده (الرخش) يلقاهم واحداً واحداً »

حتى إذا استقرت الآراء على هذا أعلن كل واحد من الأمراء عن تطوعه في الإسهام بحل القضية ، وفدائه في سبيل حلها . ولمثل هذه القضايا يتوجب عليهم أن يحتاطوا وأن يتفحصوا وأن يتجسسوا ، وفي نهاية الأمر يجري حله بلطف أو بعنف ، والسعد طريق الإلهام :

« أقبل مفتاح فتح الرأي ، والرأي الحديدي ذهبيُّ المفتاح »

« والحصافة أقوى من مئة ضارب سيف ، وتاج الملك أحسن من مئة قالب »

---

(1) ورد المثل كذلك : « آخر الداء الكي » في مجمع الأمثال . وقال أبو بكر في المثل السائر : « آخر الداء الكي » ، ورد أهل اللغة هذا ، وقالوا : إنما هو آخر الدواء الكي .

« برأيٍ يتراجع الجيش ويكسر ، بسيف يمكن قتل مئة »[1]

وقد استغني عـن خدمات الأمراء وأتعابهم ، فقد اتفقوا علـى إرسال منكسار نوين ، والذي هو رأس الأمراء والركن الأكبر من بين أركان الدولة ، ليكتشف الحال ويستدرك الأمر ، ويسعى إلى إصلاحه بما يراه . وقاد ألفين أو ثلاثة آلاف من الفرسان الأتراك الرماة المغاوير :

جِنٌ على جِنٍ وإن كانوا بشرْ كأنهم خِيطُوا عليها بالإبَرْ[2]

وفي وقت تباشير الإسفار ، حين مقدمة جمشيد الأفلاك[3] حملت علـى جيش الظلام سار منكسار نوين العظيم نحو منازلهم ، ومعه مئة من الفرسان ، مقترباً من عتبات مضارب خيامهم ، وباقي جيشه أحاط بهم فِرقاً فِرقاً ذات اليمين وذات الشمال ، حتى أحاطوا بهم . عندئذ نادى نوين من على ظهـر جواده ، وشرع في حديثه : لقد بلغ مسامع الخان المبارك عنكم كلام ، فـإن كان كذباً ما ادّعاه الداعي ، وخلافاً لما أنتم عليه ، فأظهروا مودتكم وامثلوا بين يدي الخان ، ولا تتعللوا بمعاذير غير مقبولة ، وإلا فامسحوا هذه الوصمة بماء المسارعة من خد الوفاء ووجه الوفاق .

حين سمعوا هذا المعقول من الكلام خرجوا من خيامهم ، وأجالوا النظر فيما حولهم ، فرأوا الجيوش بلا عد ولا حد ، وهم ليسوا أكثر من نقطة في دائرة ، وأصحاب وأتباع ، وخيل ورجل . لقد كانوا عن المكامن بعيديـن ، خارجين عن عنان ممسك القدرة ، فتولاهم الذعر والخوف ، فضاقت عليهم

---

(1) من قصة « خسرو وشيرين » لنظامي .

(2) ذكر ابن الأثير في المثل السائر : ٤٩٨ أن هذا البيت من ارجوزة أبي نواس يصف فيها اللعب بالكرة والصولجان ، ولم أظفر به في ديوانه المطبوع بمصر ، وإن كانت توجد فيه أرجوزة بهذا الروي بعينه .

(3) يقصد الشمس (ت) .

السبل وتاهوا . فتعثر لسانهم عن الاعتذار ، واختلت أقدامهم عـن التقدم والإدبار ؛ فلا أعينهم ترى صواباً ، ولا تقاعسهم وتوانيهم يوضح سببـاً . ولا خلفهم شيء يحميهم ، ولا قوة لديهم تُعينهم على المقاومة ، ولا جـرأة تدفعهم إلى الموت . وأدركوا بعد هذا أنَّ مَن نجا برأسه فقد ربح ، فأسرعوا معلنين عن خلوّ أيديهم من هذا الأمر ، مستبعدين مثل هذا الإقدام :

وابنُ اللَّبون إذا ما لزَّ في قرنٍ   لم يستطع صولة البزل القناعيس[1]

وهكذا ، اضطراراً لا اختياراً اتجهوا ببضعة فرسان مع نوين نحو خدمة الملك . حتى إذا ما دنوا من المعسكر ، أوقف مَن معهم من الرجال ، واستل ما معهم من السلاح . كما أمر بعضهم أن يؤخذ من هؤلاء الأمراء ، السيئي الفكر والفاسدي الدين ، كنانات نبالهم وجعب أقواسهم ، حتى إذا دخلوا على الملك وأبناء الملوك تسعة تسعة انحنوا إجلالاً .

ومضى يومان لم يُسألوا فيهما عن موضوعهم . حتى إذا جاء اليوم الثالث ، حين أشرقت الشمس بسعادة ، فحلَّ نهار الدولة على غروب العصاة ، وربيع العمر جرَّ المخالفين إلى الخريف . وعاد الجماعة إلى اجتماعهم ، فأمر منكوقاآن: لقد ترامى إلى مسامعنا ما لا يصدق أو يعقل ، وما لا تقبل به أذن . ولم يقبل تصورنا أمثال هذا التلاعب ، وأمثال هذا الكلام الذي لا يقبـل به بشر . ولا يعقل البحث مجازاً عن حسن النية ، كما يجب التحقق من صدق الطوية ، لإزاحة غبار الشبهة عن وجه اليقين ، ورفع حجاب الشك عن صفحة الشمس المشرقة . فإن كان افتراءً وبهتاناً عددنا المخبر كذاباً على صفحات الأحوال ، وأنبهنا العالم إلى هذا الادّعاء .

---

(١) البيت لجرير (انظر الأغاني : ٨/١٧٩ ، شواهد المغني – في شواهد أل : ٦١) .

وبناء على هذا ، فقد أمر (الخان) بعد الدخول على المعسكر أو الخروج منه. كما أمر باحتجاز عدد من الأمراء أمثال: إيلجتاي نوين وتونال وتاتاكرين وجنكي وقلتاي وسرغان وتونال الصغير وطغان ويسور ، وكل واحد منهم يعرف مرتبته وقدر نفسه ، ويعلم أنه لن يبلغ السماء ، وأن دوران الأيام هو الذي نظمهم في عقده ، وأنهم لا يمكنهم حل هذا العقد ، ألا يعلمون أنه :

« مهما منحت السرو طولاً ، فإنه سينحني من الآلام »

« لا يسعك الشكر على كل لقمة تزدردها ، فبعضها يسوغ بلعه وبعضها يؤلم »

وأمر عدداً آخر من أمراء « التومان »[1] ، ولن نذكر أسماءهم حتى لا نطيل ، لكي يباشروا في بحث أمرهم . وكان معهم يرغوجي الكبير ومنكسار نوين وعدد آخر من الأمراء والعظماء قضاة ومحتاطين . وفي النتيجة اتضح خلافهم ، وعبّر كل واحد منهم عن خجله وندمه بـ : « يا ليتني كنت تراباً ».

أراد منكوقاآن ، على عادته الحميدة ، أن يغمض عن جرمهم فالعفو عند المقدرة من مَواجب الكرم. إلا أن أبناء الملوك والقادة قالوا: ينبغي ألا تتهاون في أمر الخصم :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضر، كوضع السيف في موضع الندى[2]

« في أي مكان ينبغي أن تحدث أثراً ، لا ينفع أن تضع عليه دواءً »[3]

---

(1) أمير التومان : قائد عشرة آلاف جندي (ت) .
(2) البيت للمتنبي .
(3) من حديقة سنائي .

وحينما ينتهز العاقل الفرصة ضد خصمه المسيء ، فإنــه إن توانى في عقابه قصر في حزمه ، وندم ولات ساعة مندم :

إذا أمكنت فرصةٌ في العــدوِّ فــلا تَبْدَ شُغلَكَ إلا بِها[1]

والحسن لا يؤثر في الأشرار ، كالبذر الذي يبذر في أرض سبخة فإنــه لا ينبت ولا يثمر وإن توالى عليه سقوط المطر :

« يبقى جذر الشجرة مراً ، وإن غرست في الجنان »

« وإن سقيتها بماء الخلد ، ونثرت العسل والمسك على أصولها »

« وفي النهاية ستبدو الثمار ، وترى الفاكهة مرة »[2]

وإن رأيت أن عقابهم غير ضروري ، ولم ترَ العلاج الذي رآه الملوك ، ولم تُنزل الحديد والسيف على رقابهم ، وإن لم تر قصاصهم بقطع نسلهم ، ولم تسرْ على « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » :

« فإن الشجرة ستزهر ، وتورق على رأس كل فنن »

« أيها الملكُ اثأر لخصمك ، وخذ عِبرتَك من الشمس ؛ »

« إن سحبت إلى عالمها ، حتى لا تبزغ ، فإن الدنيا لا تدفأ ولا تضاء »

حين أدرك منكوقاآن أن أمثال هذا الكلام نابع من الإخلاص وليس من منابع النفاق أمر أن تُقطع أعناق أمراء السوء الذين ذكرناهم آنفاً ، وفَهِم أبناء الملوك أهدافهم ، جزاء على ورطاتهم وجرائمهم ، وأمر الله حلَّ : « أغرقوا فأدخلوا ناراً » . وانتهى أولاً إيلجتاي بلا رأس ولا قدمين ، وسحق بعده تاونال ، ثم تاتاكرين مثل بيدي لا بيد عمرٍو ، بُقر بالسيف . وتبعهم الآخرون على هذا المنوال « يحملون أوزارهم على ظهورهم ، ألا ساء ما يَزِرون » .

---

(1) البيت لابن المعتز .
(2) الأبيات للفردوسي (ت) .

وحين وصل الخبر إلى يَستَنبوقا ابن أخي جغتاي ترك كامل جيشه ورافق ثلاثين فارساً ، وعدا نحو مركز الاجتماع . لكنهم ألحقوه بطائفة سيرامون وناقو[1] في مكان واحد .

وبشكل عام فإن كل من حمل ضغينة، قدرت السماء مصيره، فأحضروهم واحداً واحداً . واستعاد الطالع السعيد كل الجبارين والطواغيت والمتكبرين، واقتادهم إلى مصيرهم المعلوم . وكان كل واحد منهم ينطق بلسان حاله :

« أيا مَن يسألني عن رأسي ، أنا لن أجلبه على رقبتي »[2]

وذهبت الرسل بطلب بعضهم ، وظفروا بهم ، إلا أن قداق نوين ما زال غائباً عن الأنظار . فحين سيق سيرامون وناقو ترامى إليه النبأ ، وهو يعلم أنه أصل البلاء ، وجذر الحقد والداء ، والمسبب الأصل لهذا الاضطراب ، لكنه لا يستطيع الآن إصلاح الحال :

وكتيبةٍ لبَّستها بكتيبةٍ حتى إذا التبست نفضت لها يدي[3]

حاول ، بعد خراب البصرة ، أن يصلح ذات البين ، وينسحب من القلاقل باللّين ، أو ينزوي في قمة جبل العافية . واتجه بالفعل قاصداً سلامة روحه ، وهو ينشد هذا الشعر :

« اسعَ لتبلغ السلامة ، فالطريق الوعر مخيف ومنزل الأمان بعيد »

والطمع يتغنى برأسه . واستمر على تفكيره هذا ليلاً ونهاراً ، يرجو فُرجة الفرج ، وساحة الأمان ، والزمان يضحك ساخراً من حسرته وضجره وبكائه ، وكأنه يقول له :

---

(1) المراد هو المعسكر الذي سجنا فيه .

(2) بيت من رباعية لنصرة الدين كبود جامه .

(3) البيت للفرار السلمي (شرح الحماسة : ١/٩٩) .

« إن كان لسانك صادقاً ، فلماذا يستهدف السيف رأسك ؟ »

وفاجأه أتباع الحضرة كالملائكة القابضي الأرواح ، وقالوا له : لقد ولى أصحابك جميعاً ، وجاءت نوبتك :

« أقبِلْ يا صاحب الخيام وحلَّ الخيمة ، فقل رحلَ رائد القافلـة عن هذا المكان »[1]

وساقوه من خيمتـه بطرف « قراقورم » ، فرأوه معلولاً ، فأزعجوه إزعاجاً يناسبه ، واقتادوه إلى الحضرة • وهناك حاكمه القضاة ، فتبين لهم أن جرمه أقوى من كفر إبليس • وبعد أن أقرَّ واعترف ألحقوه بشركائه وأصحابه، ومن حوض : « فأوروهم النار وبئس الورد المورود » ارتوى •

ولما كان بعضهم ما زال متوارياً ، لم تطلهم الأيدي بعد فإن النفس مازالت متوقعة شرَّ خبثهم • لذا جهزوا جيشاً مؤلفاً من عشرة « تومان » ، شبـاب شجعان ترك وعلـى رأسهم برنكوتاي[2] نوين نحو ألغ طاق• وموتغاي• وبوريليك الواقعة بين بيش باليغ وقراقورم ، ليصلوا من هناك إلى « نركه قونقوران أغول »• الواقعة على حدود قياليغ ، لكنه انسحب إلـى أطراف أترار • ويكه نوين إلى حدود قرقيز وكم جهود[3] بألفي تومان • ولمـا لم تكن أغول غايمش قد وصلت مع ابنها خواجه أغول ، فقد وصلت الرسل إلى كل أم وابنها تحمل الرسالة : إذا لم يكن لك علاقة بهذا الأمر ، ولم تفكري بمشاركتهم أو مساعدتهم ، فسعادتك مؤمنة ، وعلامتها المبادرة نحو الخـان بأقصى سرعة •

---

(١) البيت لمنو جهري •

(٢) يشك بلوشيه برواية الاسم (المحقق) • بينما المترجم الانكليزي يرسمه Bürilgitei .

(٣) ويلفظها بلوشيه : كم كمجيوت • وقرقيز وكم جهود منطقتان متصلتان تؤلفان مملكة • كما أن كم جهود اسم نهر عظيم يمر بمناطق المغول والنايمان وغيرهما •

حينما أبدى شيلامون البيتكجي رسالته لدى خواجه ، بدا أنه لم يعبأ كثيراً بحديثه ولم يهتم لقصده، وأساء إليه . وكان من بين خواتينه خاتون كانت أدنى مرتبة من غيرها لدى خواجه، لكنها أكثر فطنة وتعقلاً، جاءته وقالت له : على الرسول أداء الرسالة ، ولم يعهد قبلاً أن يساء إلى الرسول ، ولا سيما إذا كان قادماً من قبل منكوقاآن ، وأنت تعلم مقامه ، وأن قتل النفس في عهده يُعدّ نقصاً وعيباً ، وبالإضافة إلى ذلك فإن هـذا العمل يولّـد مفسدة ، وبواسطته ستموج بحار الفتنة ، وتضطرب الدنيا ، ويعم البلاء . وما دمت تستطيع تلافي الأمر فلا حاجة إلى الندامـة والأسف . ومنكوقاآن أخ كبير (آقا) وبمقام الوالد . وعليك تنفيذ أمره كيفما كان .

واتعظ خواجه المحظوظ بهذا التوجيه ، وتراجع عما كانت عاقبته وخيمة. بل إنه أكرم شيلامون وأعزّه . وسار هو والخاتون وكل من كان في مجلسه نحو القضاة .

كما أنّ تِكشي أغول[1] ، الذي قدم مع سيده قرا هولاكو ، أُرسل إلى بوري[2] . وأرسل تركمان بيتكجي إلى ييسو منكو[3] وخاتونه التـي كانت تقاشي وإلى الأمراء وأبناء الأمراء من منطقة « ألغ إيف »[4] . وبعد أن أكمل الرسولان مهمتهما في أداء الأمر بالحضور خاطبهم (تركمان بيتكجي) : إن أنتم تخالفون هذه الفئة العاصية ، ولا توافقونها فلم تتوانون عن الإسراع إلينا، وما سبب هذا التقصير؟ فإن لم يكن الشك معششاً في أدمغتكم فسارعوا

---

(١) تكشي بن موجي بن جغتاي (المحقق) ، وعلى هذا فهو ليس أخا قرا هولاكو لكنه ابن عمه ، ولهذا ترجمنا كلمة (آقا) التي بمعنى الأخ الأكبر بمعنى السيد ، ولعل وجودها غير لازم (ت) .

(٢) المراد به : بوري بن ماتيكان بن جغتاي .

(٣) ييسو منكو : الابن الخامس لجغتاي .

(٤) عنى بألغ إيف : كل مكان من معسكر جغتاي .

وإلا كان القتال بيننا وبينكم ، ومَن أنذر فقد أعْذَرَ[1] . حين سمعوا هذا الكلام اعتراهم الرعب من الملك ، فاستبعدوا تلك الأفكار وبينوا حسن النية.

وإذ أنهى الرسل مهمتهم عادوا على الفور من غير أن يوقفهم تناول الطعام. وتبعهم بسرعة بوري ويسو وطغاشي ، وكذلك الجماعات التي كانت على حدود إيميل وقياليغ كل واحد منهم اتجه نحو جيش برنكوتاي (؟) حيث أرسلهم عزلاً من أسلحتهم نحو منكوقاآن . أما الفئة الباقية التي ثبت عليها الجرم فقد اتبع معها المصلحة اللازمة المناسبة[2] .

حينما وصل خواجه إلى الملك حول أولاً إلى سيرامون مع عدد آخر من الأمراء . أما الذين كانوا معه أمثال : قوربقاي قورجي وأرغاسون بن إيلجيكتاي وغيرهما فقد حوكموا ، وكغيرهم قتلوا .

ووصل كذلك جينقاي ، فوضعوا قضيته بين يدي دانشمند الحاجب ، والذي سيرد مسرد ترجمته منفصلاً[3] ، في رمضان من سنة خمسين وستمئة. وتلتهم غايمش خاتون ، فأرسلوها مع أم سيرامون قد اقاج إلى معسكر واحد . ووصل كذلك يسو وخاتونه تقاشي خاتون وبوري . وقدم عدد من الأمراء والرسل المعتبرين ، أمثال : بيتكجي وسومان قورجي وأباجي وغيرهم من أمراء التومان ، إلى الخان حيث بحث أمرهم . فالأمراء منهم ماتوا جميعاً، في حين أنهم أرسلوا يسو وبوري نحو باتو . وحاكم قرا هولاكو تقاشي خاتون بحضور زوجها يسو فأمر بأن تُركل أعضاؤها وتسحق حتى يشفى ما في قلبها من حقد دفين .

---

(1) تصرف في المثل ، وأصله : أعذر من أنذر (مجمع الأمثال : ١/٣٢٠) .

(2) أي قتلهم (ت) .

(3) نسي المصنف ما وعد .

وفي بيش باليغ كان إيدي قوت ، رأس المشركين والكفرة من عبدة الأوثان[1] من المؤيدين للمخالفين والمعارضين . وكان قد قرر دخول الإسلام، وكان يُرى في المسجد الجامع في وضح النهار وفي ظلمة الليل يُغطي ظلام كفره بنور إسلامه ، وتفرق الناس من حوله ، عجباً أيوم المحشر يجتمعون معه : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » . وقد كشف القرآن نواياهم ، ووضحت الشريعة الأحمدية خطط الصحيفة الظلماء . كان من بينهم غلام على معرفة بِعُجَرهم وبُجَرهم ، أعلن إسلامه فأفشى بأسرارهم ، فثبتت جريمتهم . فبعد أن أخذ إيدي قوت مع جماعة آخرين إلى المعسكر وحوكموا ، والتزموا ، جاءهم الأمر بنقلهم إلى بيش باليغ ، وبحضور جميع الناس من أهل الإسلام وعبدة الأصنام ، وبعد صلاة الجمعة ، سلموهم إلى الزبانية . وفرح المسلمون بهذا النصر الذي يشبه فتح مكة (!) إذ بهم استطاعوا أن يعيشوا حياة جديدة،يشكرون فيها الله تعالى:

فتحٌ تَفَتَّحُ أبوابُ السماءِ له وتبرز الأرض في أبرادها القشب[2]

أوجب هذا العقاب المزيد من الدعاء والثواب نحو الملك الغازي[3] منكوقاآن . أدام الله تعالى مدة خانيته ثواباً على حسن مكافاته . ولنكتفِ من تسطير هذا الموضوع بذكر إيدي قوت .

كان إيلجيكتاي آنئذ في العراق[4] ، قدم ليأخذ غدقان قورجي إلى ملك العالم . فاتجه نحو باتو ، لكن غدقان هرب مع عبيده حين وصلوا إلى العراق،

---

(1) يعني بوذيين .

(2) من بائية أبي تمام المشهورة .

(3) أخطأ الجويني بكلمة (غازي) فهي من القاب ملوك الإسلام المجاهدين (ت).

(4) يعني حتماً عراق العجم (ت) .

وهرب إلى بادغيس،حيث أسره الحرس وأخذوه إلى باتو مع عدد من خواصه.
وانتهى أمره هنا :

« عَدَّ قليلاً فلم يظفر بشيء ، فسخر من العالم وقال : حتى هو ولّى»

وسيتضح وضعه وكيفية حاله[1]. وظل في بعض الأطراف بعض الفتانين، ولكنهم تواروا عن الأنظار . ومتابعة ملاحقة كل واحد منهم إطالة . وقد أرسلوا بالا القاضي (يارغوجي) مع الخدم إلى جيش بيسو ليبحث عن أشباه هؤلاء ؛ فمن كان متورطاً ساقوه إلى القضاء . كما أرسلوا أميراً آخر إلى الختا ليدرس أمثال هذه المهمات . ولقد كانت الفتن سبب هيجان العالم ، وبرزت قضايا من الخاطر ، وأبناء الملوك الذين ذكرناهم أخذوا نصائحهم عن معلمين سيئين ، وأفهمهم أمراء أبالسة ، ومثل جليس السوء كمثل النار ؛ إن لم يضرك حرّها لم يَفتْك دخانها[2] ، قد كانوا مغرورين ، ومنحرفين عن جادة المصلحة .

ولقد اقتضت سيرة الملك على هذا الحسن والنقاء بأن يرعى جانب القرابة (!) ، واضطره الأمر إلى إقالة العثرة ، وإلى التزام القول : ملكت فأسجح . فإن عليه الآن أن يوفّي ما عليه من دين وقرض :

وأدّ زكاةَ الجاهِ واعلمْ بأنه ... كمثلِ زكاةِ المالِ تمّ نِصابُها

فنشر بساط الرأفة وجناح المرحمة على الباقين ، وغطى بذيل عفوه وتجاوزه زلاتهم وهفواتهم :

ولا يحملُ الحقدَ القديمَ عليهمِ ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا[3]

(1) سها كذلك ، كالسابق ، عن ذكره فيما بعد .
(2) مجمع الأمثال : ١/١١٥ و ٢/١٤٦ ، مع اختلاف طفيف .
(3) البيت للمقنع الكندي (شرح الحماسة : ٣/١٠٠) .

وأمر عن طريق التأديب لا وجه التعذيب أنْ : « سافروا تَغْنَموا »[1].
ليغتربوا ، وقمر السفر يغدو بدراً ، وفي عناء المعارك والملاحم غناء الرجال وكفاءة الأكفاء . وجلالة الأخطار في الأخطار[2] ، حتى ينظفوا وسخ الأوزار بعرق المكابدة والأخطار ، ويطهروا العِرق من وصمة الخيانة ومنقصة الجناية، والنار تنقّي الذهب . وكل ولدٍ لم يؤدّبه ذووه فإن الزمان الصارم يهذّبه ويشذّبه :

مَن لم يؤدِّبْهُ والداهُ   أدَّبه الليلُ والنهارُ[3]

بناء على هذا أعطى أوامره إلى : سيرامون بمصاحبة قُبلا أغول[4] . وناقو وجغانوين[5] ويسنبوقا لغزو ولايات « مَنْزي »[6] . أما خواجه فقد أعفي من الجيش بسبب قضاء الحق لزوجته ، وعيّن مكان إقامته على حدود سُلنكاي بالقرب من قراقورم . فلله هذا الفَعال الذي طرّز ديباجة الكرم، وغيّر في مساعي ملوك الأمم :

لله أفعالُهُ اللّواتي   حَسُنَّ مَرْأى وطِبْنَ نَشْرا
أوْدَعْنَ كلَّ النفوسِ وُدّاً   أخلصْنَ سرّاً له وجَهْرا

---

(1) حديث معروف (الجامع الصغير للسيوطي في حرف السين) .
(2) عجز بيت للتهامي . وصدره :
حكم المنية في البرية جار
(3) البيت لابراهيم بن المهدي عم المأمون ، أورده ابن عبد ربه في عقده : ١/٣٦٦.
(4) يبدو أن الجويني يقصد (وهو الصواب) أن يذهب الجميع متفرقين ، وكل واحد الى نقطة ، فسيرامون بصحبة قبلاي أغول ، وناقو بصحبة جغان نوين ، ويسنبوقا .
(5) الصواب هو جغان نوين ، يؤكده رشيد الدين في جامع التواريخ : ١/١٥٦ .
(6) منزي : أقصى الصين الجنوبي (ت) .

ولفظ الحديث النبوي دالٌّ على هذا المعنى : « صِلُوا أرحامكم ، وصلة الرحم تزيد في العمر » • وليس لهذا الحديث إشارة إلى أمةٍ بعينها ، بل الأمم تشترك جميعاً في ذلك • وهذا المعنى يقرر ببداهة العقل أن صلة الرحم امتزاج واشتباك • فإن أخذ الحديث على ظاهر معناه ناقض الآية : « إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » • ولما كانت السيرة والروايات تؤكد على تناسق الآيات والأحاديث ؛ القرآن المجيد والكلام السديد فإنه من المحقق ، الذي لا جدال فيه أن زيادة العمر بواسطة الرحم تأتي على وجهين: الأول عن طريق الزواج والتأهيل ، وبه يتوالد الناس ويتناسلون ، ويتتابع الأعقاب والأخلاف بطناً عن بطن وقرناً بعد قرن من عالم العدم إلى صحن الوجود ، ومن مكان السرّ إلى صحراء الظهور ، وذكر الآباء والأجداد من تشبّه الأبناء بمناهج الآباء ، يبقى على صفحة الزمان ذكرى • والغرض من حياة الرجل العاقل الشهرة والاسم الحسن ، يشيعان بين الناس ، ويخلدان بعده ، وخلف المرء الكريم لا يكون الجلف اللئيم • ولا شك أن وجوده حياة الأسلاف •

والثاني : الموافقة والموالاة مع العشائر والأقارب،والمصادقة والمواساة مع الأباعد والأجانب • وبمعاونة الفريق للفريق الآخر عون على الخصم العنيد ، كالأوتار والأشعار إذا تجمعت عجز الفيل عن قطعها :

« إن كان خيطاً واحداً قطعته عجوز ، وإن كانا اثنين عجز عنه زال الذهبي »[1]

وببركات الموافقة والمظاهرة يخلص المرء من المهالك والمطبات التي انقطع عنها أمل الفرج • وبها لا يقبل الإهانة ، ويأمل أن يكون بين الناس مرفّهاً

---

(1) زال الذهبي (زال زر) : أبو رستم البطل الأسطوري (ت) •

محترماً ، وسبيل أعدائه مسدوداً دونه • وقرب صاحب همة يوم من العيش الهنيء خير من سنة في مذلة ومهانة :

ولَلْموتُ خيرٌ للفتى من قُعودهِ عديماً، ومِن مولىً تدب عقاربه[1]

وقد اتبع جنكيزخان ونسله هذا المنهج ، فاحتلوا العالم ، وما تبقى منه يخضع على التوالي ، ويأخذون منهم الضرائب والخراج • ومنذ بدء حالهم ، وخروجه للغزو ، شرع بنصح أبنائه شيئاً فشيئاً • ومثّل لهم بنبل سلّه من كنانته[2] وأعطاهم إياه ، وواضح أن كسره لا يحتاج إلى قوة ، فأعاد الكرة باثنين ، وتابع الأمر بأربعة وعشرة ، فعجز عن كسرها الأقوياء • فقال : إن وضع الأولاد كهذه ، فما داموا يراعي بعضهم بعضاً يأمنون غوائل الأحداث ، ويتمتعون بملكهم ، وخلاف هذا بخلاف هذا • ولو أن السلاطين المسلمين حافظوا على إبقاء الأقارب وحماية الأجانب لحصلوا على مثل هذه النتيجة ، ولأبقوا على أساسهم المشيد ، ولحافظوا على حريمهم ، ولأمنوا لأقاربهم المروءة والفتوة ، ولنجوا من شريعة الشفقة والرأفة ، ولما أمكن استئصالهم •

ولقد كان توالد أولاد جنكيزخان في نعيم الملك ونعمته أفضل ألف مرة• ولن يقال أكثر من هـذا حتى لا يظن القارىء أننا بالغنا وجاوزنا الحد في تحريرنا لهذه الحكايات ، وفي صلب كل فرد عدد من الأحفاد ، ازداد مقامهم حتى هذا الزمان القريب •

---

(١) البيت لأبي النشناش (شرح الحماسة : ١/١٦٧ ، الأغاني : ١١/٤٥ ، وفيه : أبو النسناس) .

(٢) القصة معروفة قبل جنكيز خان بقرون ، وهذا من صناعة الجويني في رفع مقام أسياده (ت) .

حينما تفرغ خاطر منكوقاآن الهمايوني من مهماته ، وعزم أبناء الملوك على العودة ، أولاهم عناية فائقة من المكرمات وفنون البر والمرحمة ، وأرضى كل واحد منهم بما يناسبه . ولما كانت المسافة التي سيقطعها بركه أوغل وتقاتيمور طويلة ، ومدة الفراق مديدة في سفرتهما نحو باتو ، فإنه دعاهما إليه وعطف عليهما بأنواع من الإنعام مما يضيق شرحه . كما حملهما أنواعاً نادرة من التحف والهدايا إلى الملك باتو ، ولم يضنّ عليه من نوره ومن نور الشمس مع الكواكب السيارة والثابتة ، واغترف من بحر كرمه ، وغاص في الدر ليغترف له .

وخصص لقدغان أغول وملك أغول معسكراً ملكياً من معسكرات أوكتاي قاآن ، وفوق ذلك أنعم عليهما بسيدات المعسكرات . كما أعطاهم بحدود تومان من أمرائه وعساكره ، وهدايا قيمة يخف الدهر أمام وزنها ويضن بمثلها . وعين لهما منازل يسكنون فيها ويضعون عليها عصا الترحال. وبعد ذلك اتجه نحو تكريم قرا هولاكو وإعزازه ، فمنحه مكان جدّه[1] الذي كان عمه قد أخذه منه ، وغبطه على إعادة الأملاك إليه . وإذ بلغ ألتاي لم يتمّ بإسعاده الأمل لأن حكم الله سبقه :

« لم أنلْ زادي من شفتيكَ الياقوتيتين ، ولم أحصد سنبل قمحي من حقل الرغبة »

وعلى هذا انقضت همته العالية ، وأعاد الأمراء الباقين إلى مواضعهم :

فعادوا فأثْنَوا بالذي كان أهلَــهُ   وإن سكتوا أثنت عليه الحقائبُ[2]

---

(1) كذا في الأصل الفارسي من غير تعليق من المحقق وهو الصحيح . بينما أخطأ « بويل » بترجمته الانكليزية فذكر أباه بدلا من جده ، وأبوه موتوجين وجده جغاتاي ، أما عمه فبايدار ، وجغاتاي مؤسس خانية وسط آسية (ت) .

(2) البيت لنصيب بن رباح يمدح سليمان بن عبد الملك (الأغاني : ١/١٣٤ ، طبقات الشعر : ٢٣٤) .

أما كشك فقد جعله « ترخاناً » ومنحه مالاً كثيراً حتى غني وارتفع مقامه وامتنعت ساحته . وحين عاد أبناء الملوك وانتهت مهماتهم ، اتجه نحو ضبط مصالح الملك وتقويم معوجّها وإصلاح فاسدها وزجر المتعدين وقمع المفسدين. وصرف كدّه ووكده في تذليل صعاب العصاة ، واستلانة رقاب البغاة . وجعل هدفه وانصرافه نحو تخفيف محن البرايا والترفيه عن الرعايا ، بجد لا يعرف الهزل ، تاركاً المدام ، لاحقاً حبات أفاضل العدل ، مبتدئاً بالعساكر في أقاصي الشرق والغرب من بلاد العجم والعرب . وقد فوض قبلاي أغول بالبلاد الشرقية وولايات الختا من : منزي وسلنكاي● وتنكوت ، وهو المعروف برزانته وحصافته ونباهته ودهائه ، كما عين الأمراء الأكارم في خدمته، واتخذوا مواضعهم من مجلسه يميناً ويساراً . أما البلاد الغربية فعهد بها إلى أخيه الآخر هولاكو أغول المعروف بثباته ووقاره وحزمه واحتياطه وحمايته وحميّته (!) ، وهيأ له أعداداً من الجيوش ، وفي مقدمتها كيد بوقا الطباخ[1]، وذلك في أواسط جمادى الأولى من سنة خمسين وستمئة ، حيث تحرك بجيشه مبتدئاً أمره بالملاحدة :

« بأمرك سارعوا ليلاً ونهاراً ، من ناحية الصين الآن إلى رومة ، ومن رومة إلى الصين »

كما عين مقرّري الضرائب وأسماء الرجال الحكام والشحنة والكتبة . والبلاد الشرقية من ابتداء الإقليم الخامس من شاطىء جيحون إلى انتهاء الختا وهو الإقليم الأول خص به ، كالسابق ، الصاحب[2] المعظم محمود يلواج

---

(1) هو نفسه الذي فتح دمشق وقتل في معركة عين جالوت ولقبه « باورجي » بمعنى الطباخ (ت) .

(2) الصاحب يعني الوزير (ت) .

وخلفه الصدق مسعود بك ؛ فما كان طرف الختا عهد إلى الصاحب محمود يلواج الذي أبدى عبوديته وقرنها بمحبته ، منذ المرحلة السابقة لجلوسه (الخاقان) المبارك . وما وراء النهر وتركستان وأترار وبلاد الأويغور والختن وكاشغر وجند وخوارزم وفرغانة إلى مسعود بك ، الذي جابه الأخطار إخلاصاً وحباً بالمشايعة ، فكان له النفوذ الخطير .

ومن وصلوا إلى حضرته قبل عقد القوريلتاي أعادهم إلى مواقعهم مع أنواع من التحف والهدايا الخاصة . وبعد رحيلهم وصل الأمير أرغون الكبير الذي قطع مسافات شاسعة ، مقارنة بالخوف والوعيد ، بعد أن انفض القوريلتاي ، قادماً من وطنه في العشرين من صفر سنة خمسين وستمئة محمولا بطاعته ، وكذلك أبناء الملوك الآخرين الذين على شاكلته ، بعد أن شملته العناية الأزلية والكفاية الأبدية ، لذلك خصه بمشايعة عبوديته ومتابعة إخلاصه، ولا سيما حين لمس ذرائعه المتينة ووسائله المبينة « وعند الصباح يحمد القوم السُّرى[1] ، فحظي بالآمال وإدراك المقاصد وحكم ممالك خراسان ومازندران وهندوستان والعراق وفارس وكرمان واللور وأرّان وآذربايجان وكرجستان والموصل وحلب ، إضافة إلى من كان تحت يده من الملوك والأمراء والكتاب ، مع هدايا سنية . وسار في العشرين من رمضان من السنة المذكورة .

أما من كانت لهم مصالح فإنهم لبثوا أياماً ثم أعيدوا سعداء ، وقد عينوا عبيداً لهؤلاء الحكام[2] ، وأمرهم أن يحصوا الولايات ويعينوا الضرائب . حتى إذا فرغوا من أعمالهم هذه عادوا ، ليمثلوا بين يدي حضرته ، ويقدّموا التقارير عن نتائج دراساتهم وبحوثهم، من غير أن يعسروا، وعفا الله عما سلف،

---

(1) انظر مجمع الأمثال ، أول باب العين .

(2) والجويني المؤلف واحد منهم ، كما هو واضح من المهمة (ت) .

لأننا[1] نهتم بترفيه الرعايا ولا نسعى إلى توفير أموال الخزائن . وحثه على تخفيف المؤمن على الرعايا ، وكلها مذكورة في الأوراق . ومن هنا يتضح مدى اهتمامه بأمور الدنيا وتنظيم مصالح الشعب . وأبناء الملوك بعد كيوك خان أصدروا قرارات كثيرة وكسبوا من ورائها ، وبعثوا الرسل إلى أطراف العالم، وأوكلوا أمر الشريف والوضيع إلى التجار ، ليضغطوا عليهم ، حتى يدفع كل واحد منهم الأموال التي جنوها من عهـد جنكيزخان وقاآن وكيوك خـان وغيرهم من أبنائهم . وأبناء الملوك بعد هذا العمل ، ممن اهتموا بمصالـح مالكهم ، لم يسمحوا لنوابهم بأن يتصرفوا مثل هذا التصرف ، كما لم يسمح للعمال والموظفين بأن يمتلك الواحد منهم أكثر من أربعة عشر بغلا[2] ، لينتقلوا عليها من محطة إلى محطة . ولا يجوز لهم أن يدخلوا قرية أو مدينة مالم يكن لهم بها مهمة . كما لا يسمح للواحد منهم بأن يحمل طعاماً أكثر من حاجته .

فقد كان الطغيان تجاوز الحد ، وتدنى مردود المزارعين إلى النصف من كثرة الضرائب التي يدفعونها . لذا أمـر أن يدخلوا في الحسبان الوضيـع والشريف من العمال وأصحاب الأعمال ، ويأخذوا أكثر من أصحاب اليسار . ويعفى من الضرائب الجماعـة التي كانت تابعة لحكم جنكيز خـان وقاآن ، وكذلك يتبعهم في المعاملة سادات المسلمين وأئمتهم الأخيار ، ومن النصارى الرهبان منهم والأحبار ، وكذلك رجـال الدين من الوثنيين ، ومنهم كذلك المسنّون والعاجزون . وسمع اليهود هذا الأمر ، فتضايقوا لأنهم لم ينضووا

---

(١) غيّر المؤلف الضمير من الغائب الى المتكلم الجمع في هذه الجملة (ت) .

(٢) من دواب البريد .

تحت هذا العطف ، وتحيروا ، فنتفوا لحاهم ألماً • يقول ظهير[1] في التذكرة والعظـة •

« كا نرجل أحمر اللحية ، ضرب يده على لحيته حين سمع ذلك »

« قال : أرى أننا لسنا في الحسبان ، ولم نعد في هذين العالمين »

وحتى لا يتمكن صاحب العمل من المقاسمة فقد أمر بوضع عرف ثابت ؛ ففي ممالك الختا يؤخذ من الغني المتمول أحد عشر ديناراً ومن الفقير دينار واحد،ومثل ذلك في بلاد ماوراء النهر ، أما الغني في خراسان فيؤخذ منه عشرة دنانير والفقير دينار واحد وبهذا لا يمكن للكتاب والحكام من مداهنة أحد أو أخذ رشوة•وهم بهذا يعزفون عن الباطل،ولا يبدلون به الحق•وأمر أن يؤخذ رأس من الأنعام عن كل مئة من المراعي التي تدعى « قوبجور » ، وإذا كان عدد الأنعام أقل من مئة لم يؤخذ شيء • ويعفى الرعايا من الضرائب التي كانت متراكمة عليهم ، فلا تؤخذ منهم حيث كانوا • كما أمر بأن تجبى الضرائب من التجار وأصحاب الأعمال ، ممن كانت لهم علاقات كبيرة مع كيوك خـان وزوجتـه وأبنائه ، من جديد • وأن يراعى أصحاب المذاهب الإسلامية ، بأن تشملهم الصدقات والعناية ، ومصداق هذا أنه في عيد الفطر من سنة خمسين وستمئة قدم المسلمون إلى المعسكر مع قاضي القضاة جمال الملة والدين مقتدى العلماء محمود الخجندي ، يديم الله فضله ، فأمّ قاضي القضاة الناس وخطب فيهم ، ذاكراً الخلفاء الراشدين وأمير المؤمنين • وبعد أن أدى صلاة الجمعة والتي تعد ، بحسب الحديث النبوي ، أفضل ألفي مرة من الركعات في الكعبة ، عاد قاضي القضاة إلى المعسكر ودعا وقال إن :

---

(1) من مثنوى ظهير الفاريابي •

« أسعدك الله بحلول العيد ، فقد برز كوكبه بسعدك على الناس »

« عدوك كالبدر في خسوفه ، ولكن عهدك لامع كالهلال »

فاهتم الخاقان به كثيراً واستعاده الدعاء مرات وكرات . وشرفه في هذا العيد بعدد من « الباليشات » الذهبية والفضية وبأنواع من الثياب الثمينة ، واستفاد كثير من الناس من إنعامه هذا . ولا تقلّ هداياه وعطاياه في غير أيام الأعياد عن هذه الأيام :

لنا كـل يـومٍ من صلاتك عيـدُ ... فكيف يَبينُ العيدُ يوم يعودُ ؟[1]

وأطلق سراح المجرمين من كل أنحاء المملكة ، وفك أغلال المأسورين . وأمّن البلاد من البلاء . وهذه الأبيات التي أثبتها الآن ، هي وإن لم تكن مناسبة للمقام فإنها قريبة من أصحاب الذوق :

مَن أنـا عندَ اللهِ ، حتـى إذا ... أذنبتُ لا يَعفـو عـن ذنبي ؟
العفوُ يرجَـى من بنـي آدمٍ ... فكيف لا يُرجى مـن الربّ ؟

فكم من قلوب ثبتت الرؤوس على الأرواح ، والرقاب على الأجساد ، وحفظت الدرهم والدينار في أكياسها ! وقد انطلقت الرسل وطارت البرد إلى أطراف المملكة لهذا الهدف :

« حتـى يعلموا أن الملك الذي يهب الذهب والفضـة ، هو السلطان بهرامشاه محرر الأرواح »

كالشمس في كبد السماء ، وضوءها ... يغشى البـلاد مشارقاً ومغاربـا[2]

ولو أننا أقدمنا على ترجمة حاله يوماً فيوماً ، وبينا فيها أفعاله الخيرة

---

(١) البيت للأنوري ، طبعة بيروت سنة ١٣١٧ .
(٢) البيت للمتنبي .

لاحتجنا إلى مجلدات . وما ذكرناه قليل من كثير وقطرة من بحر وذرة من شمس ، والقليل منها على الكثير دليل . ولما كانت آثار عدله وإنصافه قد عمت الأقطار وشاعت بين الأمصار ، فإن القريب والبعيد التجأ إليه وظفر الأمان لديه . أما من كانوا في منأى فإنهم كانوا آمنين ببأسه . وكانت الرسل تتوافد عليه من بلاد الفرنجة ومنتهى الشام ودار السلام ، والهدايا والتحف تفد عليه من السلاطين ؛ من خيل وأحمال :

« أرسلوا الجزية إلى هذه المدينة ، لأنهم لا يريدون الحرب معه ، ولا مثيل لقوته »[1]

وكانوا يعودون بعد أن يدركوا حاجاتهم ، ولكل واحد منهم فصل خاص[2] . وإلى هنا يكفي هذا الاختصار ، داعين له بالسعادة :

« أيها الملك أدام الله عمرك وملكك ، وأزهرت صفحة الدولة في عهدك »

« دولتك مركز الشمس ، لا مكنها الله من مدار الزوال »[3]

---

(١) البيت من الشاهنامة (ت) .
(٢) وهذه الفصول من التي أشار إليها ولم يكتبها (ت) .
(٣) البيت لظهير الفاريابي .

نماذج من محاسن الذات الهمايونية

ملك العالم منكوقاآن بعد استقراره

على سرير العرش

ذكرت في مقدمة هذا الكتاب نبذاً عن مكارم أخلاقه وأفعاله بشكل مجمل وعام . كما فصلت بعض التفصيل في أثناء جلوسه المبارك . غير أنني لم أشفع ذلك بتأكيدات عن طريق عرض حكايات عنه، وأذكر هنا تلك الأخبار ليتحقق العالم من أن ما ذكر عنه كان منزهاً عن مجال التكلف ومبرّأً من صفة التعسف . فقد كان التجار يفدون من شتى الأقطار على كيوك خان بقصد المنفعة العظيمة ، ويعودون بذلك النفع إلى ممالكهم شرقاً وغرباً . ولكن لما كانت مدة حكومته قصيرة فإن التجار أحجموا عن إقدامهم ، وبالتالي لم تصل إليهم أموالهم . واستمر الأمر على هذه الحالة بعد موته عن طريق نسائه وأولاده وأبناء إخوته ، مع كثير من النفع العائد إليهم . وكانوا يكتبون الحوالات كما كان كيوك خان يفعل . ولهذا عادت وفود التجار تتوالى وتتوافد تباعاً ، وباشروا في معاملاتهم التجارية معهم . ولكن حين تغير حال الذين كانوا يتعاملون مع التجار ، وساءت أوضاعهم[1] فقد حرم التجار من

---

(1) يقصد المؤلف بذلك أن أسرة كيوك خان وأتباعه قتلوا أو طردوا أو سجنوا على يد منكو قاآن .

حقوقهم ولم يعودوا يقبضون من أموالهم عشرها ، وفقدت تلك الحوالا قيمتها بعد أن كانوا قد سلموا أقمشتهم وبضائعهم •

وحين جلس علـــى عرش العالم المبـارك منكو قاآن ، واهتم بالعـدل والإنصاف ، توافد عليه أصحاب الحقوق ، على سبيل اختبار اهتمامه ، وهم بين أمل بعدله ويأس مما يلتمسونه منـه[1] • وشرحوا له أوضاعهم الماليـة السيئة • ومع أن أركان دولته لم يروا رد أموالهم من خزانة الملك واجبة ، ولن يلومهم أحد على عدم الدفع ، فإن :

« ماذا ينفع مملكتنا القوية ، إذا كان هناك خراب ؟ »

« إن سخاء الغيم عمّ العالم ، حتى منح الأطفال حليباً مع الأعشاب »

بسط جناح مرحمتـه عليهم جميعاً • وأمر بأن يدفع لهـم من أمواله الخاصة ، وقد زادت قيمة ما دفع على خمسمئة ألف بالش فضة ، من غير أن يترك أحداً معترضاً • وهكذا عمّ سخاؤه الحاتمي ،فكان بذلك قذى في عيون من يتصفون بالملكية الأنوشيروانية[2] • ففي أي كتاب تاريخي قرىء ، أو أي رواية ذكرت؟،أن ملكاً يدفع قروض غيره من الملوك ؟ لقد كانت هذه الشمائل نموذجاً لعادات ملكية وأخلاق شاهانية اتصف بها ، وهي بالتالي مثال يحتذى واستدلال يُحتفى به ، « وكل الصيد في جوف الفرا »[3] :

« قبل قدرته تسع طبقات سماوية مغطاة، كخراب مقابل أربعة جدران»[4]

---

(١) أي إذا كان سيدفع لهم من خزانة ملكه أم لا •

(٢) يقصد الملوك الذين يتصفون بالعدل ويتشبهون بعدل أنو شيروان (ت) •

(٣) انظر مجمع الأمثال باب الكاف واللسان والتاج في « ف•ر•ء » •

(٤) البيت لظهير فاريابي •

لا يمكن رؤية مثل هذا الملك في نفاذ أمره وحزمه إلا من كان طويل العمر ، بحكم الكلام الرباني « وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض » .
منحه الله عمراً مديداً لا نهاية له .

ذكر أركان دولته :

انتظمت أمور العالم بسلك عدله ، وانحسمت مشوشات ضمائر الناس ، وخمدت الفتن بيمن جلوسه ، وانغلقت أيدي العداء والفساد ، وتوجهت الجيوش إلى الأطراف والأكناف ، وقادت المعاندين نحو الصراط المستقيم ، وانشغل حضرته بتفقد أحوال الأقطار ، وأصحاب الحاجات ، وأرباب الملتمسات ، ومتقلدي الأعمال والأشغال . وغدا بلاطه ملاذ القريب والبعيد ومنجى الخائفين ؛ يقضي لهم حوائجهم المختلفة باهتمام ، ويوزع الأعمال والواجبات على كتابه وعماله . وكان بعضهم محظوظاً ومنتفعاً وبعضهم محروماً منتظراً . والخان يقضي الأمور بعناية بالغة وتقدير واهتمام ورحمة ، ويمنح أرزاقه بحسب المقدار المناسب على عبيده . فأعطى مثالا لكل أمير : كيف يتفحص الأمور ويحل قضايا الجمهور ، فوضع لهم العدل أساساً . وخص السيد بلغاي مشرفاً على المرتبات ، وأمره أن يكون رئيس الكتاب ووزيرهم ؛ كالحاجب تعرض عليه حاجات الناس فيصوغها ويعرضها . كما يكتب له المناشير . وقد كان من جملة ممثليه[1] المسلمين : الأمير عماد الملك والذي كان يقوم على الخدمة في عهد القاآن وعهد كيوك خان . كما كان الأمير فخر الملك من خواصه ، وهو معروف بقدم عبوديته له ، وعدد آخر

---

(1) يعني ممثلي منكوقاآن (ت) .

من المغول ، كلهم يشتركون مع الأمير بلغاي في إدارة البلاد . وقد عين كل فرد في مهمة معينة يديرون الأمور بعد أخذ رأي الأمير بلغاي الذي يستشير به ملك العالم . وقد أجاز للأمير بلغاي مع اثنين من المساعدين إدارة الأمور الديوانية ولا سيما في تعيين الضرائب وتحديد المهمات . كما عين فوجاً من الموظفين لمتابعة أمور التجار وأصحاب السوق . والتجار ، بطبيعة الحال ، عدة فئات ؛ فئة قد حظيت بأموال من الخزينة ، على أن ترد بعضه إلى الخزينة سنويا مع الارباح ، وفئة هم التجار الشركاء الذين خاضوا ميدان التجارة حديثاً .

في الأيام الماضية ، وقبل جلوسه المبارك على العرش ، كانت هناك فئة من التجار المعتبرين ، حظوا بكثير من الانعامات الملكية والمناشير السلطانية ، ولم يكن أحد في مستواهم من التقدير والاحترام . وكانوا معفيين من دفع الضرائب . ولكن حين انتقلت مقاليد الأمور إليه ، ووضعت بين يديه مفاتيح الملك أمر بعدم منح التجار الأوامر الملكية[1]، حتى لا يقع موظفو الديوان بالتمييز بينهم وبين من لم لا يملك هذا الأمر الملكي ، كي لا يحيدوا عن جادة العدل ويزعجوا السكان بلا سبب . ولما كانوا مشغولين بأرباحهم ، فعلى الجميع أن يتساووا في كسب المؤن ، وألا يتطاولوا على غيرها .

وعدة منهم استوردوا بضائعهم ، ورغبوا في المتاجرة مع الخزانة الملكية. وهم أيضاً أنواع ؛ نوع استورد الجواهر وأراد بيعها للخزانة الملكية ، ونوع استورد الألبسة ، ونوع استوردوا حيوانات ، وغير ذلك من الأنواع . وفئة كذلك تاجرت بأنواع معينة من الألبسة ، أو أنواع الفرو ، واثنان أو ثلاثة اختصوا بالعملة الذهبية والفضية .

---

(1) في الأصل « ندهند ونكيرند » أي عدم المنح وعدم الأخذ . والقصد في التركيب هو : عدم التعامل ، لأنهم لا يمنحون الأوامر الملكية .

وعدد من الرجال اختصوا: بضرب الأختام، ومنح الأوامر الملكية، والإشراف على دار السلاح ، وعلى الطيور وجوارح الصيد وعلى المشرفين عليهم. ورجل أو اثنان اختصا بأمور الأئمة والسادات والفقـراء والنصارى والأخيار من جميع الأمم .

وأمر بأن تنفذ كل هذه الأوامر بدقة حتى لا تقع رشوة[1] ، أو يتمادى بعضهم في طمعه والزيادة في كسبه . وعلى أولئك الموظفين أن يخطروا المسامع الهمايونية عن كل تقصير قبل أن يوقفوا أحداً . كما أنه عين الكتاب من جميع اللغات : الفرس ، الأويغور ، الختائيين ، التبتيين ، التنكوتيين .. وغير ذلك من الكتاب الذين يقومون بمهماتهم الكتابية على حسب ألسنتهم وخطوطهم[2].



(١) في الأصل وردت كلمة (ربا) . فرأينا ترجمتها بالرشوة ، وهذا رأي المحقق كذلك (ت) .

(٢) في النسخة الأصلية بعد هذا الكلام فراغ قدر صفحة . ولعل المؤلف ترك الصفحة بيضاء على أمل أن يضيف بعض جزئيات وقائع منكو قاآن ، لأنه ألف كتابه في مطلع حياة القاآن .

ذكر مسيرة ابن ملك العالم هولاكو إلى البلاد العربية

هو الرجل السعيد اليقظ الحليم الوقور ، المتمتع بالمكانة والإشراق ، ذو العقل النير المرشد ، الذي يفوق بجماله الشمس ، وبكرمه السحب • أين هم خانات الصين والماجين،ليتعلموا منه قواعد الملك؟وأين هم الملوك الأقدمون ليروا القدرة الإليهة ؟ إن يسعد قياصرة الروم تشرفوا بخدمته ليتعلموا منه ويتربوا ، ويقتبس منه أكاسرة الفرس وفراعنة مصر آراءه عن غزو العالم وكيفية بذل الآراء وحزم الأمور •

ولقد أدرك ملك الأرض منكوقاآن شمائل أخيه هولاكو في قدرته العالمية ، وترسَّم عزماته في إمكانية غزو العالم • لهذا ، فإنه بعد انتهاء القوريلتاي العظيم ، وتمكنه من الجلوس على العرش ، وفراغ باله من المغرضين والحساد صرف همه لغزو أقاصي الشرق والغرب • فابتدأ بتوجيه أخيه قوبلاي نحو الطرف الشرقي من بلاد الختا • وبعد ذلك ، وفي شهور سنة خمسين وستمئة أقبل على تدبير مصالح أخيه الآخر هولاكو ، فاختاره لضبط الجانب الغربي من البلاد • ولقد عين ، كما فعل مع قوبلاي ، من الجيوش الشرقية والغربية من كل عشرة أشخاص اثنين ، ومن أبناء الملوك واحداً هو أخوه الأصغر سبتاي أغول لمصاحبتهم •

وجاءت نجدة من باتو مؤلفة من : بلغاي بن شيبقان[1] وتوتار أغول[2] وقولي[3] . كما أن جغتاي أرسل : تكودار[4] أغول بن موجي[5] . ومن طرف جيجكان بيكي[6] قدم بقاتيمور[7] مع جيش قبائل أويرات. وعين عدداً من أبناء حميه والأمراء والنبلاء العظام ، وتفصيل أسمائهم إطالة . كما أرسل إلى الختا يطلب منهم خبراء في المنجنيق وقذف النيران النفطية . فوصل إليه من الختا ألف مجموعة ختائية مختصة بالمنجنيقات ، وبإمكانهم أن يفتحوا

---

(١) يلغاي : الابن الرابع لشيبقان (شبان) بن جوجي ، وقد أرسله باتو نجدة الى هولاكو حين اتجه الأخير الى إيران ، لكنه توفي بغتة في حدود ٦٥٧ ، وقد ورد اسم بلغاي في بعض الكتب العربية بشكل مختلف : بلغاي ، بلغه ، بالاقان بلقا وكلهم واحد .

(٢) توتار بن مينكقدور بن بوقال بن جوجي ، جاء مع بلغاي لنجدة هولاكو ، ثم اتهم بالسحر فأعيد . ثم أعدم بأمر هولاكو في ١٧ صفر سنة ٦٥٨ (المحقق). وقد لفظته الكتب الغربية (قوتار) خطأ (ت) .

(٣) قولي (ويلفظ قومي كذلك) هو الابن الثاني لأورده (هردو) بن جوجي ، قدم لنجدة هولاكو لكنه توفي ٦٥٧ . لكن بلوشيه سها إذ جعل وفاته سنة ٦٥٤.

(٤) تكودار ، ويلفظ في الكتب : تكوتار ، بيكودار . وهو الابن الأول لموجي بن جغتاي ، ويرى بلوشيه أن اسمه نكودر (بالنون) ، لأن تكودر (بالتاء) هو السلطان أحمد بن هولاكو .

(٥) موجي بن جغتاي ، ابنه الأول .

(٦) جيجكان بيكي : اسم الابنة الثانية لجنكيز خان التي زوجت الى « تورالجي كوركان » ابن ملك قوم الأويرات .

(٧) ورد ذكره في النسخ : بوقايتمور ، توقاتيمور . هو ابن تورالجي كوركان ، ابن ملك قوم أويرات وأمه جيجكان بيكي الابنة الثانية لجنكيز خان . أرسلته أمه على رأس جيش لنجدة هولاكو ، ومات سنة ٦٥٨ .

منافذ بحجم الجمل لدى قذفهم الحجارة ، وضرباتهم لا تخطىء أهدافها • وهم حين يقذفون من أسفل إلى أعلى تتابع القذيفة اتجاهها ، ولا ترجع إلى الوراء•

وأرسل الرسـل في الطليعـة بدءاً من جبـل « تيعاب »[1] في وسط قره قورم وبيش باليغ ، ليهيئوا ممر الجيوش طولاً وعرضاً ، ويعدوا الأعلاف والمروج اللازمة لرعي دواب الجنود • فحفظوا الجبال والسهوب ، فجعلوها أشبه بالحقول والبساتين الخاصة ، ومنعوا عنها الدواب والمواشي (من غير أنعام الجنود) • وغدت سهول تركستان حتى خراسان وأقاصي بلاد الروم وكرجستان مأمورة بحكم : « ولا تقربا هذه الشجرة » • وترك الناس أوراق الشجر،واعتبروها محرمة عليهم•فاخضوضرت الطبيعة• وتابع الرسل مسيرتهم ليعدوا المروج والأعلاف لمسيرة جيوش الملك •

وسار تايجو[2] مع جيوش جورماغون إلى الروم ، ووصلت إلى الممالك أوامرهم بشأن الحشم والجيش ، ليصنعوا معاجن الطحين التي يتسع الواحد منها لمئة منٍّ وخمسين مناً من الماء ، ويعدوا الأكياس لها • وشغل الأمـراء وأصحاب الأطراف ، حيث كانوا ، بإعداد العلوفة وترتيب الطعام[3] والنُّزل محطة تلو المحطة • وأحضر الأمراء المغول والمسلمون قطيع الخيل ، كما أخذوا يصنعون النبيذ تباعاً للأمراء الآخرين • ونظفوا الممر الملكي فرسخاً فرسخاً

---

(١) اضطرب المحقق في نطقهـا ، كما أن اسم هـذا الجبل غير مذكور في جـامع التواريخ ، بينما يلفظها D'ohsson « تنغات » • وانظر المستدرك (ت) •

(٢) وتقرأ في النسخ : بانجو ، بايجو • وفي جوامع التواريخ : بايجو •

(٣) سجلها المحقق « ترغو » بالراء المهملة • وهي كلمة مغولية صحتها « تزغو » بالزاي ومعناها الطعام المعد للمسافرين (زاد) (ت) •

من الشوك والحجارة ، وصنعوا الجسور على الأنهار والسواقي ، وأعدوا في معابرها السفن •

وهاجت الدنيا من سكونها وهدْأتها • أما المعاندون فإنهم لم يُخففوا من ثورتهم تجاه بأسه وصولته•وأما التابعون له فلم يتوانوا عن ترتيب الجيوش والأسلحة والعلوفات[1] •

حين عين أبناء الملوك والنبلاء ، وحددت الجيوش ، بالآلاف والمئات ، اتجه كيدبوقا طليعة لهم ومنصبه « مسؤول عن الأطعمة والأشربة » • وفي ربيع شهور سنة خمسين وستمئة أزهر الشتاء وفتح على وجه الأرض ألواناً من الرياحين الشبيهة بذيل الطاووس • ولشدة سرور الزمان غدا كحدائق الأزهار، وتبسمت الرياض عن نضارة وغضارة ، وارتوت الحياض بعد جفاف وعطش، وانطلقت في هديرها : فالأزهار متلألئة ، والسحب زاخرة باللآلىء البراقة ، والبلابل تسقسق في الرياض مُثنية مادحة ، واستعاد الأعجاز شبابهم من استنشاق عبير الأوراد • فأقام حفلا وداعياً ، ثم غادر بلاط ملك الدنيا • في حين أن أريغ بوكا حضر•كما تجمع سائر الأمراء والأقارب في البلاط بقراقورم كالثريا ، ثم أخذ كل واحد منهم ينطلق من مكانه يطوي الأرض طياً ، وهم يرتدون الثياب الحمراء ، ويشربون الكأس الحمراء ، من غير أن يتهاونوا في أمورهم •

وبعد رحيلهم بأسبوع أمر ملك العالم ، بهمته العلية أن تنثر الجواهر والنقود وتنشر الثياب أحمالاً ومراكب ، حيث وزعت على أولاد هولاكو ونسائه ، وكان كل حمل لا تطيق الأرض ثقله ، وذلت له الدنيا • وتشرف

---

(۱) ذكر المحقق أن في النسخة « د » عنواناً في هذا المكان هو « ذكر حركته في الممالك المذكورة » (ت) •

الأمراء والنبلاء بخدمته العلية . وفي يوم السبت الثاني من ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وستمئة عادوا جميعاً على مركب العز والاقتدار . وحين نزل في معسكره الخاص[1] اهتم بإعداد الرجال وترتيب مصالحهم ، حيث توافد عليه الأمراء يودعونه ، والأمير هولاكو يصل كل واحد منهم على قدر منزلته. واستمر على صلاته ووداعه حتى كان الرابع والعشرون من شعبان سنة إحدى وخمسين وستمئة ، فرفل طالع السعادة عليه ، وأقبل على سفره المبارك من مركز معسكره ، يتبعه الظفر ويحوطه النصر يميناً ويساراً ، ويسبقه الفتح . وكان جومغار[2] أغول في طليعة الجيوش لمقام أمه التي كانت أكبر الزوجات، يحل محل أبيه ، واختار لرفقته من أولاده الكبار : أبقا[3] ويشموت .

وكانت الجيوش تتوافد عليهم من مواضعها ، فكانت الجبال لهيبتها تتزلزل ، وتسقط أفئدة الملوك لرهبتها . والملك يسير بتؤدة ، وفي مقدمته الأميران : بلغاي وتوتار ، في حين أن الأمراء الآخرين يسيرون على طرفيه . والفصول تتغير من الصيف إلى الشتاء بالتدريج أثناء حركتهم . حتى إذا وصلوا إلى حدود الماليغ استقبلتهم السيدتان : ألغ إيف[4] وأورقينة خاتون، فأقامتا احتفالاً لهم . حتى إذا رفرفت الرايات الهمايونية راحلة عن تلك البقاع

(1) يعني هولاكو الملعين (ت) .

(2) يلفظه رشيد الدين « جومقور » . وكان ابن هولاكو الثاني ، مات سنة ٦٦٢ (ت) أمه كويك خاتون من نسل ملوك أقوام الأويرات ، تركها هولاكو في حماية منكو قا آن حين سفره إلى إيران . وحين وقع خلاف بين أريق بوقا وقوبلاي انحازت إلى صف أريق بوقا . ماتت سنة ٦٦٢ .

(3) هو الابن البكر لهولاكو (ت) .

(4) وهذا يثبت أن ألغ إيف كانت في معسكر جغتاي . وأورقينة كانت زوج قرا هولاكو بن ماتيكان بن جغتاي .

نهد الصاحب الأعظم مسعود بك وأمراء ما وراء النهر لخدمته • وفي صيف شهور سنة اثنتين وخمسين وستمئة عسكروا حيناً من الزمان حتى هدأت حدة الحرارة • ثم نزلوا في شعبان سنة ثلاث وخمسين وستمئة في مروج « كانْ كِل »[1] على أبواب سمرقند ، فنشر الصاحب مسعود بك خيمة من اللباد الأبيض ، وأقاموا في تلك الرباع قرابة أربعين يوماً ، أمضوها في الطرب والسرور • وفي أثناء ذلك ، وعلى عادة السماء الظالمة توفي أخوه سبتاي أغول ، كما وصل إليه نعي أخيه الآخر[2] • فتأثر هولاكو كثيراً من هذين الحدثين الجللين ، وواكبته غشاوة الحزن •

وحين مضى ذلك الشهر ، وكان شهر رمضان ، عاد في غرة شهر شوال إلى سروره وصخبه • كان محمد بن مقدات[3] في هذه المرحلة أفضل من استقبله ، وتلقاه بأنواع العاطفة والإكرام ، فامتاز من بقية الأقران والأنام • حتى إذا رحلوا من هناك ووصلوا أطراف « كش » حطوا عصا الترحال ، فوافاه الأمير أرغون وأكثر أكابر خراسان ، ومعهم الهدايا الثمينة • وقد أقاموا في تلك المرحلة شهراً • وبعد ذلك ضربت طبول الرحيل وساروا • وتحركت في هذه الأثناء أوامره الملكية بإيقاف السفن جميعاً معْ ملاحيها ، وترتيبها لتكون جسراً يعبر عليه الجنود • وحين وصل موكب الملك استرحمه الناس فأمر الملك بتلبية طلبهم ، وأعفى السفن التي عبر عليها من الضرائب فامتلأت القلوب

---

(1) الاسم مضطرب في الأصل ، غير معروف المكان (ت) •

(2) لم يذكر المؤلف ولا المحقق اسم أخيه الآخر (ت) •

(3) لم يتضح اسم أبي محمد ، فذكره المحقق من غير تنقيط • ويرجح أن يكون « شمس الدين كرت » (٦٤٣ – ٦٧٦) من ملوك كرت هراة بناء على رواية جامع التواريخ •

بمحبته . وبعد أن عبر الجيش الماء وقف الملك يجيل بصره على أطراف المياه ، فلاحظ أسوداً[1] كثيرة العدد في هذه الغابة ، فأمر الجيش بأن يلتفوا بشكل دائرة ، فرجفت الخيل من هيبة الأسود ، وتمايل الفرسان فـوق خيولهم ، فاصطادوا عشرة أسود من المروج . فأوردوا حكاية السلطان مسعود بـن محمود[2] إذ يقول الشاعر :

مَن كـان يصطاد في ركضٍ ثمانيةً　　　منَ الضراغم هانتْ عندهُ البشرُ[3]

وبعد مرور يوم رحلوا من هناك ونزلوا بمرج « شَكُور قان »[4] . ولم يقيموا هناك طويلاً ، لأن الثلج هطل يوم عيد الأضحى ، واستمر على هطوله سبعة أيام متواليات . وطال الشتاء عليهم ، وبرد الطقس كثيراً حتى غطـى الثلج الرباع . ومات كثير من ذوات الأربع من شدة البرودة . وكتب (المؤلف) بيتين أو ثلاثة أبيات ، وبعث بهما إلى أبيه من المعسكر العظيم إلى مقامه في قره‌قورم ، طيب الله ثراه . وكانت هذه الأبيات على حسب الحال[5] :

والريح قد ضربت من فوق هامتنا　　　خيام ثلجٍ بلا حَبْلٍ ولا عَمَد

سهامُها نافذاتٌ عنْ ملابِسنـا　　　نفوذَ سهمٍ لقد يرميهِ ذو حسدِ

---

(1) في الأصل الكلمة « شير » تعني الأسود والسباع . واكتفينا بالمعنى المذكور فوق لشهرة المنطقة بالأسود (ت) .

(2) هو مسعود بن محمود الغزنوي (ت) .

(3) البيت لأبي سهل الزوزني من جملة أبيات يمدح بها السلطان مسعود بن محمود الغزنوي ويصف قتله ثمانية أسود في يوم واحد (انظر تاريخ البيهقي ، طبعة طهران ، ص : ١٢٢) .

(4) ووردت في النسخ : سقورقان ، سنقوريان ، وتقع شمال أفغانستان (ت) .

(5) وهذا دليل مرافقة الجويني لهولاكو في رحلته هذه (ت) .

ولو تعانق ذاتَ الخال مُختلسٌ تراهما واحداً من شدة البَرَد[1]

والريق قد كان في الأفواه مُنجمداً لولا حرارة نار الشوق في الكبد

هيأ الأمير أرغون في هذا المقام خيمة عظيمة من القطن المنقش نقشات لطيفة ، وكان في مجلسه هذا مطمئناً ، قد أعد أواني الذهب والفضة للخدمة ، بالإضافة إلى كثير من الأمور المرفّهة. وانطلق من هذا المكان للمثول بين يدي منكوقاآن تلبية لأمر دعوته إليه . وقد عين الملك ابنه كراي ملك وأحمد بيتكجي ومحرر هذه المقالات لتدبير مصالح ملك خراسان والعراق[2] .

وحين تنفس صبح يوم الربيع بعد ليلة شتائية طويلة ، ورضعت خضرة الربيع وأزهاره مــن الرياض ، وزين الربيع الرباع بسبعة ألوان ، وامتص البستان من ثدي الخير الحافل. وهذه الرباعية التي تصف الربيع، مناسبة هنا:

« منذ أعدّ الربيع احتفال الجمال ، واتخذ البلبل طريق السعادة »[3]

« فأنهضْ أيها الإشراق أهل تموز ، فتحت ظل شجرة الصفصاف شمس خمرية »

وانتعشت ذوات الأطراف الأربع . فأسرعت في سبيل الجهاد لقلع قلاع الإلحاد، ورفعت الرايات ووجهت البنود، وحشد الجنود. واستعدت الجيوش

---

(١) يعني الشاعر البرد بسكون الراء ، وحركها ضرورة .

(٢) في إحدى النسخ فقط عنوان هنا هو « ذكر حركة هولاكو خان نحو قلاع الملاحدة وقمعهم » .

(٣) لم يعرف المقصود من البيت الثاني (المحقق) . وانعدم الترابط بين البيتين ، مما اضطر المترجم الإنكليزي إلى التصرف بالمعنى . وما ذكرناه هــو المعنى الحرفي (ت) .

من الأطراف من ترك وتاجيك • ومنذ بدت مدينة « تون »[1] ذليلة ، وهي كذلك منذ القديم ، باشر بها هولاكو • وفي أوائل ربيع الأول افتتح طريق الظفر فسير المراكب المباركة ، وحين بلغ حدود « زاوه » و « خواف » اختار كوكا إيلكاي وكيدبوقا وأمراء آخرين ، حتى إذا وصلوا إلى هناك قاومهم الرعاع ، فحاصروهم سبعة أيام ، وفي اليوم السابع جعلوا أسوارها تراباً ، وقادوا الرجال والنساء إلى ظاهر المدينة ، فأفنوا من كان عمره عشر سنوات فما فوق بالنبال ، إلا الصبايا من النساء ، حيث أخذن سعيدات عبيدات لملك العالم • ثم اتجهوا نحو طوس ، وهناك ووسط الحقول نصب الأمير أرغون خيمة من النسيج المزركش كانت كنف الفقراء ومجمع الأمراء • وهذه الخيمة كان ملك العالم منكوقاآن قد أمر بنصبها لأخيه،وكلف الأمير أرغون بإعدادها لـه • فجمع أساتذة الفن والمعرفة واستشارهم بشأنها • وانتهى الأمر بصنع الخمية الفريدة بطبقتين ، واستحضر لصناعتها أهل صنعاء[2] • فكان ظاهرها كباطنها من حيث العناية • وتطابقت النقوش والألوان فيها ، فأشبهت القلوب المطمئنة • وهي من حيث متانتها تعجز أسنان القوارض عن التأثير فيها•وقبتها مُذْهبة، وسماؤها قرص من الشمس، قد غارت من خشبة الخيمة المدورة[3] فانكسف نورها ، وحزن البدر المنير من تدويرها فانخسف • ومضت أيام من السعادة في هذا المقام ، وتتابعت وفود السرور والسعادة على صدور أهـل

---

(١) تون : تدعى اليوم « الفردوس » (ت) •

(٢) واضح أن المؤلف لم يقصد جلب الصناع من مدينة صنعاء ، إنما استخدم ذلك اللفظ ليضمن نجاح الجناس ، وإنمـا يقصد الخبراء في حرفـة نسـج حرير الخيام (ت) •

(٣) هي الخشبة المدورة الجوفاء الوسط ، والتي تعلق في أقصى الخيمة (ت) •

الجبور . ثم أمر بالرحيـل ، وعلى سبيل الاستجمام حط رحلـه في بستان « المنصورية » ، وهي التي أعاد عمارتها الأمير أرغون بعد اندراس ، فغدت في غاية النزهة ، وحسدتها جنان الدنيا . وصحيح ما قاله الشاعر أنوري في هذه البقعة :

« ويحكِ يا صورة منصورية ، أأنت بستان وقصر ، أم جنة وهبك الله إلى الدنيا ؟ »

وأقامت في ذلـك اليوم سيدات الأمير أرغون والوزيـر (الصاحب) عز الدين طاهر وليمة واحتفالاً له . ورحل في اليوم الثاني ، ثم أقام حيناً في مروج « رادكان » . فأحضرت له الخمور كالمياه من جميع الولايات البعيدة والقريبة ؛ من مرو ويازر ودهستان ، كما جلبوا أعلافاً كثيرة بلا حساب . ومن هناك عرجوا إلى « بَخَبْوشان » ، وهي القصبة التي خربت منذ أول خروج جيش المغول وما زالت خربة حتى هذه السنة ، وأماكنها خالية ، وصهاريجها جافة من المياه ، وجدران مسجدها الجامع متهاوية . وقد اشتريت ربع هذه القصبة من سكانها ورعاياها . ولاحظت أن الملك ميال إلى بناء المتهدم،فعرضت عليه مسألة تلك القصبة، فأصغى إليّ ثم أمر ببناء المجاري ورفع الأبنية ونصب الأسواق وخفض عيش الناس . وأجرى المصاريف كلها من خزانته حتـى لا ترهق الرعايا . فعادت القنوات إلى جريها بعد انقطاع ، وعاد أعيانها بعد جلاء سنين ، واستقدم المزارعون والقنواتيون من المناطق الجبلية ، وأسكنوهم فيها ، وبنوا المصانع ، وأنشؤوا البساتين حتى اتصلت بالجامع . كان جامعها ومزارها خربين ، فدفع الوزير الأعظم سيف الدين آقا[1] في سبيله ثلاثة آلاف دينار ذهباً ، فوقف الجامع على رجليه وبدىء ببنائه ، فأحيي ذكره .

---

(1) في إحدى النسخ ورد اسمه : سيف الدين البيتكجي ، وقد ورد ذكره قبل ذلك .

وتوقف الملك مدة شهر بحدود « أستو »[1] إلى أن نصب المرج من الجبال والوديان ، ثم رحل . وفي أثناء ذلك أرسل ركن الدين خورشاه أخاه شهنشاه كافي مملكته ، مظهراً طواعيته وتبعيته وعبوديته . حين بلغ مسامع الملك انصياعه أمر بإعزازه ، واختار وفداً أرسله إلى ركن الدين يدعوه لتخريب القلاع . وحين وصل أمر دعوته إلى ركن الدين بعث بجواب جنوني صبياني مشحون بالكذب . وحين أدرك الملك رأيه وتراجع حظه ، وعدم أهليته للمداراة والرفق : أمر بغزوه وملاحقته ، واتجه إليه من « خرقان »[2] .

(1) استو : ولها اسم آخر هو « أستوفا » ، وهي صحراء قوشان (ت) .

(2) خرقان : كانت واقعة على بعد أربعة فراسخ من « بستان » على الطريق إلى أستر آباد (ت) .

ذكـر حركـة ملك العالـم هولاكو

لفتـح قلاع الملاحـدة

ولم يعبأ ركن الدين كثيراً بالرسل ، ولكنه ، تنفيذاً لرغبة الملك ، فرّغ خمس قلاع خالية ، قليلة التحصين ، معدومة الذخيرة ، وخرب بوابات بعضها الآخـر ، محافظاً على رؤوسها وقممها ، محاولا بمكره وأباطيله دفع هـذا المقدور ، ولكن « هيهات هيهات لما توعدون » . واستعد في منتصف شعبان من مرحلة « خرقان » ، قاصداً القلاع واستئصال تلك الرباع . وأمر الجيوش المعسكرة في العـراق والأطراف الأخرى بأن تتجمـع ، فسار علـى الميمنة بوقا تيمور وكوكا إيلكاي عن طريق مازندران ، وعلى الميسرة تكودر اغول وكيد بوقا عن طريق خوار وسمنان ، وأبناء الملوك : بلغاي وتوتار وجيوش العراق قدموا عن طريق ألموت ، فسعد الرجال بعد بؤس ، وتقووا بعد يأس :

« ولّوا وقد اسود وجه الدنيا، وتألقت السماوات من مشهد سهراب »[1]

وتحرك هولاكو[2] ، وأرسل الرسل في الطليعة ثانية ، توضح عزيمته ونيتـه ، فلعلـه يتناسى جرائمـه السابقـة المعللـة بالمعاذير الجوفـاء ، ويصحح طويتـه ، ويقـوم على استقبالـه ، لنتناسى أخطاءه ، ونعفـو عن

---

(١) البيت من الشاهنامة في وصف البطل سهراب (ت) .

(٢) يعني : تحرك قائداً للقلب .

هفواته[1] ، فتشرق الأسنان عن بسمة السعادة • وحين عبر ابن ملك العالم « فيروز كوه »[2] منتصراً عاد فأرسل رسله لتخرب أسوار القلاع • وكان برفقتهم الوزير المزوِّر ، والمدبر المدْبِر كيقباذ ، فكان يقوم بكثير من أنواع التزوير والمكائد ، ويوافق على تخريب القلاع والرباع ، • وأمهل ركن الدين مدة سنة ليسلم القـلاع الثلاث : ألموت ولمسر ولال ، منزلـه القديم ، حتى تنجو من الخراب • وعليه أن يسلم باقي القلاع منقادة إليه • وأرسل حاجباً إلى محتشم[3] « كردكوه » ومحتشم قلاع «قهستان» يطلب إليهما الانصياع والخضوع للملك • وقد اعتقد ركن الدين أن هـذه المغريات قد تمنع عنـه تحقيق هذا القدر المحتم • كما اعتقد أن هذه الألاعيب ستمكن الوزير من عكس الإرادة الصارمة للقدر •

حين وصلت مواكب الملك حد قصران[4] ، وكانت قلعة « شاهديز » في الطريق حاصرها كيد بوقا بأمـر منه ، فأحيطت القلعـة بالجنود • وما مضى يومان حتى كانت مفتوحة قهراً وقسراً • وبعد يومين آخرين أو ثلاثة ذلل كل ما حولها • وأرسل الملك رسله ثانية تلزمه النزول من مكمنه • لكنه استمر على فكرة التسويف والتأخير • وأعاد الرسل يعتذر بأنه يتوقع هطول ثلوج الخريف ، راجياً إياه عدم إحاطة الجيش للقلاع والحرب والنهب • وسيبعث له ابنه وثلاثمئة رجل• ليكونوا جنوداً تابعين للملك ، كما سيأمر بتخريب القلاع

---

(1) تغير الضمير مع المؤلف (ت) •

(2) فيروز كوه : اسم إحدى قلاع الملاحدة (ت) •

(3) المحتشم : مرتبة حاكم القلعة التابع لشيخ الجبل (ت) •

(4) قصران : صحراء قرب الري (ت) •

جميعاً . فاستجاب الملك لرجائه . وعسكر الملك في « عباس آباد » قـرب الري من غير أن يحاصر القلاع ، ليرى إذا كان الملاحـدة سيوفون بوعدهم أم لا . وحين حل الموعد قدم طفـل عمره سبع سنوات أو ثمان قائلا : إنـه ولدي ، مع جمع من الأكـابر والمعتبرين التابعين لي . لكن الملك ، بصـدق تفرسه وفطنته أدرك أن الصبي ليس ولده[1] . ومع ذلك طلب البينة عن بنوة هذا الطفل من قِبَل الأعيان الذين قدموا إليه، لكنهم غشوه ولم يبوحوا بالحقيقة لما هم فيه من ظلمات الإلحاد . لكن الملك عرف الوضع بحدسه وذكائه أنـه ليس ابنه . فأمر بإعزاز الطفل ثم صرفه . ورحل من « عباس آباد » ونزل في « بيسكله دز »[2] .

وظـل ركن الدين يطلب الشفاعة يوماً بعد يوم لاستعادة أخيه والوزير والآخرين . ولما كانت هذه الجماعة من قرناء السوء ، فإنهم رموا ركن الدين بالضلالة . وحين وصل الابن المزور إلى أبيـه التعس أرسل أخـاه الآخـر شيرانشاه[3] مع ثلاثمئة رجل ليكونوا رجالاً تابعين لهولاكو في الموعد المحدد على أمل أن ينسحب الملك من حصاره ، ويسلم أخاه وجماعته الذين كان قد أرسلهم ، ويستعفيه من النزول إليه حتى ينصرم فصل الشتاء ويحـل فصل

---

(١) جامع التواريخ يؤكد أن الصبي ابن ركن الدين حقاً . ويحدد ذلك بتاريخ هو : السابع عشر من رمضان سنة أربع وخمسين .

(٢) غير واضحة التصحيح . وكتاب مختصر الدول : ٤٦٣ يدعوها « بيشكام » ، ورواية « بنسكله » ، وأخرى « بشكل دره » بناء على كتاب نزهة القلوب : ويراها ولاية في شرقي قزوين وجنوبي طالقان (المحقق) . ونميل إلى أن تكون الكلمة الثانية « دز » لأن معناها قلعة (ت) .

(٣) يذكر جامع التواريخ أنه « شروان شاه » . ومعنى كلمة « شيرانشاه » : ملك الأسود (ت) .

الربيع ، ويزول عنه التخوف الـذي يعتريه . فأعاد الملك له أخـاه شهنشاه ، وأمر أن يمثل بين يديه في غضون خمسة أيام وإلا فإنه سيحاصر القلعة ويبدأ حربه . لكن الرسول عاد إلى هولاكو بالمعاذير السابقة ، فأدرك أن في رأسه شراً وفي عقيدته مكيدة . فصمم على استئصاله ، فأمـر العسكر بمحاصرة القلعة ورصف الجنود بإحكام .

وفي العاشر مـن شوال سنة أربـع وخمسين وستمئة رحل (هولاكو) عن « بيسكله دز » . وأمر في البدء أن يوقف أولئك الملاعين في «جمالا باد»[1] قرب قزوين ، ويرسلهم خفية إلى جهنم . ومنذ ذلك الوقت والناس في قزوين يضربون مثلا لكل من يقتل ، فيقولون : أرسل إلى جمال آباد .

وذهبت الرسل إلى الممالك يطلبون علوفـة وطحيناً ، ويأمرونهم بذبح الحيوانات وتقديمها على المراكب . ووصلت الأعلاف من قبل الأرمن إلى يزد ، ومن ولاية الأكراد إلى جرجان . ولم تكن الذبائح كثيرة ، كافية للديوان ، فأمر أن تذبح بهائم الوضعاء والشرفاء من الترك والتازيك . وفي الثامن عشر من هذا الشهر كشفت مظلّة الفلك رأس القمة المقابلة لقلعة « ميمون دز » من القسم الشمالي[2] . وطاف الملك في اليـوم الثاني حـول القلعـة يشرف على الحرب . ولمـا كانت القلعة كمـا يقول أبو العلاء[3] :

---

(1) ويمكن أن يكتب الاسم مفصولا « جمال آباد » ، وآباد بمعنى المعمور (ت) .

(2) من غير أن يتمكنوا من فتحها .

(3) البيتان لكعب بـن معدان الأشقري من شعراء العصر الأموي في وصف قلعـة « نيزك » في بادغيس قرب هراة ، والتي فتحت على يد يزيد بن المهلب سنة ٨٤ . وهمـا من قصيدة مذكورة في تاريخ الطبري ، وورد بعض منهـا في الكامل : ٤/٢٤٠ . انظر الأغاني ، كامل المبرد ، طبقات الشعراء ، تاريخ الطبري (في مواضع عدة) ، كامل ابن الأثير (حوادث سنة ٨٤) ... لمعرفة حياة الشاعر . وقد أخطأ الجويني إذ نسب البيتين إلى أبي العلاء .

فلا تبلغ الأروى شماريخها العلى[2] ولا الطير حتى نسرها وعقابها
ولا طمعت فيها أماني طالب ولا نبحت إلا النجوم كلابها

فإن الملك وأبناء الملوك والنبلاء والأعيان تراجعوا عن حصار القلعة . وانتظروا سنة يتشاورون في أمرها . وحين حل الشتاء ونضبت أعلاف الدواب فهزلت ، مال إلى العودة من الأقرباء بوقاتيمور ، ومن الأركان الأمير سيف الدين الذي كان الركن الأقوى،في حين أن بعضهم مال إلى المحاصرة،من الأمراء كيد بوقا وطاير . وحين عرضوا على الملك آراءهم رأى الحصار وأخذ جناح الميل إلى الحرب ، على أن ترتب الخطط بحشد جميع الجيوش حول القلعة .

وحين رأى ركن الدين إصرارهم انصاع واستجاب ، ثم انحدر من القمة إلى الوادي . ولو لم يستجب لنضب كل ما في القلعة من طعام وشراب . ولما كان ذكر حال ركن الدين مذكوراً في « فتح نامه » المدون في خاتمة هذا الفصل فإن ذكره سيكون تكراراً ، لهذا أوردناه مختصراً هنا .

---

(1) الشمروخ : رأس الجبل (ت) .

نسخة فتح نامة[1] قلعة الموت

الحمدُ لله الذي صدق وعــده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهــزم الأحزاب وحده ، والصلاة والسلام على النبي الذي لا نبيّ بعده . منذ صدر حكم « كنْ فيكون » تقرر أن تكون مفاتيح ممالك الربع المسكون متنقلــة تباعاً في كف السلاطين والخاقانات المرموقين المعاصرين . وفي كل عصر كــان المقدور يظهر وإرادة الرئاسة تعلن ، وتتعطر المشارق والمغارب بنفحات الفتوح، فتعود على الخلائق بعبيرها . تماماً كما أشرنا إلى ذلك في سطور هذا الكتاب، وما أعلنته المنابر ، وكسب به أنباء كل مليك حتى الآن ، وحكت للبسيطة أنباء عدلهم الشامل ، ولا سيما صاحب العقل الكامل خان الخانات ، صاحب نعمة الأمن والأمان ، آمر الأرضين العشر ، المنصور بقدرة الرحمن منكو قاآن ، الذي بوجوده تجلت أنوار العطف والرأفة والعدل والنَّصفة ، صاحب الفتح المبين الذي عنوانه : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » . والباري جل جلاله وعمّ نواله بسط العدل والسرور عن طريق حركته وعزيمته :

« هو صاحب السيف القوي الذي قوي به الدين،مالك المكانة والقانون الملكي »

ولقد بلغ هولاكو ، صاحب الهمة العالية البُراقية[2] ، فرق الثريــا ،

---

(1) فتح نامه : أي كتاب الفتح (ت) .
(2) استخدم المؤلف كلمة « البراق » متمادياً في الثناء علــى السفاك هولاكو . ويعني بذلك سرعته في الغزو (ت) .

وسحق بعزيمته البرقية وجه الثرى ، فحلَّ عقدها ، بشكل لم تصدقه أذن ولا عين . يدل على ذلك قول الله تعالى : « اذكروا نعمة الله عليكم » وقد رغب عبد هذه الدولة المنصورة الحقير عطا ملك بن محمد الجويني المستوفي في إبلاغ هذه البشارة إلى الأقاليم البعيدة والقريبة ، ويُعلم المؤمنين الموحِّدين بلسان الإيمان أنْ :

ظهــر الحقُّ ثابتَ الأركانِ ... صاعــدَ النجــم عاليَ البُنيانِ

وهوى للردى ذوو النَّقض والبغْـ ... ـيِ وأهــلُ الضلالِ والطغْيانِ

وستبقى تفاصيل تلك الأحوال على صفحة الأحوال[1] ، وسأقرِّر شطراً من هذا النصر على سبيل الإجمال ، وأسطِّره . ليبلغ ذلك إلى مسامع الخاص والعام والكبار والكــرام من مبــدأ الشرق إلى منتهى الشام ، أسمعها الله البشاراتِ ، فقد أظلت ظلال الملك فاتح العالم هولاكو هذه الديار ، ورفرفت عذبات أعلام النصر تلك الرباع ، متتبعاً السنة الإلهية ، أنْ « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » . فقد أرسل رسولاً إلى ركن الدين بشيراً ونذيــراً ، تأميلاً وتحذيراً عدة مرات ، يُظهر له المداراة والمجاملة ، ويحثه على الانقياد والطواعية ليحفظ له الزمان السعيد . غير أنه في كل جواب يعزف عن هدف الصدق ، ويهجر طرف الصواب ، يخالف باطن جوابه ظاهره ، ويرسل القول متجانفاً[2] مع الفعل . فاستقر رأي الملك المنير ، بعد أن استعرض ماهية الأشياء وأحكم العقل بالكيمياء ، على قلع قلاع ركن الدين المتعلقة على قرن الثور ، والبالغة في ارتفاعها الجوزاء ، وسيتبعها حتى زحــل برجال أقوياء يجوبون

(١) الأحوال الأولى جمع حال ، والأحوال الثانية جمع حول (ت) .
(٢) الجنف والجُنوف : الجور ، وجنِف : مال عن الحق (ت) .

الكواكب • إن قورنت الشمس بهم بدتْ كقمر الظلماء • وإن قوبل المريخ بنبالهم صغر أقل من الزهرة والمشتري • وهم إن استندوا إلى جبل هدوه ، وأزالوا جلالته حتى الحضيض ، وأنزلوا منزله الموروث من عزته • أعني أنهم جعلوا سعادة القلعة وبالاً • فقد أمر الأمراء والنبلاء في منتصف شهر شوال سنة أربع وخمسين وستمئة بأن يحيطوا بالقلاع وبأن يلتفوا حولها كالحزام ، فغدت كزنبور محاط من كل أطرافه ، ولا يتحركوا من مكانهم • وأرسل سُقُنجاق نوين[1] وتَمغا بجيش تركي يقظ ،مسلحين بسيوف مسقية حادة، على سبيل الطليعة • وسار خلفهم الملك المبارك القدم والرأي ، ملك الملوك المؤيد بتأييد من الله ، يتبعه جيش منظم ، لا يشبه بيأجوج ومأجوج عدداً ، قد شُحن طرفا الجيش بالمحاربين الأشبال ، الذين إذا رموا نبالهم في حلكة الليل جعلوا السِّماك طعاماً للأسماك ، وأطاروا السرطان نحو برج الأسد :

القائلين ، إذا همْ بالقَنا خَرَجوا   من غمرة الموت في حوماتها: عودوا[2]

وجعل رماة النبال يرمون بنبالهم العنيفة من أقواسهم فتصيب عطارد ، وتعود النبال ببنات نعش • وبدت قوة الرجال المحاربين ، وهم يلعقون مرّ الحياة وحلوها، وغدا يوم الحرب كليلة الزفاف ، وشبهوا ظُبا السيوف بخدود

---

(١) ويلفظ كذلك : سوقونجاق ، وسوغنجاق ، وسونجاق • هو ابن سدون نويان بن جيلاوغان بهادر من قوم « سلدوس » من المغول ، كان من أمراء هولاكو المعتبرين ، كذا ذكر رشيد الدين • كان في ركاب هولاكو في كل فتوحه حتى الشام • وفي عهد أباقا بن هولاكو (٦٦٣ ـ ٦٨٠) تولى إمارة فارس وبغداد• والجويني تسلم حكومة بغداد نائباً عنه • واستمر سقنجاق على منصبه في عهد تكودر أحمد (٦٨١ ـ ٦٨٣) • ولعله مات في عهد أرغون (٦٨٣ ـ ٦٩٠) •

(٢) البيت لعمرو القنا من شعراء الخوارج من جملة أبيات (الحماسة : ٢/١٠٨)•

العذارى بضاضة ، وعدوا جراح الرماح لثم الملاح ، وانطلق الزحف من طريق طالقان كالسيل في انحداره ، ولهيب النار في صعوده ، مسرعين سرعة الرياح ، وحوافر خيلهم قذى في عين الزمان .

وفي أثناء تحرك الجيوش قفز كبش جبلي أمامهم فرماه الفتيان بنبالهم فوراً ، فعدّ الملك ذلك فألاً حسناً وقال : سيكون هـذا الكبش النطاح في التنور بلا ذبح كما سيكون دين الحسن الصباح بلا أعوان .

وحطت مواكب ملك العالم رحالها عند ناحية طالقان في ذلك اليوم ، فأمر أن تحاصر قلاع تلك الناحية مثل « آلَه نشين »[1] و « المنصورية » وعدد آخر من القلاع بجيوش كِرمان ويزد ، وقواهم بجيش مغولـي . وفي اليوم الثاني ، وحين أنارت الشمس خيط الأفق أمر أن تقرع طبول الرحيل ، وامتدوا من هناك على طريق « هزارْجَم »[2] وكأنهم سوالف العشاق ، انحناء تلو انحناء ، بل كأنهم صراط القيامة الدقيق ، وطريق جهنم المظلم ، حيث لا يمكن للأقدام أن تتقدم ، ويصعب أن تعقل الوعول[3] عليها فكيف يسهل ذلك على الناس ؟ إذ ليس الخطو عليهـا سهلاً ، ولا ينجم عـن تخطي الحَزْن[4] إلا الحَزْن . وأمر الملك باجتياز الصعاب ، وقد اختار لهم العناء ، ولسان الزمان يلهج بـ :

---

(١) آلَه : عقاب + نشين : جالس أي عش العقاب ، سميت كذلك لارتفاعها (ت).
(٢) هزار جم : ممر مشهور في جبال « البرز » ، يقع على بعد ١٣٠ كم تقريباً من الشمال الغربي لمدينة طهران بين منطقة طالقان وكوجور (ت) .
(٣) عقل الوعل : امتنع في الجبل العالي (لسان العرب) .
(٤) الحزن : الصخر عكس السهل (ت) .

« اصغ إلى نفسك لأن النفس روح العالم ، أغلقْ على تلك الغريزة التي كانت لك »

واستطاعت المواكب والكتائب والفرسان في اليوم التالي أن تبلغ أسفل القلعة . وعند الظهر :

« هبطت تلك المظلة الشاهقة ، التي كانت غيماً تظلّل الشمس »

فتحوا قمة الجبل مقابل القلعة[1] . وسارت الجيوش من اليمين عن طريق « استندار »[2] برئاسة بوقا تيمور وكوكا إيلكاي ، بطرق عالية ملتوية مع القمم الغزيرة الشعاب . ومن اليسار نحو « ألموت » سارت أعداد كثيرة يرأسها من أبناء الملوك : بلغاي وتوتار ، ومن ورائهم كيد بوقا نوين مع مجموعة قوية كالحديد . وتوافدت الأفواج تباعاً حتى ملؤوا الجبال والأودية ، وكأنهم أمواج البحر ، قد كسروا الصخور من وطأة الجمال والخيول ، واقتربت رقابهم من نعالهم (في الصعود) . وقد صُمَّت الآذان بهزيز[3] هدير الجمال ونفخ الأبواب ودَرْداب الطبول ، وعميت أعين المخالفين من صهيل الخيول وبريق الأسنة : « وكان وعد الله قَدراً مقدوراً » .

وسارت الجيوش كثيرة العدد في يوم واحد ، وأحاطت بالقلعة المذكورة ؛ مدينة الإلحاد والفجور . كانت تلك القلعة في أثناء الاستيلاء عليها (قديماً) .

---

(1) يعني قلعة « ميمون دز » (ت) .
(2) رسمها القزويني « اسبيدار » . واستندار : هي اليوم رستمدار في منطقة مازندران قرب قزوين (ت) .
(3) هزيز : صوت الرعد . ووردت « هرير » ومعناها هرير الكلب ، وهو أدنى من نباحه ، والمعنى لا يناسب المقام ، والأول أصلح .

فقد طلب أبوه[1] علاء الدين من طائفته بعد أن استشار أركانه وأعوانه أن يبنوا له : « يا هامان ابن صَرْحاً لعلّي أبلغ الأسباب أسباب السماوات » . ففحصوا تلك القمم والتلال اثنتي عشرة سنة ، حتى بلغوا ذلك الجبل الشاهق الداني من العيوق[2] فاختاروه . وكان على قمته نبع ماء واسع ، وينابيع أخر على أطراف الجبل . فبدؤوا أولا ببناء قلعة « ميمون دِز »[3] ، فبنوا الجدران بالكلس والحجارة . وعلى بعـد فرسخ من السور مدوا جدول ماء مثـل « جوي أرْزير » ، وساقوا إليه الماء . والموضع بارد جداً، لا يقدر أن يعيش فيه الحيوان من أول الخريف إلى أواسط الربيع . ولهذا السبب جاء في الخيال أن تلك الجبال الملتوية لا يرقى إليها العقاب ، ويعود خائباً من صيده لعلوها، وينطبق عليها قول علي (كرم الله وجهه) : « ينحدر عنّي السيل ولا يرقى إليَّ الطيرُ »[4] .

ولكن سكان القلعة حين رأوا أنهم حوصروا بقوم كالنمل ، والتفوا حولهم كالثعابين سبع لفات وقد استسهلوا الوقوف على الصخور الصلبـة ، واتصلت جموعهم وهم يرقصون ، قد وضعوا كفاً على كف . وحيثما نظروا رأوا أعلاماً ورجالاً ، وفي الليل من كثرة النيران ظنوا ما يرون سماء زاخرة بالنجوم .

---

(١) علاء الدين محمد أبو ركن الدين (انظر كتابنا العصر المغولي حتى عين جالوت بشأنه) (ت) .

(٢) العيوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتـلو الثريا ولا يتقدمها (ت قاموس المحيط ـ عوق) .

(٣) دز : قلعة بالفارسية . ميمون : السعيد أو القرد .

(٤) من خطبته «الشقشقية» المشهورة(شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد: ١/ ٥٠).

ولا تبدو لهم الدنيا من كثرة السيوف والحراب أصابهم الهلع من فوق الأسوار والأبراج ، وحط عليهم كابوس المأتم : « قالوا : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » .

ومع أن الملك حاذق وواثق من قوته واقتداره فإنه كان يسعى إلى عدم تحميل جيشه المشقة فأرسل وفـده إلى ركن الدين يُعلمه بوصوله إليـه ، ويستميله إليه هو وقومه . وقال له : إن كان الوسواس حتى هذه اللحظـة يُقلقك ، وإن كان تفكيرك قاصراً لصغر سنك وغفلتك ، فقدّر ما حولك قبل أن تشتد عليك الوطأة : « لا يَحطِمنّكم سليمان وجنوده » بقوم كالنمل . أما إذا أردت أن تبدل حكم الآية : « ادخلوا مساكنكم » بالآية : « اخرجوا من أماكنكم » ، أو أنك أردت الحفاظ على وصية الصباحي:«عليكم بالقلاع» بدلاً من : عليكم بالانقلاع عنها ، فاعلم أنك ستضيع في القلعة ، وبسبب سوء تدبيرك وكذبك ستبلغ مرحلة الهلاك ، وتستعيض عن ساحل النجاة بالبلية . فقد ولت المواعيـد والوعود التي كنت تسعى بها إلى الابقاء على روحـك وقومك . بل إننا بمهمتنا العالية قد نغضُّ الطرف ونعفو عنك على علاتك .

وعاد الجواب من القلعة يقول : الضبع ليس في جحره[1]، وهو لايستطيع عمل شيءٍ حتى يأتيه الخبر . يعني : ركن الدين غائب ، ولا يمكننا أن نخرج من غير إذنه وإجازته .

عاد الرسول في اليوم الثاني حين امتص الصباح اللبن من ثدي الليل ، وغلت الدنيا بزئير الرجال والأسود . فعزم الملك على أن يرقى القمة ، فأمـر

---

(١) الترجمة حرفية للجملة الفارسية « كفتار نه در سوراخ » . وكذلك في النسخة الانكليزية يقول المترجم : THE HYENA IS NOT IN HIS HOLE وصاحب الكلام رئيس القلعة (ت) .

بأن تدرس المداخل والمخارج ، والمراقي والمعارج ، بينما أمضى ليله في مجلسه سعيداً . وحين حل اليوم الآخر ، وأرسلت شمس السماء خيوطها البراقة ، فصحا الأفق من نومته،وانهزم جيش الظلام من سيوف الشروق باشروا بالعزف الحربي ، وقذفوا الحجارة على ستارة المخالفين ، من غير أن يعلموا الأشجار التي عُني بها فطالت واستقامت منذ سنين ماذا سيحصل لها ، وبماذا ستثمر؟ فقطعوها وأعدوها للمجانيق :

أعلّمُه الرمايةَ كلَّ يومٍ   فلما اشْتدَّ ساعدُهُ رماني[1]

وفي أثناء هذه الأيام ، وضعوا الأبطال مجموعات عند كل جزء من الفرسخ[2] لينقلوا أعمدة المجانيق وأثقالها إلى رأس القُلّة . وفي اليوم الثاني حين رُفع غطاء الليل عن تنور الأرض ، فبرز قرص الشمس عن معدة الليل أمر الملك أن ترقى كوكبة خاصة الذروة العليا ، ويبنوا له عليها مقامه الملكي :

علَوْنا دَوشناً بأشدَّ منه   وأثْبت عند مُشْتجرِ[3] الرماح

بجيش جاشَ بالفرسانِ حتى   ظننْتَ البرَّ بحراً من[4] سلاحِ

وباشر أصحاب القلعة آناء الليل بحربهم ، فتقابلت بروج قلعة الفلك بالعلوج (المغول) ، فأخذوا يُفرغون نبالهم بالمجانيق في أواسط شهر شوال :

---

(١) البيت لمعن بن أوس أو لمالك بن فهم الأزدي أو لعقيل بن عُلّفة ، على اختلاف (انظر لسان العرب ، مادة : سدد) .

(٢) في الأصل كلمة « آماج » ومعناها هنا ١/٢٤ من الفرسخ (المحقق) . وتعادل ٦ ميل (ت) .

(٣) دوشن(كما في شرح المنيني على التاريخ اليميني : ١/٣٠٦ في شرح هذا البيت) قال : دوشن اسم جبل . ولم أعثر على هذه الكلمة في المظان .

(٤) البيتان لأبي فراس الحمداني يمدح بهما ابن عمه (يتيمة الدهر : ١/٢٩) .

« شددت العنان وأقدمت على اللعب ، لا بأس إن لم تخطىء في النهاية »

ومن هذا الجانب شقّ الشبان بجراح أسنّتهم الرؤوس ، ولم يتوقفوا عن قذف الحجارة والنبال • فكانت نبالهم سهاماً من الأجل ، تنزل من مَلَك الموت على التعساء ، فكانوا يتساقطون كتساقط البَرد من مناخل الغمام :

« كانت السهام تمر من خلال الدروع ، كتسرب رياح الصباح من خلال الأزهار »

حتى إذا تغطت الشمس خلف ترس الظلال توقفوا عن حربهم • واستمر الحال حتى اليوم الرابع ، فالتهب الحال وتطور ؛ فحين بزغت تباشير الصباح علا النفير والصياح والزئير ، واحتدمت الحرب من الجانبين • وطارت النبال من بروج القوس السيارة • والأقواس القوية التي صنعها البارعون الختائيون كانت تقذف مسافة ألفين وخمسمئة خطوة على هذا الكون الترابي ، إذ لم يجدوا علاجاً غيره • فأحرقوا الشياطين الملاحدة بنصال مثل الشهب• كما كانت الحجارة تتقاذف من الحجارة كالمطر ، لكنها لم تجرح مخلوقاً واحداً تحت •

حين شاهد سادة القلعة نتائج الحرب مالوا إلـى الصلح • فأرسـل ركن الدين رسولا بكلام مبطن بالتورية ؛ إنني ما كنت أعلم بالوصول المبارك فأمرت الجيش بالتوقف عن الحرب ، راغباً في الصلح • وانني قادم إليك اليوم أو غداً ، جاعلا تراب البلاط توتياء العين[1] ، طـاوياً التراب المخبـأ بالريح ، وأغطي النار به •

وتوقفت الحرب ذلك اليوم ، ولكنه لم ينزل ، ولا في اليوم الثاني • وفي آخر النهار قدم منه رسول يطلب الأمـان بأمر ملكي • فأمر بتبشيره بهـذه البشرى ، ولبى له ملتمسه • وقد سطرها العبد مع غيرها في كتابه « تاريخ فاتح

---

(١) كانت التوتياء قديماً تحلل وتستخدم دواء للعين ، وهذا ما يعنيه (ت) •

العالم »[1] ، وأرسل إليه الأمر الملكي ، وقرىء على مــلأ من الناس ، فسر أصحاب العقول ومحبو الروح والمال . وحين آل النهار إلــى الزوال وتبدل الضياء بالظلال توقعوا نزوله في اليوم الثاني . وحين حل صباح اليوم الثاني بدت علائم نزول ركن الدين ، لكن عــدداً من الغلاة الفدائيين منعوه ولــم يسمحوا له بالنزول على الرغم من وجود المؤيدين لنزوله .

ومرة ثانية أرسل ركن الدين رسولاً يعلمــه عن : نيتي في المبــادرة ، وانشغالي بإعداد الهدية المناسبة ، لكن أكثر الحشم والأتباع غضبوا ومنعوني، وأعلنوا أنهم ، قبل قدومي إليك ، سيتخلصون مني ، لهذا فإن نزولي إليــك استحال .

حين أبلغ الرسول كلامه ووصل إلى السمع الملكي بدت على ملامحه علائم الغضب المكنونة . وقال : يهمنا الحفاظ على روح ركن الدين، وأعاد الرسول. وفي أثناء قدوم الرسل وذهابهم ، كانت المجانيق تنصب وتعد ، وتجر الآلات وترصف :

«حين مزقت الشمس تلك الخيمة السوداء ، وبرزت من خلف الستر»[2].

وحل اليوم الآخر فأمر الملك أن يحارب الجنود جميعاً ، فأقدموا بكل همة يصرخون ، فتدوي القلعة على بعدها بصوتهم . وكانت أطراف الجبــل تهتز من أثر سقوط الصخور ، وتتحول الصخور إلى تراب لدى اصطدامها بأخواتها . وتمزق جيب الفلك من كثرة الصولات . ويظن المرء حين يرى ضرب المجانيق وتطاير الحجارة أن شجرة شاهقة أمامهم عمرها مئــة سنة[3] أما ثمرها فهو : « طلعها كأنها رؤوس الشياطين » .

---

(1) ذكــر أنه سطرها ولــم يفعل كعادته . وهــذا يدل على اشتراكه في الحصار وكتابته الرسائل لهولاكو (ت) .

(2) البيت من شاهنامة الفردوسي (ت) .

(3) المعنى غامض في النص ، وقد أشار المحقق إلى ذلك في حاشيته . وحاولنا ترجمته بشكل تقريبي (ت) .

ومن ضربة أولى انكسر منجنيقهم ، ومات تحته أناس كثيرون ، وحلت عليهم سهام المجانيق فأرهبتهم وفرقتهم . فاختبأ كل واحد منهم خلف صخرة ، وزحف من كانوا على الأبراج وتسللوا كالفئران بعد أن اعتراهم الذهول ، وسكّروا الأبواب كما تفعل الزواحف إذ تسد أجحارها بالأحجار . وجرح بعضهم ، كما لقي بعضهم حتفه . ولـم يفعلوا بيومهم إلا مساع غير مجـدية وحركات نسائية . وحين غطت السماء وجه الشمس ، وانسدلت ستائر الظلام من الثريا إلى الثرى أوقفوا حربهم .

في اليوم الثاني حين أطل ملك النور من لبّة المشرق ثبت شجعان الجيش في مواضعهم ، واستعدوا لجهادهم ، لدك جبل المقاومة . حين رأى ركن الدين أن ليس أمامه إلا الحسرة ، وأنه كان يُمضي الوقت بسوف ولعل ، ويعيـد الرسل بمعاذير غير مقبولة . وهو الآن كذلك يزجي الوقت على ذاك المنوال ، آملا أن تهطل الثلوج على الجنود . لكنه لاحظ أن انتظار الشتاء وهطول الثلوج غير وارد ، وبفضل الحق عز شأنه لم يأت يـوم سيء على الدولـة السعيدة ، ولم تحجب الشمس عنهم . وكل يوم يأتي يكون أفضل من اليوم السابق في شهر دي[1] ، وتوقف هطول الثلج في أول فصل الخريف . ولا يذكر الأعجاز منذ مئة عام أن المرء يستطيع الدخول في هذه المنطقة أو الخروج منها لكثرة هطول الثلوج وبرودة الهواء ، حين تحل الشمس أول نقطة الميزان . فلم يروا إلا اللجوء إلى الاستسلام والاحتماء بالاسترحام ، فراحوا من شدة هلعهم يضرعون ويتشفعون :

« إن بلغت قوتك البحر بطلائعها، تحول الدر في فم الصدف إلى رمان»

---

(١) شهردي : شهر فارسي يقع بين ٢٢ كانون الأول و ٢١ كانون الثاني (ت) .

أرسل رسولا يستغفره عن أخطائه السابقة • وعلى عادة العاطفة الملكية والمرحمة الكاملة، فقد أثبت بقلم قوته الآية: «فاصفح الصفح الجميل» وعفا عن كل أعماله وأعمال قومه • فأرسل ركن الدين بادىء ذي بدء أغلب أعيانه وأركان مملكته مع ابنه • أما هو فقد نزل في اليوم الثاني بحسب الموعد المضروب • وكان ذلك اليوم السعيد سلخ شوال[1] من هذه السنة ، وبه سلخ حظ أصحاب الجبال ، بل كان فيه غرة تباشير لطف ذي الجلال • وبشكل عام فإن ركن الدين هبط من تلك الذروة العلية ومن معتلاه الرفيع ، الذي كان يظن أنه خالد فيه :

« أنا على جبـل جلنباد[2] الشاهق كأنني ، علـى عرشي فغفور"[3] وبور"[4] »[5] •

نزل من مقام حيرته ورهبته « كالذي استهوته الشياطين في الأرض » ، هبط من مسكنه المألوف ووطنه المعروف بعد أن ودعه بألف ألم وحسرة ، وداع من يعلم أن لالقاء بعده • فماذا نفعه كثرة القلاع واستحكام الرباع أمام حكم الأزل المكتوب ؟ وكيف يمنع انقضاء الدول مع وجود الفكر والعقل ؟ إن إشارة تقدير واحدة تبطل مئة ألف تمويه ، ونصف إيماءة من القضاء تزيـل آلاف التزوير والبهتان :

---

(١) السلخ : آخر الشهر (ت • القاموس المحيط) •
(٢) جلنباد : اسم قرية على سفح الجبل قرب مرو (ت) •
(٣) فغفور : لقب ملك الصين عنـد الفرس ، مركبة من « فـغ » بمعنى الصنم و « بور » بمعنى الابن • فالمعنى : ابن الصنم (ت • المعجم الذهبي) •
(٤) بور أو فور : إشارة إلى خصوم الاسكندر في الهند (ت) •
(٥) من جملة أبيات لمظفر خمج من أدباء عهد سنجر • وقد وردت بعض الأبيات الأخرى في المجلد الأول •

الدهــرُ يلعب بالورى لِعْبَ الصَّوالج بالكُرهْ

والدهرُ قنَّاصٌ ومــا الْـ إنســانُ إلا قُنْبُرَهْ[1]

وهكذا انحدر ركن الدين وقومه ، وحظي بتقبيل عتبة بلاط ملك العالم . فاعترف أمامه بكل جرائمه السابقة في شهوره السالفة ، مبدياً خجله وندامته . فلقي لطائف العواطف الملكية وروائع الصنائع الامبراطورية، فتحول استيحاشه واستنفاره إلى استئناسه واستبشاره . وحظي ببشرى حياته وحياة قومه .

وفي اليوم الثاني أُخرج إلى العراء إخوته وأبناؤه وأفراد أسرته والمتعلقون به وساكنو القلعة . وأخرجوا الأقمشة والأمتعة . فدخل الجيش المغولي ، واشتغل الجنود بهــدم الأبنيــة والأماكن ، وكنسوا التــراب بالمكانس[2] . وصادفوا جماعة من غلاة الفدائيين الذين أبدوا فدائيتهم عــن طريق الضلالة والجهالة ،وبحثوا عن الموت بأنفسهم ، فكانوا كالنمل الطيار ، فصعدوا أعلى قبة القصر المشيد الذي كــان مسند مدبري الملك بــل مطرح مدبري الدين والدنيا : « ولو أراد الله بالنملة صلاحاً لما أنبت لها جناحــاً »[3] ، وشُغلوا بالمصاولة . فوجه الجنود المظفرون المجانيق نحــو الزناديق العمــي العيون ، فطارت نحوهم الحجارة الخفيفة والنبال الحادة كطيران اللعنة على إبليس .

---

(١) من أبيات للقاضي أبي الفضل أحمد بن محمد الرشيدي اللوكري . وورد ذكره في المجلد الأول .

(٢) يقصد أنهم هدموها وأزالوا وجودها (ت) .

(٣) من نص منسوب إلى عبد الحميد الكاتب كتبــه عن مروان بن محمد إلى أبي مسلم الخراساني ، (شرح نهج البلاغة لابن أبــي حديد : ١/٣١٣ . مجمــع الأمثال : ١/٥٧) . وقد أخطأ القزويني المحقق فقال : مروان بن الحكم ، بينما بويل تلافى ذلك وقال : مروان الثاني (ت) .

فقاوموا ثلاثة أيام بلياليها • وفي اليوم الرابع صعد إليهم المغاوير بقوة الثعابين والشجعان الجريئون فسحقوا أصحاب الضلال ، وقطعوا أجزاءهم •

ولم يكن في خزائن ركن الدين في ميمون دز ما يستحق تقـدير الملك سوى الحسرة ، سبب ذلك ذهـاب الجيوش وعودتها في هذه المرحلة جعـل الخزائن تفرغ من الكنوز • فوزع الملك ما تبقى على جنوده وأركان دولته وحشمه • وأرسل رسله إلى القلاع الأخرى المنتشرة في هذا الوادي يأمرهم بهدمها ، وعاد الملك السعيد • وذهب الرسول إلى حاكم « ألموت » ليحصل منه على التبعية والمثول بين يدي الملك• لكنه تردد في النزول • فأمر الملك الأمير بلغاي أن يحاصر ألموت بجيش كثيف • ولكن حين نظر سكان القلعة في عواقب الأمور أرسلوا رسولا يطلب لهم الأمان ويسألونه الإحسان • فتوسط لهم ركن الدين ليعفو عن خطئهم • وفي أواخر شهر ذي القعدة من السنة المذكورة خرج السكان بكل ما معهم من عش الشيطان ومنزل الطغيان • وبعـد ثلاث ليال صعد الجنود إلى القلعة ، فحملوا منها ما عجز السكان عن حمله ، ثـم أحرقوا المنازل بسرعة البرق ، وهدموا الصروح وساووها بالتراب •

« احذر الموت فلا يتشابه اليومان ؛ يوم القضاء ويوم بلا قضاء »

« فلا تسع لخير يوم القضاء ، واليوم بلا قضاء لا خوف" عليه »

في الليلة التي حـل فيها القضاء قضي فيهـا بحكم : « جعلنا عاليـَها سافلـَها » حتى بزغ الفجر • واليوم الذي لم يحن فيه الأجل حين حاصر محمد ابن ملكشاه بن ألب أرسلان هذه القلعة « ألموت » في عهد الحسن الصباح مدة إحدى عشرة سنة مع قلة عدد سكان القلعة وقلة عدتها ، وهذه الحكاية يجب أن تقـرأ في كتب التاريخ[1] ، فلم يخرجه من مكانه ولـم يستفد من

---

(١) الجملة معترضـة .

حصاره • ومعروف لدى الرجل العالم أن لكل ابتداء نهاية ، ولكل كمال نقصاناً • فحين أزف الوقت المحدد لم يمنعه مانع • وقال رسول الله ﷺ : « حق على الله أن لا يرفع شيئاً إلا ويضعه »[1] •

وقد وصل في هذا الأسبوع محتشم قلاع « قهستان » شمس الدين ، والتمس العفو الملكي ، ثم اصطف إلى جانب رجال ركن الدين • حتى وصلوا إلى « كِردكوه »[2] ، وظلت لهم القلاع على حدود قهستان وكانت عدتها أكثر من خمسين تضاهي الأفلاك في ارتفاعها وتصاول الكواكب في مقامها ، فشرعوا يهدمونها ، وتحول الشراب لديهم إلى سراب • فقدم عليهم أصحاب القلاع من جوانب الديلم[3] وإشكور[4] وطارم وخركام● معلنين ولاءهم بعد أن خربوا قلاعهم فكسبوا العفو الملكي •

وفي أول ذي الحجة من الحِجّة المذكورة توجه الملك ، حين أشرقت الشمس ، نحو معسكره ، ووزع كل ما غنمه على الأشراف والوضعاء من رجال جيشه الترك والتازيك ، وأرسل ركن الدين مع جميع أقاربه إلى قزوين ، حيث عيَّن له مقامه ، ونزل الملك المؤيد المنصور ، أطال الله عمره حتى يوم ينفخ بالصور ، في أواخر هذا الشهر نحو عسكره ، وحل بينهم كالشمس في منزل الشرف :

---

(١) انظر صحيح البخاري طبعة بولاق : ٣/٢٠٢ و ١٨٧ ، ففي كليهما « وضعه » مكان « ويضعه » •

(٢) كرد كوه : اسم جبل في ولاية مازندران (ت) •

(٣) بلاد الديلم : تقع جنوبي بحر قزوين ، في شرقيها جيلان وغربيها مازندران(ت) •

(٤) إشكور : يصعب على السكان نطق موضعهم صحيحاً • وهي منطقة من لاهيجان شرقي جيلان (ت) •

« مقدمهم من السماء بسعادة ونصر ، من الصيد الملك ، تلك شمس الملوك »

ولمح البصر هدأت الدنيا ، وإلى سمع الرجل الذكي وصل هدوء الوحش كالجمل المنيف . وكان فتحاً كفتح خيبر عِياناً وعِياناً[1] . ومشاهدة الحكاية كافية ، إذ كشفت حقيقة السر الإلهي في خروج جنكيز خان ، وانتقال الملك إلى ملك الدنيا منكوقاآن ، وبلوغ الفتح الشهير واستلام مفاتيح ممالك العالم ، وخضوع مغاليق الأقاليم المتبقية التي ما زالت تحت حكم منحرفي الطبر . وكان الصالحون يدعونها مفتاح الفتوح،ويسميها الطالحون مصباح الصبوح، بهذه البشارات هب بريد الصبا ، وطارت طيور الهواء ، وهنأت أرواح الأولياء، والأنبياء ، وبعث الأحياء إلى الأموات البشائر :

فتحٌ تفتّحُ أبواب السماء لـهُ ... وتبرز الأرض في أبرادها القشب[2]

وقد بدا الآن علاج الفساد في هذا الكون ، وعرف السرور والارتياح فيه . أما أراه يا ربِّ في الصحو أم في المنام ؟ لا أبقى الله في هذه الدنيا الفئة الباغية الصباحية ، والطائفة الطاغية الإباحية ، ورماهم في جدول الموت[3] وبئس المصير ، وأفناهم عن بكرة أبيهم من لوح الأزل بقلم القهر ، بالآية « فتلك بيوتهم خاوية » ، وأنزل داعي القضاء على أطراف المعمورة لتمحى مخاذلهم « فبعداً للقوم الظالمين » ، وأزال حربهم كمذهبهم الفاني ، وذهب هذه الفئة الضالة .

---

(1) أي قوة ومشاهدة (ت) .

(2) البيت مشهور ، لأبي تمام .

(3) لعله يعني « روديار الموت » أي الوادي الذي فيه قلعة الموت وغيرها . فحوى الكلام .

اليوم يجب الشكر لدولة ملك العالم الظفر إن أمر ضاربي السكاكين المختبئين كالنساء ، وجعل الداعي[1] ناعياً ، والرفيق[2] رفيقاً ، وذبح صاحب الدعوة الإسماعيلية بالسيف الأحمدي ، هؤلاء الذين يخاطبون «مولانا»[3] كأنه إله ، فاها بفيهم[4] ، « وإن الكافرين لا مولى لهم » ، جعله الله عبد العبيد[5] . وأوقع الله إمامهم العالم بل خداوندهم[6] العالي في شبكة الصياد ، لأنهم يعتقدون أنه كلّ يوم في شأن . لقد غدا الحشيشيون[7] بلا حشمة ،

---

(1) الداعي : من اصطلاحات الباطنية ومن جملة درجاتهم وألقابهم ومناصبهم ، مثل : المأذون والحجة والإمام والأساس والناطق . وكل ذلك مشروح في (جامع التواريخ) . وقصده من الجملة : حيث وجد الداعي نعيه الناعي .

(2) رفيق : من إصطلاحات باطنية إيران . ويبدو أن معناها « من نفس المذهب والدين » . يستخدمونها فيما بينهم .

(3) كان أتباع الإسماعيلية والفاطميين يخاطبون ملوكهم بكلمة « مولانا » . ويرى جويني أنهم يعتقدون بالوهيته .

(4) فاها بفيهم : جملة دعائية . جاء في اللسان : « ومن أمثالهم من باب الدعاء على الرجل فاها لفيك ، تريد فا الداهية . قال سيبويه : فاها غير منون إنما يريد فا الداهية . وقيل : معناها الخيبة لك . وأصله أنه يريد : جعل الله بفيك الأرض . وحكي منوناً » .

(5) في الأصل « مولى مولان » . يرى المحقق أنه قد يعني أبناء الحرام أو يعني عبيد الغول . ومول بالفارسية ولد الزنا . أو مخففة من مغول . والألف والنون جمعها .

(6) خداوند : من ألقاب ملوك الاسماعيلية في إيران . ولا سيما بعد الحسن بن محمد . وقد يستخدمونها مخففة : خوانـد ، خوند ، خند . وكلها بمعنى الملك (انظر المعجم الذهبي) .

(7) يعني المؤلف بالحشيشيين أصحاب القلاع . وقد تعب المؤلف وأتعبنا في السجع وسائر أنواع البديع في هذا القسم (ت) .

والكيانيون[1] بلا عزة ولا حرمة ، وكل عظيم منهم كالكلب الذليل ، وكل صاحب قلعة بلا امتعة ، وكل رئيس بلا رأس طار به الدبوس الحربي ، وتحولت خلائقهم أذلة كاليهود[2] وكالأزقة الترابية . قال الله تعالى : « ضُرِبَتْ عليهم الذلة والمسكنة ، أولئك لهم اللعنة »[3] .

لقد كان ملوك الروم والفرنجة ، خوفاً من هؤلاء الملاعين ، صفر الوجوه، ويدفعون لهم الجزية ، ولم يخجلوا من هذه الخزية[4] . والآن استراح سكان العالم ، ولا سيما أهل الإيمان ، من شر مكيدتهم وخبث عقيدتهم . بل إن الأنام من خاص وعام ، كرام ولئام سعداء الآن . وغدت هذه الحكايات أشبه بحكاية رستم الخرافية القديمة ، يقدرها أهل البصر ، ويدركون قيمة هذا الفتح المبين، والنور الذي حل ، والزينة التي عمت .

فقطع دابر القوم الذين ظلموا

والحمد لله رب العالمين[5]

---

(١) كِيا : الأمير وحامي الحدود والملك الصغير (بالفارسية) . وقد كان لقب أمراء طبرستان وجيلان ورود بار . كما أن أغلب الملوك الإسماعيلية تلقبوا بهذا اللقب .

(٢) في الأصل رواية أخرى لكلمة يهودوجدت في الحاشية هي «كلاب» . وقد تتبعنا عمل النسخة الانكليزية فرأيناه - للحق - حافظ على الأصل ولم يستبدل كلمة يهود . وهذه الجملة الوحيدة التي أثلجت صدري ، لأنه دائماً يمدح المغول ولا يشتم إلا أعداء المغول (ت) .

(٣) يلاحظ القارىء أن المؤلف جمع آيتين إلى بعضهما بعضاً ، وهما من سورتين مختلفتين ، الأولى : ٢/٥٨ والثانية : ١٣/٢٥ .

(٤) يثني الجويني (ولا يخجل) على الفرنجة والروم أعداء العرب والمسلمين ، في سبيل إرضاء هولاكو الذي كان على هوى الغرب (ت) .

(٥) من هنا إلى نهاية الكتاب ساقط من النسخة (هـ) .

ذكر تقرير مذاهب الباطنيين والإسماعيليين

وأحوال الجماعة المذكورة

برزت جماعة في ابتداء الإسلام ، بعد أيام الخلفاء الراشدين ، صلوات الله عليهم أجمعين . انطلقوا من بين المسلمين من غير أن يعمر الإسلام قلوبهم ، يحملون في أفئدتهم عصبية المجوس . فشغلوا بالتشكيك والتضليل بين الأنام كانوا باطنيين يظهرون الشريعة، وكان ذلك مغطى على الناس. وكانوا يتصرفون بأقوال فلاسفة اليونان ، ويستخدمونها شعاراً لأباطيلهم ، وأضافوا إليها بعضاً من آراء المجوس . حتى لا يسيء إليهم أهل الإسلام . كما كانوا يدعون التشنيع على بعض الفرق من أهل التشيع المؤمنين لأنهم لم ينصروا آل بيت الرسول صلوات الله عليهم ، ولا سيما حين فعل يزيد ما فعل بهم[1] ، من غير أن ينتصر لهم أحد من الأمراء وأهل الحل والعقد ، مظهرين الرضا على خلافة آل يزيد[2] . وكان « الكيسانية » حتى ذلك الوقت قد انفصلوا عن سائر الشيعة ، وأعلنوا ولايتهم لمحمد ابن الحنفية[3] . فتعلق هؤلاء القوم

---

(١) يعني قتله الحسين رضي الله عنه في كربلاء (ت) .

(٢) يعني خلفاء بني أمية ، ممن جاؤوا بعد يزيد . والصحيح أن النسب تغير بعد معاوية الثاني حيث حلت شعبة مروان بن الحكم (ت) .

(٣) محمد ابن الحنفية شقيق الحسن والحسين ، من أم حنفية وليس من فاطمة رضي الله عنهم (ت) .

بالكيسانيين كذلك،ونسبوا أقوالهم الباطنية إليه[1] .حتى خرج زيدبنعلي[2]، فأهمل شيعة محمد[3] بن علي بن الحسين زيداً[4] ، فقيل لهم : رفضة زيد ، ومنذئذٍ نسب إليهم اسم « الرافضة » .

ولما كان عدد الكيسانية قليلاً ، وقوتهم ضئيلة نسبت إليهم « الرافضية» كذلك . وكان من بينهم شخص من أبناء جعفر الطيار[5] اسمه عبد الله بن معاوية[6] ، قد قبل دعوة الروافض ، وراح يتعمق في ذلك المذهب ، ويوطد أركانه ، من ذلك وضعه جدولاً يُستخرج بـه أوائل الشهور العربية[7] .

---

(١) يعني إلى محمد ابن الحنفية (وذكر ألف ابن هنا واجب) (ت) .

(٢) هو زيد بن علي بن الحسين ، أمه سِندية ، كان بعيد الهمة شريف النفس (ت . الجوهرة) .

(٣) يعني محمداً الباقر الإمـام ابن زين العابدين علـي بن الحسين وهو الامـام الرابع . وزيد أخو محمد الباقر (ت . الجوهرة) .

(٤) ما زال الزيدية الشيعة معروفين في اليمن (ت) .

(٥) جعفر الطيار أخو علي بن أبي طالب ويكبر علياً بعشر سنوات . قطعت يداه في حرب مؤته فقال رسول الله : « إن الله أبدلـه بيديه جناحين يطير بهمـا في الجنة حيث شاء » (ت . الجوهرة) .

(٦) عبد الله بن معاوية : طلب الخلافة فظفر بإصفهان وبعض فارس فقتله أبو مسلم سنـة ١٣٠ ، وكان شاعراً مطبوعاً . (ت . الجوهرة ، وفيهـا بعض شعره : ٢/٤٢) .

(٧) يذكر البيروني في (الآثار الباقية : ٦٤ ـ ٦٨ وأبو منصور البغدادي في الفرق بين الفرق : ٢٥٦) أن الذي وضع الجدول عبد الكريم بن أبي‌العوجاء الزنديق المعروف . ولم أجد في المراجع التي ترجمت لعبد الله بن معاوية اشارة إلى الجدول الذي ادعاه الجويني .

وقال : لا حاجة بعد ذلك إلى رؤية الهلال . والحق أن وضع هـذا الجدول ضلال ، لأنه ربطه بالأئمة أهل البيت رضوان الله عليهم . فقـد قال : الإمام وحده الذي يمكنه أن يرى الهلال ، وليست هذه القدرة لغيره ، لأن مبادىء الشهور تبدأ برؤية الهلال . لكن الروافض من الشيعة أنكروا عليه هذا ، فوقع بينهم خلاف ؛ فدعي جماعة الجدول « أهل العلم بالباطن » ودعيت الشيعـة الأخرى « أهل الظاهر » . حتى جاء جعفر الصادق[1] رضي الله عنه . كان له أربعة أولاد ، أكبرهم سناً اسماعيل[2] وكان يدعى حفيد الحسن . والثانـي موسى وأمه أم ولد . والثالث محمد الديباج[3] المدفون بظاهـر جرجان[4] بجوار قبر الداعي[5] والرابع عبد الله المعروف بالأفطح[6] .

---

(١) جعفر الصادق هو الإمام السادس . توفي بالمدينة سنة ١٤٨ . وانظر تفصيلا آخر عند الجويني : ١٤٦/٣ (ت) .

(٢) أمه فاطمة بنت الحسين الأثـرم بن الحسن بن علي . وكـان اسماعيل يعرف بالأعرج (عمدة الطالب في أنساب أبي طالب ، الورقة B ر١٤٢) .

(٣) لقب بالديباج لحسن وجهه ، كما لقب بالمأمون ، وأمـه أم ولـد . خرج أولا داعياً إلى محمد بن إبراهيم طباطبا ، ولمـا مات محمد بن إبراهيم دعـا الى نفسه ، فجيء به إلى المأمون فعفا عنه ومات بجرجان (عمدة الطالب . ورقة B ر١٤٩) .

(٤) جاء في (نزهة القلوب : ١٥٩) : ومن مزار الأكابر (في جرجان) تربة محمد ابن جعفر الصادق .

(٥) الداعي : محمد بن زيد بن محمد ... بن الحسن بن علي . ملك طبرستان بعد أخيه الحسن بن زيد الداعي الكبير وأقام سبع عشرة سنة وسبعة أشهر ثم حاربه السامانيون فقتلوه . وحملوا رأسه إلى بخارى ودفن بدنه بجرجان عند قبر الديباج (عمدة الطالب ، ورقة B ر٤٥) .

(٦) الأفطح : كان أسنّ أولاد جعفر بعد إسماعيل . سمي بذلك لأنه كان أفطح الرأس . وقيل : كان أفطح الرجلين (الشهرستاني : ١٢٦) .

قال الشيعة : لقد نص الإمام المعصوم جعفر على ابنه إسماعيل • وكان إسماعيل بعد ذلك يشرب المسكر ، فأنكر عليه عمله هذا • وروي عنه أنه قال (جعفر) : هذا ليس ابني إن الشيطان ظهر بصورته • ورواية أخرى تقول إنه قال: بَدَا لله في أمر إسماعيل، ونص على ابنه الآخر موسى • القوم المذكورون الذين نقلوا الرافضية إلى الكيسانية انتسبوا (ثانية) إلى إسماعيل بعد أن انفصلوا عن الروافض وقالوا : أصل النص أوله و « بدا » غير جائز على الله، وما في باطن الشريعة أفضل من ظاهره ، ولا يعاقب على ذلك • وما يأمر بـه الإمام ويفعله حق ، وعلى هذا ليس في سكر إسماعيل خلل أو نقصان • فدُعوا بالإسماعيلية ، تمييزاً لهم من بقية الشيعة •

لكن إسماعيل توفي قبل جعفر الصادق رضي الله عنه ، وذلك في سنة خمس وأربعين ومئة • وكان جعفر الصادق آنئذ حاكم المدينة من قبل خلفاء بني العباس رضوان الله عليهم • وكان إسماعيل قد توفي في قرية « عُرَيض » على أربعة فراسخ من المدينة ، فشيعه أبوه وعدد غفير من الشيوخ وأهـل العلم ، وحمله الناس على أكتافهم ، وهناك عمل محضراً على وفاته وشحّه الحاضرون بخطوطهم ، ثم دفنه بالبقيع •

قال من ينتسبون إلى إسماعيل : إنه لم يمت ، بل تظاهر بالموت تمويهاً على الناس حتى لا يؤذوه ولا يؤذوا أتباعه • وقال بقية الشيعة : لقد كان غرض جعفر الصادق من إعلان بطلان إمامته هذه الفئة التي ائتمت إليـه • والحقيقة أن القولين باطلان ، لأن كل فئة حملت هذا العمل على رأيها ، وقصد جعفر الصادق من تحويل الإمامة تبرئة ساحته من ناحية أبنائه • ولهذا خالفه الخلفاء كما خالفوا أتباعه •

وصفوة القول أن جعفراً الصادق حين توفي تبع جمهور الشيعة موسى ، والقلّة رأت إمامة محمد الديباج[1] وفرقة ضعيفة اعتقدت بإمامة عبد الله الأفطح ودعوا « الفَطْحيّة »[2] . وبعد حين استدعى الخلفاء موسى من المدينة إلى بغداد ، فحبسوه حتى مات في حبسه ، وقالت شيعته : سمّوه ، ونقلوه إلى طرف الجسر ليشاهده الناس ، وليس عليه أي علامة من جراح ، ثم دفنوه في مقابر قريش[3] .

كان ابنه علي بن موسى الرضا آنئذ في المدينة ، فنقله المأمون إلى خراسان وقصته معروفة ، وتوفي بطوس[4] ، وقيل : بل مات مسموماً ، ودفن هناك . ولما كان الخلفاء يتتبعون مدّعي الإمامة فقد تتبعوا هذه الجماعة ، فتوارى أبناء إسماعيل ، وخرجوا من المدينة قاصدين العراق وخراسان ، وبعضهم قصد المغرب[5] . وقال الإسماعيليون : ظل إسماعيل حياً بعد أبيه خمس سنوات ،

---

(١) لم يسمّ أتباعه بالديباجيين . في حين أن الشهرستاني دعاهم بالعمّارية وبالشميطية (الملل والنحل : ١٥) .

(٢) كذا نسبتهم وليس كما ذكر الشهرستاني « الأفطحية » والسمعاني كما ذكرنا فوق ، في حين أن الأصل والنسخ الأخرى : البطحية والأبطحية . ويشير السمعاني إلى أنهم فرقة من غلاة الشيعة ، على انتظار خروج عبد الله بن جعفر الملقب بالأفطح . وانظر تفصيلا آخر في النسخة الفارسية : ٣/٣١٠ .

(٣) المصادر تؤكد دفن موسى الكاظم في بغداد بمقابر قريش ، من ذلك ياقوت والشهرستاني .

(٤) تغير اسمها بعد موت الإمام الرضا إلى « مشهد الإمام الرضا » . ثم قالوا « مشهد » ، وتقع شمال شرقي إيران اليوم (ت) .

(٥) وهم الذين أسسوا الدولة الفاطمية في تونس ثم انتقلوا إلى مصر .

ورأوه في سوق البصرة يسأله مقعد عوناً ، فأخذ بيده وأعانه ، فإذا به ينهض على قدميه ، وتبعه . ودعا لضرير فشفي . وحين توفي إسماعيل كان ابنه محمد ابن إسماعيل قد شبّ في أيام جعفر ، وكان أسنّ من موسى[1] . فاتجه نحو « الجبال »[2] ثم قدم إلى « الري » ، ومنها قدم إلى « دَماوند » نحو قرية « شَلَمْبة »● ، وإليه تنسب « محمد آباد » . وتوارى أبناؤه في خراسان ، ومنها ذهبوا إلى « قندهار » من ولاية السِّند ، واستقر بهم المقام هناك . ومنذ حلوا في تلك الولايات باشروا بدعوة الناس إلى الدخول في مذهبهم . فتوافد على مذهبهم خلق كثير .

ومن ناحية أخرى فإن ممن نجا برأسه علي بن إسماعيل اتجه نحو الشام والمغرب . ولما لم يكن طالباً الإمامة، ولم يتعقبه أحد فإنه ظهر هناك ولم يتخف، كما ظهر أبناؤه من بعده ، وما زالوا هناك . بينما برز جماعة الإسماعيليين يشرحون مقالتهم ويبسطونها . وقالوا : لم يكن العالم بلا إمام مطلقاً ولن يكون ، والإمام الذي كان أبوه إماماً ، وأبو أبيه ، وهلمّ جرا ، حتى آدم عليه السلام . ويقول بعضهم : منذ أول العالم حتى نهايته الإمام ابن الإمام وكذا ابن ابنه حتى الأبد . ولا يمكن أن يموت الإمام إلا بعد أن يخلفه ابنه إماماً ، أو ولد منه أو انفصل عنه . ويقولون : إن قوله تعالى : « ذريةً بعضها من بعضٍ » وقوله : « وجعلها كلمة باقية في عَقبهِ » يؤيد رأيهم . ولما حاججهم الشيعة بالحسن بن علي الذي كان إماماً باتفاق الشيعة جميعاً ، في حين أن ابنه

---

(1) ولد موسى سنة ١٢٨ بينما ولد محمد بن إسماعيل سنة ١٢١ بحسب رأي (دستور المنجمين : B ٣٣٤ر) وهذا يدل على أن محمداً أكبر من عمه موسى بسبع سنوات .

(2) كانت عراق العجم تدعى « الجبال » ، وهي القسم الأوسط من إيران (ت) .

لم يكن إماماً قالوا : كان إماماً مستودعاً ، أي لم يكن ثابتاً ، وكانت إمامته استعارة ، ولكنها استقرت عند الحسين ، والآية : « فمُستَقَر" ومُستودع" » إشارة إلى ذلك . ويقولون : لا يظهر الإمام دائماً ؛ يبدو حيناً ويختفي حيناً ، كتعاقب الليل والنهار . وفي مرحلة ظهوره قد تكون دعوته مستورة ، في حين أنه إذا كان مخفياً فإن دعوته تكون علنية حتماً[1] ، ودعاته ينتشرون بين الناس، حتى لا يكون للناس على الله حجة ، والأنبياء أصحاب التنزيل والأئمة أصحاب التأويل . ولا يجوز أن تخلو الدنيا بين النبي والنبي من الأئمة . فقد وجد شخص بعد إبراهيم ذكر تورية . تقول التورية إنه في ذلك الوقت وجد ملك أشير إليه باللغتين السريانية والعبرانية[2] وهو « ميليخ صيدق وميليخ شاليم» ومعنى هذا الكلام : ملك الصدق وملك السلام . وقيل[3] : حين وصل إليه إبراهيم صلوات الله عليه أعطاه عشر ذوات الأربع . والخضر[4] الذي علم موسى العلم اللدني الذي رغب فيه كان إماماً أو مرشحاً للإمامة[5] .

---

(١) يبدو أن الجويني ترجم كلام الشهرستاني لتشابه الجملتين . يقول : قالوا : ولن تخلو الأرض قط من إمام قاهر ، إما ظاهر مكشوف وإما باطن مستور . فإذا كان الإمام ظاهراً يجوز أن يكون حجته مستوراً ، وإذا كان الإمام مستوراً فلا بد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين (الملل والنحل : ١٤٦) .

(٢) ذكرها الجويني بالعبرية ولكن بحرف عربي مغلوط، فقومناها وترجمناها (ت) .

(٣) يعني تقول التوراة : « فأعطاه العشر من الكل » (التوراة طبع والتون . التكوين : ١٤/٢٠) .

(٤) الخضر هو ذو القرنين . وهذا يدل على أنه ليس المكدوني حتماً (ت) .

(٥) الكلمة غير واضحة في الأصل المخطوط (ما مرد) ، فترجمناها بناء على حاشية القزويني ، ونحن معه فيها (ت) .

وبدأ دور الستر قبل الإسلام ، حيث استتر الأئمة ، حتى أيام علي رضي الله عنه ، حيث ظهرت إمامته . ومنذ عهده إلى إسماعيل ومحمد بن اسماعيل الذي كان الإمام السابع [1] كان الأئمة مكشوفين . وابتدأ الستر منذ عهد إسماعيل ومحمد الذي كان خاتمة الظهور فاستتر . وجاء الأئمة بعده مستورين ، حتى عادوا إلى الظهور . وقالوا : إن موسى بن جعفر فدى نفس إسماعيل ، كما فدى علي بن موسى الرّضا محمد بن إسماعيل [2] وقصة إبراهيم والذبح : « وفَدَيناه بِذبح عظيم » إشارة إليها .

ومثل هذا ، أوردوا كثيراً من الخرافات . وبرز من بينهم دعاة كان ميمون القداح [3] وابنه عبدالله بن ميمون منهم . وكانوا يعدونه من علماء طائفتهم

---

(١) ويدعى « السابع التام » . والإسماعيلية يهتمون بحسابه ، ويرون أن محمد ابن إسماعيل كان السابع لا الثامن (انظر الخطط المقريزية : ٢/٢٣٩) .

(٢) كنا ذكرنا أن سن موسى قريب من سن ابن أخيه محمد وليس قريبا من سن إسماعيل ، ونشير الى أن وفاة إسماعيل كانت متراوحة بين : ١٣٣ و ١٣٨ و ١٤٥ ، وأن موسى ، على قول عامة المؤرخين ، سنة ١٢٨ ووفاته في سجن هارون الرشيد سنة ١٨٣ ، وبهذا يتضح أن الأخوين لم يعيشا معاً كثيراً ، لأن عمره كان خمس سنوات حين توفي أخوه إسماعيل أو عشر سنوات ، وعلى الاكثر ١٧ سنة . وعلى هذا فعصره كان بعد وفاة أخيه . أما محمد بن إسماعيل فأجمعوا على ولادته سنة ١٢١ وترجح وفاته سنة ١٧٩ أي كان حياً حتى قبل ٤ سنوات من وفاة موسى بن جعفر ، . ويروى أن هارون حبسه بسعاية محمد ابن إسماعيل لأنه كان يخافه (انظر عمدة الطالب في أنساب أبي طالب) .

(٣) هو ميمون القداح الأهوازي (ت ٢٦١) شغل هو وأولاده بالدعوة إلى المذهب الإسماعيلي في خوزستان والعراق والشام واليمن وبلاد المغرب (ت . حول الأدب في العصر السلجوقي : ٨٢) .

الكبار، وحسن الشيخ عبدان[1]، وأبو الخطاب[2] الذي ادعى ألوهية جعفر الصادق في زمانه ، وهو القول الذي يدعيه الحلوليون أو الاتحاديون ، كان منهم . وكان جعفر الصادق يقول عنه : ملعون" هو وأصحابه ، وكثير من أمثال هؤلاء، ممن ورد ذكرهم في كتب التاريخ والمقالات[3] .

وهكذا انتشر هذا المذهب وعمت آراؤه في أكثر بلاد الإسلام شرقاً وغرباً ، برز منهم أشخاص واختفى آخرون . وكلهم متفقون على أن الزمان لا يخلو من إمام الذي بواسطته يُعرف الله ، ولا يمكن إدراك الله بدونـه .

---

(١) لعلـه حسن بن الشيخ عبدان ، كـان عبدان الكاتب من أبرز دعـاة القرامطة والإسماعيلية . وكانت بينه وبين حمدان قرمط مصاهرة ، فقد تزوج كـل واحد منهما أخت الآخر . وله مؤلفات ذكرها النديم في « الفهرست » . ونقترح حذف كلمـة « حسن » من المتن لشهرة عبدان وعدم ذكـر حسن في المراجع . والمؤلف وقع في عدد من الأخطاء حول المذهب الإسماعيلي ، نذكرها في حينها .

(٢) هو أبو الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع صاحب الفرقة الخطابية من غلاة الشيعة . دعـا في البدء إلى جعفر الصادق ثم غالى فنسب إليه الألوهية ، ثم ادعى النبوة والرسالة . انقسمت فرقته إلى عدة فرق (انظر في ذلك كتاب فرق الشيعة للنوبختي : ٣٧ . ومقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري : ١٠) . ونهى جعفر عن اتباعه . ولما فشا أمره حاربه والي الكوفـة ابن أخي المنصور .

(٣) لم يكن القداح من دعاة الإسماعيلية ، بل كان إمامياً ، وكان معاصراً للامام جعفر الصادق . والجويني ورشيد الدين وغيرهما ينسبونه خطأ إلى الإسماعيلية . وهذه دعوى باطلـة من الإسماعيلية (المحقق) . وهنـاك آراء أخرى تؤيـد إسماعيليته ، كما ذكرنا في الحاشية السابقة (ت) .

والأنبياء في كل زمان كان يشيرون إليه . وللشريعة باطن وظاهر . والباطن هو الأصل . ومع أن أصل الشريعة مثبت على الباطن ، فلا يجدر إهمال الظاهر . ولهذا عدّهم أصحاب المذاهب الأخرى خارجين عنهم . وأقـدم أغلبهم على إباحة المحرمات ، حتى كان عهد الخليفة المعتمد[1] سنة ثمان وسبعين ومئتين حين ظهر القرامطة ، وشرحهم مذكور في كتب التاريخ ، وكان أولهم حمـدان قرمط[2] ، حيث تجمع حوله عدد من سواد الكوفة حين أعلن ثورته . وشغل بقتل المسلمين ونهب الأموال وسبي الذراري.ثم انتقل إلى مدن العراق والشام والبادية ، فحصلت فتنة عظيمة بسببه . وعجز الخلفاء عن إخمادها ، فاستولى على البحرين ● ، ثم نزل في مكة وقتل الحجاج ورمى جثثهم في بئر زمزم ، وفتّت الحجر الأسود[3]،وظل في حوزة القرامطة مدة خمس وعشرين سنة[4].

---

(١) ذكرت إحدى النسخ أنه المعتضد .

(٢) هو حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط ، واسم القرامطة على أشهر الأقوال مقتبس من اسمه . سنة وفاته غير معلومة ، ويستفاد من كلام النويري بأن ذكره قد اندثر في سنة ٢٨٦ تماماً ، ولا تذكر الكتب أنباء حياته الأخيرة . ولمعرفة المزيد عنه وعن القرامطة ننصح بالرجوع إلى « دخويه » المستشرق الهولاندي في رسالتـه (بالفرنسية) « تحقيقات بخصوص قرامطة البحرين والفاطميين » .

(٣) يذكر كتاب جامع التواريخ أنه غدا قطعتين . ولم أجد في المصادر من ذكر أنهم جعلوا الحجر قطعتين ، بـل إنني قرأت في عـدد من الكتب مثـل المقريزي في إتعاظ الحنفاء : ١٢٩ يقول : « شقوقاً حدثت فيه بعد انقلاعه » . وقال ابن جبير والأزرقي إنه غدا عدة قطع ، في حين أن ابن الأثير سكت عن هذه الفقرة .

(٤) المشهور أن الحجر ظل في حيازتهم ٢٢ سنة . ولعل ٢٥ سنة سهو من المؤلف، أو مسامحة .

فعرض عليه ملوك الإسلام مبلغ مئة ألف دينار[1] ليستعيدوه منه لكنه لم يبعه . وبعد خمس وعشرين سنة أحضر القرامطة الحجر الأسود إلى الكوفة ، ورموه في جامعها ، وكتبوا معه : إننا نقلنا الحجر بأمر ونعيده الآن بأمر . فنقل المسلمون الحجر الى مكة ، ووضعوه في مكانه[2] .

وفي أثناء فتنة القرامطة قدم شخص من دعاة الإسماعيلية من أبناء عبد الله ابن ميمون القداح إلى الكوفة والعراق ، ومعه ولده وقال : إنني داعي الإمام وقد دنا ظهوره . وأرسل شخصاً اسمه بلقاسم بن حَوْشب[3] إلى اليمن ليدعو فيها ، وأمره أن يرسل دعاته إلى أطرافها ، واختط بلقاسم هذا في اليمن خطة حسنة ، وتبعه خلق كثير ، وقد أرسل شخصاً يدعى أبا عبد الله[4] الصوفي المحتسب إلى المغرب ليدعو فيها ، وكان قد قدم إليه من المغرب من قبيلة كتامة بناء على دعوة بلقاسم واستجاب أهل المغرب لدعوته . وكان (أبو عبد الله) يكاتب ذلك الشخص الذي كان من أبناء عبد الله بن ميمون لأنه كان أقرب إلى

---

(١) عموم المؤرخين ذكروا ٥٠ ألفاً .

(٢) هذا الكلام مخالف لأقوال المؤرخين ، فهم كما يذكرون أن القرامطة أعادوا الحجر إلى مكانه (إتعاظ الحنفاء : ١٢٩) .

(٣) ابن حوشب هو أبو القاسم رستم بن الحسين الملقب بالمنصور من دعاة الإسماعيلية في اليمن . أرسل إليها سنة ٢٦٨ بأمر من المهدي أبو أول الخلفاء برفقة أحد أبناء عبد الله بن ميمون (الكامل . دستور المنجمين) .

(٤) يعني أبا عبد الله الشيعي ، وكان محتسباً بسوق الغزل من البصرة (اتعاظ : ٢٧) . أصله من الكوفة أو رامهرمز أو صنعاء . وهو مؤسس الدولة الفاطمية . كان من الدهاة المعتبرين ، ولكن ابن المهدي قتله سنة ٢٩٨ . فهو لم يكن من المغرب ولا من قبيلة كتامة ، وهذا سهو فاضح من الجويني .

الإمام • ودأب ذلك الشخص على دعوته والتحريض عليها حتى عظم شأن أبي عبد الله ، فاستولى على بعض بلاد المغرب وحدود قيروان وسجلماسة• كان هذا الشخص من أبناء عبد الله بن ميمون • فاتجه نحو تلك البلاد مع صبي[1] • وحين وصلا إلى سجلماسة استقبلهما بو عبد الله الكتامي ، وقام على خدمتهما[2] وأعلن : أعدّ نفسي في حكومتي هذه نائباً عنك ، ومادمت قدمت فلك الأولوية[3] • فقال : كنت أقول أكثر من هذا إنني داعي إمامي الذي لم يحن حتى الآن وقت ظهوره • وقد حان وقت ظهوره وأقول لك : إنني الإمام ، ومن أبناء إسماعيل بن جعفر ، وأسميت نفسي عبد الله[4]

---

(١) ولعله يعني ابنه (ت)

(٢) الصواب أن المهدي مع ابنه وصلا إلى سجلماسة والذي استقبلهما هو ابو عبد الله الشيعي • وهذا سهو عجيب من الجويني من جملة أخطائه في هذا الفصل ، والمؤرخون يذكرون أن المهدي وابنه سجنا لدى الأمير اليسع بن مدرار قبل أن يستولي عبد الله الشيعي على سجلماسة ، وبعد ذلك تمكن من تخليصهما من السجن مقدماً لهما واجب الطاعة (الكامل : ٨/١٥ ، ١٨ ، ١٩ وإتعاظ الحنفاء : ٣٦) • وقد أغفل الجويني كل هذا عامداً فيما نحسب •

(٣) ورواية أخرى تقول : « وإنني أحكم هذه الولايات باسمك » • والمقصود أن أبا عبد الله حكمها نائباً للمهدي • والظاهر أن ابن حوشب المذكور والذي أرسله أبو عبد الله إلى المغرب هو الذي حكم ، في حين أن ما يبدو ، بعد إدراك الجملة ، أن أبا عبد الله كان يحكم تلك الولايات بلا واسطة ولا تكليف •

(٤) مع أن المؤرخين ذكروا اسم المهدي عبيد الله ، فإن مؤلف دستور المنجمين – وهو من الكتب الإسماعيلية – يؤيد اسمه عبد الله : وكان يقال له قبل الظهور عبيد الله وهو مولانا الإمام المهدي بالله أبو محمد عبد الله •

المهدي[1] وابن القائم بأمر الله ، وجلس على كرسي الخلافة ، واتفق عليه المغاربة ولا سيما قبائل كتامة . وبنى مدينة « المهدية » على أرض القيروان سنة ثمان وخمسين ومئتين[2] . وحين علا شأنه حاول تهديم قصر الشريعة[3] فتهاون في أحكامه . فشكّ أبو عبد الله الصوفي به ، مما أضعف من عزيمته نحوه . وأراد يوسف[4] أخو أبي عبد الله أن يعلن العصيان ، ورغب في أن يخرج أبو عبد الله[5] على المهدي .

كان لظهور المهدي في سجلماسة من بلاد المغرب واستيلاؤه سنة ست وتسعين ومئتين[6] وتمكن في سنة اثنتين وثلاثمئة[7] من التغلب على ملوك

---

(١) تضيف النسخ الأخرى كلمة « بن » فيصبح عبد الله بن المهدي وهو خطأ فاحش، والمهدي لقبه وليس أباه .

(٢) هذا خطأ فاحش لأن ولاية المهدي أصلا سنة ٢٥٩ أو ٢٦٠ في حين أنه بنى المهدية ٣٠٣ إلى ٣٠٨ . وإجماع المؤرخين على سنة ٣٠٨ ، في حين أن كتاب المغرب يضبط السنة بـ ٣٠٠ .

(٣) لم ندرك المقصود ، والمترجم الانكليزي ترجمها مثلنا حرفياً (ت) .

(٤) يذكر ابن الأثير وصاحب دستور المنجمين والمقريزي أن اسم أخي أبي عبد الله هو أبو العباس محمد ، وابن خلكان يذكر اسمه أحمد . ولم يذكر أحد أن اسمه يوسف .

(٥) يعني أن أخا عبد الله أراد أن يعصيه ، وأراد أن يخرج أبو عبد الله على المهدي .

(٦) هذه السنة تاريخ جلوس المهدي الفاطمي على عرش الخلافة ، وهذا رأي المؤلف وعدد من المؤلفين ، غير أن ابن الأثير وابن خلكان أكدا على أنه سنة ٢٩٧ . والخلاف جاء من سنة خروج المهدي من السجن وسنة استيلائه على بني الأغلب وجلوسه على عرشهم سنة ٢٩٧ .

(٧) جعل الجويني انقراض الأغالبة سنة ٣٠٢ وهذا مخالف لجمهور المؤرخين ، والصواب هو سنة٢٩٦ ، وكان أبو مضر زيادة الله بن أبي العباس آخر ملوكهم، بعد أن حكموا ١١٢ سنة وبضع شهور .

المغرب من بني الأغلب الذين كانوا تابعين إلى خلفاء بني العباس وإنهاء حكمهم. وهكذا امتدت سيطرته على جميع ممالك المغرب وإفريقية[1] وصقلية . ورووا حديثاً عن النبي عليه الصلاة والسلام : « على رأس الثلاثمئة تطلع الشمس من مغربها » . وقالوا : إن تأويل هذا الحديث هو ظهور المهدي . وقالوا : إن بين محمد بن إسماعيل والمهدي ثلاثة أئمة مستورون ، أسماؤهم : محمد بن أحمد بن ...[2] ، وألقابهم : الرضي[3] والوفي والتقي . والمهدي ابن التقي[4] ●. وقال مسلمو ولاية المغرب إن المهدي من أولاد عبد الله بن سالم البصري[5] من دعاة هذه الطائفة. وقال أهل بغداد والعراق: إنه من أبناء عبدالله بن

---

(١) المراد ببلاد المغرب آنئذ : البلاد الواقعة غربي مصر ، وكان اسم المغرب آنئذ مراكش . والمراد بإفريقية : تونس الحالية مع بعض الجزائر شرقاً ، وقد تبلغ منطقة طرابلس شرقاً .

(٢) دستور المنجمين لم يذكر الثالث كذلك . ويبدو أن الجويني كان ينقل من هذا الكتاب عن موضوع هذا الفصل الذي ألفه مؤلفه في عهد الحسن الصباح .

(٣) في دستور المنجمين وأنساب السمعاني : الرّضا . ونرجح ما جاء في المتن لتناسب الوزن مع الشدة ولخلاف نطقه مع الإمام الثامن .

(٤) جاء في وفيات الأعيان : ٢٩٣/١ : « وقيل هو [أي المهدي] عبيد الله بن التقي ابن الوفي بن الرضي .

(٥) لم أحظ باسمه لدى : الطبري ، ابن الأثير ، المقريزي . غير أن الطبري ذكر المهدي مرتين باسم « ابن البصري » . ولكن في ذيل الطبري لعريب بن سعيد يذكر أنه عبيد الله بن عبد الله بن سالم من أهل عسكر مكرم بن سندان الباهلي صاحب شرطة زياد ومن مواليه ، وسالم جده قتله المهدي على الزندقة .. وكان يعرف أول دخوله القيروان بابن البصري .

ميمون القداح . وهذا يعني أنهم يكذبون انتسابه إلى إسماعيل بن جعفر ، ولا يوافقون عليه . وفي عهـد القادر بالله[1] ببغداد عُقد محضر أكد فيه الحاضرون من السادات والقضاة والمعتبرين أن مذهب أبناء المهدي مقدوح فيه ، وكاذبون في مسألة ادعائهم النسب إلى جعفر الصادق . وسيذكر هذا المحضر نفسه لدى الحديث عن الحاكم الخامس من أبناء المهدي . وقد حكم المهدي مدة ست وعشرين سنة ، ووفاته سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة .

وخلفه ابنه القائم . وفي عهده خرج رجـل يدعى أبايزيد ، من أهـل المغرب . كان هذا الشخص[2] رجلا مسلماً متديناً عابداً سنيّ المذهب . وأخذ يعدد للناس بدع المهدي . فتبعه خلق كثير . فحاربه القـائم ولكنه انكسر أمامه ، وحاصره أبو يزيد في المهدية . وأسماه أتباع القائم بالدجّال ، فقد ورد في الملاحم أن الدجال سيخرج على المهدي أو القائم . وفي هذه الأثناء ، والحرب قائمة ، توفي القائم في شوال سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة ، فأخفوا خبر موته .

وخلفه ابنه المنصور إسماعيل[3] ، فاهتم مباشرة بأمر مقاومة أبي يزيد . كان رجلا صاحب رأي وشجاعاً . فكسر أبا يزيد وهزمه ، وتبع فلولـه حيناً حتى تمكن منه في النهاية وقتله ، وبعث بجثته إلى بـلاد المغرب بلدة بلدة . عندئذ أعلن خبر وفاة والـده وجلس مكانه . وتوفي سنـة إحدى وأربعين وثلاثمئة .

---

(1) توفي القادر بالله سنة ٤٢٢ .

(2) هو أبو يزيد مخلد بن كيداد كان من الخوارج الإباضية من البربر الزناتية (التنبيه والإشراف للمسعودي : ٣٣٣ ـ ٣٣٥ . الكامل حوادث سنة ٣٣٣ . اتعاظ الحنفاء : ٤٦) .

(3) هذا غلط صريح لأن المنصور بنصر الله لقبه وإسماعيل اسمه وليس اسم أبيه .

وجاء بعده ابنه المعز أبو تميم معدٌ • كان صاحب رأي ، مدبراً ، شجاعاً، صاحب دولة • وقد رعى سياسة مملكته جيداً كما وسع مملكته أكثر مما كانت في عهد آبائه • وقد قصر همه ووكده على احتلال مصر ، وكانت آنئذ بيد كافور الإخشيدي • وفي سنة ثمان[1] وخمسين وثلاثمئة أرسل المعز غلامه أبا الحسن جوهراً ليدعو له[2] • فتبعه الناس واستجابوا لدعواته • وبعد ذلك دعا كافوراً واستماله إليه ، فاستجاب لدعوته ، وحول الخطبة من اسم الخلفاء العباسيين إلى اسم المعز • وفي هذه السنة ، سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة ، توفي كافور[3] ، فاستقل جوهر بملك مصر من قبل المعز • وأسس في هذه السنة مدينة القاهرة المتصلة بمدينة الفسطاط • وتم بناؤها سنة اثنتين وستين وأسماها « القاهرة المعزية » • وقدم المعز إلى مصر في رمضان سنة اثنتين وستين بجيش لا يُحصى عدداً وأموالاً وتحفاً لا تقدر بثمن ، وجعل القاهرة دار ملكه • وهكذا خرجت مصر وأرض الحجاز من يد بني العباس ، وانتقلت إلى يد المعز • فنشر في البلاد عدله وإنصافه • وتروى حكايات عجيبة عن عدله ونصفته • وتوفي في ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمئة •

وجاء بعده ابنه العزيز أبو منصور نزار ، وتصرَّف بممالك المغرب ومصر

---

(1) في نسخة واحدة : ثلاث ، وهو غير صحيح حتماً (ت) •

(2) جوهر من روم صقلية • دخل مصر محارباً ولم يدخلها داعياً • حارب الجيش الاخشيدي بعد موت كافور وانتصر عليهم • واغتنم اضطراب الأوضاع في مصر فاستولى عليها ولم يدخل جوهر مصر إلا بعد موت كافور (ت • وانظر حول الأدب في العصر السلجوقي ومصادره) •

(3) يروى أن وفاة كافور سنة ٣٥٦ أو ٣٥٧ ، أي قبل قدوم جوهر بسنتين أو ثلاث • وبعد وفاته وانتصار جوهر خطب للمعز - وهذا خلط من الجويني •

والحجاز • وقد ورد في تاريخ المغاربة نبأ حروبه وظفره على البتكين المعزي[1] وكان حاكم الشام من قبل الطائع لله ، وعلى الحسن بن أحمد القرمطي[2] الذي جاء مدداً لألبتكين • وحصلت وفاته في رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمئة • كان العزيز رجلا حسن السيرة ، حليماً حتى إن الحسن بن بشر الدمشقي هجاه وهجا وزيره ابن كلّس[3] وكاتبه أبا منصور الدرواني[4] بهذه القطعة :

قُلْ لأبي نَصرٍ كاتبِ القصرِ   والمُتَأتّي[5] لنقض ذا الأمرِ
انْقُضْ عُرى الملك للوزيرِ تَفُزْ   منه بحسنِ الثناءِ والذكرِ[6]
وأعطِ وامنعْ ولا تَخفْ أحداً   فصاحبُ القصرِ ليسَ في القصرِ
وليس يَدري ماذا يُرادُ بهِ   وهْوَ إذا ما دَرى فما يَدْري

---

(١) انظر خبره في الكامل: ٨/٢٥٥ وفيه أنه « الفتكين » وهو مولى معز الدولة البويهي •

(٢) يذكره ابن الأثير : ٨/٢٦١ : القروطي •

(٣) كان أغلب وزراء الفاطميين يهوداً ويعقوب بن كلس يهودي أيضاً (ت) • وانظر ابن خلكان : ٢/٥٠٠ لضبط اسمه وخطط المقريزي ٤/٦٧ •

(٤) يذكره ابن الأثير : القيرواني ، ولعله الصواب • لأن الحكاية كلها منقولة عنه•

(٥) تنقيط ثلاث كلمات من العجز فاسد في الكامل وفي هذا النص •

(٦) وردت هذه الأبيات الأربعة في الكامل : ٩/٤٨ وذكر : « كان بمصر شاعر اسمه الحسن بن بشر الدمشقي وكان كثير الهجاء فهجا ••• » • كما ذكرت الأبيات في مختصر الدول : ٣١٠ • والقطعة بحاجة إلى ضبط وتحقيق ، وليس في حوزتي المراجع الكافية لذلك (ت) •

حين أبدى ابن كلس شكواه من الشاعر ومن قطعته أجابه العزيز : هذا شيء اشتركنا في الهجاء به ، فشاركني في العفو عنه . وعاد الشاعر إلى هجائه ثانية ، وزاد فيه فضلا قائد الجيش :

تَنَصَّرْ فالتَّنَصُّرُ دينُ حقٍّ | عليهِ زَمانُنا هذا يَدُلُّ
وقُلْ : بثلاثةٍ عَزُّوا وَجلُّوا | وعَطِّلْ ما سِواهمْ فهمْ عُطُلُ
فيعقوبُ الوزيرُ أبٌ وهذا الـ | ـعَزيزُ ابْنٌ ورُوح القُدس فَضْلُ

ومرة ثانية عرض الوزير هذا الشعر على العزيز . ومع أنه غضب إلا أنه قال له : اعف عنه . فعفا عنه . حتى كانت المرة الثالثة وجاء الوزير إلى العزيز وقال له : لم يبق مجال للعفو لأنه مس هيبة الملك . وهذه المرة ، وأنت العزيز[1] ، وأنا وزيرك ونديمك ابن الزبارج يذكرنا جميعاً بشعر فاحش ، فيقول :

زَبارِجيٌّ نديمٌ | وكِلِّسيٌّ وزيرُ
نعمْ على قدر الكلـ | ـبِ يَصلُحُ الساجورُ[2]

غضب العزيز،وطلب من الوزير بأن يلقي القبض على الشاعر.إلا أنه ندم على ذلك ، فعاد يأمر بإطلاق سراحه ، إلا أن الوزير كان قد قتله قبل أن يصل إليه أمر الإفراج عنه . فتألم العزيز لذلك وتحسر . وكان قد منح الشام إلى يهودي اسمه منشا[3] ، ومصر إلى نصراني اسمه عيسى بن نسطورس ، وكانا

---

(١) لعله يقصد « العزيز » ملك مصر (ت) .

(٢) الساجور : خشبة تعلق في عنق الكلب (ت . القاموس) .

(٣) وكذا في ابن الأثير : ٤٨/٩ . وابن القلانسي : ٣٣ يذكره : منشا بن إبراهيم ابن الفرار . وابن العديم ورقة ٤٩ : أبو سهل منشا بن إبراهيم اليهودي .

يجوران ــ بحسب اعتقادهما ــ على المسلمين • فأرسلت إليه امرأة رقعة جاء فيها : « يا أمير المؤمنين ، بالذي أعــز اليهود بمنشا بن لسام[1] والنصارى بعيسى بن نسطورس وأذل المسلمين بك إلا نظرت في حالي» •فتأثر العزيز كثيراً من هذه الرقعة ، فعزلهما فوراً بعد أن أخذ من النصراني ثلاثمئة ألف دينار مغربي ورد مظالمه ، ووزع مؤن المسلمين على اليهود والنصارى عدة مرات •

وقام مقامه بعده ابنه الحاكم أبو علي المنصور وكان عمره أحد عشر عاماً • مع أنه كان حليماً كأبيه إلا أنه كان ذا طيش وجنون ، فظلم أهل مصر • وكان من عاداته أن يجلس إلى المظالم يستمع إلى أصحاب القصص من غير أن ينكر ما يسمعه من ظلم وجور • وحين كانوا يسلمونه القصص كانوا يكثرون فيها من شتمه والفحش به وبآبائه وأجداده والتأكيد على فساد نسبه • حتى بلغ بهم الأمر أن قصوا صورة بشكل امرأة محجبة في يدها ختم وعلقوها في الطريق الذي يمر به[2] • وحين وصلت الصورة إلى يــد الحاكم الظالم قــرأ ما عليها من كتابة فيها شتائم قبيحة وفحش وفضائح ومخاز عنه وعن أسلافه • فغضب وأمرهم بإحضار هذه المرأة،وللأسف لم تكن سوى تمثال من الورق• فأمر عبيده وأجناده أن يحرقوا مصر ويقتلوا أهاليها • وحتى يدفع أهل مصر هذه الغائلة ويذبوا عنهم تلك الشناعة ، ويحموا شرفهم خرجوا عاصين ثائرين• وأخذ الجنود يحرقون منزل كل من عجز عن دفعهم وردهم ، وأغاروا عليــه ونهبوه • وكان هو يشاهد بنفسه هذه المناظر ويعلن أنهم يقومون بذلك ضد رأيه وإذنه • وفي اليوم الثالث ، والوضع على حالته المتردية ، احتمى المشايخ وأسياد مصر بالمسجد الجامع ، ورفعوا المصاحف على الأخشاب ، وأعلنوا أنهم

---

(١) نميل إلى تسميته « منشاً » بكسر فسكون ابن ابراهيم معتمدين على الروايات ولا سيما ابن العديم (ت) •

(٢) وردت الحكاية كاملة عند ابن تغري بردي : ٢/٦٦ الذي نقلها بدوره من تاريخ ابن الصابيء • واحتمال قوي أن الجويني نقلها عن ابن الصابيء •

في ظلم وقالوا : إذا كان هذا الفساد يجري بغير إذنك فاسمح لنـا ، ونحن عبيدك ورعاياك ، بأن ندفع المفسدين عن غيهم • فأجاب : أنا لم أسمح بهذا الفساد ويمكنكم أن تدفعوه عنكم بأنفسكم • وأمـر ، في الوقت نفسه ، جنوده بأن يستمروا على حالهم ويصروا • وحين شغلوا بالحرب هرب الجنود أمام الشعب حتى أوصلوهم إلى باب القاهرة حيث محط رحاله خاف الحاكم فأمر الجنود بالتراجع •

وتيجة ذلك أحرق ربع مصر ، وأغير على نصفها ، وأثار غلمان الحاكم كثيراً من الفظائع بين المحارم ، حتى هلك عدد غفير من أكابر البلدة غماً خوف الفضيحة • وكان يطوف ليلا في الأسواق ، يستفسر عن أحوال الرعايا ويهتم بالأعجاز ، وفي الوقت نفسه كان يتفحص أحوال النساء ويتجسس عليهن • حتى وصل إلى منازل الناس في تجواله • وكانت عيونه تخبره إن صدقاً وإن كذباً عن النساء والمستورات • ولهذا السبب قتل كثيراً من النساء ، ونادى المنادي بعدم خروج النساء من منازلهن ، ولا يصعدن أسطحة منازلهن ، ولا يسمح للأساكفة بأن يصنعوا أحذية نسائية • وعندما أمر الناس بعدم شرب الخمر ولم ينزجروا أصدر أمره بإفساد حقول الكرمة • وكانت له عادة أخرى ، يكتب على رقع بخط يده يمنح حائزها ألف دينار ، أو إمارة المدينة الفلانية ، أو خلعة ثمينة ، أو يقتل صاحبها ، أو يسلب منه كذا مالا ، أو يقطع من جسمه عضو معين ، أو ينكل به ، أو يمثل به • وختم الرقاع بالشمع والعنبر والطين المختوم ، وجمع الناس ونثرها عليهم • ومن حصل على واحدة منها ينفذ له أو به ما فيها فوراً • وأمر أن يمتنـع النصارى واليهود من ركـوب الخيول والبغال [1] أو أن يتملكوا الركاب • وعلى كل واحد منهم أن يضـع قلائد على رقبته ليتميز من المسلمين •

---

(1) وفي خطط المقريزي : ٤/٧٣ : « الـزم اليهود أن يكون في أعناقهم جرس إذا دخلوا الحمام » •

تضايق السكان المسلمون وأهل الذمة جميعاً من هذه الحركات المذمومة والأحفال المرذولة . فملوا حكمه ، حتـى حرمه وجنـوده وبطانته وخواصه كذلك . حتى إنه اتهم أخته ست الملك بأمير من امرائه ومدبر أموره هو مقدم جيشه اسمه ابن الدوّاس[1] . فأرسلت أخته هذا الخبر إلى ابن الدوّاس . واتفق الاثنان على قتل الحاكم وإجلاس ابنه علي مكانه ، وتعاهدا على هذا الأمر، واتفقا على إهلاكه . فأعطيا غلامين من غلمان ابن الدواس ألف دينار[2]، وطلبا إليهما أن يكمنا في جبل المقطّم قرب القاهرة ، حتى إذا مر الحاكم مع ابنه الصغير من هذا المكان المعهود قتلاهما .

كان الحاكم يدعي علم النجوم . وأخبرته النجوم أنه إذا ظل هذه الليلة حياً فسيبلغ من العمر ثمانين سنة . وقال هذا المعنى لأمه . فتضرعت إليـه والدته ورجته ألا يخرج هذه الليلة من قصره[3] . فالتزم لأمر والدته . لكنه حين حلّ السحر هاجمه الضجر ، ولم يطق السكون والاستقرار ، ولم يوافه النوم كذلك . فحاولت أمه راجية باكية تثني من عزيمته في الخروج ، ولكن من غير فائدة . وقال لها : إذا لم أسِر الآن فإن روحي ستخرج من صدري . وهكذا خرج مع حشمه ، كالمعتاد ، إلى جبل المقطم . فهاجمه الغلامان وقتلاه

---

(1) هو سيف الدولة ذو المجدين حسين بن علي بن دواس الكناني (البيان المغرب: ٢٨٢/١) والكناني حتماً مصحف وأصل الكلمة « الكتامي » بدليل النجوم الزاهرة : ١٨٥/٤ : « ابن الدواس من شيوخ كتامة » .

(2) أكد الرقم ابن الأثير وغيره ، بينما ذكرت إحدى النسخ : ألفين .

(3) حدد ابن تغري بردي : ٧٥/٢ أن الحاكم خرج إلى الجبل المعروف بالمقطم ليلة الاثنين السابع والعشرين من هذه السنة » يعني سنة ٤١١ . وانظر تفصيلنا في « حول الأدب في العصر السلجوقي : ٢٢ ـ ٢٣ » .

مع من كان معه . وأخفيا جثته وأحضراها إلى أخته حتى تدفنـه في قصره ، ولا يعلم بهذا السر أحد ، عدا وزيره فقد أطلعته على الأمر بعد أن استحلفته على كتمان الأمر . فاتفق معها على تدبير الأمر وتهدئة السكان . فكانا يفتعلان المعاذير ، ويكرران الأقاويل ، بحثاً عن سبب غيبته . وكانا في كل ليلة يقولان شيئاً ، حتى مضى على ذلك سبعة أيام ، وما زال في غيبته .

لكن أعيان القصر ورجال الحكم وقفوا على خلية الأمر . فأطلقت لهم العطايا بعد أن أخذت عليهم المواثيق والعهود . فبايعوا ابنه أبا الحسن علياً ، ولقبوه بالظاهر بالله[1] ، ثم أجلسوه على سرير العرش . وبعد ذلك أعلنوا وفاة الحاكم . وقد وهب ابن الدواس الخلع السنية ، فاستولى على مقاليد الأمور .

كان في ذلك الوقت نسيم الخادم بطل القصر وأفضل الغلمان . وكان هو ومئة غلام مسلحين بالسيوف يحافظون على حياة الخليفة . فدعاه الخليفة واتفق معه على قتل ابن الدواس . واتبع طريق المكر فعين نسيماً الخادم وأتباعه حرساً وأتباعاً لابن الدواس . وأمره أن يغلق أبواب القصر يوم يدخل إليه ابن الدواس ، ويحكم حراسته . وقال لغلمانه (نسيم): يأمر مولانا الظاهر أن تقتلوا ابن الدواس لأنه قاتل أبيه الحاكم . وهكذا نفذ به الإعدام بأن أثخنوه بالجراح حتى مات . وبعد التخلص منه باشرت ست الملك بالتخلص من كل من كان على علم بقتل الحاكم أو شاركها في ذلك . ثم تفرغت لتدبير أمور الدولة وترتيب مصالـح المملكة ، مستقلة متفردة . واستطاعت أن تبث الهيبة في أفئدة أصحاب الحل والعقد وأعيان الدولة .

وقد كان قتل الحاكم وتخليص الله تعالى خلائقه من ظلمـه وغَشْمه وأفعاله الذميمة وأخلاقه اللئيمة في شوال سنة إحدى عشرة وأربعمئة :

---

(١) عامة المؤرخين يؤكدون أن لقبه « الظاهر لإعزاز دين الله » . انظر ابن الأثير: ٩/١٣٢ وأبا الفداء : ٢/١٥١ وابن خلكان ١/٤٠٢ .....

مِن مَلَكِ الموتِ إلى مالكِ (١)

وقد حكم الظاهر خمس عشرة سنة . وتوفي في شهور[٢] سنة سبع وعشرين وأربعمئة .

ذكــر محضر المهدي المقدوح[٣]

بدأ الحاكم في سنة تسع وثلاثمئة [والصحيح إحدى وأربعمئة][٤] يكاتب صاحب الموصل معتمد الدولة أبا منيع قِرْواش بن المقَلَّد العقيلي من قبل الخلفاء العباسيين ، في عهد القادر بالله . وكان يرسل إليــه من مصر التحف والعطايا بشكل متواتر ، ويدعوه إلى بيعته . فاستجاب معتمد الدولة إلــى دعوته وحض أهل الموصل على طاعة الحاكم ومخالفة القادر بالله. وجعل الخطبة

---

(١) هذا شطر من بيتين لأبي الفتح البستي . يقول :

قلت له لـما قضى نحبه : لا ردك الرحمن من هالك

أما وقــد فارقتنا فانتقل من ملك الموت إلــى مالك

ويعني بمالك خازن النار . والبيتان مذكوران لدى الثعالبي .

(٢) للدقة : في ١٥ شعبان . انظر ابن الأثير : ٩/١٨٦ . ابن خلكان : ١/٤٠٣ . ابن القلانسي : ٨٣ .

(٣) في نسخة أخرى كان العنوان : « ذكر المحضر الذي يسجل بطلان نسبهم إلــى جعفر وبقية حالهم » .

(٤) ذكره هذه السنة ٣٠٩ خطـأ واضح ، وما وضعناه بين قوسين هــو الصواب . انظر على سبيل المثال : ابن الأثير : ٩/٩٢ . ابن خلكان : ٢/٢٣٧ . ابن تغري بردي : ٢/١٠٧ . وغيرهم .

باسم الحاكم . ونزل من هناك إلى الكوفة ، وحول الخطبة كذلك إلى اسمه.
كان بهاء الدولة بن عضد الدولة في تلك الأثناء قد ذهب إلى فارس . وحين
اطلع على هذا الخبر أرسل إلى معتمد الدولة من يؤنبه ويتشدد عليه . فأبدى
معتمد الدولة أسفه لما أقدم عليه ، وتنصل من ربقة طاعة الحاكم ، وأعاد الخطبة
في البلاد المذكورة إلى اسم القادر بالله . فحصل من دار الخلافة ، على أعماله
هذه ، على كثير من الخلع الثمينة . وقد سجل التاريخ تفاصيل هذه الحركة
وكيفية ماجرياتها ، وقد عرضناها هنا بإيجاز مطلق . والغرض من عرض
المحضر الذي يؤكد على بطلان نسبهم . وصورته كما يلي[1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما شهد به الشهود أن معدّ[2] بن
إسماعيل المستولي[3] على مصر هو معدّ بن إسماعيل بن عبد الرحمن[4] بن
سعيد[5] . وأنهم ينتسبون إلى دَيصانَ بن سعيد الذي ينتسب إليه
« الدّيصانية » . وأن سعيداً المذكور صار إلى المغرب وتسمى بعبد الله[6] ،
وتلقب بالمهديّ . وأن هذا الناجم بمصر هو منصور الملقب بالحاكم ، حكم الله

---

(١) ورد متن المحضر لدى أبي الفداء : ١٤٢/٢ ، والمقريزي في إتعاظ الحنفاء : ٢٢ ... مع بعض الاختلاف .

(٢) أي المعز .

(٣) أي الذي استولى سابقاً ، يعني المعز .

(٤) أي القائم ، واسمه عند عامة المؤرخين محمد . غير أن المقريزي والمسعودي ذكرا اسمه عبد الرحمن .

(٥) هذا هو اسم المهدي على زعمهم .

(٦) أو عبيد الله . وكلاهما اسم المهدي .

عليه بالبَوار والدمار ، ابن نزار[1] بن معدّ[2] بن إسماعيل[3] بن عبد الرحمن[4] بن سعيد[5] . وأنّ مَن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين ، أدعياء خوارج ، لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب، ولا يتعلقون منه بسبب . وأن ما ادعوه من الانتساب إليه باطل وزور ، لم يتوقف أحد من أهل بيوتات الطالبيين من إطلاق القول في هؤلاء أنهم خوارج أدعياء ، وأن هذا الإنكار لباطلهم كان شائعاً بالحرمين ، وفي أول أمرهم بالمغرب منتشراً انتشاراً عظيماً . وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق وزنادقة ملحدون معطّلون ، وللإسلام جاحدون ، وبمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون . عطلوا الحدود ، وأباحوا الفروج ، وأحلوا الخمور ، وسفكوا الدماء ، وسبّوا الأنبياء ، وادعوا الربوبية » .

وكُتب في ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمئة . وشهد بذلك من العلويين الشرفاء المرتضى والرضيّ الموسويّان وجماعة منهم[6] ، وشهد من الفقهاء المعتبرين الشيخ أبو حامدٍ الأسفرايني[7]

---

(1) أي العزيز .

(2) أي المعز .

(3) أي المنصور .

(4) أي القائم .

(5) أي المهدي .

(6) أي من العلويين الشرفاء .

(7) هو الشيخ أبو حامد أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الأسفرايني الفقيه من أشهر فقهاء الشافعية . كان رئيس الدين والدنيا ببغداد في عصره . وكان يحضر دروسه سبعمئة فقيه تقريباً . ولد سنة ٣٤٤ ، وتوفي ببغداد سنة ٤٠٦ .

وأبـو الحسن القُدري[1] ، وقاضي القضاة أبو محمـد بن الأكفاني[2]
وأبو عبد الله البَيْضاوي[3] وقريء هذا المحضر على منابر بغداد ومنابر عدد
من البلاد .

ذكـر جلوس المستنصر بن الظاهـر

حين توفي الظاهر كان ابنه أبو تميم معدّ صغيراً ، عمره سبع سنوات .
فأجلسوه على كرسيّ الخلافة ولقبوه بالمنتصر . كان معروفاً بكثرة جنونـه
وقلة عقله ، ومشهوراً يتلون الأفعال واختلاف الأعمال وإسراف الأموال ، ولم
يكن مشهوراً بالمستنصر بقدر شهرته بالمجنون .

وقد سجلت نوادر الحكايات عن عادات هؤلاء الخلفاء والسلاطـين ،
ودونت في كتب التاريخ . وانني ذاكرٌ هنا نادرة أو اثنتين عنه[4] على شكل
المثال ونظائر الأفعال . فمن إسرافه أنه طلب عيون جواهره من خزاتنه فطحنها

---

(1) والصواب أبو الحسين . وهو أحمـد بن محمد بن أحمـد .. الفقيه الحنفي البغدادي . والقدوري نسبة إلى القدور جمع القـدر . من معارف الأئمـة الحنفية . وصاحب الكتاب « مختصر قدوري » . كان رئيس المذهب الحنفي في بغداد . ولد سنة ٣٦٠ وتوفي ٤٢٨ ببغداد .

(2) هو أبو محمد عبد الله بن محمد الأكفاني ، والمعروف بابـن الأكفاني الحنفي قاضي بغداد . أنفق على أهل العلم مبلغ مئة ألف دينار . توفي سنة ٤٠٥ ببغداد

(3) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله البيضاوي الشافعي الفقيه . كـان قاضي الكرخ ومن شيوخ الخطيب البغدادي . توفي سنة ٤٢٤ .

(4) يريد الحديث عن المستنصر (ت) .

وجعلها كالكحل ، ورماها في جدول الماء . وكان يمنع الجيش من الأرزاق المعهودة وإطلاق المراسيم في العطايا ، من أدلة إمساكه وبخله . حتى عمَّ الشغب . فحاصروه في قصره يوماً وطالبوه بدفع مرتباتهم . فكتب رقعة يعتذر فيها عن بخله وإمساكه وأرسلها إلى الجيش . والرقعة هي :

أصبحتُ لا أرجو ولا أتقي غيرَ إلهي ، ولـهُ الفضلُ
جدّي نبيٌّ وإمامي أبي وقَولِيَ التوحيدُ والعدلُ

المالُ مالُ الله ، والعبيد عبيد الله ، والعطاء خير من المنع . وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقلب ينقلبون !.

وبقية حركاته مناسبة هذه الحكاية ، وعليها يمكن القياس :

فإنها خطراتٌ من وساوسه يُعطي ويمنع لا بخلا ولا كَرما[1]

واستمر المستنصر على ذلك مدة ستين سنة جالساً على كرسي الخلافة . قال الله تعالى : « إنَّما نُملي لهم ليزدادوا إثماً » .

كان له صبيان اسم أحدهما أبو منصور نزار وهو بكره ، فولاه ولاية العهد ولقبه « المصطفى لدين الله » ثم ندم على توليته فخلعه ، وعهد بالولاية إلى ابنه الثاني أبي القاسم أحمد ، ولقبه « المستعلي بالله »[2] . وهكذا انقسم

---

(١) البيت من قطعة لأبي بكر الخوارزمي في هجاء الصاحب . ولعل البيت من مضامين الشاعر المذكور (انظر يتيمة الدهر : ٤/١٣٠) .

(٢) أخطأ المؤلف باشاراته التاريخية في هذه الأسطر . يرى المؤرخون جميعاً أن الوزير بدر الجمالي بعد وفاة المستنصر بالله ، خلع نزاراً من ولاية العهد وعين أخاه الأصغر أحمد لخلاف بينهما ، وهو الذي لقبه المستعلي بالله وأهل الاسكندرية وناصر الدولة أفتكين حاكم الإسكندرية بايعوا نزاراً ، وناصر الدولة الذي لقبه المصطفى لدين الله . ولكن ناصراً ونزاراً قتلهما أفضل أمير الجيوش . والعجيب أن يسهو الجويني كل هذا السهو والمراجع كلها تذكر ذلك (انظر : ابن القلانسي : ١٢٨ . ابن الأثير : ١٠/٩٨ . ابن خلكان : ١/٢٣٩ . خطط المقريزي : ٢/٢٧٦) .

الأئمة والأعيان بعد المستنصر إلى قسمين • فئة رأت إمامة نزار على اعتبار النص الأول ، والإسماعيلية ، يعني ملاحدة العراق والشام وقومه وخراسان من هذه الفئة • والفئة الثانية أثبتت إمامة المستعلي وهم إسماعيلية مصر وتلك الديار ، ودعيت هذه الفرقة « المستعلوية » •

والحسن الصباح ظهر بدعوته في أيام المستنصر في بلاد الديلم ، كما سيتضح ذلك فيما بعد • ولهذا السبب أطلق على الطائفة النزارية اسم الإلحاد، لأنهم رفعوا الشرائع المحمدية في دعوة الحسن الصباح ، وأباحوا المحرمات ، قال الله تعالى : « ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » • أما الفرقة المستعلوية فلم تتمرد عن ظاهر الشرع ، بل استمروا على السير في خط سنن الآباء والأجداد ، فتبع المستعلوية الأجناد وأهل مصر ، فأسندوا إلى المستعلي كرسي الخلافة ، بينما هرب نزار[1] وولداه من المستعلي إلى الإسكندرية، فبايعه الأهالي فيها•إلا أن المستعلي أرسل جيشاً إلىالإسكندرية وحاصرها حيناً حتى سلمت المدينة،فأعاده الجنود مع ولديه إلى مصر وسجنوه وظلوا في السجن حتى ماتوا جميعاً •

تدّعي الطائفة النزارية أن أحد ولديه صاحب لقب الإمامة ، بناء على مذهبهم الباطل فهم يقولون إن أحد ولديه ظل في الإسكندرية ، ولم يستطع أحد من معرفة مكانه • وانتماء الملاحدة اليوم عائد إليه • وسيرد ذكر دعوة الملاحدة الجدد •

---

(١) لعل الجويني أخذ هذا الخبر عن كتب الاسماعيلية النزارية بعد فتح قلاعهم • فالمعروف أن لديه ولدين فقط : حسين وحسن ، ولا يستبعد من نزار أن يأخذ ولديه معه إلى الاسكندرية •

وظل المستعلي على عرش الخلافة حتى توفي[1] . وخلفه ابنه أبو علي منصور[2] في الرابع من ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمئة . وقد هاجمه بعض غلاة المذهب النزاري واغتالوه . ولما لم يكن لديه ولد يخلفه عيّن مكانه وقائماً مقامه ابن عمه أبو الميمون عبد المجيد بن محمد[3] ، وتلقب بالحافظ لدين الله . وجلس على كرسي الخلافة مدة عشرين سنة[4] .

وخلفه أبو منصور إسماعيل وتلقب بالظافر[5] . وقد قتله وزيره عباس ابن تميم[6] . ثم أجلس ابنه أبا القاسم عيسى على كرسي الخلافة وعمره خمس سنوات . وكان لقبه الفائز بالله . ولكنه توفي بعد أن أمضى علـى كرسي الخلافة ست سنوات .

وأجلسوا بعد وفاته ابن عمه أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولقبوه العاضد لدين الله[7] . وظل على كرسي العرش حتى قدم آل أيوب إلى مصر واستولوا على بلادهم .

---

(١) توفي في ١٧ صفر سنة ٤٩٥ .

(٢) الملقب بالآمر بأحكام الله .

(٣) عين نائباً عن الخليفة ريثما يعرف الوليد الذي سيأتي صبياً أو بنتاً . ولكن حين عرف أنه صبي تمكن عبد المجيد بالخلافة . ومحمد أبو الحافظ لدين الله هو ابن المستنصر ، ولم يكن خليفة .

(٤) وتوفي في الخامس من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ .

(٥) وصواب لقبه : الظافر لأمر الله ، وفي بعض المصادر : الظافر بالله .

(٦) نسبة إلى جده تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وزير الظافر بأمر الله . ولم يقتله غيلة ولا بيده . والذي قتله ابنه نصر بتحريض من أبيه ومن أسامة ابن المنقذ ، وذلك في المحرم سنة ٥٤٩ . وفي اليوم الثاني قتل عباس أخوي الخليفة بحجة قتلهما أخاهما . وهرب أسامة وقتل نصر .

(٧) وفي كتب التاريخ : العاضد بالله . وهو آخر الخلفاء .

ذكر كيفية سقوط دولتهم

وسبب ذلك

قدم جيش الفرنجة الكبير إلى مصر سنة ٥٥٤[١] ، وانشغل بالقتل والنهب . وكان شابور[٢] وزير العاضد ، وبيده الحل والعقد . وحين حاصر جيش الفرنجة مدينة القاهرة ، وكان الخليفة ووزيره وشعب مصر والقاهرة نائمين غافلين ، صالحهم شابور على مبلغ ألف ألف دينار مصري ، بعض منها يدفع نقداً والآخر يدفع وعداً مؤجلاً ، شريطة أن يفكوا الحصار عن القاهرة. لكنهم سيظلون في أرض مصر حتى يستوفوا كامل المبلغ . وكان في تلك الأثناء نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الشام . وقد استغاث به العاضد ووزيره وأهل مصر ليخلصهم من استيلاء الفرنجة . وأقدم على المعاضدة والمعونة والمدد ، حتى بلغ بالناس الأمر أن أرسل النساء ضفائر شعورهن ، وأرسل نور الدين شيركوه صاحب حمص بجيش جرار للمحافظة على ديار مصر ، وكان برفقته صلاح الدين يوسف بن أيوب ابن أخي شيركوه. وحين سمع الفرنجة نبأ تحرك جيش الشام تمركزوا في مواقعهم .

واتجه شيركوه نحو القاهرة وفي السابع من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمئين دخلها فاستقبله العاضد وشابور وأحسنا استقباله وإكرامه . وطلب

---

(١) الصواب ٥٦٤ ، على حسب رأي جميع المؤرخين ، وكما سيأتي بعد .

(٢) اسمه في المراجع العربية « شاور » و « شاوور » ، والصواب كما في المتن (هذا رأي المحقق الفارسي . وإذا عدنا إلى المراجع العربية والأشعار وجدناها جميعاً بواو واحدة شاور) .

شيركوه مالاً من شابور لسداد حاجة الجيش ، غير أنه ماطله ودافعه • بل أظهر شابور عداءه نحوه • وفي النهاية حجز شيركوه بحجة الضيافة • وحين أحس العاضد أنه عاجز تماماً أمام تسلط شابور، أطلع شيركوه على هذا الأمر، وحثه على قتله بالمكيدة• وفي أحد الأيام قدم شابور لزيارة شيركوه على سبيل تفقد أوضاعه والتودد إليه ، وعلى حسب العادة المتبعة خرج إليه ابن أخيه صلاح الدين مع جماعة من أهل السلاح لاستقباله ، فأسره وقطع رأسه وأرسله إلى العاضد كما أمر • وكان ذلك في السابع عشر من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمئة •

ففوض العاضد شيركوه بأمر الوزارة ، ولقبه « الملك المنصور » • ولم تمض ثلاثة أشهر حتى توفي[1] ، فانتقلت الوزارة إلى ابن أخيه صلاح الدين، فأحسن ضبط الإدارة ، بل استولى على العاضد وعلى مملكته مصر ، وغدا العاضد تابعاً لأمره • ووصلت رسالة من صاحب الشام نور الدين محمود إلى صلاح الدين يوسف يطلب إليه أن ينصر الحق ويزهق الباطل ، والحق في نظره تهدئة الأوضاع وإعادة شعار الدعوة الإسلامية الى اسم خلفاء بني العباس • فاستجاب صلاح الدين ، وأمر أن تكون الخطبة في أول جمعة من شهر المحرم سنة سبع[2] وستين وخمسمئة على منابر ديار مصر باسم الناصر لدين الله[3] ، وتسك العملة باسمه كذلك• وتوفي العاضد يوم عاشوراء، فسجن صلاح الدين أولاده وأقرباءه ، وأبلغهم سكرة الموت ، فانقطع نسلهم تماماً ، فاستقل صلاح الدين بالبلاد ، وحفظت عنه الآثار المحمودة والمقامات المشهورة •

---

(١) توفي في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمئة •

(٢) في الأصل : ست ، والصواب ما ذكرنا في النص •

(٣) كانت الخطبة باسم المستضيء بأمر الله وليست باسم الناصر • لأن الناصر جلس على عرش الخلافة سنة ٥٧٥ •

ذكر الحسن الصبّاح

وتجديد دعوة الملاحدة التي يدعونها بالدعوة الجديدة ، لا جدّدها الله تعالى

لما منّ الله تعالى على ابن ملك العالم هولاكو بتوجيه عسكره نحو قلاع الملاحدة الملاعين ، وانتهى شرهم حين فتحت « ألموت »[1] . وقد اطلع مؤلف هذا الكتاب على مستودعات كتبهم ، فاستخرج اللائـق المناسب منها ، لأن مطالعة المكتبة التي جمعت بسنين تحتاج إلى وقت ، ففيها كثير من الأباطيـل والأضاليل عن مذهبهم وعقيدتهم قد مُزجت بأنواع الكتب النفيسة والمصاحف المجيدة ، وخلطوا الصالح بالطالح . فما كان منها المصاحف ونفائس الكتب استخرجتها على منوال « يُخرج الحيّ من الميت » ، وقد عثرت على مجلد يشمل ترجمة الحسن الصباح وعنوانه « سركذشتِ سيدنا »[2] . فنقلت منه المقصود الذي يناسب سياق هذا التاريخ ، وذكرت المصدّق المحقق :.

---

(١) الموت : ناحية جبلية من توابع قزوين في الشمال الشرقي منها . كما تقع بين سلسلتي جبال البرز . يمضي فيها نهر يدعى « شاهرود » كثير التفرع . ويهتم أهلها اليوم بزراعة الأرز وغير ذلك من الزراعات .

(٢) العنوان فارسي معناه « ترجمة حياة سيدنا » أو ماضي حياة سيدنا (ت) . وقد حصل رشيد الدين كذلك على النسخة ونقل منها ولخصها . والجويني بحكم عدائه لهذا المذهب أساء التصرف في الاختصار والعرض .

يرجع نسبه إلى قبيلة حمير • قد رحل أبوه من اليمن إلى الكوفة ، ثم من الكوفة إلى قم ومن قم الى الري ، فتوطن فيها ، وفيها ولد الحسن الصباح:

« أصلك مِن قاين ومَلبثك في كوشكك ، ماذا تفعل في جيلان أيها الغبي الساذج ؟ »[1]

اسمه الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن محمد بن الصباح الحميري ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين • وقد جاء في « ترجمة حاله » أن جماعة من متبعيه كانوا يدونون ترجمة آبائه ، فدنوا منه عن طريق التودد فلم يقبل بها ، فغسل تلك الأوراق بالماء ، وأعلن هذا الحسن اللعين أن مذهب آبائي مذهب الشيعة الإثنا عشرية ، وكان في الري شخص يدعى الأمير الضراب ، وكان على مذهب باطنية مصر • وكلما ناظرته عاب عليّ مذهبي من غير أن أستسلم إليه • إلا أن حديثه كان يأخذ بمجامع قلبي • وفاجأني في هذه الأثناء مرض مرعب صعب،فراودتني فكرة صحة ذلك المذهب، غير أنني لم أمِل إليه بدافع التعصب ، وقلت : إذا جاء الأجل الموعود ، والعياذ بالله ، أهلكني ، ثم شفيت من هذا المرض ، وبعد ذلك رحت أبحث عن أبي النجم السرّاج الذي كان من جملة الباطنيين ، فشرح لي مذهبهم وفصله ، فوقفت على كثير من غوامضه ، وشخص مؤمن آخر يدعى عبد الملك بن عطاش[2] ، فقد أجيز له الدعوة • فطلبت منه البيعة • فقال : إن مرتبتك أفضل

---

(1) من أبيات للشاعر « كوشككي القائني » من شعراء عهد السلطان سنجر (مجمع الفصحاء : ١/٤٨٨) •

(2) عبد الملك بن عطاش أبو أحمد بن عبد الملك صاحب قلعة شاهدز في إصفهان ، قتله السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي مع أتباعه سنة ٥٠٠ بعد أن فتح القلعة • يذكر ابن الأثير : ١٠/١٨٠ عبد الملك فيقول : « كان أديباً بليغاً حسن الخط سريع البديهة عفيفاً ، وابتلى بحب هذا المذهب) •

من مرتبتي لأنك حسني وأنا مؤمن ، فكيف آخذ منك عهد البيعة ؟ أعني : كيف آخذ منك البيعة على الإمام ؟ وبعد إلحاحي وافق وأخذ مني البيعة .

كان عبد الملك عطاش آنئذ داعية في العراق ، وفي سنة أربع وستين وأربعمئة وصل الى الري حيث وافق عليّ ، ثم عينني نائباً لدعوته ، وطلب إلي أن أذهب إلى مصر ، وكان الخليفة في ذلك الحين هو المستنصر ، وفي سنة تسع وستين وأربعمئة قصدت مصر ، فنزلت في إصفهان ، ومنها تابعت طريقي نحو آذربايجان ، فاعترضتني أخطار كثيرة ، ذكرتها مفصلة في حينها [1] ، حتى وصلت إلى الشام فمصر سنة إحدى وسبعين وأربعمئة ، وأقمت فيها قرابة سنة ونصف السنة . ولم أحظ طيلة هذه المدة بالمثول بين يدي المستنصر [2] ، ولكنه كان واقفاً على وضعي وحالي ، وكان يوصي بي خيراً وكان قائد جيش أمير الجيوش [3] المتسلط على الأوضاع ، والحاكم المطلق صهرَ ابنه الصغير المستعلي [4] ، الذي عينه المستنصر ولي عهده بحسب النص الثاني . ولقد دعوت بناء على قاعدة أصول المذهب لنزار ، وسرت عليه . ولهذا السبب استاء مني أمير الجيوش ، وضيق عليّ ، حتى إنه أراد أن يرسلني

---

(١) يعني في كتاب « سركذشت سيدنا » .

(٢) يؤكد ابن الأثير أن الحسن بن الصباح لقي المستنصر شخصياً وسأله عن الإمام بعده من هو ؟ فقال له : نزار . ولكننا نميل إلى أنه لم يلقه كما جاء بكلام الحسن نفسه وكما جاء في كتب أخرى (ت) .

(٣) يعني بدراً الجمالي أبا أمير الجيوش المعروف بشاهنشاه الأفضل . وصل إلى وزارة المستنصر سنة ٤٦٦ ، وظل على وظيفته هذه طيلة حياته ومات سنة ٤٨٧ قبل خمسة أشهر من وفاة المستنصر .

(٤) المراد بالصهر هنا أبو الزوجة لأن ابنة بدر الجمالي زوجة المستعلي .

بسفينة إلى المغرب مع جماعة من الفرنجة . لكن البحر كان هائجاً ، فاتجهت السفينة بنا إلى الشام . فحصلت لي في تلك المرحلة كرامة[1] ، فوصلت حلب، ومنها اتجهت نحو بغداد وخوزستان ، فبلغت إصفهان في ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين وأربعمئة . وصرت بعد ذلك إلى حدود كرمان ويزد . فدعوت فيهما حيناً ، ثم عدت إلى إصفهان ، وبعد ذلك أبت الى خوزستان . ومن هناك اتجهت نحو « فِرِّيم »[2] عن طريق الصحراء ، فوصلت جبل « شهريار »[3]، وأقمت ثلاث سنوات في دامغان ومن هناك أرسلت الدعاة إلى «أنْدِجرود»[4] وغيرها من ولايات « ألموت » ليدعوا الناس إلى المذهب ثم ذهبت إلى جرجان وطرز[5] وسَرحد[6] وجناشك[7] وعدت . وسبب عودتي أن نظام الملك،

---

(1) في النص كلمة « واقعة » ، لكنه يريد كرامة كما جاء في جامع التواريخ . وكرامته أنه تنبأ بنجاة السفينة ، وبالفعل فقد ساقت العاصفة السفينة إلى جبلة .

(2) كانت فريم عاصمة حكومة سلسلة إصفهبدان طبرستان . وهي مدينة كانت واقعة في مازندران بين الجبال . وما زالت منطقة تدعى بهذا الاسم .

(3) كان جبلا من جبال طبرستان ، تقع فيه مدينة فريم .

(4) أندجرود : ما زالت على هذا الاسم وهي اسم إحدى نواحي ألموت الأربع وأصلها (اندج رود) .

(5) لم أعثر على هذه الكلمة في المراجع . الا أن ابن الأثير في حوادث سنة ٥٢٠ ذكر قرية بهذا الاسم وذكر أنها إحدى قرى الإسماعيلية من أعمال بيهق .

(6) سرحد : لم أعثر على ذكرها .

(7) جناشك : ما زالت ، وهي تابعة لإستراباد في منتهى شرقيها .

كلف أبا مسلم الرازي[1] بطلبي ، فجد في طلبي حتى إنني لم أستطيع الذهاب إلى الري • وكنت أريد الذهاب إلى بلاد الديلم لإرسالي دعاة إلى تلك المنطقة، فجئت الى « ساري » فدنباوند[2] وخوار ري على قزوين ، غير أنني تحاشيت الريّ • وأرسلت من قزوين داعية للمرة الثانية إلى قلعة ألموت ، وكان اسم الداعية العلوي المهدي ، فاستطاع أن يستولي على « ألموت » أو « آله أموت » أي عش العقاب[3] ، وكان عليها عش العقاب من يد ملكشاه ، فأقبل قوم على الدعوة • واستمر علوي يدعو ويوافق على دخولهم في الدعوة • ثم كل من قبل بدعوته أرسله ، بحيلة ما ، إلى المنحدر ، ثم أغلق باب القلعة وقال : القلعة سلطانكم • وظل القوم في القلعة حتى ماتوا • وبعدئذ لم يعد يؤمن به أحد • وذهبت من قزوين إلى ديلمان • أما العلوي فانتقل إلى ولاية أشكور فأندجرود المتصلة بألموت ، فأقام فيها ردحاً من الزمان ، ووقع كثير من القوم بأحبُله ببساطة ، فقبلوا دعوته • حتى كانت ليلة يوم الأربعاء السادس من رجب سنة ثلاث وثمانين وأربعمئة[4] • فمن نوادر الاتفاقات أن حروف « آله موت » بحساب الجُمَّل[5] هو تاريخ سنة صعوده إلى ألموت ،

---

(1) أبو مسلم الرازي : كان صهر نظام الملك ووالي الري • كان من ممدوحي الشاعر المعزي • وقد هرب منه الحسن •

(2) الاسم الأصلي لدماوند (ت) •

(3) يذكر ابن الأثير ان « معناه بلسان الديلم : تعليم العقاب » • وتفسير ابن الأثير أقرب إلى الصواب لأن « آموت » بلغتهم كلمة « آموخت » أي التعليم • (وانظر التعريف السابق • ت) •

(4) من هنا إلى كلمة « موت » في السطر التالي من إضافة النساخ •

(5) حساب الجمل : يعني القيمة الحسابية لأبجد هوز ••• والمقصود هو : أ : ١ + ل : ٣٠ + هـ : ٥ + أ : ١ + م : ٤٠ + و : ٦ + ت : ٤٠٠ = ٤٨٣هـ أي السنة التي دخل الحسن فيها القلعة (ت) •

حيث سرق القلعة وأقام فيها ، وتلقب بـ « دهخدا »[1] . وحين أدرك علوي وضعه ، وأنه لم يعد في يده شيء وافق (على بيع القلعة) فأوعز الحسن إلى حاكم « كرد كوه » ودامغان الرئيس المظفر المستوي مبلغ ثلاثة آلاف دينار ذهباً ، وكان قد قبل دعوته سراً . فقد كتب الحسن على الرقعة ببساطة وإيجاز ، ونسخة الحوالة : « الرئيس المظفر حفظه الله ، أرسل ثلاثة آلاف دينار قيمة « ألموت » إلى العلوي المهدي . على النبي المصطفى وآله السلام ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » . وتسلم العلوي الحوالة وفكر في نفسه : إن الرئيس المظفر رجل عظيم ، ونائب الأمير حَبَشي بن التونتاق ، فماذا سيعطيني على هذه الرقعة ؟ . ووصل بعد حين إلى دامغان وهو غير مصدق نفسه . وقدم الرقعة إلى الرئيس المظفر ليمتحنه . وفوراً قبل الرسالة وأعطاه الذهب (!) .

الحسن الصباح ، أخزاه الله ، حين استقل في ألموت واستقر أرسل الدعاة إلى الأطراف والأكناف ، أقبل على دعوته قصار النظر . ودعيت بدعته ، بعد تغييرها ، من قبل أتباعه بـ « الدعوة الجديدة » . وكما سبق أن أسلفنا أن هؤلاء القوم كانوا على مذهب تأويل التنزيل ، ولا سيما الآيات المتشابهة ، والاستخراجات الغريبة من معاني الأخبار والآثار ، وأمثال ذلك . وكانوا يقولون : لكل تنزيل تأويل ، ولكل ظاهر باطن . وشغل الحسن الصباح كل وقته في التعليم والتعلم . وقال : ان معرفة الله لا يتوصل إليها إلا عن طريق تعاليم الإمام ، لأن العقل موجود لدى أكثر الناس ، ولديهم نظر في أمور الدين . ولو كان النظر العقلي كافياً لمعرفة الله لما تمكنت طائفة من الناس أن تعترض على مقالات فرقة أخرى ، ولتساوى الجميع في معرفة الدين عن طريق العقل . ولكن لما كان لدى الجميع اعتراض ونقض ، ولما شعرت فئة بضرورة

---

(1) دهخدا : مختار القرية أو صاحبها (ت . المعجم الذهبي) .

تقليد فئة أخرى دل ذلك علـى « مذهب التعليم » القائل بأن العقل وحده ليس كافياً ، وبأن الإمام ضروري في كـل عصر ، حتى يتسنى للناس التعلم والتدين عن طريق تعاليمه .

وابتدع (الحسن) عـدة صيغ من القول (البراق) طوى فيها حيل بدعته ، وسمى كل صيغة من هذه الصيغ « إلزاماً » . واعتقد الحمقى والعامة أن هذه الصيغ المكثفة زاخـرة بالمعاني . وكان أحد أذكى هـذه الإلزامات (الأقوال) سؤال خصومه عما إذا كان العقل كافياً أولا . فإن كان جوابهم بأن العقل وحده كاف لمعرفة الله لزم ذلك عدم مقدرة أحد على معارضة أحد لوجود العقل لدى الجميع . وإذا كان جواب الخصوم بأن العقل غير كاف ، وأنه إضافة إلى النظر العقلي يحتاج المرء إلى معلم لاستوى هذا القول مع مقالة الحسن الصباح .

وبطرحه التساؤل عما إذا كان العقل كافياً أو لا يكون قد استوجب أن المقالة التي يطرحها ذهبت إلى أن التعليم ضروري بالتضافر مع العقل ، وأن مقالة خصومه ذهبت إلى أن التعليم ليس ضرورياً بتضافره مع العقل . وإذا لم يكن التعليم ضرورياً كان جائزاً ومعيناً لعمل العقل . أما إذا لم يكن جائزاً كان العقل وحده هو الوسيلة لمعرفة الله ، وإلا لاستحالت معرفة الله .

ذلكم هو طرفا المعضلة . وانكب الحسن على نقض الطرف الثاني (طرف العقل) ، ثم ادعى أنه نقض هذا المذهب . إلا أن الواقع مخالف لذلك تماماً ، لأن اعتقاد أغلب البشرية هو أن العقل وحده ليس كافياً . ولكن هذا العقل يجب أن يستخدم بطريقة محددة ، وأن التعليم والارشاد عامـلان مساعدان لبعض ذوي العقول ، بينما لا يحتاج القسم الآخر إليهما . وفي حال وجود التعليم والإرشاد ينعدم الاعتراض عليهما . والواضح من ذلك أنه لم يوفق إلى نقض اعتقاد الجمهور .

والواضح من ذلك أنه لم يوفق إلى نقض اعتقاد الجمهور . كما أنه يرى تحديد الشخص المعلّم يحتاج إلى دليل ، ودليله مجرد قوله ، إذ يقول : لما كنت قد أثبت التعليم ، وليس غيري الذي صرح بهذا ، فأنا الذي يحدد المعلم . وهـذا القول ظاهر فسـاده ، كمن يقول : الإمام فـلان شخص . والبرهان على هذا ما أقوله أنا : وإذا كان يقول : الإجماع حق ، فإن لم يكن قولي صحيحاً وأبطلت قول الآخرين فإن الأمة مجتمعة على باطل . فجوابه أن الإجماع لدى الجمهور حق يثبته القرآن والخبر (الحديث) ، وبالنسبة إليك ليس كذلك . فبناء مذهبك مؤسس على قول خصمك ، وهذا لا يفيـدك بل يخرجك عن أية حجة أخرى ، عدا تعيين الإمام . وقد روي أن النبي عليه السلام قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إلـه إلا الله » أي أن قول « لا إله إلا الله » واجب تعليمي بالنسبة إلي . وهـذا تعليم ، ويقولون بجوابه : هذه معارضة لحكاية امرأة عجوز ، فحين كانت تدعو ربها أشارت إلى السماء ، فقال النبي عليه السلام : « دعوها فإنها مؤمنة » وقال : « عليكم بدين العجائز » . ولم يقل : أيتها العجوز ، إنك غير مؤمنة لأنك لم تعرفي الله عن طريقي . وقال أعرابي : « أليست الزمان حقاً » . فقال النبي عليه السلام : « دعوه فقد فقه » . وأمثال هذا كثير ، يعجز المجال عن ذكره .

ولما لم يكن مجال هذا الكتاب إبطال المذاهب الباطلة وإثبات مذهب الحق ، فإننا نرى أن نوجز ونكتفي بهذا الإيجاز حول هذا النوع من الخرافات الموشاة بالحبائل والمبطنة بالباطل الذي يدعو إليه إبليس . وما كان يسعى إليه من إقصائهم عن النظرات العقلانية حصل عليه ونجح « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غِشاوة ، ولهم عذاب عظيم » .

وهكـذا ، تمكن الحسن شيئاً فشيئاً من بسط نفوذه علـى النواحي

المتصلة بألموت وعلى المواضع القريبة منها • وتمكن كذلك من بث دعوته في تلك البقاع • ومن لم يستجب لباطله قتل أو سفك دمه أو نهب أو حورب • وحيثما استولى بنى قلاعاً من الحجارة •

كان في تلك البقاع أمير يدعى يورنتاش[1] من جملة المقربين إلى السلطان ملكشاه ، كان قد أقطعه نواحي ألموت • فكان يغير على تلك المنطقة بين الحين والآخر ويعيث فساداً • ولما كانت القلعة غير مستعدة الاستعداد المناسب فقد عجز الناس عن الدفاع عن أنفسهم • وأخيراً صمموا على تسليم القلعة لرجل قوي • وبعد ذلك ادعى الحسن الصباح أن رسالة وصلت إليه من إمامه ، يعني المستنصر ، يحضه فيها على عدم ترك هذا الموضع ، لأن الحظ سيواكبه فيه • وتمكن بهذا التمويه من تقوية قلوب السكان وثبتوا في ألموت • ولهذا سموا هذه القلعة « بلدة الإقبال » •

وفي سنة أربع وثمانين وأربعمئة أرسل حسن القايني ، والذي كان أحد دعاته ، إلى منطقة « قهستان » ليبشر بدعوته فيها • واستجابت له جماعة ، فثبتوا في « قهستان » • فأرسل الحسن الصباح إليهم نائباً عنه يحكمهم • وهكذا رسخ الحسن الصباح أقدامه في ألموت وقهستان عن طريق إفشاء دعوته وبث تزويره • ومن هناك باشر بالاستيلاء على قلاع أخرى • وحين شاعت بدعته ، وعمت أضراره في بلاد المسلمين المجاورة أعد السلطان ملكشاه في مطلع سنة خمس وثمانين وأربعمئة جيشاً بقيادة أمير يدعى أرسلاتناش لقمع الحسن الصباح وأتباعه • وحاصر ذلك الأمير قلعة ألموت في جمادى الأولى من السنة المذكورة • ولم يكن لدى الحسن الصباح أكثر من ستين أو سبعين رجلا مع قليل من المؤن والعتاد • فكانوا يعيشون على الكفاف ويكتفون بسد

---

(١) الكلمة في الأصل غير منقوطة • ومعناها بالتركية الحجر الأبيض « أرتك : أبيض » • ولم أر هذا الاسم في الكتب التاريخية •

الرمق ، وهم يحاربون الجيش الذي يحاصرهم • وكان في هذه الأثناء داعية الحسن الصباح ، واسمه دهدار أبو علي يقيم بين زوارة وأردستان حتى قزوين ،وتبعه خلق من سكان قزوين • كما أن كثيراً من سكان طالقان وكوه بره وولاية الري مالوا إليه ودخلوا في دعوته • فطلب الحسن الصباح نجدة من دهدار أبي علي • فحرض جماعة من رجال كوه بره وطالقان[1] ووجههم إليه ، وحملهم من قزوين بالأسلحة والآلات الحربية • وقد بلغ عدد هذه النجدة ثلاثمئة رجل • فدخلوا القلعة ليعاونوا جنود ألموت في حربهم • وحددوا موعداً اتفقوا فيه مع قوم من سكان« رودبار »[2] وهم خارج القلعة• وفي آخر شعبان من هذه السنة هاجموا جيش أرسلاتتاش ليلا ، وأعملوا في الجنود الذبح والقتل • فانهزم جيش أرسلانتاش بقدرة إلهية ، وانسحبوا من حصارهم لألموت ، ولحقوا السلطان ملكشاه •

شرع السلطان ملكشاه يفكر بالطريقة التي يستأصل بها هذه الطائفة • لكنه في النهاية توفي • فأعاقت وفاته تدبير قمعهم ، مما ساعد على زيادة فتنتهم • وفي أوائل سنة خمس وثمانين وأربعمئة نهد أمير آخر من أمراء ملكشاه اسمه غزل سارغ ، حيث اهتم بحرب ملاحدة قهستان • فأعد جيوشاً من حدود خراسان ، فتبعته وأطاعته • وحاصر غزل سارغ تلك الجماعة في قلعة « دره »[3] المتصلة بسجستان والتابعة لمؤمناباد[4] ، وحاربهم • ولكن

---

(1) طالقان : من مناطق أطراف قزوين المهمة • وهي منطقة جبلية حسنة الماء والهواء ، وهي الآن جزء من محافظة طهران •

(2) رودبار : من المناطق التابعة لقزوين مثل ألموت ، وهي غير رودبار جيلان ، وأغلب ورودها باسم « رودبار محمد » أو « رودبار شاهرود » •

(3) دره : قرية تقع على بعد خمسة عشر فرسخاً جنوب طبس • وما زالت بقايا القلعة على إحدى تلالها (انظر: نزهة القلوب : ١٤٦ •جامع التواريخ: ٧٢)•

(4) مؤمن آباد : ناحية جبلية بين بيرجند وطبس مسينان ، وما زال اسمها كما هو•

قبل أن يستولي على القلعة وصل إليه نعي ملكشاه ، فتراجع عن حصاره ، وتفرق جيشه . فتطاولت هذه الطائفة في المنطقة ، وتعدت على السكان ، كما قيل :

يا لكِ من قُبَّرةٍ بِمَعْمَرِ خَلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفري

صاقب أيام خروج الحسن الصباح وجود نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي رحمه الله وزيراً لملكشاه[1] . وحين أدرك بنظره الثاقب وضع الحسن الصباح وأتباعه وعلائم الفتن في الإسلام وما جرّوه من وهن على البلاد . فاهتم تماماً بهذا الوضع ، وجدّ في استئصال شأفتهم ، بأن أعدّ الجيوش وجهزها . فنصب الحسن الصباح شباك مكائده للصيد الثمين حتى إذا واتته الفرصة أهلكه وتخلص منه . وشاع صيته بعمله هذا . وبناء على ذلك مهّد لأساس العمل الفدائي عن طريق الشعوذة والدمدمة والزور والتلاعب والتزييف. فقد أبدى شخص يدعى بو طاهر الأرّاني استعداده لعمل خسر فيه الدنيا والآخرة ، سار على ضلال ظناً منه أنه سيحظى بسعادة الآخرة . ففي ليلة الجمعة الثاني عشر من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمئة خرج من قرية تدعى « سحنة »[2] على حدود نهاوند بمظهر رجل صوفي ، ودخل منزل نظام الملك وجلس إلى مائدته . وبعد الإفطار دخل البلاط وطعنه بالسكين ، فمات نظام الملك شهيداً متأثراً بجراحه ، وكان أول شهيد في الإسلام على يد هذه الطائفة[3] .

---

(١) كان في البدء وزير ألب أرسلان وهو أبو ملكشاه ، وظل على وظيفته في عهده ملكشاه (ت . حول الأدب في العصر السلجوقي : ٥٣) .

(٢) سحنة أو صهنة أو صحنة . وهي قرية تابعة لكرمانشاه على بعد عشرة فراسخ شرقاً . ما زالت محافظة على اسمها ومقامها .

(٣) اختلف المؤرخون في مكان استشهاد نظام الملك ، وأكثرها صواباً ما جاء في النص . وكذلك تاريخ قتله صحيح ، وكان عمره آنئذ ٧٦ سنة (ت) .

كان الحسن الصباح في هذه الأثناء عائداً مؤخراً من مصر ، ومستقراً في إصفهان • وكانت أنباء مقالته في الباطنية وأخبار دعوته قد فشت بين الناس • ومن تألم منهم لوضع الإسلام لاحقوه ليقتلوه ، فتوارى عنهم ، واختفى في منزل الرئيس أبي الفضل الذي وافق على الانتساب لدعوته • فأقام حيناً عنده • وكان الرئيس كلما زاره حكى له ما يعتمل في صدره من آلام على حال البلاد • وفي أحد الأيام ، وفي أثناء شكوى الرئيس من تعصب السلطان وتسلط رجاله وأعوانه تنهّد الحسن الصباح وقال : واأسفاه ، لو أن رجلين سانداني لقلبت هذا الملك عاليه سافله • فظن الرئيس أبو الفضل أن الحسن الصباح أصيب بالماليخوليا من كثرة تفكيره وتخوفه وأسفاره • وإن لم يكن كذلك فكيف بإمكانه وبمعاونة اثنين أن يُطيح بملك يمتد حكمه من مصر إلى كاشغر تسك النقود باسمه وتلهج المنابر بذكره ، وتحت رايته يسير آلاف الفرسان والرجالة، وبإشارة منه يقلبون له الدنيا ؟ كان يفكر بهذا كله ويقول في خلية نفسه : لا شك أنه رجل مكثار دعيّ ، مصاب بداء في دماغه • وباشر بمعالجته من داء الماليخوليا من غير أن يُعلمه بذلك • وكان يقدم له الأشربة المعطرة ، والأغذية المقوية للمزاج المرطبة للدماغ المخصصة لتطبيب أصحاب هذه الحالات • وكان الرئيس يزوره في مواعيد تناول هذه الأشربة والأطعمة • أدرك الحسن الصباح من نوع ما يقدم له ما في مخيلة الرئيس ، فقرر الرحيل لساعته • وقد حاول الرئيس ثنيه عن عزمه بتضرع ورجاء ، ولكن دون جدوى • ويقولون إنه رحل إلى كرمان[1] ، ثم عاد بعد حين واستولى على ألموت وقتل نظام الملك ، ثم مات

---

(١) هـذا الكلام خطأ من الجويني فاحش لأن الجويني ذكـر في مطلع هـذا الفصل ما يخالف هذا • فلا بد أن تكون هـذه الحادثة جرت له بعد عودتـه من مصر وليس قبلها •

ملكشاه بعده بأربعين يوماً[1] . فاختل ميزان الملك وتزلزل وضع البلاد ، وعم الهرج والمرج في الولايات . فاهتبل الحسن الصباح الفرصة أحسن اهتبال ، فتقوى وضعه من غير ما تخوف . وجعل كل واحد يخامره التخوف يلجأ إليه، حتى الرئيس أبو الفضل فإنه انتهز الفرصة وقصد ألموت ، وانخرط في جملة أتباعه . ولقيه الحسن الصباح يوماً وقال له : أغدا معلوماً أنني كنت مصاباً بالماليخوليا أم هكذا تراءى لك ؟ حين حصلت على اثنين من الأعوان وفيت بعهدي وأبرزت برهاني . فارتمى الرئيس أبو الفضل على قدميه يستغفره .

ر وبعد نظام الملك جاء دور ولديه على دفعتين متفاوتتين ، فقد طُعنا بالسكين . وقع أحدهما ، واسمه أحمد[2] بالفالج ، فقضى أيامه ببغداد . أما الآخر ، واسمه فخر الملك[3] فقد طعن في نيشابور ، وبعدهما توالى طعن الأمراء والقواد والأكارم بسكاكين الفدائيين . وكان كل من يعترض على وجودهم يلقى ذلك المصير ، وفي ذكر الصرعى إطالة . وهكذا ابتلي الأمراء القاصون والدانون بحب الملاحدة أو يبغضهم . وكانوا يقعون في ورطة الهلاك، أما من والاهم من ملوك الإسلام خوفاً من سطوتهم فقد حكم على كل واحد بقوله « الخسر الدنيا والآخرة » . أما المبغضون فكانوا يهربون منهم بمكر وحيلة واحتياط ، لكن أغلبهم كانوا يقتلون . ر

---

(١) كما يروى أنه مات بسم الملاحدة (ت) .

(٢) هو أبو نصر أحمد بن نظام الملك . وكان يلقب بلقب أبيه نظام الملك . وزر للسلطان محمد بن ملكشاه من ٥٠٠ ـ ٥٠٤ . كما وزر للخليفة المسترشد بالله ٥١٦ ـ ٥١٧ . وتوفي سنة ٥٤٤ . أما طعنه فكان سنة ٥٠٣ في جامع بغداد .

(٣) هو فخر الملك أبو الفتح المظفر بن نظام الملك . عينه تتش بن ألب أرسلان سنة ٤٨٧ وزيراً له ، ثم غدا أمير خراسان . وفي سنة ٥٠٠ قتل بيد الباطنية .

وحصلت منازعات بين بركيارق وأخيه محمد ولدى السلطان ملكشاه ، وعمت الفوضى بسبب ذلك . وفي هذه المرحلة التمس الرئيس المظفر الذي كان حاكم دامغان باسم منيبه أمير داد حبشي[1] إدارة قلعة « كِردكوه » . فأجابه السلطان إلى مُلتمسه . وذهب الرئيس المظفر نائباً عن حبشي إلى كردكوه ، واهتم بترميمها وصرف الأموال على استحكاماتها ، ونقل كل خزائن مُنيبه إليه . وحين تمّ له ما أراد أظهر سرّ معتقده بقبول دعوة صاحب البدعة والتزام طريقة الكفر والإلحاد . وظل في مكانه بأمر من الحسن الصباح مدة أربعين سنة ، وقد حفر في شعاف كردكوه في « سنك خارا » بئراً ، إلى عمق ثلاثمئة كز[2] من غير أن يبلغوا سطح الماء فأغلقوه . وبعد وفاته بسنوات حصل زلزال فانبثق من البئر نبع ماء .

ولقد قوي الحسن بمعاضدة الرئيس المظفر الذي كان سداً منيعاً وشراً بليغاً ، وتقدمت دعوته . وبعد ذلك قصد قلعة « لمسر » التي كانت في وادي ألموت ، لكن أهلها لم يستجيبوا لدعوته . فأرسل أحد رفاقه واسمه كيا بزرك أميد[3] مع عدد من الملاحدة ، فدخلوا القلعة دخول لصوص الليل مساء الأربعاء في العشرين من ذي القعدة سنة خمس وتسعين وأربعمئة . فدخلوها وقتلوا سكانها . وسكن بزرك أميد القلعة مدة عشرين سنة ، حتى جاءه الأجل .

كان للحسن الصباح ولدان ، الأول هو الأستاذ حسين . كان في قلعة

---

(1) أمير داد حبشي بن التونتاق من الأمراء البارزين في العهد السلجوقي ، كان والي خراسان في عهد بركيارق ، قتل سنة ٤٩٣ في حرب جرت بينه وبين سنجر .

(2) كز : مقياس طول يعادل ١٦ عقدة أو ذراع (ت) .

(3) الاسم فارسي بمعنى : الأمير أمل الكبير (ت) .

ألموت علوي يقال له زيد الحسني[1] ، كان يدعو لنفسه سراً ، فاستدعاه وقال له : إن عمل الحسن سيء ، وهو مستعد لقتله ، وبادىء ذي بدء قتل حسين القايني[2] الذي كان داعية في قهستان ، بيد حسين دنبا وندي[3] . وحين تسبوا دم حسين القايني إلى ابنه الأستاذ حسين بن الصباح ، فإن الحسن الصباح أمر بأن يقتلوا ابنه وأحمد[4] الدنبا وندي . وبعد مضي عام أدرك أن العلوي كان مع ابنه فقتله . ولما كان شعار الحسن الصباح وأساسه مبنياً على الزهد والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنه طوال مدة وجوده في ألموت ، وهي خمس وثلاثون سنة ، لم يجرؤ أحد على الشرب علناً ، ولم تصب جرة . بل حين عزف أحدهم في مزماره أخرج من القلعة ، ولم يسمح له بالعودة إليها . كما اتهم محمد بن الحسن الصباح بشرب الخمرة ، فأمر بأن يقتل ، وهكذا يكون قد قتل ولديه . فظن الناس أن أحداً لن يدعو له بعد وفاته ، وكذلك حصل .

وقد تغير منهجه ، فإنه أرسل زوجه وابنتيه أيام الحصار[5] ، وكتب إلى الرئيس المظفر : فلتشتغل النساء على مغزلهن ، وليدفع لهن أجرهن المتواضع. ومنذ ذلك الوقت لم يعد المحتشمون الذين يفدون عليه يحضرون زوجاتهم

---

(1) من مساعي هذا العلوي لبلوغ هدفه في الدعوة قتل حسين قايني بيد حسين دماوندي (والصحيح اسمه أحمد دماوندي . انظر الحاشية بعد) .

(2) حسين القائني من دعاة الحسن الصباح المعروفين .

(3) دنباوندي أو دماوندي (ت) . الصواب هو أحمد دماوندي كما يأتي . والمؤلف سها بالأسماء لكثرة ما في النص حسن وحسين وحسني .

(4) هذا هو الصحيح، فقد أمر الحسن بقتل ابنه الأستاذ حسين مع أحمد الدماوندي.

(5) يقصد حصار ألموت الذي دام ثماني سنوات كما سيأتي بعد قليل .

معهم . وحين تمادى الصباحي باستيلائه فإن السلطان محمد بن ملكشاه جمع الجيوش لدفعه وقمعه ، وأرسل نظام الملك أحمد بن نظام الملك على رأس الحملة . فأحاط بألموت وإستاوند[1] القريبة منها والواقعة على ضفة « انديج »[2] . وطالت مدة الحرب بين الطرفين ، وأتلفوا لهم غلاتهم كما أتلف ما معهم . فعجز الصباح عن عمل أي شيء ، ولم يجد إلا أن يخرج الجيش من الوادي الغلاء الذي حل في القلعة وما حولها ، حتى قل العشب. ولهذا السبب أرسلوا نساءهم وأولادهم إلى مواضع متفرقة من القلاع ، وكان أن أرسل زوجه وبنتيه إلى « كردكوه » .

واستمر الحصار مدة ثماني سنوات ، والجيوش تتوافد على شواطىء الوادي « رودبار » ، حتى نضب ما لدى الطرفين من الأعلاف . وحين أدركوا انعدام القوت والقوة ، أرسل في مطلع سنة إحدى عشرة وخمسمئة الأتابك نوشتكين شيركير[3] على رأس جيش ، وأمره بأن يحاصر القلاع . فحاصر لمسر في أول شهر صفر ، وألموت في الحادي عشر من ربيع الأول . فأعمل المجانيق ، وألهبوا المنطقة بالحرب الضارية.واستمر الحال حتى شهر ذي الحجة من هذا الشهر ، ودنا وضع القلاع من الاستسلام، والناس فيها في هرج ومرج وصل خبر موت السلطان محمد بن ملكشاه في إصفهان . فتفرق الجيش ، وظل أولئك أحياء . وأدخلوا في القلاع ما خلّفه الجيش من عدة وعتاد وذخائر وأسلحة . /

---

(1) انظر معجم البلدان مادة « استوناوند » . وابن الأثير : حوادث سنة ٤٩٤ .

(2) يقصد نهر أندج ، وهو فرع لنهر ألموت . ويقال له « اندجرود » .

(3) الأمير نوشتكين ، المعروف بشير كير (يعني آمر الأسد . ت) من أمراء السلجوقية . قتل سنة ٥٢٥ بأمر من ناصر بن علي وزير السلطان محمود ابن محمد .

ولكل دولة غاية ولكل عمل نهاية . والله تعالى قدّر بكمال علمه وقدرته حداً ووقتاً منذ أزل الآزال ، مهما بلغت من القوة والآلة والعدّة . والدليل على ذلك أن فتح هــذه القلاع واستئصال البقاع نيط بظهور ملك العالــم منكوقاآن ، وحدّد بقوة أخيه ملك العالم هولاكو وشوكته ، الذي تمكن بأسبوع واحد أن يجعل عاليها سافلها ، متبعاً ما جاء في الذكر الحكيم « جعلنا عاليها سافلها » كما سيأتي شرح ذلك فيما بعد .

م / لم تهيىء الخصومة التي جرت[1] مع ابن أخي السلطان سنجر فرصة له لمتابعة الملاحدة ، وهي في الوقت نفسه عملت على تقوية سلطانهم . وحــين استقر السلطان سنجر على عرشه، بادر إلى مداركة عمل هذه الجماعة، فوجه، بادىء ذي بدء ، عساكره نحو « قهستان » ، وحاربهم في تلك البقعة سنوات. وكان الحسن الصباح طيلة هذه المدة يتوخى الصلح معه ، ويرسل رسلــه ، لكن السلطان كان يرفض ذلك . ولم يجد الحسن الصباح وسيلة إلا أن يصطاد بعض خواص السلطان ويحتال عليهم . حتى تمكن في النهاية من شراء أحد خدمه بمال كثير ، فأرسل إليه سكيناً ، وطلب إليه أن يضعها تحت سريره في ليلــة يكون السلطان فيها سكران . وحين استيقظ السلطان ورأى السكين تخوف. ولما لم يستطع أن يثبت التهمة على أحد فقد أمر بإخفائها والحفاظ على سرية الموضوع . ثم أرسل الحسن الصباح رسالة يقول فيها : لو لم نكن نقصد بالسلطان خيراً لما كنا وضعنا السكين على الأرض الخشنة ، ولكنا وضعناها في صدره الناعم . واعترى السلطان خوف ، فمال إلى الصلح . وقصدهم من

---

(١) المقصود من هذه الخصومة أن السلطان سنجر كان في نزاع مع ابن أخيه ، لأن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بعد وفاته ادعى أخوه السلطنة على ابن أخيه سنجر . والحادثة مشهورة في كتب التاريخ .

من هذا التمويه أن ينسحب السلطان عنهم • وهكذا علا نجمهم في عهده ، حتى خراج تلك المنطقة تنازل لهم عنه ، وكانت قيمته ثلاثة آلاف دينار ، ورخص لهم أن يكون هذا المبلغ موجهاً على أعتاب « كردكوه » ، ليستفيد منه أبناء السبيل ، وما زال هذا الرسم متبعاً • وفي مكتبتهم عدد من المناشير السنجرية قد رأيتها ، وتتضمن طلب الاهتمام به وإحماد مقامهم ، فأدركت منها سلامة طلب السلطان مع كثير من الإغماض والإغضاء •

وهكذا كانوا في عهد السلطان مرفّهين ، ولكن الحسن وقع في غم كبير في أيام السلطان ، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ثمان عشرة وخمسمئة • فأرسل شخصاً إلى « لمّسر »● ، واستدعى بُزرك أميد ، وأجلسه مكانه ، وعين الدهدار أبا علي الأردستاني على يمينه ، وأمر أن تحول إليه أمور الديوان • كما أجلس عن يساره حسن آدم القصراني ، وكان كيابا جعفر صاحب الجيش في الأمام ، ثم أعلن وصيته وهي أنه إلى أن يظهر الإمام ويجلس على العرش يحكم هؤلاء الأربعة جميعاً • وفي ليلة الأربعاء السادس من ربيع الآخر سنة ثمان عشرة وخمسمئة انتقل الحسن إلى نار الله وسقره • وكما ذكرنا ، فإن الحسن الصباح منذ دخل قلعة ألموت لم يخرج منها مدة خمس وثلاثين سنة ، بل لم يخرج من قصره ، حيث مقامه ، سوى مرتين • وهاتان المرتان خرج فيهما إلى سطح القصر ، وكان بقية أوقاته معتكفاً في قصره على مطالعة الكتب ، وتقرير كلام بدعته ، وتدبير أمور مملكته • كما يروى عن الصابي حين كان يؤلف « تاريخ التاجي » سأله صديق له فأجاب : أكاذيب ألفّقها وأباطيل أنمقها[1] • /

---

(١) أصل العبارة : أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها • وانظر ترجمة ابراهيم بن هلال الصابي في ابن خلكان •

حديث خرافةٍ يا أمَّ عمرٍو[1]

واستقر بزرك أميد على العرش مع رفاقه الآخرين مدة عشرين سنة[2]. فسلكوا منهج الصباحي وسلوكه ، وحاولوا تقوية بناء حكومتهم التي كانت على شفا جُرفٍ هارٍ ، ولا سيما أن السلطان سنجر أقلع في حياته عن تعيين أحد لضرب قلاعهم . كما شغل السلطان مسعود السلجوقي الذي كان يحكم العراق وأران وآذربايجان نائباً عن عمه السلطان سنجر بمجادلات طويلة جرت بينه وبين أمير المؤمنين المسترشد بالله . وسبب هذه المجادلات أنه كان يرغب في أن يذكر اسمه على المنابر بعد اسم الخليفة ، كما كان يجري الأمر في أيام بني بويه . فاتجه بجيشه نحو بغداد بكل عزم . وأعد المسترشد بالله أمير المؤمنين جيشاً كبيراً ليردعه عن هجومه ، وحين وصل جيشه إلى همدان برز عليه السلطان مسعود . ولسوء الحظ فإن قسماً من جيش بغداد غدروا بقائدهم فانسلوا من صفوفهم وانضموا إلى صفوف جيش السلطان . وبهذا ضعف جيش الخليفة وتضاعف جيش السلطان . وفي نهاية المعركة خسر المسترشد بالله ووقع في يد السلطان ومعه وزيره وسائر أركان دولته . فأمر السلطان مسعود ألا يؤذوا أحداً ، ولم يقتل من الطرفين أكثر من خمسة رجال ، وأن يكتفوا بالغارة والنهب . ومع أن السلطان حبس رجال الخليفة في القلعة فإنه التزم

---

(1) هذا مصراع من بيت لعبد الله بن الزِّبعرَى الشاعر الصحابي . وصدر البيت :

حيـاة ثـم موت ثـم نشر

ذكره الثعالبي في ثمار القلوب : ١٠٢ .

(2) هـذا غـير صحيح ، لأن مـدة حكومة بزرك أميد هي ١٤ سنة ، كمـا جاء في كتب المؤرخين . والمؤلف نفسه قبل صفحات ذكر أن الصباح توفي سنة ٥١٨ ، وسيذكر أن بزرك أميد توفي سنة ٥٣٢ . والفاصل بينهما أربع عشرة سنة .

حرمة الخليفة ، ورافقه حتى « مراغه » . ثم أرسل شخصاً إلى عمه سنجر يطلعه على نتيجة الوضع الذي آل إليه . فصادف في تلك الأيام تواتر الزلازل والصواعق والرياح العاصفة في البلاد ، مما حدا بالناس إلى تأويل غضب الطبيعة ضد ما جرى ، فأرسل السلطان سنجر رسلاً مع كتاب إلى السلطان مسعود يتضمن : فور اطلاع ولدنا غياث الدين مسعود على منشورنا يذهب لدى حضرة أمير المؤمنين ، وبعد تقبيل تراب بلاطه ويرجوه الصفح عن جرائمه وآثامه ، ويلتمس منه الصفح الجميل علّ الله يزيل هذه الأعاصير والصواعق التي أطاحت بدور السكان . فقد مضى عشرون يوماً عليها وما زالت ، وأعتقد أن سببها ما قام به الجيش من اضطراب . فالله الله في تلافي هذا القصور ، واعتبره فرضاً . وخف الله في ما قمت به ، وطهّر اعتقادك .

ولا بد أن السلطان مسعود امتثل لأمر السلطان سنجر ، وذهب إلى حضرة أمير المؤمنين، طالباً منه العفو والسماح، وراجياً إياه أن يشمله بعاطفته. وحباً في التبرك بأمير المؤمنين فقد سار السلطان مسعود راجلاً أمام جواده نحو مقام الخليفة الذي فرضه عليه السلطان .

وحين تمكن أمير المؤمنين على عرشه وقف السلطان حيث يقف حجابه ونوابه . ثم أرسل السلطان سنجر رسولاً يأمره بتوجيه أمير المؤمنين إلى دار السلام بما يلائقه ويناسب مقامه الرفيع . وكان قد أرسل رسالته مع أحد المقربين ويدعى معتمدي . فاستقبله السلطان (مسعود) وجلس إليه يستمع إلى ما يجب أن يفعله .

انتهز جماعة من الملاعين الفدائيين الملاحدة فرصة خلو البلاط من الجيش والحرس ، فهاجموا بلاط أمير المؤمنين وطعنوه بالخنجر في السابع عشر من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمئة . فجزع السلطان مسعود ، وأعد

عزاءً لائقاً ، ثم أمر بدفنه في مراغة . ولقد نسب بعض قصار النظر وسيئي الطوية هذه الفعلة إلى السلطان سنجر[1] ، أما كذب المنجمون ورب الكعبة ، فإن السلطان سنجر كان ذا نقاء سريرة ، واتقوى حنيفية ، كما كان يعظم أمور دار الخلافة . فهو أرفع مقاماً من أن يقوم بمثل هذا ، وأكثر شفقة من أن يفكر بمثل هذا التفكير ، أو يقوم بمثل هذا التزوير .

وهكذا ، والكلام يجرُّ بعضه بعضاً ، نعود إلى أصل حديثنا . فقد جلس بزرك أميد على رأس الضلالة بين يدي الجهالة حتى السادس والعشرين من جمادى الأولى من سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة ، حيث انسحق تحت قـدم الهلاك ، واتقدت جهنم بحطب جثته .

وقبل وفاته بثلاثة أيام تمهد بالحكم بعده إلى ابنه محمد ، وأوصاه أن يسير على مبدئه « إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ » . وكما ختمت حياة أبيه الوخيمة بقتل المسترشد ، فقد بدأت فاتحته المذمومة بقتل الراشد بن المسترشد . فحين جلس الراشد على عرش الخلافة انقسم الناس في أمره قسمين ؛ فمنهم من رأى خلعه ومنهم من استقر على بيعته . وبعد أن قام بعدة حروب ضد السلطان مسعود خرج من بغداد قاصداً الملاحدة لينتقم لدم أبيه . ومع أنه مرض في الطريق إلا أنه استمر في طريقه حتى بلغ إصفهان . وفاجأه هناك بعض الفدائيين فطعنوه بخناجرهم ، فدفن في المكان الذي كان فيه . ومنذئذ شرع الخلفـاء العباسيون يتوارون عن الأنظار .

---

(١) من جملة من نسب قتل المسترشد إلى السلطان سنجر عماد الكاتب في (تاريخ السلاجقة : ١٧٨) فقد قال : « فعرف بقرائن الأحوال أن سنجر سيَّر الباطنية لقتله ، وما أشنع وأفظع ما أقدم عليه من فعله ! » .

وسار محمد بن بزرك أميد مسيرة الحسن الصباح وأبيه في المذهب ، وفي إحكام طريقتهم • كما أنه كان يسعى الى إقامة شعائر الإسلام والالتزام بالشريعة ، بناء على هذا المذهب • واستمر على حاله حتى توفي في الثلاثين من ربيع الأول سنة سبع وخمسين وخمسمئة ، وألحق بالأخسرين أعمالاً ، الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً •

ذكر ولادة الحسن بن محمد بن بزرك أميد :

كانت ولادة الحسن في سنة عشرين وخمسمئة ، وحين بلغ سن الرشد لحقه هوس في دراسة أقوال الحسن الصباح وأسلافه • وتابع حديث الدعوة إلى المذهب الصباحي وإلزاماته حتى بلغ فيها حد البراعة • ولما كانت هذه الأقوال متصفة بالمواعظ والإشارات الصوفية ، فقد أضاف عليها بعض التخريجات الغثة والثمينة من عنده ، وصبها بقوالب خطابية يقال لها لدى بالبادرة الأولى « النظرة الحمقاء » ، وقد أبدى عامة الناس إعجابهم بها •

كان الحسن في عهد أبيه يسير دائماً على خطة استحسان الدعوة ، ويخدع قومه بمعسول الكلام • ولما كان أبوه غافلا عن خطته فقد أخذ بتعابير ابنه البراقة ، وعده من زمرة العلماء • وهكذا ازداد ضلال أهل الجهل به وتعلقوا بأقواله • وتهيأ لأبيه أنه الإمام الذي وعد به الحسن الصباح • وسارع الناس الى التعلق به والسير على خطاه • غير أن أباه استكبر الأمر لدى ملاحظته تدفق الناس على آرائه ، فساورته الظنون به • فدعا الناس إلى الالتزام بخطة

أبيه[1] والحسن الصباح في التشدد في أمر الإمامة وإظهار شعار الإسلام . وأمعن في توبيخ ابنه وردعه . فجمع الناس وقال : إن حسناً ابني ، وأنا لست إماماً ، بل أنا داع من دعاة الإمام ، فمن استمع إلى أقوال ابني وصدقها كان كافراً مارقاً . وأمر بمعاقبة كل من اعتقد بإمامة ابنه ، ولقد أمر بإعدام مئتين وخمسين رجلاً دفعة واحدة في ألموت ، وطرد مثل هذا العدد من القلعة . فانزجر الناس وأقلعوا عن فكرتهم .

فخاف الحسن من هذا الوضع ووجل من أبيه ، فأعلن براءته من هذه الادعاءات وتنصله من أقواله ، ولعن الجماعة التي رأت إمامته . كما بالغ في إبطال ما نسب إليه ، وبالغ في تأكيد آراء أبيه كلاماً وكتابة حتى عرف بها القاصي والداني . غير أنه كان يشرب الخمرة خلسة ، فترامى إلى أبيه هذا الفعل فجدّ في تقصي هذا النبأ . غير أن الحسن كان يجتهد في نفي التهمة عنه بشتى الحيل، حتى زال عن أبيه ما خامره الشك به. وتفشى الإلحاد والانحياز عن الشريعة ، فعد تفشي شرب الخمور وارتكاب المحظور علامة من علامات ظهور الإمام الموعود .

حتى خلف أباه فعاد أتباعه الى دنيا الوجود ، واعتقدوا أنه الإمام ، فانقادوا له وتمسكوا به.ولما كان يميل الى الاستبداد فإنه لم يمانع من نشر الدعوة ولم يعاقب أحداً على هذيانه . ومنذ جلوسه على عرش أبيه التزم بمسخ الشريعة الإسلامية التي نادى بها الحسن الصباح ، وأجاز تبديل قواعدها . وطلب في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمئة أن يصنعوا منبراً في قاعدة ألموت يحولونه عن القبلة التي كان عليها والتي هي على القاعدة الإسلامية . ثم دعا أهالي ولايته في السابع عشر من رمضان الى الاجتماع في ذلك الميدان، ونصب أربعة أعلام كبيرة بأربعة ألوان : أبيض وأحمر وأخضر وأصفر على

---

(١) يعني بزرك أميد ، أبا محمد وجد الحسن بن محمد (ت) .

أطراف المنبر الأربعة ، ثم اعتلى المنبر وشرع بإغواء التائهين الملتفين حوله ، وهم في شقاوتهم يعمهون . فبين لهم أن توقع قدوم المقتدى المذموم أي الإمام الموهوم غير وارد ، لأنه مفقود غير موجود .

وتقدم إليه خلسة رجل ، وخطب خطبة تناسب ما قاله وتطابق هواه ، فمهد بكلام عن معتقدهم الفاسد ثم تحدث عن مذهبهم الباطل المتعسف . ومما قال : لقد فتح إمامهم أبواب الرحمة والرأفة فعم ذلك المسلمين عامة ولهم خاصة غير أنهم لقوا الآلام من ذلك ولا سيما من الآصار والأوزار وقواعد الإيمان، حتى أوصلوهم إلى الآخرة .

كانت خطبته باللغة العربية ، ومع أن معانيها مفعمة بالبهتان والزور والتلفيق فإن ألفاظها مغلوطة ، كثيرة الأخطاء الفاحشة والعبارات المشوشة . وبهذه التعابير نفوا وجود إمامهم . وكان من بين الحضور واحد من الجهال الضلال ، التابعين الأرذال ، على علم بالعربية . فرقي المنبر يترجم هذه الترهات المردودة والألفاظ غير المحمودة إلى الفارسية للمستمعين . وكان مضمون الخطبة أن الحسن بن محمد بزرك أميد خليفتنا وحجتنا وداعيتنا ، ونحن مستجيبون لكل ما يأمرنا به من أمور الدين والدنيا ، وحكمه محكم، وقوله مطاع ، ولتعلموا أن مولانا ، وفاهاً لفيهم[1] ، سيهبنا رحمته ، وسيرفعها إلى الذات العليا .

ضمت الخطبة نماذج من هذه الكلمات الملفقة وفضائح المَخْرقة[2] وقبائح الزندقة ، بتشريع مجهول وكلام غير مقبول . وبعد أن انتهت الخطبة

---

(1) فاهاً لفيهم : اصطلاح سبق لنا شرحه ، وهو دعاء ، ومعناه : تراب بفيهم .
(2) جاء في تاج العروس : « المخرقة : إظهار الخرق توصلا إلى حيلة . والمخرق: المموه » .

المرفوضة نزل من على المنبر ، وصلى ركعتين صلاة العيد ، ثم دعا الناس إلى الإفطار • وبعد ذلك أمر أصحاب الملاهي ومعهم وسائل المناهي ، ليُسروا الفؤاد احتفالاً بالأعياد ، وقال : اليوم عيد •

ومنذ ذلك اليوم والملاحدة ، على الباقين منهم ما يستحقون ، يسمون السابع عشر من شهر رمضان « عيد القيام » ، حيث يمضون اليوم بشرب الخمر واللهو والفسحة ، سبّبه لهم هؤلاء المجهولون المخذولون أعداء الإسلام :

وما أنا منهمُ بالعيش فيهمْ　　ولكنْ معدِنُ الذهب الرغام[1]

كان الحسن ، القبيح السيرة الضال البصيرة ، في أثناء الخطبة المذكورة يبدو كأنه قائم مقام إمام الحجة والداعية ، وهو في حقيقة الأمر ابن محمد بن برزك أميد • وقد كتب على بوابات القلاع والحصون وعلى الجدران أنه « الحسن بن محمد بن بزرك أميد » • واستمر على هذا المنوال من أقوال وأفعال لا يقوم بها سوى الجهال الضلال ، كما جاء في الأمثال : « يُسِرُّ حَسْواً في ارْتغاء » [2] • يسعى دأبه في طعن المذهب بكلام غير مهذب ، تصريحاً آناً وتورية آناً آخر • ومع أنه في الظاهر ابن محمد بن بزرك أميد فإنه في الحقيقة يعد نفسه إماماً من أبناء نزار بن المستنصر •

---

(١) البيت للمتنبي ، من قصيدة مطلعها :

فؤاد ما يسليه المدام　　وعيش مثل ما نهب اللئام

(٢) الارتغاء : شرب الرغوة خاصة • قال الأصمعي : هو مثل أصله الرجل يؤتى باللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة ولا يريد غيرها ، فيشربها وهو في ذلك ينال من اللبن • يضرب لمن يُظهر أمراً وهو يريد غيره (مجمع الأمثال : ٢٥٢/٢ • اللسان ـ رغو) •

وفيما كان الناس يحتفلون بما أسموه « دعوة القيامة »[1] أرسل إلى قهستان يطلب منهم إشاعة هذه الشناعة ، فلبّي أمره . فقد كان حاكم قهستان، التابع له ، يدعى الرئيس المظفر . فأعدّ الخطبة المناسبة ، بناء على ما تقدم ، ثم طلب إلى محمد بن خاقان أن يدعو الناس ، وحمله رسالة إلى الخلق تتضمن تلك الأكاذيب . وقد أشاد الرئيس المظفر منبراً في الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة تسع وخمسين وخمسمئة في وسط القلعة ، التي هي منشأ كفرهم وإلحادهم ، ودعاها « مؤمنا باد » . بنى هذا المنبر المنحرف عن سَمْت السداد ، تماماً كما فعل إمامه المفتضح في ألموت ، وخطب خطبة كانوا قد أرسلوها إليه . ثم صعد محمد بن خاقان درجة المنبر الثانية وقرأ رسالة الحسن ، وقد جاء فيها : منذ حين أرسل المستنصر إلى ألموت بأن الله تعالى جمع الخلق تحت كلمة خليفة لي ، ومن بعد ذلك الخليفة خليفة . وإنني اليوم خليفة الله ، وخليفتي الحسن الصباح فعليكم بطاعته واتّباعه . وقد حفظ الناس وصية المستنصر . وانني الآن أعلن أنني الحسن خليفة الله على الأرض ، وخليفتي هو الرئيس المظفر ، ألا فأطيعوه واتبعوا خطاه .

وأعلن في ذلك اليوم على الملحدين هذه المخازي ، ثم تحلّقوا لقاء المنبر يشربون علناً والنساء يعزفن على الأوتار والربابات . احتفل أولئك الجهال بالميلاد الباطل المجهول ، في انتساب حسن المزعوم إلى الإمام المفروض ، الذي ادّعى فيه أنه من أولاد نزار . وفي كلامه روايتان ، بل غوايتان ، والمبنيّ على المحال محال . فالوجه الأشهر الذي يعتقد به غالبية الناس أنه ولد الزنا بلا شك ولا تردد . فقد قيل إن شخصاً قدم من مصر ، ويدعى القاضي أبا الحسن الصعيدي ، كان من المقربين الثقات لدى المستنصر فوصل الى الحسن الصباح في ألموت سنة ثمان وثمانين وأربعمئة ، أعني وصل إليه بعد

---

(1) اختلف تعبير المؤلف هنا عن تعبيره السابق « عيد القيام » .

سنة من موت المستنصر[1] ، ومكث لديه ستة أشهر • ثم عاد في شهر رجب من السنة المذكورة الى مصر ، وكان الحسن الصباح قـد أحسن إكرامـه وضيافته • وكان قد أحضر معه حفيد نزار ، من جملة أئمتهم ، قدم متخفياً وبألبسة مستعارة • ولم يكن يعرف هذا السر أحد غير الحسن الصباح ، وهو بدوره لم يبح به لأحد • وأسكنه قرية في منتهى ألموت • وهكـذا انتقل ، بمشيئة الله ، مستقر الإمامة من مصر الى ولاية الديلم • ولهذا أقاموا « دعوة القيامة » في ألموت •

إن الذي قدم من مصر[2] أو ابنه[3] إلى حدود ألموت كان أباه[4] من غير أن يطلع الناس على هذه الحقيقة• فقد زنى مع زوجة محمد بن بزرك أميد، فحملت من الإمام بالحسن • وحين حصلت هذه الولادة غير المباركـة عرف

---

(١) ذكر المؤلف أن وفاة المستنصر في ١٨ ذي الحجة سنة ٤٨٧ • فإن قدم أبو الحسن الصعيدي ، كما يقول ، إلى ألموت ومكث فيها ستة أشهر ، وعاد في رجب ٤٨٨ الى مصر ، فلن يكون موعد قدومه إلى ألموت بعد سنة من وفاة المستنصر ، بل سيكون بعد شهر أو شهرين • فكلمة (عام) مسامحة من المؤلف •

(٢) يعني حفيد نزار •

(٣) محال ما ذكره المؤلف ، فالواضح انه يقصد أن الحفيد وابنه معاً زنيا بزوجـة محمد بن بزرك أميد ، فجاء الحسن من فعلتهما • ولعل المؤلف لا يقصد هذا ، وهو خطأ النساخ ، ثم إن هذه الحكاية لم يذكرها أحد من المؤرخين • وقصده أن هذه المسألة موضع شك لدى إسماعيلية ألموت إذ يتساءلون : هـل الفاعل حفيد نزار أم ابنه ليعرف من هو أبو الحسن ؟ ولهذا اختلفوا في ذكر الأسماء نزار والحسن •

(٤) يعني أبا الحسن (ت) •

محمد بن بزرك أميد ومَن في المنزل من أهله وأتباعه أن هذا الولد ليس منه إنما هو ابن الإمام . وهو قول مشهور تمسك به الجمهور . والحق أنه مبني على أنواع الخزي والعار ؛ الأول أنهم رضوا بإمامة صبي هو ابن حرام . يقول الشاعر في مثله :

فمتى تقر العين من ولـد الزنا ومتى تطيب شمائلُ الأوغادِ ؟

والثاني : كيف يكون النسب بلا حسب ويثبتونه ؟ وهذا مخالف لما جاء في الأثر المصطفوي على قائله الصلاة والسلام : « الولـد للفراش وللعاهرِ الحجرُ » صدق رسول الله ﷺ ، و:

إنَّ القولِ ما قالتْ حـذامِ (1)

والثالث هو الطامة الكبرى ، فهو موجب الشقاء والخسران ؛ فقد شبهوا هذا الوجه السقيم بحال الأنبياء المرسلين ، وهذا التقدير المموه يتنزه عنه الأنبياء . وقالوا : هذا الانتساب مثل انتساب ذبيح الله إسماعيل بن خليل الله إبراهيم صلوات الله عليهما ، ففي الحقيقة إن الابن كان ملكاً من السماء ، وجاء ذكره تورية وهو « ملاك الصدق » كما ورد قبلا . وكان هذا على زعم هذه الطائفة الضالة إماماً من جملة الأئمة ، وبدا لهم أنه ابن إبراهيم صلوات الله عليه ، وهذا يشير إلى أن إسماعيل إمام ، في حين أن إبراهيم لم يكن إماماً .

الوجه الثاني : يعتقد به أولاد بزرك أميد وأقاربه ، أعني خاصته من أهالي ألموت ، وهو أنه ولد لمحمد بن بزرك أميد ولد على قلعة ألموت ، وكان آنئذ الإمام ما زال مجهولاً . وقد ولدته أمه في قرية قريبة من ألموت ، وهو

(1) شطر من البيت المشهور ، وقائله لجيم بن صعب أو وسيم بن طارق (شواهد العيني على خزانة الأدب : ٤/ ٣٧٠) .

الحسن • وبعد ثلاثة أيام قدمت امرأة إلى ألموت ودخلت قصر محمد بن بزرك أميد ، وقد رآها عدة أشخاص تحمل شيئاً تحت عباءتها وهي داخلة ، وجلست قرب وليد محمد بن بزرك حيث يرقد ، وكانت بحكم الحكمة الإلهيـة ، وحدها (!) فوضعت الطفل الإمام الذي معها مكان حسن وأخذته وخرجت ، وهي تضعه تحت عباءتها •

هذه الرواية أسوأ من تلك ، إذ كيف تدخل امرأة غريبة إلى قصر ملك ، ولم يكن حول الطفل أحد ، وكيف تبدله بطفل غريب ، وتهرب بابن ملـك ولا يوقفها أحد ؟ ثم ، ألم ينتبه الأب أو الأم أو المربيات والخـدم والحشم إلى الفرق بين طفلهم وهذا الطفل الغريب ؟ إن هذا الوجه خارج عن حـدود العقل حتماً ، واصطناعه واضح ، في حين أنهم يروون مصدقين أن ابن محمد هو حسن ، وهم في الوقت نفسه يقولون : إن حديث بنوة الحسن من محمد ابن بزرك أميد مثل بنوة إسماعيل من إبراهيم عليهما السلام ؟ الفرق الوحيد أن إبراهيم كان يعرف أن إسماعيل ابن الإمام وليس ابنه ، لأن تبديل الأبناء كان بمعرفة إبراهيم عليه السلام ورضائه ، ولم يكن عليه سراً • أما هنا فإن محمد بن بزرك أميد لم يعرف هذا السر ، في حين أن ابنه الحسن الإمام كان يزعم هـذا •

قال أصحاب الاعتقاد الأول : لقد علم محمد بن بزرك أميد بعد ولادة ابنه أنه لم يكن ابنه ، وأن ذلك الذي فرض نفسه إماماً[1] على هذه الطائفة الضالة إنما ارتكب الفحشاء مع امرأة فَجور ، لذلك قتله سراً • فعلى هذا الزعم فإن محمد بن بزرك أميد قاتل ، وذكرنا قبلاً أنه كان متشدداً صلباً في التزام الشعائر الإسلامية على أسس مذهب الحسن الصباح • وهذا افتضاح

(١) يعني حفيد نزار الذي جيء به من مصر (ت) •

سافر . لهذا كانوا معه سيئين ، ولعنه أغلبهم . ولا تصح زيارة قبره الذي كان مقابل قبر الحسن الصباح وبزرك أميد ودهدار أبي علي الأردستاني .

شيء آخر ، انقسم جميع الملاحدة ، خذلهم الله ، إلى فئتين في عدد الآباء بين هذا الحسن ونزار . فئة ترى أن عددهم ثلاثة ، يدعونهم الأئمة ، لأن اسمهم غير معلوم[1] ، يذكرونهم بألقابهم من غير أسماء ، كقولهم : الحسن بن القاهر بقوة الله بن المهتدي بن الهادي بن المصطفى نزار بن المستنصر . والفئة الأخرى يرى بينهما اسمين ليس غير ، لأن القاهر بقوة الله لقب الحسن هذا . ويقولون لدى الانتساب هكذا : الحسن بن المهتدي[2] بن الهادي بن نزار . وفي عرف الملاحدة اشتهر الحسن هذا بـ « على ذكره السلام »[3] . كان أصل هذا اللقب الموسوم بذلك الرجل جملة دعائية كانوا يلفظونها في عهده إذا خاطبوه أو ذكروا اسمه ، ثم غدت فيما بعد لقباً مشهوراً ، ولم يلقبوا بها أحداً غيره .

---

(1) يعني : لما كانت أسامي هؤلاء الثلاثة ما بين الحسن ونزار غير معلومة فقد اضطر الإسماعيليون إلى الاكتفاء بألقابهم الإمامية ، والتي كانت : القاهر بقوة الله ، المهتدي ، الهادي .

(2) وقع الاختلاف فيما بينهم هل الآباء المجهولون اثنان أو ثلاثة . ولما كان اثنان من الثلاثة متفقاً عليهما وهما القاهر والهادي ، فإن الاحتمال القوي هو أن لقب الثالث واحد لدى الفئتين أي لعلهم صحفوا المهتدي بالمهدي . ولما كان الحسن من جملة نسب أئمة مصر فإنه من المستبعد أن يتكرر اسم المهدي مرتين ، على اعتبار أن الخليفة الأول كان لقبه المهدي ، وتكرار الألقاب في جميع السلالات مستبعد ، عدا خلفاء مصر العباسيين .

(3) على ذكره السلام : جملة دعائية مثل عليه السلام . وهم يقولون : مولانا على ذكره السلام .

/ وبالنتيجة فإن هذا المذهب بلا أساس ، وسر هذه الدعوة شر كلها ، لأنهم أسسوها على قواعد فلاسفة العالم ؛ فالزمان لا متناهٍ ، وروحانيته معادة ، وأوّلوا الجنة وجهنم . وقالوا على أساس هذا : القيامة ستكون حين يبلغ الخلقُ الخالقَ ، وتنكشف حقائق الناس وبواطنهم ، وترتفع أعمال طاعتهم ، لأن عالم الدنيا كله عمل ولا حساب ، أما الآخرة فكلها حساب ولا عمل ، فهذه هي الروحانية وتلك هي القيامة التي تنتظرها الملل والأديان جميعاً ، والحسن الذي شرح ذلك كله وكشفه . وعلى هذه القاعدة انتهج الناس قواعدهم الشرعية ، فعلى جميعهم ، في مرحلة القيامة هذه ، أن يتجهوا نحو خالقهم ، ويتركوا الشريعة والعبادات بكل فرائضها مؤقتاً . أما ما جاء في الشريعة من أن على المرء أن يعبد الله (يصلي) خمس مرات في اليوم فهو قول ظاهر . ففي القيامة يجب أن يكون الله في القلب دائماً ، والنفس مرتبطة بالحضرة الإلهية تمام الارتباط، وهذه هي الصلاة الحقيقية، وعلى هذا الأساس والقياس أوّلوا أركان الشريعة ، ورفعوا عنهم الفرائض ، واتركوا أكثر الحلال والحرام .

وكثيراً ما قال الحسن ، تعريضاً حيناً وتصريحاً حيناً ، بأن من لم يطع ويتعبد في مرحلة الشريعة وسار على حكم القيامة أي اتبع الطاعة والعبادة الروحانيتين نكل به ورُجم . أما من كان في مرحلة القيامة وسار على حكم الشريعة وواظب على العبادات والمظاهر الجسمانية فإن النكال به والقتل والرجم والتعذيب به أكثر وجوباً .

وعلى هذه الخطة من الخرافات والشعوذات ساروا في طريق الإغواء والإغراء والإبطال والتضليل نحو أتباعهم الضالين ، فتركوهم غرقى الجهالة وتائهين في صحراء الحيرة فخسروا الدنيا والآخرة ولا سيما في الإباحة .

واستمر غلاتهم عمداً أو جهلاً يلتزمون مذهب الإباحة ؛ ونسب قوم منهم، تراب في أفواههم، الألوهية إلى أئمتهم أئمة الضلال الذين هم أدنى مرتبة من البهائم والسباع والحشرات ، ولما تفشت هذه البدعة وعمَّ الإلحاد ، أحسَّت فئة منهم ، ممن ما زالوا على نصيب وافر من العقل والبصيرة بضرورة الابتعاد عنهم « ومَن نجا برأسه فقد ربح »[1] ، فانسلوا من بينهم ، وحلوا في بلاد الإسلام علناً . وكان أكثر الجالين من منطقة قهستان ، فاستوطنوا خراسان « وكذلك نُنجي المؤمنين » . غير أن بعض المؤمنين لم يستنَّ لهم الجلاء أو أنهم لم يرغبوا في ترك أملاكهم ومواطنهم ، فظلوا فيها وهم راضون بنسبة الإلحاد وشقاوة الاسم مظهراً ، غير أنهم مسلمون ، يحافظون على شريعتهم الحنيفية ، ويلتزمون بالأوامر والنواهي سراً . فكان أن انطبق على جمهور أهالي ولايات الملاحدة ، خذلهم الله ، معنى هذه الآية : « فمنهم مُهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون » .

/وعلى هذا الأساس المزيف دُعي الحسن بن محمد بن برزك أميد ، الذين يقولون له : على ذكره السلام ، « قائم القيامة » ودعوته « القيامة » . وكان من جملة من كان يخاف الله ، وما زالت بقايا حب الإيمان عالقة في قلبه أخو زوجة الحسن ، والذي يدعى حسن بن ناماور ، أصله من بقايا آل بويه من ولاية الديالمة . فيروى أنه لم يصبر على ما هو فيه فأفشى فضائحهم وأضاليلهم . رحمه الله وجزاه من حسن نيته خيراً، فطعن الحسن المُضلَّ يوم الأحد السادس من ربيع الأول سنة إحدى وستين وخمسمئة في قلعة لمَسر بخنجرٍ ، فرحل عن الدنيا إلى نار الله الموقدة . /

---

(1) انظر مجمع الأمثال : ١٦٩/٢ .

ومضى ابنه محمد على حكم ضلالته ، فقد زعموا أن نص الإمامة حل عليه حين خلف أباه وكان عمره تسعة عشرة سنة« ظلمات" بعضها فوق بعض ».
فقتل حسن بن ناماور مع كل أقربائه رجالاً ونساء وأطفالاً ، وكانوا خاتمة الأسرة البويهية ، وهكذا انقطع نسل هذه الأسرة . وتابع محمد الاسم مذمم الفعل مسيرة أبيه على إظهار بدعة ما أسموه « دعوة القيامة » . بل غالى أكثر من أبيه في الإباحة ، وفي إظهار الإمامة ، وفي دعوى الحكمة وعلم الفلسفة ، مع أن هذا العلم ، وغيره من المعارف ؛ بعيد عنه . فقد سجل في فصوله غير المهذبة وأصوله غير المرتبة اصطلاحات الفلاسفة ، وأورد بعض نكاتهم متشبهاً بالحكماء ، بل مضارعاً لهم . قال النبي عليه الصلاة والسلام : « المتشيّع بما ليس عنده كلابسٍ ثَوبَيْ زور »[1] . وقد مزج ألفاظه ومعاني كلامه بالعربية فملأها بالحكم والتفسير والأخبار والأمثال والأشعار، وانتحلها وادعاها لنفسه، ومع ذلك فقد اتصفت بالتحريف والتخريف والأخطاء والتصحيف .

وبحكم الآية في التنزيل الحكيم « ويَذَرُهم[2] في طغيانهم يعمهون » فقد أمهله الله في مملكته ستاً وأربعين سنة ، قام الملاحدة طيلة هذه المدة بالظلم والسفك والفتن والفساد والظلم والسلب وقطع الطرق . وأصروا في عهده على الإلحاد والكفر .

---

(١) جاء في اللسان : تشيع الرجل : تزين بما ليس عنده . وانظر تفصيلا حسنا عن شرح هذا الحديث في اللسان (شيع – زور) والجامع الصغير للسيوطي : ٣/٣٥٩ ومجمع الأمثال : ٢/٦٤ ، تحت عنوان « كلابس ثوبي زور » .

(٢) وردت في بعض النسخ : ونذرهم . وكلاهما صحيح . فقد وردت الآيتان في موضعين مختلفين انظر القرآن الكريم : ٧/١٨٥ و ٦/١١٠ .

كان زعيمهم يدعى حسن فلقبوه جلال الدين • كانت ولادته سنة اثنتين وستين وخمسمئة • عينه أبوه منذ طفولته قائماً مقامه بالنص • وحين شبّ وأشرق عقله أنكر مسيرة أبيه ، واستقذر قواعد الإلحاد والإباحة • فلاحظ أبوه على مخيلته هذا الإنكار ولهذا تولدت الضغينة بين الطرفين ، وتخوف كل واحد من الآخر • وفي الأيام العامة التي يوجد فيها جلال الدين حسن كان يبدو على والده الحذر فيرتدي الدرع تحت ثيابه ، ويحميه الملحدون الذين هم عماد حراسته من ابنه • غير أن جلال الدين حسن كان حسنَ الاعتقاد ، وربما عن طريق العناد ، بأبيه ، والله أعلم بما في الضمائر ، والحكم من الخلق على الظاهر ، والله يتولى السرائر ، فله أو عليه ما يستحقه • غير أنه يكاتب خليفة بغداد والسلاطين والملوك الآخرين سراً ، يظهر لهم أنه يدين بالإسلام ، على خلاف عقيدة أبيه • وحين يجيئه الدور للحكم سيزيل الإلحاد ويمهد لقاعدة الإسلام• وعلى هذا مهد وأعدّ •

ومحمد هذا اللامحمود والمقتدى المطرود مات مسموماً في العاشر من ربيع الأول سنة سبع وستمئة فخلفه ابنه جلال الدين حسن • وأعلن يوم جلوسه أنه مسلم ، فزجر قومه وشيعته عن الإلحاد ومنعهم من هذه السيرة ، وألزمهم بالإسلام وباتباع منهج الشرع • وكتب مثل هذا المعنى إلى خليفة بغداد وإلى السلطان محمد خوارزمشاه وملوك العراق وأمرائه،وإلى الأمراء الآخرين في الأطراف ، وأعلمهم بالتمهيد الذي كان يخطط له منذ عهد أبيه • فصدقه الملوك والأمراء ولا سيما دار الخلافة ، ومالوا إليه ، وكاتبوه علناً ومنحوه الألقاب الحسنة ، ورجوه أن يستمر على هذه الطريقة الحميدة مع قومه ، ويواصل مساعيه • وهكذا عرف بجلال الدين « المسلم الجديد » كما دُعي قومه في عهده « بالمسلمين الجدد » • وأمر بأن تبنى المساجد في بلاده ،

وطلب لها الفقهاء من خراسان والعراق ، وأولاهم رعايته الخاصة ، ورجاهم أن يهتموا بالقضاء والخطابة وغير ذلك من الأمور الدينية • غير أن أهالي قزوين بحكم تدينهم وتمسكهم الشديد بالإسلام ، وكذلك بحكم الجوار وقرب المسافة بينهما تمكنوا من الحصول على كثير من الأكاذيب والتزوير ومكايد الملاحدة ، فنسبوا إليهم أفعالاً وآذوهم ، فجرت بين الطرفين حروب مستمرة وعداوات مريرة •

وحين أعلن جلال الدين إسلامه رفضوا منه هذا الإعلان،ثم تتبع قضاتهم وأئمتهم إسلامهم هذا ، وطالبوا البينات والدلائل على ذلك • ولما رأوا أن دار الخلافة وعدداً من أئمتهم الإسلام يفتنون بقبول إسلامهم أقروا ذلك معهم ، وبالغوا في استرضاء جلال الدين ، وأكرموا زعماءهم ، وأرسلوا عدداً من أعيان قزوين إلى ألموت يبدون رغبتهم في الاطلاع على كتب الحسن الصباح وأسلاف جلال الدين ، وعلى عدد من فصول أبيه وجده ، وغير ذلك من الكتب التي تتضمن مذهب الإلحاد والزندقة الذي خالف عقائد المسلمين•غير أن جلال الدين أمر بإحراقها بحضور أهل قزوين ، وبعد أن طعن فيهم • وقد عثرت على ورقة من هذه الكتب كانت لدى قضاة قزوين : سجلوها على لسان جلال الدين ، يعلق فيها التزامه بالدين الإسلامي ، وقبوله شعار الشريعة ، وتبرئته من الإلحاد ومذهب الأسلاف والآباء ، وفي أعلى الصفحة عدة أسطر بخط جلال الدين نفسه • وحين بلغ في حديثه تبرئته من ذلك المذهب ، وذكر اسم أبيه وأجداده دعا عليهم بقوله : « ملأ الله قبورهم ناراً » •

وهكذا انتشر الإسلام وشاع، واستأنس المسلمون بهم • فامتنع خليفة العصر وسلاطين ذلك الزمان عن محاربتهم وملاحقتهم • وقد كانت أم جلال الدين امرأة مسلمة ، فقصدت الحجاز للحج في سنة تسع وستمئة ، ترافقها قافلة •

وحين مرت ببغداد لقيت الإعزاز والإكرام ، وفي طريق الحج كانت قافلتها (محملها) تتقدم قوافل ملوك الأطراف .

وعقد جلال الدين مع الأتابك مظفر الدين أوزبك الذي كان ملك أرّان وآذربايجان علاقات صداقة ومودة . وكذلك الأمر ، مع الملوك الآخرين فقد وطّد علاقات الود معهم . وكان بين ناصر الدين منكلي[1] ملك العراق والأتابك عداوة وعناد ، وجيش الأتابك امتد إلى بعض ولايات جلال الدين . فجرت معاهدة بين الأتابك وجلال الدين . وفي سنة عشرة وستمئة اتجه جلال الدين لمؤازرة الأتابك في حربه لمنكلي ، فقصد خراسان . فأقام جلال الدين لديه مدة سنة ونصف اهتم فيها الأتابك بخدمته وإكرامه ، وحصلت بينهما مودة ومؤاخاة . وكان الأتابك يرسل راياته الكثيرة إليه ويغدق الأموال لتسهيل عملية إقامة جلال الدين وعلوفات دوابه ، كما كان ينعم على جيشه بأنواع من العطف والخلع الثمينة حتى عمت جميع ضباط جيشه . فقد كان ينثر كل يوم ألف دينار ذهباً من خزانته نقداً وخلعاً ، فاشتدت عرى الصداقة بين الملكين . وحل الجيشان « بَيلغان » وأرسلا الرسل إلى دار الخلافة والشام وملوك الأطراف يطلبان نجدة للتخلص من منكلي وإزاحته عن العراق . وقد وصل جيش دار الخلافة بقيادة مظفر الدين وجه السَّبُع[2] ، ومن أردبيل وصل

---

(١) ناصر الدين منكلي : من مماليك الأتابك مظفر الدين أوزبك بن محمد أحد أتابكة آذربايجان . وقد خرج منكلي سنة ٦٠٨ على شمس الدين آيتغمش صاحب بلاد الجبل وغلبه وقتله وحل محله على عراق العجم . ولما كانت علاقته سيئة مع الخليفة والملوك المجاورين فقد عادوه جميعاً ، وحاربوه سنة ٦١١ وهزموه ثم ألقوا عليه القبض وقتلوه .

(٢) هو مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع ، كان من مماليك الخليفة الناصر لدين الله ، وكان أمير الحاج ، ثم عينه على الكوفة ثم على خوزستان .

جيش من قبل مظفر الدين كوكبري[1] بن زين الدين علي كوجك . ويوم اللقاء كان الصديقان مسؤولين عن ترتيب الجيوش وتعبئتها . كما وصل جيش من الشام مدداً . وتمكنت الجيوش في سنة إحدى عشرة وستمئة[2] انكسر ناصر الدين منكلي أمامهم كما هو مشهور ، ولا يناسب سياق الكتاب تفصيل ذلك . وحل محل منكلي على العراق سيف الدين أيغلمش[3] بموافقتهم ، وألحقوا أبهروزنجان بجلال الدين ، وكانت هاتان البلدتان تابعتين له عدة سنين قبلاً .

وعاد جلال الدين إلى ألموت بعد أن أمضى سنة ونصف السنة في العراق وأرّان وآذربايجان . وقد ساعدت إقامته في بلاد الإسلام على تمسكه بالدين أكثر لكثرة اختلاطه بالمسلمين . وكان قد خطب امرأة من أمراء كيلان ، غير أنهم تقاعسوا عن تلبية طلبه لعدم وصول موافقة من دار الخلافة . فأرسل

(١) كوكبري : هو الملك المعظم أبو سعيد من طوائف التركمان ، حاكم إربل وشهرزور ، ومن قواد صلاح الدين المشهورين والمقربين . شارك في الجهاد ضد الصليبيين ، وأبدى شجاعة نادرة . وصلاح الدين هو الذي عينه على هذه الإمارة . توفي سنة ٦٣٠ في إربل عن عمر يناهز ٨١ سنة . كان من أخيار ملوك العالم .

(٢) في حين أن ابن الأثير في : ١٤١/١١ يحدد الواقعة في جمادى الأولى سنة ٦١٢ .

(٣) أيغلمش أو أغلمش : كان من المماليك الترك لأتابكة آذربايجان ، اشترك مع الآخرين في حرب منكلي ، كما اشترك في تقسيم ملكه . ثم غدا تابعاً للسلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه . قتله الباطنية سنة ٦١٤ بدافع من الخليفة الناصر (حبيب السير : ١٧٩/٢/٢ . روضة الصفا : ١٣٩/٤) ويعزو ابن الأثير قتله إلى حملة علاء الدين على بغداد .

جلال الدين رسولاً إلى بغداد ، فوافق أمير المؤمنين الناصر لدين الله على التماسه ، وأجاز لأمراء كيلان الاتفاق معه بحكم الإسلام . وهكذا تزوج جلال الدين أربعاً من بنات أمرائهم ، وكانت الأولى منهن أخت كيكاوس الذي كان حياً وعلى رأس حكمه لولاية « كوتم »[1] . وكان علاء الدين محمد بن جلال الدين من هذه المرأة .

وقد قالوا إنه حين بلغ ملك العالم جنكيزخان إلى تركستان وقبل أن يبلغ بلاد الإسلام خضع له جلال الدين وقدم طاعته . فنُسب إليه الإلحاد لذلك ، والحقيقة غير هذا . والصحيح أن جيوش فاتح العالم جنكيزخان حين بلغت بلاد الإسلام كان جلال الدين أول ملك يرسل رسوله إليه ويقدم له طاعته . فقبلت منه وغدت أساساً له ، أما من جاء بعده فكانوا أولاداً جهلاء وأتباعاً ضالين ، فلم يشيدوا ما أسس له ولم يتمموا ما ابتدأه، بل إنهم خالفوه ونقضوا ترتيبه حتى جرى لهم ما جرى :« ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » . وقد ذكر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبته التي ذكر فيها قوماً من المتمردين ، فنالوا نتيجة ما فعلته أيديهم ، أذكر هنا بضع كلمات تناسب الحال . قال : « زرعوا الفجور وسقوه الغرور ، فحصدوا الثبور »[2] .

وكان علاء الدين محمد في التاسعة من عمره حين جلس مكان أبيه . وكان جلال الدين قد توفي في منتصف رمضان سنة ثمان عشرة وستمئة[3] ، ولم

---

(1) كوتم : ويطلق اليوم « كهدم » وهي اسم منطقة في ولاية كيلان تشمل بضعة قرى شمالي رشت . ولم يذكر اسمها في كتب الجغرافيين ، إلا في كتاب « حدود العالم » .

(2) هذه الجملة من الخطبة الثانية في منهج البلاغة : ١/٤٥ .

(3) ورد التاريخ في احدى النسخ : شعبان ، خمس وعشرين .

يخلف غير هذا الولد الذي سبق ذكره وهو علاء الدين فقد أصيب جلال الدين بإسهال شديد سبب موته • وقد اتهموا نساءه بالاتفاق مع أخته وعدد من أتباعهن ، فأطعموه السمَّ ، والوزير الذي عُين وصياً كان مدبر أمور الملك ومربي علاء الدين • وقد قتل خلقاً كثيراً من أقاربه وأخته ونسائه وخاصته وأهل بطانته بتهمة القتل • كما أحرق بعضهم • وقد كان علاء الدين طفلاً ، ولم يحظ بالتربية الكاملة بعد ، ولم يتلق تعاليم المذهب المزيف • وإمامهم هو هو طفلاً كان أو شاباً أو شيخاً ، وما يقوله أو يفعله على أي حال كان حقاً ، واتباعه والامتثال بأمره شرع هذه الفئة التي لا شرع لها ، ولا مردَّ ولا إنكار لذلك • كما لا يجوز لهم تأديبه ونصيحته وإرشاده ، ولا شك أن تدبير أمور الدين والدنيا الذي كانوا قد التزموا به قد أعرضوا عنه كما أعرضوا عن أمور الملك،والطفل الجاهل الذي يتكفل أمور دينهم ودنياهم ويرعى مصالحهم:

ومَن كان الغرابُ لــه دليــلاً ... فناووسُ المجوسِ له مَقيلُ[1]

كان يلعب مع أترابه ويرعى مع أنعامه ، أما تدبير الأمور فكان بيد النساء ، حتى انهدَّ ما قد بناه أبوه ، وارتدت تدابيره ، وبطلت إصاباته • وأول هؤلاء تلك الطائفة التي سارت في ركاب الإسلام خوفاً من أبيه ، إذ انحرفوا بقلوبهم الملوثة وضمائرهم الحادة نحو مذهب جدهم الفاسد ، الذي كان معلقاً بهم أصلاً : « وأشربوا في قلوبهم العِجْلَ » • فحين لم يلقوا رادعاً عن ارتكاب المنكرات والمحظورات ، ولا آمراً على اتباع الفرائض والسنن واقتفاء الآثار السداد انحرفوا إلى طريق الإلحاد • ولم يمض حين ذو بال حتى كانت

---

(١) انظر مجمع الأمثال : ٤٤٦ • حياة الحيوان : ٢/٢١٤ « الغراب » • وللبيت رواية أخرى •

لهم الغلبة . أما من دانوا بدين الإسلام عن بصيرة ، ورغبوا في متابعة خطا الهداية فقد ساورهم الخوف من الملحدين ، فأخفوا عقيدتهم . وعاد الإلحاد ثانية ، لا أعاده الله أبداً ، بين القوم المشؤومين والجماعة المذمومين ، فأهملت قواعـد الملة والدولة ، ومصالح الدين والدنيا لهذا السبب ، وعـادت إلى اندراسهـا .

ولم تمض خمس سنوات من عمر حكومة الطفل حتى فصد الطفل من غير مرض أو مشاورة طبيب ، فنزف الطفل دماً كثيراً ، فاختل عقله والحقتـه الخيالات . وما هي إلا مدة وجيزة حتى بدت عليه علائم الماليخوليا . ولـم يجرؤ أحد على التصريح بضرورة احتمائه أو معالجته . ولم يتسن للأطبـاء أو لحاشيته من ذكر الماليخوليا أو أي مرض ، إذ يُستبعد لمثله أن يصاب بما يصاب به العامة ، وهو مرض نقصان العقل أو انعدامه ، فمثل هذا لا يجوز أن يصاب به الإمام . وإلا عدت بعض أوامره وأفعاله نوعاً من المسّ والنقصان . وازدادت العلة سوءاً يوماً بعد يوم حتى استولت عليه تماماً . ودلّ تصرفه في نهاية عهده على نقصان عقله وعدم اكتسابه التربية اللازمة في أيـام الصبا . حتى استوجب الأمر بعد سنوات إلى تقييده بالأغلال .

وحين ترامت حالته إلى الناس وقارنوها بسوء تدبيره وفساد عاداتـه وخبث خياله وإهماله أدركوا سبب تصرفه . ولا حاجة إلى تفصيل خبره خشية الإطالة ، وذكر عشر العشير يحتاج إلى تحرير الطوامير ولا تكفي . ومن شكّ في ذلك يكفيه أن يراجع من الخاتمة إلى الفاتحة ومن الخاتمة إلى البداية ومن النتيجة إلى المقدمة فسيستدل على ما ذهبنا .

(وسبب آخر على ضعف دولة علاء الدين هو)[1] غروره الملكي الذي ساوره منذ طفولته إلى آخر عمره رسخه في عقله أتباعه الأشقياء وأشياعـه

(١) إضافة يقترحها المحقق لفهم المعنى .

الأغبياء . فقد حشوا دماغه بخيالات لا وجود لها ومنافع لا طائل تحتها ؛ فهو إذا فكر فكأنه استلهمه من اللوح المحفوظ ، وإذا قال فإلهام رباني ، ولا يجوز أن يكون في قوله أو في فكره سهو" أو خطأ . وهو في حقيقة أمره مخطىء . وفي تاريخه الماضي أكاذيب وأعاجيب ، وما يتنبأ به من أخبار كلها خبط عشواء، وقول عمياء ، وكذب صُراح ، ومحض افتضاح ، ولم يكن يسمع مكذباً لهذيانه . وقد زادت شراسته وخشونته من عدم تربيته وقلة ممارسته حتى غدت في طباعه ، فلم يجرؤ أحد على رده ، أو يغير شيئاً من مصالح الملك ، لأن إجابة المتكلم قتله حتماً ، أو عقوبته بالتمثيل به أو قطع بعض أعضائه .

وهو إذا أرسل رسله إلى الملوك وعادوا محملين بردود الملوك لم يجرؤوا على التماس حديثه بهذا الشأن لعدم ميله إلى ذلك ولمخالفة طبعه . وإن أدرك شيئاً أخفاه في ذات نفسه ، ولا يجرؤ أحد على تقديم النصح له ، وكل ما قيل للملوك كذب وبهتان ، ويعتقد أن هذه الرسائل (الأقوال) إنما هي تلفيقات وضعها قومه الجهال فصدقوها عن جهل أو خوف ، وستكون مقبولة لدى الملوك ولكنها لدى العقلاء ستكون موضع شبهة .

وقد كثرت السرقات وقطع الطرق وأذى الخلق في عهده ، بعلمه ومن غير علمه ، وكان يظن أنه يستطيع الاعتذار عن هذه الأفعال بالكذب أو ببذل الأموال . وقد زادت هذه الأمور عن حدها حتى تعدى جنونه إلى روحه وزوجه وأولاده ومنزله وملكه وماله . وما ذكرناه لا يحتاج إلى شرح وتقرير وتبيان لوضوحه واشتهاره عنه .

كان ركن الدين خورشاه الولد الأكبر لعلاء الدين . كان طفلاً حين كان علاء الدين في شرخ شبابه ، ولم يكن بينهما أكثر من ثمان عشرة سنة ، وقد أعلن علاء الدين إمامية ابنه وولاية عهده منذ كان طفلاً ، وحين شبَّ لم يفرق تابعوهما المخذولون بينه وبين أبيه في التعظيم والمقام، وكان حكمه نافذاً كحكم

أبيه . لكن علاء الدين استاء منه ، لذا قرر أن يكون ولي عهده ولداً آخر . لكن طائفته رفضت قراره هذا ، وأعلنوا أن الاعتبار للنص الأول . فجعل علاء الدين يؤذي ركن الدين ، وازداد تعذيبه له وإزعاجه وعقابه بدافع جنونه كما كان يحجزه معه ، ويضعه بين النساء ، ولا يسمح له بالخروج في النهار . وحين يغرق أبوه في سكره ، أو يخرج ، على عادته ، لزيارة قطيع خرافه ، أو شغل عنه بشيء آخر ينتهز ركن الدين الفرصة فيقوم لشرابه أو لأي مكان أحب .

وقد ازدادت علة جنونه وسوداويته كثيراً في شهور سنة ثلاث وخمسين وستمئة ، واستحكمت بطبعه ، فازداد إيذاؤه لركن الدين وتتابع بالتهديد والوعيد مما يضيق شرحه ، ولعل ذلك بفعل النجوم . فطفح الكيل بابنه ، وخاف على روحه من أبيه ، ولهذا قرر أن يهرب من أبيه ، ويقصد قلاع الشام ويتصرف بها ، أو يستقل بألموت وميمون دز وبعض قلاع رود بار التي كانت مشحونة بالكنوز والذخائر ، ويقف ضد أبيه ويعلن عليه العصيان . وقد ازداد تخوف أعيان مملكته وأركان دولته منه هذا العام ، ولم يأمنوا على حياتهم منه ، فقد اتهم بعضهم بمتابعة ركن الدين وتغيرهم نحوه . ونسب لبعضهم الآخر تهماً أخرى ناسبت خياله المعوج ودماغه الأعوج ، وتركهم يتعذبون ويتخوفون . وهم وإن لم يصرحوا له بهذا الخوف ، وأبدوا النفاق على عادتهم فإنهم لاحظوا أن الخاصة والعامة ملته ، وأن وضعه يزداد سوءاً ، وأن علائم إدبار الملك منذرة بالخطر .

اصطنع ركن الدين هذه الحجة من قبيل الخداع وقال : « بسبب سلوك أبي السمج فإن الجيش المغولي يعتزم مهاجمة المملكة ، وأبي غير عابىء ، ولهذا فإنني سأزيحه عن العرش ، وأبعث برسلي إلى ملك البسيطة ، يعلنون باسمي عن خضوعي التام لحكمه وتبعيتي له . ولن أسمح بعد الآن لأحد بأن يعبث بملكي حفاظاً عليه وعلى شعبي ، لهذه الأسباب ، ولأسباب كثيرة أخرى بايعه

الأعيان وضباط الجيش ، واتفقوا معه على طاعته والسير معـــه حيث سار ، وقرروا حمايته من رجال أبيه وأجناده ، والدفاع عنه بأرواحهم ، ما لم يهاجمه أبوه شخصياً ، فعندئذ سيحجمون عن الإقدام ضده •

وبعد أن مضى شهر على هذا الحوار مرض ركن الدين ، وراح طريح الفراش ، عاجزاً عن الحركة • وفي أحد الأيام سكر أبوه في كوخ خشبي متصل بحظيرة القطيع ونام ، وغفا إلى جانبه عدد من الغلمان والرعيان وغيرهم من الأراذل والسفلة • وفوجئوا به في وسط الليل قتيلاً ، بطعنة خنجر في رقبته ، طعنة واحدة أجهزت عليه • وكان إلى جانبه هندي وتركماني ، وقد جُرحـا ، ومات التركماني بعد قليل ، بينما تحسنت حال الهندي • كان ذلك في سلخ شوال سنة ثلاث وخمسين وستمئة بموضع يدعى « شيركوه »[1] • فاتهـم علاء الدين ومَن كان معه عدداً من الموجودين • وروي لهم أن عدداً ن المقربين من علاء الدين ومن خدمه كانوا في وسط الليل هناك حراساً له • غير أن التهمة اتسع أفقها ، فقد روى بعضهم أن اثنين أو ثلاثة مجهولين قدموا من قزوين ، وتسللوا إلى فراشه وقتلوه بالاتفاق مع بعض خواصه وأعيانه ، ثـم هربوا بمعرفتهم • ولهذا تعددت التهم وتوزعت الظنون • ولكن الأمور اتضحت تماماً بعد مضي أسبوع ، وهي أن حسن المازندراني الذي كان من خاصة علاء الدين ، ومن الذين كانوا يلازمونه ليلاً ونهاراً وموضع أسراره هو القاتل ، فقد رووا أن زوجة حسن المازندراني كانت معشوقة علاء الدين ، ولم يخف حسن قتله ، بل أعلنه صراحة لركن الدين • وما مضى أسبوع حتى قتل حسن وأحرقت جثته ، كما أحرقوا أولاده الثلاثة ، بنتين وصبياً •

---

(١) شيركوه : هو اليوم اسم جبل يقع في القسم الغربي من ناحية ألموت ، وكان قديماً اسماً لعدد من القرى ، واسماً لقرية كانت في تلك المنطقة • والمقصود بشيركوه في النص اسم الجبل أو اسم القرية ليس غير •

وحل ركن الدين خورشاه محل أبيه ، كان الجيش المغولي قد جلبوا حسن مازندراني حين كان طفلاً من مازندران ، ثم هرب من بين الجيش في العراق ولجأ إلى علاء الدين ، وكان مليحاً أمرد ، وحين رآه علاء الدين أحبه فقرّبه منه ، واعتمد عليه وأعزّه كثيراً ، ومع هذا كله كان يعذبه ويضربه لجنونه وسوء تخيلاته . ولقد هشم له أسنانه وجبّ مذاكيره . وقد استمر على حبه له حتى حين بدا عذاره وشاب قذاله ، فزوجه إحدى جواريه . ولم يكن حسن ذا علاقة بإنجاب أولاده الثلاثة ، فقد كان علاء الدين يدخل منزله ويضاجع زوجته من غير أن يسمح له . بينما كان يوكل إليه حلّ كثير من الأمور، بل يتدخل في مصالح الوزراء وكبار المملكة وفي أمور السكان . ولم يكن غيره يجرؤ على مباسطة علاء الدين ومحادثته ، وبقول آخر : لا يمكن لأمرٍ ما أن يتم من غير معرفته . وكثيراً ما كان حسن يحل قضايا من غير أن يعلم بها علاء الدين ، ويوقع على كثير من الأحكام . هذا التدخل سمح له بجمع أموال كثيرة ، غير أنه لم يتمكن من التمتع بها لأنها كانت من غير علم علاء الدين . وكان أمامه يكتفي بارتداء الصوف والقطن الرديء ، وأحياناً يرتدي الممزق والمهترىء ، تماماً كمخدمه المذموم علاء الدين ، وقصده التشبه به في الملبس والمأكل والعيش ، وكان يرافقه دوماً إلى حظيرة الأنعام أو ملاحقة رعايتها سيراً على الأقدام ، وأحياناً يعز نفسه أمامه فيمتطي ظهر حمار . وهو إن ارتدى القشيب ، أو تهيأ لعلاء الدين أنه لذو مال أشبعه ضرباً عنيفاً ، وطالبه بالكثير وعاقبه بالشنيع .

لكل هذه الأسباب كمن في قلبه حقد شديد ضد علاء الدين ، وكان رجلاً مسلماً . ومع أنه أقام سنين طويلة مع علاء الدين فإنه كان يضمر الإسلام ويحقد على الإلحاد، وكان على صلة وطيدة ببعض المسلمين الذين يخدمون علاء الدين

تجمعهم روح الألفة ، ويؤازرهم الاعتقاد بالإسلام . وكانوا يهتبلون الفرص المناسبة ليتلاقوا ويتحاوروا ، وينفثوا ما في صدورهم ، ويشرحوا غصصهم ، ويستعرضوا أنواع العناء الذي يحتملونه ، وكم ذكروا مثالب علاء الدين وعددوا مخازيه . فألهب هذا أيضاً ما في نفسه من دواع لمهاجمة علاء الدين وقتله . جزاه الله خيراً على نيته في الجهاد وإقدامه عليه .

ونسب بعضهم قتله إلى ركن الدين خورشاه ، وفي هذا القول خلاف . لأن ركن الدين كان مصاباً بالحمى تلك الليلة طريح الفراش ، وظل عدة أيام بعد تلك الليلة عاجزاً عن النهوض من مكانه ، على الرغم من القرائن الداعية إلى إقدامه على قتل أبيه ، والتي ذكرناها قبل ، وربما كبر عليه الأمر واستنكر فعلة شنيعة مثل هذه ، وربما أقدم حسن على فعلته هذه بموافقة منه ورضائه ومشورته ، ومما يؤيد هذاالاحتمال أن نسبة قتل علاء الدين من قبل حسن غدت على كل لسان من غير أن يقبض عليه ركن الدين ، ويستجوبه عن الذين كانوا معه في هذه الجريمة وأغروه على فعلته ، وقد صمم على قتله سراً ، فطلب إليه أن يذهب إلى الحظيرة ليتفقد الأغنام ويهتم بها ، ثم بعث خلفه من طعنه بالخنجر في رقبته وقتله . وهو بهذه الفعلة منعه من الكلام ومن التصريح .

هذه العلامة حدت بالناس إلى القول إن ركن الدين كان مشتركاً مع حسن على قتل أبيه . وقد تخلص منه خوفاً من أن يبوح حسن باسمه أو يلمح باتفاقهما . وقد ظلت والدته وإخواته مدة سنة كاملة يعيبون عليه ويضايقونه باتهامهم إياه بقتل علاء الدين ، ويعدون فعلته هذه من جملة أخطائه ، وكذلك من كانوا أصدقاء ركن الدين في عهد علاء الدين .

وحين جلس ركن الدين على عرش أبيه أكرم أصدقاءه وأعزّهم ، وجعلهم خاصته وأهله . وهؤلاء هم الذين نسب إليهم أمر المؤامرة ، بل قيل إنه حرضهم على هذه الجريمة . والله أعلم بالخفيات والسرائر .

ذكر أحوال ركن الدين خورشاه بعد وفاة أبيه :

بعد أن تمت مراسيم العزاء ، والتي كانت ثلاثة أيام، وبعد أن استقر على عرش أبيه وجّه الجيش الذي كان أبوه قد هيأه الفتح « شال رود » من ناحية « خلخال » ، وأمرهم بالاستيلاء على هذه القلعة وقتل أهلها ونهبها • ثم أرسل رسلاً إلى كيلان والمناطق المجاورة يعلمهم بوفاة والده ، ويعرض عليهم العلاقة الوطيدة ، على عكس ما كان عليه أبوه • ثم أرسل رسلاً آخرين إلى جميع أطراف مملكته يأمرهم جميعاً بالسير على الدين الإسلامي، وهو الطريق السليم •

ثم وجه رسولاً إلى « يَسَوْر نوين » في همدان يعلمه : لقد انتقل أمر الحكم إليّ ، ولهذا فإنني سأسلك طريق الطاعة والخضوع ؛ وأزيل وجهة الخلاف بتحقيق وجه الإخلاص • فأجابه يسورنوين بأنه قد دنا وصول مواكب ابن الملك هولاكو ، والرأي السليم أن تخرج إليه بنفسك وتبالغ في تقديم الطاعة له • وبعد أن ذهبت الرسل وعادت قرر : فلأرسل أخي شهنشاه في المقدمة ليخرج في الاستقبال مع يسورنوين • وبالفعل اتجه شهنشاه مع عصبة من ذوي المقام الرفيع في غرة جمادى الأولى[1] إلى طرف قزوين لدى يسورنوين فوجههم هذا نحو الملك برفقة ابنه موراقا ، بينما قدم يسور في العاشر من هذا الشهر بجيوشه المغولية والتاجيكية نحو وادي ألموت • واجتمع جنود ركن الدين

---

(١) من سنة ٦٥٤ •

وفدائيوه على قمة جبل « سيالان »[1] • وصعد الجيش المغولي المنحدر بكل عزم • واستعد الطرفان للحرب • ولما كان الجبل محكماً والجنود كثيرين فقد تراجع المغول ، وأتلفوا غلاتهم وخربوا ولاياتهم •

وفي هذه الأثناء وصلت رسل ملك العالم من « أستو »[2] إثر قدوم شهنشاه وعرضه عبوديته • وقد وصلت الرسل إلى ركن الدين في أواخر جمادى الآخرة ، يحملون إليه المرسوم الملكي بقبول التبعية وعرضه عاطفته عليه : بما أنك أرسلت أخاك ، وعرضت الطاعة فقد عفوت عن الجرائم التي ارتكبها أبوك نحو شعبه • ولم ألحظ جرماً في عهدك • فلتخرب القلاع ، وتنزل إلينا شخصياً تظهر الطاعة • وباشر للامتثال بتخريب بعض القلاع ، أما في ألموت وميمون دز ولمسر فلم يخرب سوى الأبواب ، كما خرب أعلى جدران بعضها •

أما يسور نوين فبحكم الأمر الملكي الذي سبق ذكره فقد تراجع عن الولاية • وقد أرسل وفداً برئاسة صدر الدين[3] ورفقة بعض حاشية ملك العالم يعرض عليه (ثانية) الطاعة ، ويطلب شحنة ، ومهلة سنة بحجة تخريب تلك القلاع ، فوصل المبعوث الملكي وصدر الدين إلى حضرة هولاكو في

---

(١) في المتن « ستالان » ، وبالياء في حاشية الكتاب • وهي اسم جبل يقع في الناحية الشمالية من ألموت ، وما زالت آثار هذه القلعة على هذا الجبل • وقد أخطأ الجغرافيون الغربيون بنطقها فلفظها بعضهم SIVALA وبعضهم SIYALAR وقد تحققت من سكان هذه المنطقة فاتضح لي أن اسمها « سيالان » ، وأهل البيت أدرى بما فيه •

(٢) أستو : قاعدة هولاكو العسكرية في تلك المنطقة ، والتي تسمى « قوجان »(ت)•

(٣) صدر الدين سفير خورشاه إلى هولاكو •

« سعاق »[١] . ثم عادوا من المعسكر بالأمر الملكي المشتمل على الترغيب والترهيب ، وبرفقتهم تولاك[٢] بهادر . وعلى ركن الدين أن يطيعه لأنه قدم بصفة الشحنة ، ليحافظ على الدولة ، لكن ركن الدين من قصر نظره أظهر تقاعساً وتلعثماً وتعللا ، وعاد يرسل إلى الملك بعوثه وهم : وزيره شمس الدين كيلكي وابن عمه سيف الدين سلطان ملك بن كيا بو منصور في السابع عشر من شعبان يحملان الأعذار والمهلة ، كما أرسل وفدين آخرين نائبين عنه من كردكوه وقهستان لتقديم الخضوع والعبودية . ووصل المذكوران إلى حدود الري حيث مقام الملك . ولما كانت راياته قد اتجهت نحو لار ودماوند فإن شمس الدين كيلكي أرسل رسولا إلى كردكوه يستدعي حاكمها للقاء حضرة الملك،ورسولا آخر إلى قهستان للغرض نفسه،وأرسل كذلك سيف الدين سلطان ملك مع عدد من الرجال إلى ركن الدين يعلمه أن ملك العالم نزل دماوند ، فعليه أن يمثل أمامه شخصياً ، وأن يرسل ابنه في المقدمة في غضون خمسة أيام . وقد وصل هذا الوفد سفح ميمون دز في أول رمضان . ولدى هذا النبأ اضطرب ركن الدين واعترى شعبه الذعر والرعب . فقال : أرسل ولدي . ونصحه الناصحون والمقربون بأن يرسل ولداً ما ، وهم سيتولون أمر إعداد شيء ما . وسراً ، وعلى قول النساء ، أخذوا يعملون على التلبيس والتمويه . فأعدوا طفلا في سن ابنه ، هو ابن امرأة كردية كانت خادمة في قصر أبيه . وحين بدا عليها علائم الحمل صرفوها إلى بيت أبيها ، حتى إذا وضعت غلاماً قيل إنه ابن علاء الدين ، فلم يعبأ أحد بهذا القول آنئذ . أما الآن فقد جعله ركن الدين طعماً ، أوهم به المقربين منه وموه عليهم أنه ابنه ،

---

(١) لم يتضح لنا كشف هذه الكلمة ، والواضح أنها اسم مكان التقى فيه صدر الدين بهولاكو ، يقع بين خبوشان وبسطام .

(٢) وفي النسخ الأخرى : تلك ، تولال ، توكل .

وأنه سيرسله إلى الملك . وبالفعل عادت الرسل ومعها الطفل في السابع عشر من شهر رمضان . وكانت رايات الملك بلغت حدود ولاية ركن الدين . وكيف يخفى مثل هذا الأمر ؟ فقد اتضح أنه ابن مموه ، إلا أن حضرة الملك لم يسمح بكشف الخدعة ، وأغضى عنها . ثم أعاد الطفل بعد يومين من وصوله على أنه ابن الحاكم ، وإذا كان لدى ركـن الدين ما يؤخر قدومه إليـه فعليه أن يرسل أخاه الآخر بسرعة ، حتى يعيد إليه أخاه شهنشاه[1] الذي هـو يلازم الخدمة في البلاط .

ووصل الطفل الخدعة إلى ركن الدين في الثاني والعشرين من رمضان . ولم ينقطع السفراء بين وادي ألموت ومعسكر الملك مطلقاً ، وكانت دائماً تحمل من الملك الوعد والوعيد والاستمالة والانذار . وأرسل ركن الدين في الخامس من شوال أخاه الآخر شيرانشاه[2] إلى الملك . ووصل شيرانشاه في اليوم الثالث ، وكان في السابع من شوال ، إلى ناحية تدعى « فِسكر »[3] من مضافات الري ، وقـدم الطاعة للملك . وفي ذلك الوقت وصـل الوزير الكيلكي من كردكوه ويرفقتـه حاكم كردكوه القاضي تاج الدين مراد شاه ومثلا بين يدي الملك . وأعيد أخوه شهنشاه في التاسع من شوال شريطة أن يخرب ركن الدين قلعة ميمون دز ويمثل بين يدي الملك ، فيكسب بذلك عاطفة الملك وإعزازه ، وإلا فالنتيجة وخيمة غامضة ، لا يعرفها إلا الله .

وبينما كانت الرسل والبعوث تتردد بين الطرفين مدة شهر كان بوقاتيمور

---

(١) كان ركن الدين يرجو هولاكو أن يبعث إليه أخاه شهنشاه . ولما تكرر منه هذا الرجاء فقد وعده هولاكو بذلك إن أرسل إليه أخاه الآخر بدلا عنه .

(٢) شيرانشاه : كلمة فارسية معناها ملك الأسود (ت) .

(٣) وردت في المتن « بسكر » ، واليقين أنها كما ذكرنا .

وكوكا إيلكاي يدنوان من «اسبيدار» بجيوش كبيرة جرارة من قبل البحر الذي هو خلف ركن الدين ، ولا سيما ميمون دز الذي كان حصنه ومعقله . وأحاطا بتلك البقاع والقلاع . ثم اتجه ملك العالم في منتصف شعبان من « فسكر » عن طريق طالقان نحو ولاية ركن الدين . ونزل في السابع عشر منه على سفح ميمون دز ، والجيوش تحيط بالقلعة من كل جانب .

لكن ركن الدين تبع هواه وانتهج جادة مصلحته فتأنى بنزوله وتوقف. وقـد جرت بين بعض جنـود الملك وسكان ذلك الجبـل بعض المناوشات والمهاوشات ، فذاقوا مهابة الجيش الملكي وقدرته.وبدأت الحرب الملكية في الخامس والعشرين من شوال ، باستعداد أكبر وهمة أعلى، بل بشكل لا يمكن تقديره . فقدر ركن الدين عندئذ نموذج العمل الحربي ، وأدرك أنه لا قبل له بـه .

وفي اليوم التالي بعث ركن الدين ابنه ، الصحيح ، وأخاه الآخر إيرانشاه مع جماعة من أعيان مملكته ومقدمي أمته خارج القلعة . أما هو فخرج من القلعة يوم الأحد في التاسع والعشرين وقدم الخضوع إلى ملك العالم ، وسعد بالمثول بين يديه ، وخرج معه كل من يلوذ به ، وحمل له كل مافي خزائنه ، مع أن ما فيها لا يليق بمقامه السامي . فوزعه الملك على عساكره . واحتل القلعة والقلاع الأخرى[1] . وسيتضح فيما يلي كيفيـة احتلال تلك القلاع واستخلاص تلك الولايات .

وكان قتل علاء الدين أبي ركن الدين خورشاه في آخر شوال من سنة ثلاث وخمسين وستمئة . وآخر نفاذ حكمه (ركن الدين) على قومه وأتباعه آخر يوم من شوال سنة أربع وخمسين وستمئة ، وهو اليوم الذي خرج فيه من ميمون دز ، ومثل بين يدي الملك . فكانت مدة حكومته بعـد أبيه سنة تماماً .

---

(1) في الحقيقة ظلت بعض القلاع المنيعة صامدة عشرين سنة بعد هذا التاريخ (ت).

ذكر قلاع ركن الدين بعد نزوله :

وواكب ركـن الدين الحظ فنزل من القلعة ، ورافق أمـراء التمغا[1] وآخاهم . وكان يحافظ عليه عدد من أمراء البلاط . وكان ركن الدين قد أرسل معتمديه في صحبة البعوث لتخريب قلاع ولاياته ، فخربوا أربعين ونيفاً منها ، بعد أن أنزلوا سكانها كلاب الإلحاد بأمره ، عدا قلعتي ألموت ولمسر فقد كانت لهم أعذارهم ، فالتمسوا البقاء فيهما ريثما تمر مواكب الملك بطرف القلعة . وبعد عدة أيام[2] ، يومين أو ثلاثة ، تحرك موكبه نحو « شهرك » في رودبار[3] ، فنصبت حولها الخيام . فقد كانت هذه المدينة على إلحادها منذ أيام الجاهلية وفي الاسلام ، وكانت مركز ملوك الديلم . وكانوا في عهد علاء الدين قد بنوا بستاناً وقصراً آيـة للناظرين . فأقاموا فيهـا تسعة أيام يحتفلون بالفتح والظفر . ثم اتجـه من هناك إلى ألموت ، حيث توقف يوماً واحداً ، وأرسل اليهم ركن الدين ليقنعهم ويدعوهم . لكن المقدم مقـدم القلعة[4] تمرد وعصى ، وأبى أن ينزل . فأمر الملك بلغاي بمحاصرته بجيش جرار ، واتجه (هو) إلى قلعة لمسر . غير أن أسياد ألموت أبدوا استعدادهم

---

(1) غير معروف المقصود ، ولعلها صفة معينة لفئة من الأمراء (ت) .

(2) يقصد : بعد يومين أو ثلاثة من فتح قلعة ميمون دز .

(3) في سفوح شاهرود اليوم ، في الناحية الشمالية الشرقية من قزوين قريتان باسم شهرك ؛ واحدة : شهرك طالقان ، والثانية : شهرك ألموت واقعة على الساحل الشمالي لنهر ألموت ، والثانية أصغر من الأولى ، والثانية هي المقصودة حتماً .

(4) مقدم أو مقدم الدين : اسم رئيس قلعة ألموت ، وقد ظن النساخ خطأ بتكرارها .

للصلح، ورحبوا بالمصلحة ؛ فكانوا يرسلون على التوالي رسلهم إلى ركن الدين في سفح لمسر ليشفع لهم لدى الملك عن زلاتهم ، ويطلبون منه مرسوم الأمان . فاتجه إليهم ، ونزل المقدم من القلعة . فصعد عدد من المغول ، وأجازوا ذلك لركن الدين ، فكسروا المجانيق ، وفتحوا الأبواب . فطلب الأهالي ثلاثة أيام لنقل ما لديهم من أمتعة . وفي اليوم الرابع خرج جميع الجنود والأتباع ، ثم أغاروا على البقايا . وألموت جبل أشبه بجمل بارك، قد مد رقبته على الأرض.

حين كنت على سفح لمسر ، دفعني الهوى إلى مطالعة مكتبتهم الذائعة الصيت . فذكرت للملك أن مثل هذه المكتبة لا ينبغي أن تضيع . فقبل الملك هذا الكلام ، وسمح لي بالاطلاع عليها . فانتقيت منها المصاحف والنفائس خوف عدمها ، على مثال : « يُخرج الحـي من الميت » . كما أخذت آلات الرصد من ذات الكراسي وذات الحلق[1] والاصطرلابات التامة والنصفية الشعاع[2] مما كان موجوداً . أما باقي الكتب والآلات مما يتعلق بضلالتهم وغوايتهم فقد أحرقته ، مما هو منقول أو معقول . وأفرغت من الخزائن كل ثمـين من أجناس الذهبيات والفضيات الكثيرة حتى تركت الخزائن خـاوية « أمّا يا صفراءُ اصفري ويا بيضاءُ ابيضي »[3] ، ثم وزعتها .

وفي أثنـاء مراجعتي للكتب عثرت على « تاريخ الجيـل والديلم »[4]

---

(١) انظر فوات الوفيات : ٢/١٥١ وكشف الظنون تحت عنوان «الآلات الرصدية» .

(٢) لم يتضح لنا مفهوم هذه الكلمة ، ولعل النساخ صحفوا الكلمة (المحقق) . نرى أن الكلمة تعني لآلات الشعاعية (ت) .

(٣) من كلام مشهور للامام علي . انظر مروج الذهب في حرب الجمل : ٤/٣٣٦ والعقد الفريد : ٣/٩٥ . ويعني بالصفراء : الذهب والبيضاء : الفضة (ت) .

(٤) الجيل ، كذا وردت بنقطتين ، ولعله يقصد الجبل أو جيل الديلم (ت) .

المصنف باسم فخر الدولة البويهي[1] ، وورد فيه أن ملوك الديلم كانوا يدعون « أرجستان »[2] . وقد شرع أحدهم في سنة ست وأربعين ومئتين ببناء هذا الجبل ، فكان مفخرة ملوك الديلم ، وقاعدة الشيعة الإسماعيلية . وقد جاء في « تاريخ سلاّمي »[3] أن حامي ذلك الموضع في آناء احتلال الديالمة على العراق كان فلان الأسود العين[4] ، وكان من أتباع الدعوة الإسماعيلية المصرية . وقد سبق أن ذكرنا كيفية انتقال هذه القلعة إلى الحسن الصباح في أثناء الحديث عنه[5] .

والحقيقة أن تلك القلعة بنيت بناء محكماً ، من داخلها وخارجها ، ومن مراقيها ومعارجها ، فجصصت جدرانها ورصصت بناياتها ، حتى قيل إن الحديد لم يكن يؤثر فيها حين شرعوا بتهديمها ، ولم يحفر قيد سن واحد . وكثيراً ما كانوا يبنون أحجارهم بأحجار كبيرة ضخمة ، فكأن الآية : « وتنحتون من الجبال بيوتاً » نزلت في صفة هذه الأبنية . وقد نقروا الأحواض ليملؤوا بها الخمور والخل والعسل وكثيراً من المائعات والجامدات « والشياطين كل بنّاءٍ وغوّاص » والتي ورد تفصيلها في كتب التفسير في القصص ، ولكن

---

(١) وهو علي بن ركن الدولة الحسن .

(٢) احتمال كبير أن تكون الكلمة محرفة عن « آل جستان » وهم سلالة من ملوك الديلم ، عرفوا في القرون الإسلامية الأولى حتى القرن الرابع في وادي الموت وطالقان وسواحل شاهرود .

(٣) سلامي : أبو علي الحسن بن أحمد السلاّمي البيهقي ، صاحب الكتاب المشهور « أخبار ولاة خراسان » ، كان عمدة المؤرخين المتأخرين .

(٤) اسمه الفارسي « سياه جشم » وقد ذكرنا ترجمته فوق (ت) .

(٥) لم يذكر شيئاً قبل هذا ، ولم يذكر انتقال القلعة إلى الحسن إلا هنا .

هؤلاء البناة من الإنس[1] . وفي أثناء نهب الخزائن وجمعها غطس أحدهم في حوض العسل، ولم يبلغ قاعه ، فأنقذ كما أنقذ يونس« لولا أن تداركه»[2].

وقد ساقوا جدول ماء من نهـر « باهرو »[3] إلى سفح القلعة . ومن هناك ، وعلى مدار نصف القلعـة نقروا جدولاللماء . كما أنهـم صنعوا من الحجارة أحواضاً واسعة أشبه بالبحر ، كانت تملأ بالمياه ذخيرة ، وهي مستمرة الجريان .

ولم تتأثر المائعات المدخرة ولا الجامدات ، منذ حفظت في عهد الحسن الصباح حتى الآن ، أي مدة مئة وسبعين سنة[4] ونيف ، ويقـال إن بركـة الحسن حافظت عليها فحفظتها من التلوث . أما بقية وصف الآلات الحربيـة وذخائرهم فسنذكره طي الكتاب بلا ملل . ولقد أُعد أمير وعدد غفير من الحشم والحشر لتخريب القلعة . فلم يعمل المعول المعوّل عليه ، فعمدوا إلى حرق سقوف الأبنية ، ومن ثم باشروا بالهدم ، واشتغلوا بهذه المهمة طويلا .

وأقام الملك مشتاه في لمسر ، ومنح شياطينها مهلة ليعزفوا عن الضلال ، ويخرجوا من أحجارهم في الحال . لكن المهلة لم تجد فتيلا . فعين طايربوقا مـع جيش مغولي وتاجيكي لمحاصرتهم ، وعـاد مباركاً بالسعادة والصون في

---

(1) كلمة « الإنس » هنا تقابل الجن والشياطين . ويقصد أن مثل هذه الأبنية لا يشيدها بشر ، وورد ذكر ذلك في القصص والتفاسير .

(2) يقصد تمام الآية : « لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم »

(3) لم يتضح لنا تصحيح هذه الكلمة ، ولعلها محرفة عن « شاهرود » .

(4) ورد : وثمانين ، وهذا غلط صريح ، لأن الحسن الصباح ــ كما سبق ــ صعد قلعـة ألموت في ٤٨٣ ، والتاريـخ الذي نحن فيـه هو ٦٥٤ ، أي ١٧١ سنـة و ٤ أو ٥ أشهر .

السادس عشر في ذي الحجة من سنة أربع وخمسين وستمئة . فأسكن أهل ركن الدين مع حواشيه ومواشيه منطقة قزوين ، ووزع جيشه على أمرائه . أما ركن الدين فقد ظل إلى جانب معسكر الملك في حدود همدان ، يصاحبه شخصان أو ثلاثة . وبعث شخصاً برفقة وفد الملك نحو قلاع الشام يستدعي حماتها ويستجلب خزائنها ، ويحافظوا على هذه القلاع باسم عبيد الملك حتى يبلغ الملك حدود تلك الديار . وكان ركن الدين في كل هذه المدة موضع عاطفة الملك وعنايته . وقد وقع ركن الدين في تلك المرحلة في حب فتاة تركية من أراذل القوم ، وجُن بها ، فأوحت إليه بأن يخطبها ، حتى يأذن الملك بزواجهما . وطلب في أحد الأيام ، من المغنين ، وهم في مجلس الأنس والشراب ، أن ينشدوا هذه الرباعية :

« طرقت بابك أيها الملك طالباً الأمان ، خجلانَ مما قد فعلتُ »

« فإن قبلت توّجت رأسي ، وإلا فبأيِّ نتيجة عدتُ ؟ »

وطبخ في قدر هواه فحول الجمال البُختية . وكان دائماً يحكي ذلك لمعارفه . وأهداه الملك في أحد الأيام ، لهذا الزواج ، مئة ناقة ، فرفضها وقال : إلى متى سأنتظر ولادتها ؟ أرجو لها ثلاثين فحلاً ، وغرضه من هذا الطلب مشاهدة احتراب الجمال .

وبعد أن تمت مراسيم الزواج استأذن الملك بأن يسمح له بالمثول بين يدي منكوقاآن . فوافق على طلبه ، وفي أول ربيع الأول من سنة خمس وخمسين وستمئة وجهه نحو الحضرة مع تسعة أشخاص ، تتقدمهم الوفود .

ذكر أحوال ركن الدين ، وختام أمرهم :

ووافق الملك على التماسه في التوجه نحو حضرة ملك العالم منكوقاآن شريطة أنه حين يصل إلى كردكوه يُنزل هؤلاء المخاذيل من ذروتهم • وسار موكبه ، يحرسه جماعة من المغول يرأسهم بوجراي • وحين بلغوا سفح كردكوه صعد إليهم ليُنزلهم ، لكنه أوحى إليهم سراً بأن يرفضوا • وفي الطريق قرب بخارا اختصم ركن الدين مع الوفد المرافق ، وتضارب الطرفان • وقد كان في أصل قانون جنكيزخان وأمر منكوقاآن ألا يتركوا واحداً منهم حياً ، حتى من كان في المهد ، وكان خدمه وحشمه محاطين بمئات بل بآلاف الموكلين الأذكياء • وقد صدر في أثناء هذه الأقوال والأفعال (مع منكوقاآن) أنْ : عجلوا بالخلاص من الداعية ، وأريقوا دماء تلك الطائفة • فصدر الأمر بإرسال الكتائب والوفود إلى كل من يحتفظ بجماعة منهم ، ليقتل من عنده • وذهب قراقاي بيتكجي إلى قزوين فأحرق البنين والبنات والإخوة والأخوات ، وكل من لاذ به أو كان من صلبه • وسلموا اثنين أو ثلاثة منهم(من أهل ركن الدين) إلى بلغان ليقتص منهم ويثأر لدم أبيه جغتاي الذي طعن بخنجر الفدائيين • وهكذا محي أثرهم ، وأفنوا عن بكرة أبيهم •

وأعطي أوتاكوجينا ، الذي كان قائد الجيش في خراسان ، ومشغولاً بمحاصرة قهستان أمر قتل الجماعة الذين ما زالوا على الإلحاد ، على أن يخرجهم بحجة جمعهم أو سخرتهم • فقتل منهم اثني عشر ألفاً ، ولم يبق هنالك لهم أثراً •

حين وصل ركن الدين إلى قراقورم أمر ملك العالم منكوقاآن : لقد كلف حضوره طريقاً طويلاً ، وأمرنا القديم معلوم . فلم يسمح له بلقائه ، بل أرسل إليه : كيف تدعي الخضوع لنا وعدد من قلاعك لما يستسلم ؟ وها هي ذي كردكوه ولمسر يجب متابعتهما ، وحين تخربهما نمنحك شرف اللقاء . وأعيد على هذا الأمل . وحين بلغ ضفة « تيعاب »[1] ، هيؤوا له فرصة الهرب ليلحقوا به ويذيقوه وبال الموت والعذاب الذي لقيه قومهم من آبائه وأجداده. فقتلوه ومن معه بالسيوف ، ولم يُبقوا على أحد منهم . فكان خبره وخبر أقربائه حديث السمار ورواة الأخبار . وهكذا تطهر العالم الملوث بخبثهم ، وعاش الناس بعد ذلك بأمن وهدوء ، بلا خوف أو عناء ، وهم يلهجون بالثناء على الملك السعيد الذي أشاد لهم هذا الخير بإفناء هذه الفئة . وكذلك كان هذا العمل مرهم جراحات المسلمين ، وتدارك خللها الديني . والذين سيأتون بعدنا سيدركون مدى أذى هذه الجماعة ، ومدى ما كانوا يغرسون من الفوضى ، ويبثون من الرعب منذ أول ظهورهم حتى آخرهم . وكيف كان الناس في ضيق ليلا ونهاراً خوف أفعالهم . وهكذا انتهى أمرهم ، ذلك ذكرى للذاكرين ، وكذلك يفعل الله بالظالمين .

---

(١) ورد هذا الاسم قبلاً ، وذكرنا أن دوسون قرأه TOUNGAT (ت) .

تـم كتاب تاريخ جهانكشاي بسعادة وتوفيق يوم السبت

الرابع من ذي الحجة سنة تسع وثمانين وستمئة ، على يد

العبد الضعيف رشيد الخوافي ، والحمـــد لله لوليّـــه

والصلاة على نبيــه محمــد .

مقدمة المصحح

على ذيل تاريخ جهانكشاي

للخواجه نصير الدين الطوسي

ورد ذيل جهانكشاي المنسوب إلى خواجه نصير الدين الطوسي عليه الرحمة في ثلاث نسخ من أصل اثنتي عشرة نسخة من هذا الكتاب . كما ورد هذا الذيل تماماً في « تاريخ نيكبي » لمؤلفه نيكبي بن مسعود بن محمد بن مسعود، الذي كان يعيش في القرن الثامن ، على ما يبدو . ويوجد من هذا الكتاب نسخة ضخمة في المكتبة الوطنية بباريس . ولهذا الذيل كذلك ترجمة بالعربية، يمكن اعتبارها نسخة خامسة من هذا الذيل . وقد جاء هذا الذيل العربي فضلا في « مختصر الدول » لابن العبري يتحدث فيه عن فتح بغداد ، مع بعض التغيير الطفيف والميل إلى الاختصار . كما أننا أفدنا من « جامع التواريخ » طبعة كاترمر ، ومن « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة » تأليف أبي الفضل عبد الرزاق بن أحمد بن محمد الفوطي البغدادي المتوفى سنة ٧٢٣ المطبوع ببغداد سنة ١٣٥١ .

ذيل الكتاب

كيفية واقعة بغداد من نسخة المرحوم أفضل العالم ، أستاذ البشر نصير الحق والدين محمد بن محمد الطوسي رحمه الله

حين عزم ملك العالم ، مادة الأمن والأمان هولاكوخان على دخول بلاد الملاحدة واستئصال شأفة هذا القوم أرسل مبعوثاً إلى الخليفة : اتجهنا إلى إخضاعهم ، فإذا وصلك رسولي فأرسل لنا مدداً . واستشار الخليفة وزراءه ونوابه عن عدد الجنود الذين سيرسلهم . فأجابه الأمراء والضباط : إنه[1] يبغي بهذه الحجة أن يُخلي بغداد وملك الخليفة من الجند ، حتى إذا أراد مهاجمتنا لم يلقَ رادعاً . ولهذا السبب أحجم الخليفة عن إرسال الجيش المدد.

وحين فرغ الملك من أمر ولاية الملاحدة ، وقدم إلى همدان أرسل إلى الخليفة عتاباً شديداً أن : لم ترسل جيشاً. ودعاه إليه، فخاف الخليفة واستنار برأي الوزير . فنصحه الوزير بإرسال أموال كثيرة نقداً وجواهر ومرصعات، وألبسة فاخرة ، وخيل فارهة ، وغلمان وجوار وبغال ، ويقدم إليه الأعذار . فوافق الخليفة على هذا الرأي ، فأمر بتجهيز ذلك وتهيئته ، واختار اثنين أو ثلاثة من خواصه لينقلوا هذه الأموال ومعها الأعذار . فاعترضه الدواتدار الصغير[2] وبعض الأعيان بقولهم : إن للوزير في هذا الرأي غرضاً ما ، وهو

---

(١) يعني هولاكو .

(٢) هو الأمير مقدم الجيوش مجاهد الدين أيبك المعروف بالدويدار الصغير . كان من خاصة المستنصر ، وترقى في عهد المستعصم . قد تزوج ابنة لؤلؤ صاحب الموصل .

يد واحدة مع الجيش والترك[1] ، يقصد من ورائه هلاكنا على أيديهم . ونرى أن المال إذا خرج أخذناه وأسرنا الرسل ، وسنوزع المال على الشعب ، ونقوم بواجبنا .

حين سمع الخليفة هذا الكلام أحجم (كذلك) عن إرسال الرسل والأموال واكتفى بإرسال قليل من التحف . فغضب الملك وأرسل إليه أن : تعالَ ، فإن لم ترغب في الحضور فأرسل واحداً من ثلاثة : الوزير أو الدواتدار الصغير أو سليمانشاه[2] ، لكن الخليفة لم يلبِّ أياً من الطلبين ، وأبدى لذلك عذراً. فزاد ذلك من غضب الملك ، فأمر بالحركة نحو بغداد . وكم من مرة توقف بين التقدم والتراجع . ولم تنفع معه وفادة ابن الجوزي بين محيي الدين[3] .

وتحرك الملك من حدود همدان في شوال سنة خمس وخمسين وستمئة. وسبقه في الطريق سوغونجاق[4] نُوين وبايجو[5] على طريق إربل على الميمنة

---

(١) يبدو أن القصد من كلمة (ترك) هنا المغول لأن الناس في بادىء الأمر لم يفرقوا بين هذين العنصرين .

(٢) هو شهاب الدين سليمانشاه بن برجم الإيوائي . كان رئيساً لقبائل التركمان (إيوه) المستوطنين على حدود كردستان ولورستان . تزوجت أخته بجلال الدين منكبرني . وكان شاعراً .

(٣) ابن الجوزي هذا حفيد ابن الجوزي المؤلف الكبير ، كان أبوه أستاذ دار المستعصم . أما صاحب الترجمة فكان محتسب بغداد ومدرساً ، أرسله المستعصم كثيراً رسولا إلى الأمراء ، كان ممن عفا عنه هولاكو ، ولكن يروى أنه كان خارج بغداد يوم الغزو .

(٤) سوغو نجاق : وردت ترجمته .

(٥) بايجو : من القواد المشهورين في الجيش المغولي ، كان من قوم يسوت . وصل جيشه سنة ٦٤٠ إلى الروم وحارب كيقباز الأول فيها . وأمره هولاكو ٦٥٠ أن يتجه نحو إيران ، ثم كان عضده في غزو بغداد .

من طريق جبال شهر زورو دقوق • وكيت بوقا نوين وانكيا نوين[1] على الميسرة سارا عن طريق كريت[2] وبيات • وسار الملك في قلب الجيش على طريق كرمان شاهان وحلوان •

وخرج الدواتدار الصغير بجيش من بغداد ، وعسكر بين بعقوبة[3] وباجِسْرَى[4] على ضفة...[5] • وأمر الملك بايجو بأن يعبر دجلة ، ويأتي بغداد من جانبها الغربي • ووصل الملك إلى حلوان ، ففتح طريقاً هنا بهرب بعض الفرسان • ووقعت طليعة الجيش على أيبك الحلبي فساقوه إلى خدمة الملك،على أن يصدقهم القول،فأعطوه الأمان لذلك•فذهبت الطليعة مع المغول• وكان ابن السلطان من بقايا الخوارزمية ، من جنس طليعة المغول • فكتب رسالة إلى جيش الخليفة : إنني وإياكم من جنس واحد ، ولقد تبعت الملك وخضعت له ، فانتصحوا بي لترحموا أرواحكم ، فأقبلوا وقدّموا الطاعة لتتحرروا • وكتب رسالة إلى قراسنقور فجاءه الجواب : من هو هولاكو حتى يقصد مهاجمة الأسرة العباسية ، فقد رأت هذه الدولة كثيراً مثله • وإن كان يرغب في الصلح فلا يأتي إلينا ، ولا يخرب ولاية الخليفة • وإن عاد الآن

---

(١) انكيا : لم يرد هذا الاسم مطلقاً ولعله مصحف عن إيلكا الذي كان من ضباط هولاكو في غزو بغداد •

(٢) لعلها كريت الصغيرة التي تقع جنوب خرم آباد •

(٣) بعقوبة : قرية تبعد عشرة فراسخ عن شمال شرق بغداد على حافة نهر ديالي ، ويسميها الناس اليوم بعقوبية •

(٤) وتكتب : باجسرا بليدة شمال شرق بغداد قرب بعقوبة (معجما لبلدان) •

(٥) بياض مقدار كلمة في الأصل ، ولعل الكلمة الساقطة هي « ديالي » وهو النهر المشهور (انظر الحاشية السابقة) •

إلى همدان واعتذر عما بدر منه ، ونحن نتشفع للدواتدار الصغير حتى يضرع إلى الخليفة ، ليأتي من نفسه إليكم ويطلب الصلح .

وضحك الملك لدى اطلاعه على هذه الرسالة ، وقال : أجل ، إنه حكم الله ، وما أراده كان . وبينما كان سوغو نجاق وبايجو يعبران دجلة ترامت الأنباء إلى البغداديين بأن الملك هولاكو عبر إلى الطرف الغربي . فما كان من الدواتدار وجيشه إلا أن تركوا مواقعهم ، وعادوا إلى بغداد . وقرب بغداد على ضفة دجلة وعلى حدود الأنبار تقابل جيشهم مع الجيش المغولي بقيادة سوغو نجاق نوين . فكسروا جيشه وهزموهم ، حتى إذا دنوا من بايجو هاجمهم وكسرهم ، وقتل كثيراً من رجال الدواتدار . فتراجعوا نحو بغداد .

وعبر الملك (نهر) ديالي[1]، من غير أن يترك أية سفينة ، وقدم إلى باب بغداد. وأرسل بوقاتيمور إلى طرفها الغربي . وحل الملك باب بغداد في منتصف المحرم سنة ست وخمسين وستمئة ، فأمر بحصارها من كل أطرافها ، حتى غدوا حولها سوراً آخر . وصنع جيش الملك من هذا الجانب جداراً عالياً ، وصنع مثله بوقا تيمور وسوغو نجاق وبايجو من الجانب الآخر ، وحفروا داخل كل جدار خندقاً من طرف المدينة ، ونصبوا فيه المجانيق ، وبدأت عمليات الحرب عملها .

أرسل الخليفة صاحب الديوان[2] وابن دربوس مع تحف نزرة (إلى

(١) في الأصل وردت يالي ، فصوبناها . وديالي : يدعى اليوم نهر ديالة ، وهو من الفروع الشرقية لنهر دجلة ، ينبع من جبال كردستان ويمر قرب خانقين ، وهو ماء شرب القسم الشرقي من بغداد .

(٢) صاحب الديوان : هو فخر الدين أبو طالب الدامغاني من أعيان المستنصر والمستعصم .

الملك) . وقد قيل : إن أرسلنا تحفاً كثيرة ظنوا أننا جزعنا وهلعنا ، فلنقتصر على القليل . وسألهم الملك : ولماذا لم يأت الدواتدار وسليمانشاه ؟ فأرسل الخليفة جوابه مع الوزير : لقد أمر الملك أن يخرج إليه واحد من الثلاثة : الدواتدار أو سليمانشاه أو الوزير . وهأنذا أفي بوعدي ، فأرسلت الوزير الذي هو أعظم مقاماً [1] ، وعلى الملك أن يفي بكلامه ولا يطلبهما . فقال الملك : قلت هذا حين كنت في همدان ، وأنا الآن في بغداد ، فانتهى الشرط . وكيف أقنع الآن ؟ يجب أن يأتي الثلاثة جميعاً .

حين نشبت الحرب بين الطرفين كان الملك واقفاً على الجانب الشرقي للمدينة مقابل « البرج العجمي »[2] ، وجيش كيت بوقا[3] يرمون بالأقواس، بينما كان بلغاي[4] وسبتاي[5] على الجانب الأيمن من المدينة ، وبوقاتيمور على الجانب الغربي في موضع يعرف بحقل البقل ، وسوغو نجاق وبايجونوين من طرف المستشفى العضدي [6] .

---

(١) يبدو من هذه العبارة أن الوزير لم يخرج قبل هذه المرة للقاء هولاكو ، ولعل قسماً من الكلام ساقط ، أو أن الطوسي اختصر كثيراً . فالمعلوم أن الوزير تكرر خروجه إليه .

(٢) برج العجم أو البرج العجمي : برج كبير يقع في القسم الشرقي من بغداد (معجم البلدان) .

(٣) ويلفظ : كيد بوقا وكتبغا (ت) .

(٤) هو بلغاي بن شيبان بن توشي بن جنكيز خان .

(٥) سبتاي : كان من قواد هولاكو (وصوابه سونتاي) ، وليس سبتاي بهادر أحد قواد جنكيز خان حتماً .

(٦) المستشفى العضدي (بيمارستان) : من أبنية عضد الدولة يقع في الناحية الشمالية الغربية من بغداد ، على الساحل الغربي من دجلة . وقد محي أثره اليوم ، بل منذ عصر ابن بطوطة ٧٢٧ هـ .

وبدؤوا بحربهم في الثاني والعشرين من المحرم سنة ست وخمسين وستمئة . واستمروا ستة أيام بلياليها من غير انقطاع . وأمر الملك أن يكتبوا أماناً لجماعة السادات ، والعلماء ، والنصارى ، والشيوخ ، ولمن لا يحاربون ضدنا . ورموا هذه الكتابات بالنبال من الجهات الست . وتأزم وضع الحرب ليلاً ونهاراً حتى اليوم الثامن والعشرين[1] من محرم . حيث رقي الجنود مع الفجر الجدار ، فبلغوا أولاً البرج العجمي ، ثم صعدوا من طرفي البرج حين كان الناس يخرجون من صلاة الصبح ، فصعدوا أعلى الأسوار ليتفرجوا على المغول .

حين أمر الملك بصنع الجدار أمر أيضاً بحجز السفن الداخلة والخارجة وبإغلاق الجسر ، وعين حرساً على ذلك كله . ونصب المجانيق ، وأعدّ الآلات النفطية . وحاول الدواتدار الهرب حين اندلعت الحرب عن طريق النهر بإحدى السفن . فعلم المغول بخطته ، فوجهوا نحوه المجانيق والنبال ، فتراجع عن عزمه في الهرب ، في حين أن ثلاثة من سفنه وقعت في أيديهم ، وقتلوا مَن بها من الناس ، وصادروا ما فيها من سلاح ، وكان نقيب العلويين من جملة هؤلاء القتلى .

وأمر الملك ، بعد أن صعد جنوده الجدار ، الناس من أهل المدينة بأن يهدموا أسوارهم . وتوافدت الرسل بين الطرفين ، وكان الملك يأمر بخروج الدواتدار وسليمانشاه إذا لم يرد الخليفة الخروج ، وإذا أراد الخروج فلا حاجة إليهما . فأرسل الخليفة ابنه الأوسط مع الدواتدار وسليمانشاه . ثم أعاد الدواتدار[2] وقال لسليمانشاه : عد إلى المدينة وجنّد لنا كثيراً من

---

(١) وروي : في السابع والعشرين ، والسادس والعشرين .

(٢) الجملة هنا مختصرة يبدو أن هولاكو أمره بالعودة ليجمع الرجال لحرب مصر والشام مع أهله . وحين عاد إليه قتله ومن معه .

الرجال ، وقصده إخراج رجاله وأهله ، وانتهى أمره في اليوم الثاني . وأرسل الناس شرف الدين المراغي[1] وشهاب الدين الزنجاني[2] يطلبان الأمان لسكان بغداد . وبعد أن رأى الخليفة اضطراب الأوضاع أعلن أنه خارج من بغداد. وخرج في الرابع من صفر ليرى الملك ومعه ابنه وخاصته من الأئمة والسادات والمشايخ ، فعبروا بوابة « كَلْوَاذ »[3] . وبعد خروجهم أمر الملك بالغارة على المدينة .

واتجه الملك نحو منزل الخليفة ، ومعه كل من أراد مشاهدته . واستدعى الخليفة إليـه وطلب أن يقدم له الهدايا . ووزع الملك كل ما أحضر له على حاشيته من الأمراء ومن الجنود ومن الحاضرين . ثم وضع طبقاً من الذهب أمام الخليفة وقال له : كلْه ، فأجاب الخليفة : إنه لا يؤكل ! فقال : فلـم خبأتَه ولم تعطه لجنودك ؟ لمَ لم تصنع من هذه الأبواب الحديدية حراباً ؟ ولمَ لم تأتِ إلى شاطىء جيحون لتمنعني من العبور ؟ فأجاب الخليفة : إنه أمر الله . قال الملك : وما يجري لك أمر من الله أيضاً . وعاد في المساء ثم أمر

---

(1) كذا ورد اسمه في مختصر الدول : ٤٧٤ وجامع التواريخ : ٣٠٢ ، ولا نعلم غير هذا عنـه .

(2) هو شهاب الدين أبو المناقب أحمد بن محمود الزنجاني من علماء بغداد ومن مدرسي المدرسة النظامية والمستنصرية ، كما كان قاضي قضاة بغداد . توفي بعيد فتح بغداد .

(3) بوابة كلواذ أو كلواذى: كانت من بوابات بغداد المشهورة ، على القسم الشرقي من دجلة ، وهي ما يدعى اليوم بالباب الشرقي . ومن عجب أنها تقع في الطرف الجنوبي من المدينة ، وكذلك هي في الكتب الانكليزية ، ولكن السكان يدعونها بالباب الشرقي .

بأن يخرج الخليفة مع نسائه وأولاده من القصر • فأحصوهم فكانوا سبعمئة امرأة وألفاً وثلاثمئة غلام ، ثم فرقوا الباقين •

وبعد أن انتهوا من الغارة ، بعد مضي أسبوع أعلن الأمان للسكان ، وأمر جمع الغنائم • وفي الرابع عشر من شهر صفر عسكر الملك على باب المدينة، وطلب الخليفة إليه[1] • فأحضروه إلى أمامه وخلفه ابنه الأوسط مع ستة من خدامه • وانتهى أمره في ذلك اليوم في تلك القرية مع ابنه الأوسط • كما قتل ابنه الأكبر مع من كان معه على بوابة « كلواذ » ، بينما فرقوا باقي النساء والخـدم •

وأمر الملك بالرحيل بعد أن أعاد الوزير وصاحب الديوان[2] وابـن دربوس[3] إلى بغداد ، الوزير وزيراً ، وصاحب الديوان صاحب الديوان ، وابن دربوس مشرفاً على الأوزان والحرف • كمـا عين استوبهادر[4] شحنة

---

(١) المعروف أن هولاكـو هرب من بغـداد ومن عفونتها ونزل بقريتي « وقف » و « جلابية » ، وإليه هناك استدعى الخليفة •

(٢) صاحب الديوان : يعني فخر الدين أحمد الدامغاني •

(٣) ابن دربوس (وفي الحاشية ابن درنوس) وهو عبد الغني بن الدرنوس الملقب بنجم الدين الخاص • كان من المقربين إلى المستعصم • كان في بادىء أمره يطبخ الآجر • ثم استخدمه المستنصر مشرفاً على أحد أبراج الحمام ، ثم ترقى في عهد المستعصم إلى رئيس البرّاجين ، ثم غدا حاجبه الخاص ، وذا رأي ومشورة •

(٤) المعروف أن اسمه علي بهادر • والكلمة (أستو) غريبة في استخدامها هنا وفي معناهـا •

البلدة . وأمرهم بأن يعمروا بغداد ، ويدفنوا الموتى من الناس والدواب ، ويبنوا الأسواق .

واتجه الملك المبارك المظفر المنصور إلى الجبل الأسود[1] ، بينما وجّه بوقاتيمور نحو الحلة وواسط ، فأظهر سكان الحلة الخضوع والطاعة لبوقا تيمور . فانتقل بعدها إلى واسط فأعمل فيها القتل والسلب أسبوعاً ثم عاد بوقا تيمور إلى شُشتر ، وأخذ معه شرف الدين بن الجوزي ليخضع تلك البلدة . أما الجنود والترك فقد هرب بعضهم ، وقتل آخرون ، وأطاعت فئة ثالثة . ولم يذهب إلى الكوفة والبصرة جيش لخضوعهما .

تمت ترجمتنا لكتاب جهانكشاي بأجزائه الثلاثة ،
ومقارنتنا للنسخة الانكليزية المترجمة
في مدينة إكسيتر البريطانية
بتاريخ ٢٧ / ٧ / ١٩٨٤

والحمد لله
أولا وأخيراً

(١) الجبل الأسود : اسم عدد من الأماكن الجبلية ، ولعله بطرف همدان على حدود كردستان .

المستـــدرك مـــن النسخـــة الانكليزيـــة (ج ٢)

THE HISTORY OF THE WORLD - CONOUEROR
JOHN ANDREW BOYLE

رقم الصفحة(١)

٧ (ح ١٠/ص ٣٦٤) هو الحسن الثالث حاكم الاسماعيلية في ألموت (١٢١٠– ١٢٢١) .

٨ (ح ١٨/ص ٣٦٦) في الحقيقة لم يكن الأتابك في آذربايجان ، بل كان في إصفهان التي كان قد استولى عليها في الوقت الذي تملك سعد الري وقزوين إثر موت إيغلاميش حاكم عراق العجم . انظر مينوريسكي مادة « Usbak » فـــي : .Enc of Islam

١٢ (ح ٢٧/ص ٣٧٠) لا يقصد هنا « توقاتو بيكي » حتماً ، ولكن واحداً من أبنائه . وهو على رأي Barthold : قول تغـــان ، وعلى رأي Marqart هو « قودو » .

١٢ (ح ٢٩/ص ٣٧٠) انظر بارثولد ، فلديه القصة مختلفة بشأن الصدام مع المغول ص:٣٦٩.وتختلف المصادر هنا في عرضها لتسلسل الأحداث.ويختلف كل من بارثولد وماركارت فيما يخلصان إليـــه من نتائج في هذه المشكلة العويصة « الى أن تتوفر لنا معلومات أكثر دقة . ونرجح أن حملة السلطان علـــى إقليم ترجاي (ترغاي) قـــد بدأت في شتـــاء ١٢١٥ ــ ١٦ ، وأن اصطدامه بالمغول جرى في صيف ١٢١٦ » . راجع بارثولد : ٣٧١ . ومن ناحية أخرى يرى ماركارت :١٣٣ أن الموقعة مع جوجي جرت حوالي ١٥ تموز ١٢١٩ .

٢٢ (ح ٦٧/ص ٣٨٣) ربما كان توغان أو كان أوردوخان أي أمير الجيش .

---

(١) الرقم على اليمين يدل على وجوده في هذا الجزء ، واذا تكرر رقـــم الصفحة دل على وجود أكثر من مستدرك في الصفحة الواحدة ، فتابع عندئذ التسلسل.

٢٣ (ح ٦٨/ص ٣٨٣) ورد نطقها في الموسوعة الاسلامية BLW علـى رأي Minorsky في بحثه Shulistan• وعلى هذا يصبح معنى الكلمتين : ممر شجر البلوط ٠

٣٣ (ح ٦/ص ٣٩٥) يبدو أن أوتكين هو الابن الأصغر وحارس بيت النار .

٣٩ (ح ١٦/ص ٤٠١) طبقاً للنسوي فان السلطان محمد بدل ولاية العهد في أخريات أيامه من أزلاق الى جلال الدين ٠

٤٥ (ح ٥٠/ص ٤٠٩) طبقاً لما جاء عند : Kirakos, 119 أنـه كان أبا زوجة جلال الدين ٠

٥٠ (ح ١١/ص ٤١٤) لا أكاد أوقن بـأن قلعة الجزيـرة المشهورة المسمـاة « بكار » المعنية ٠٠ وعندما قمت بأبحاثي في المنطقة لم أصل الى معرفة الجزيرة الصغيرة الواقعة في الشمال كانت تسمى«أكر»يوماً٠وهي الآن تعرف باسم المعبد المشيد عليها، وربما كانت تسمى أكر يوماً، خصوصاً إذا راعينا أن هناك ميلا لتكرار الاسم « بكار »،وهو ما لا نجده الآن إلا نادراً ومقروناً دائماً باسم احدى المدن الواقعة علـى واحدة منهما ، مثـل : برابكار ، سكار بكار ٠ انظر : Elliot - Damson, Vol 2, 554 N

٥٧ (ح ٢/ص ٤٢١) هو شهاب الدين سليمانشاه حاكم قبائل التركمان ٠ وهو الذي سيحمي بغداد من هجوم المغول ٠ وطبقاً للنسوي فان هذا الزواج تـم حـين عودة جلال الدين من منطقة بغداد ، حيث عسكر السلطان قرب قصر سليمانشاه الواقع في همدان ٠

٥٧ كان مظفر الدين كوك بوري(الذئب الأزرق)، آخر البكتكينيين في إربيل٠ حكم من ١١٩٠ الى ١٢٣٢ ٠

٦٢ (ح ٢/ص ٤٢٧) كذا وردت في الأصل ، والصواب هي Garni ٠ كانت هذه المدينة موجودة على النهر الذي يجري الى الشرق من زنجا ، حيث عاصمة الأرمن الحالية Erevan ٠

٦٦ ذكرها النسوي : ١٧٨ التابعة للأميرة ٠ ومن المحتمل ان تكون جنوب كور على مسافة قصيرة شرقاً من دبيدا ٠

٦٧ من المهم أن يقارن المرء بين هذه الأحداث ٠ فكيراكوز الكنزكي ، وهو شاهد معاصر لكل من جلال الدين وأهل جورجيا (الكرج) ٠٠٠ وكـان الكرجيون

عقدوا معاهدات تقضي بأنهم إن انتصروا عليه فسوف يجعلون البلاد تحت سيطرتهم ويحولون السكان الى ديانة أهل جورجيا ، ويقطعون رقاب من يعارضهم • ثم سار السلطان الى اقليم كوتايك (وهـو ما يعرف اليـوم بيريفان) ثم جاء إيفاني مع الجند الجورجيين ، ووقف أمامه •• وحاولوا عليهم النصر • ولما استعر القتال أخذوا يضربون جند السلطان ، لكن بعض التابعين للأرمن (اليونان الأرثوذكس) لاذوا بالفرار •••

٧٠ (ح ٣٩/ص ٤٣٦) هو تايماس (بالتاء) وتعني : الذي لا يجفل • بينما Houdas يفضل نطقه (يتْماس) وتعني : الذي لا ينحني ، وكلاهما محتمل •

٧٣ Mindori بالجورجية وتعني : الحقل • وتقـع قرب لوري • وطبقـاً لرواياتهم : جرت المعركة في بولنيسي •

٧٨ (ح ٤/ص ٤٤٤) كان عز الدين أيبك قد عين حاكماً لأخلاط خلفاً للحاجب علي الذي أصابه العار • انظر مينورسكي : دراسات في تاريخ القوقاز : ١٥٤ • وكان مصرعه فيما بعد على يد جلال الدين • ولا ينبغي الخلط بينه وبين سلطان مملوكي مصري اسمه المعز عز الدين أيبك (١٢٥٠ – ١٢٥٧) ، على الرغم من تشابه الاسمين ، وكونهما مملوكين •

٨٤ (ح ٥/ص ٤٥١) يذكر مينورسكي في كتابه دراسات في تاريخ القوقاز : ١٥٤ أن المعركة جرت قرب أرزنجان •

٩٦ لا بد أن هناك خطأ ما ، فليس ثمة ما يدعوهم الى الاستيلاء على ترمذ ، وهي على الضفة الشمالية من جيحون •

٩٧ (ح ١١/ص ٤٦٤) صوابها نينكراهار ، وهي اليوم جلال آباد مقاطعة في أفغانستان •

٩٩ (ح ٢/ص ٤٦٥) يقول الجوزجاني : ٢٤٠ إنها كانت ابنة خان القفجاق• في حين أن النسوي : ٤٤ ينسبها الى البَيَعوت ، وهم شعبة من اليمك •

١٠٠ (ح ١٢/ص ٤٦٧) إن مناخ مازندران معروف ، فهو يتصف بالتقلب المستمر • ولا يمكن تقسيم الأيام فيه الى أيام ماطرة وأيام جافة ، أو حارة، وباردة • فقد تهطل الأمطار باستمرار في أحد الأشهر ، بينما قـد يكون الشهر نفسه في العام التالي جافاً •• لـذا لا يمكن الاعتماد علـى هطول الأمطار أو جفاف الطقس في أي يوم •
(Barbino, Mazandaran and Astrabad, 8, 90).

١٣٦ (ح ٨/ص ٥٠٣) يذكر رشيد الدين : ٦٠ أن هذه الحادثة جرت في أثناء حياة أوكتاي الذي تسلم التقرير من أرملات جغتاي ، وعالج المسألة بنفسه ليس في مسألة اعتقال كركوز وحسب ، بل في تنفيذه ٠

١٣٩ (ح ١٣/ص ٥٠٥) تعني « عبادة الأوثان » عندهم الديانة البوذية . نستدل من هذا الكلام على أن كركوز كان بوذياً على الرغم من حمله اسماً مسيحياً (أصل الاسم جيورجيوس) ٠ والحقيقة أنه كان في قريته كنيسة .

١٨٥ (ص ٥٤٩/ح ٥) كانت هذه دون شك حقيقة الأمر ٠ ذلك أن المغول كانوا سكيرين ٠ لكن الوقائع تحورت في الرواية المغولية من أجل نهاية تولوي . كان أوكتاي قد مرض خلال الحرب في الصين ٠ ونسب الشامان مرضه الى تلبس أرواح الماء المحلية عليه ٠ وعرض تولوي نفسه ضحية لذلك ، وشرب كوباً من الماء كان الشامان قد نطق طلسماته عليه ، وتوفي بعد ذلك . انظر : The Secret History, 272

١٨٩ (ص ٥٥٣/ح ١) يلفظ Pa - Ch'ih - man

١٩٠ (ص ٥٥٤/ح ٦) جرت هذه العملية لبجمن في شتاء ١٢٣٦ـ٣٧ ٠ انظر: Pilliot, 167

١٩٤ (ص ٥٥٨/ح ١٣) هو من أوهاس المركيت ٠

٢٠٨ (ص ٥٧٢/٦٨) حول منكسار يرغوجي العظيم أوجد جوجي ، انظر الصفحات بعد ٠ وللتفصيل راجع Pilliot, 368 ٠

٢٠٩ (ص ٥٧٤/ح ٧٤) طبقاً لرشيد الدين : ٢٨٨ كان واحداً من صيادي منكو قا آن ، اسمه قنقلي (تركي) ، لكن أصله مغولي ٠ انظر : Vladimirtsov, 56

٢٠٩ (ص ٥٧٤/ح ٧٥) اعتبر هذا الاسم (كشك) مماثلا للكلمة المغولية كشيك بمعنى الحارس ٠ وقد تكون تحريفاً للاسم كشليك أو قشليق ٠

٢١٤ (ص ٥٨٠/ح ٨٨) (ورد في المتن الانكليزي Qata - Kurin) وانظر بعد ٠

٢١٤ (ص ٥٨٠/ح ٨٨) (ورد في المتن الانكليزي Jangi) ٠ هذه الأسماء الثلاثة وما ورد في النص هم الذين صمموا على الخداع واتهموا بأنهم حرضوا الأمراء على الفتنة وأعدموا ٠

٢١٤ (ص ٥٨٠/ح ٨٨) (ورد في المتن الانكليزي Qan - Khitai) وانظر بعد ٠

٢١٧ (ص ٥٨٥/ح ١٠٦) اسم جبل عظيم ، ويدعى اليوم Kobodo .

٢١٧ (ص ٥٨٥/١٠٧) (ورد Qanghai) هو اسم جبل، وأقترح لفظه

٢١٧ (ص ٥٨٥/ح ١٠٩) . ولدى رشيد الدين هوQonqairan ،هو الابن الرابع لأوردا . ويرى أنـــه Ong giran Pilliot. 202 . ويبدو أنه صيغة مفرد من اسم القبيلة . ويرى رشيــد الدين : ٩٢ أن الاثنين أمهما وجدهما لأمهما ينتميان الى القونقورات .

٢١٩ (ص ٥٨٧/ح ١١٧) يرى بيليوت ورشيد الدين أنه هركاسون . وما ورد لدى الجويني هو تهجئة الاسم في التركية الجغتائية . أما غرابة هذا الاسم فان مردها العادة المغولية لتسمية الأطفال باسم الشيء الأول الذي تلتفت اليه الأم حين تحجب وهي حبلى . وقد كان لهركاسون صلات مــع كيوك وبوري في خلافهما مع باتو . ولا شك أن هذا الأمر أخذ عليه في هذا الميدان.

٢١٩ (ص ٥٨٨/ح ١٢٤) كان لباتو حساب ضد بوري . وتختلف الروايات أوكتاي الثالثة وابنة قوجو ، وكانت من قبيلة القونقيرات .

٢١٠ (ص ٥٨٨/ح ١١٩) وعلى روايــة رشيد الدين قتاقاج . كانت زوجة في تفاصيل هذا الأمر . يروي بيليوت أن بوري وكيوك وأرغاسون شتموا باتو في وليمة أقيمت بعد احتلال Magay عاصمة شعب Ossete . أما رواية روبروك فتشير الى بوري فقط . وتنسب الحادثة الى تاريخ لاحــق حينما ثبت حكم المغول في مراعي الفولغا . ويذكــر رشيد الدين شتيمــة جــرت خلال حكم مونكو . وفي هذه الرواية كانت السبب في اعدام باتو لبوري . ويذكر روبروك هذا الاعدام وسببه أن بوري أخــذ مجموعة من العبيــد الألمان ، الذين كانوا موضوع رسالة منه الى سيده . وكان هؤلاء العبيد من الأسباب الرئيسية لرحلة روبروك نحو المغول .

٢٢٢ (ص ٥٩٢/ح ١٣٨) تقع سلنكاي شمال كورية . ويبدو أن الاسم غير صحيح ، أو أن نطقه مخالف . وربما كان Selenga .

٢٢٦ (ص ٥٩٦/ح ١٤٩) حتماً يقصد القسم الشمالي لكورية فقط .

٢٤٩ (ص ٦٢١/ح ٩) ربما أرسل ثلاثمئة رجل مع شيرانشاه .

٢٥٥ (ص ٦٢٤/ح ٢٠) أصبح فيما بعد حاكم فارس والجزيرة ، كان من قبيلة سلدس ، وكان الحفيد الأكبر لسرقان وشيرا الذي صادق جنكيز خان إبان أسره لدى التايجيئوت . وكان لحفيد منقالي نفس الاسم .

٢٦٧ (ص ٦٣٧/ح ٧٩) يذكــر Rahino في كتابــه « مازندران وأستراباذ : ١٢٤ » أن قرية دعيت خركام في منطقة هزار جريب ٠

٢٦٩ (ص ٦٤٠/ح ٩١) كانت كلمة « مولانا » عبارة مألوفة في مخاطبة إمـام الاسماعيلية ٠ أما إضافة كلمة « يا إلهي » فهي سوء نية من بعضهم٠ ويبدو أن الاصطلاحين « الله » و « الإمام » مختلطان الى حد كبير ، لأن من صفات « الله » كلمة « الإمام » (!) ٠
انظــر : Hodgson, 290 ٠

٢٧١ (ص ٦٤١/ح ٤) كانت الكيسانية من أتباع كيسان أو المختار الذي ثار في عام ٦٨٥ م ، وادعى أن المهدي هو محمد ابن الحنفية ٠ (لوداد القاضي كتاب جيد عنوانه الكيسانية ٠ ت) ٠

٢٨٠ (ص ٦٤٨/ح ٤١)لا يقصد طبعاً الجزيرة في الخليج ، بل المقصود هـو المنطقة المقابلة لها والتي تدعى اليوم « الأحساء » ٠

٢٨٤ (ص ٦٥١/ح ٥٦) يذكر Lewic, 73 أن التقــي يفترض أن يكون أبا محمد القائم وليس أبا عبيد الله ٠

٣١٩ (ص ٦٧٩/ح ٤٩)زارت الآنسة Freya Stark خراب لمسر عام ١٩٣١ انظر الفصل الرابع من كتابها The Velleys of the Assassin ٠

٢٧٦ (ص ٦٩٤/ح ٢١) طبقــاً لمــا يقولــه رشيــد الدين شلمبة أو شلنبـه (والنسخة الانكليزية تبنت النون) كانت مدينة في منطقة دماوند ٠

٣٤٩ (ص ٧١٤/ح ٩) وتلفظ Tukel ، وهو مطابق لما ورد عند رشيد الدين : ١٤٨ ٠

٣٤٩ (ص٧١٥/ح ١٢) وكان من بينهم نصير الدين الطوسي الذي كان كما يقول ابن اسفنديار : ٢٥٩ أحد وزراء علاء الدين المقربين في ألموت ٠

٣٥٤ (ص ٧٢١/ح ٢٢) لا شك أن أحواض الخمر ملئت بعــد حياة الحسن الصباح ٠

٣٥٦ (ص ٧٢٢/ح ٢٧) أي فتاة مغولية كما عند رشيد الدين ٠ ولكن ليس هناك خلاف بين المصدرين كما يلمح هوجسون ، ذلك أن عبــارة الأتراك تتضمن الأتراك والمغول معاً ٠

الفهارس

١ ـ فهرسة الأعلام

ب

ت

ج

ح

ش

ص ـ ض

ط ـ ظ

ع

غ

ف

م

ن

٢ ـ فهرسة القبائل والأقوام [1]

(١) لم نذكر « المغول » ولا « التتر » لكثرة ذكرهم في كل صفحة .

٣ ـ فهرسة المواقع

ت

ج ـ ح

خ

د

د ـ ز

س

ف ـ ق

ك ـ ل

م

(١) وردت في المتن « ماركات » خطأ .

٤ ـ فهرسة الكتب

٥ ـ فهرسة القوافي

أول البيت	آخره	عدد الأبيات	الصفحة	البحر	الشاعر
وقولي	تستريحي	١	٤٤	وافر	ابن الإطنابة
حذار	يمسخ	١	٩	طويل	—
سلالة"	بخبخوا	١	٣٥	طويل	—
ووضع	الندى	١	٢١٤	طويل	المتنبي
ولا	الحقدا	١	٢٢١	طويل	المقنع
بشرى	وعدا	١	٢٠٧	بسيط	الخازن
لقد	ماردا	٣	١٧٩	طويل	—
ما للجمال	وئيدا	٣	٢٠٢	رجز	الزباء
لنا	يعود	١	٢٣٠	طويل	الأنوري
القائلين	عودوا	١	٢٥٥	بسيط	عمرو القنا
فأعرضت	جودها	١	٢٨	طويل	مدرك
يا عاذل	ترشدها	٢	١٩٨	منسرح	المتنبي
عدّوه	كالأجناد	١	١٣٠	كامل	—
فمتى	الأوغاد	١	٣٢٩	كامل	—
تلقاهم	العباد	١	١٧٣	وافر	امرأة
والريح	عمد	٤	٢٤٣	بسيط	الجويني
وكتيبة	يدي	١	٢١٦	كامل	السلمي
إذا	بصر	٤	٥	رجز	—
تنصرت	ضرر	١	٤٥	طويل	جبلة
جنّ	بالإبر	١	٢١٢	رجز	أبو نواس
غداة	القرى	١	١٢٢	طويل	علي البيهقي
وأيقنت	سرى	٨	١٢٢	طويل	الجويني
وما	كبرا	١	٣٧	كامل	—
لله	نشرا	٢	٢٢٢	مخلع بسيط	—
إنّ	أسحارا	شطر	٩٠	بسيط	أبو العتاهية
يا راقد	أسحارا	١	٦٣	بسيط	—
الدهر	بالكره	٢	٢٦٥	م· كامل	اللوكري
وما	بالحجاره	١	١٦٥	وافر	أبو يوسف
فإن	الضرر	٢	٣٦	بسيط	قابوس
تدس	الدهر	١	١٥	طويل	—
من	البشر	١	٢٤٣	بسيط	أبو سهل
إذا	مدبر	٦	٤٦	طويل	تأبط شرا
كيف	منشور	٤	٧٠	خفيف	—

أول البيت	آخره	عدد الابيات	الصفحة	البحر	الشاعر
زبارجي	وزيرُ	٢	٢٢٨	مجتث	—
مَن	والنهارُ	١	٢٢٢	مخلع بسيط	ابن المهدي
فإياك	المصادر	١	٢١٠	طويل	—
ما كان	خمارُها	١	٢٠	كامل	الرفاء
قالوا	بالظفرِ	٢	١٩	بسيط	—
وربت	دهرِ	١	٩	طويل	—
حياة	عمرِو	١	٣٢٠	وافر	ابن الزبعرى
قل	الأمرِ	٤	٢٨٧	منسرح	الحسن بن بشر
خلا	اصفري	٣	٢٠٤_٣١٢	رجز	طرفة
لقد	القماري	٤	٢٠٠	وافر	الموصلي
هلاّ	الأقدارِ	١	١٥	كامل	التهامي
المستجيرُ	بالنارِ	١	١١٧	بسيط	—
الحقُ	حذارِ	١	٦٢	كامل	أبو تمام
يا ساقي	كاسي	٢	٢١	بسيط	—
سلام	بجالسِ	١	٢٥	طويل	—
وابنُ	القناعيسِ	١	٢١٣	بسيط	جرير
والشيخُ	رمسهِ	١	١٦٢	سريع	ابن عبدالقدوس
أبو	تأنيث	٢	١٦٢	سريع	أبو الخير
أرى	الصراطِ	٢	١٣٧	وافر	—
فلما	معا	١	١٨٦	طويل	متمم
فبتُ	ناقعُ	١	٢٠	طويل	النابغة
وتجلدي	أتضعضعُ	٢	١٧٧	كامل	أبو ذؤيب
إذا	دروعُ	١	١٧٥	طويل	أبو الغوث
إني	أخلاقه	٢	٧١	كامل	أبو أحمد
قد	الزرقِ	١	١٧٨	بسيط	المصيصي
الحجلُ	للعنقِ	١	٣٩	بسيط	أبو العلاء
ولا	بالدقاقِ	١	٢١١	وافر	—
أما	مالك	١	٢٩٣	سريع	البستي
أحللتُ	محل	١	٤٩	سريع	ابن الحكم
قد	قيلا	١	١٣٦	بسيط	الربيع
فالآن	كللا	١	٢٥	بسيط	—
كذاك	فحالا	١	٢٥	متقارب	—
أتتك	أزيالها	٣	١٩٦	متقارب	أبو العتاهية
فيا	هازلُ	١	٢٥	طويل	أبو العلاء
إذا	تقبلُ	١	٣٧	طويل	ابن أوس

أول البيت	آخـره	عدد الابيات	الصفحة	البحـر	الشاعر
تنصـر	يـدلُ	٣	٢٨٨	وافـر	الحسن بن بشر
إذا	مقيـلَ	١	٢٢	وافـر	—
أصبحتَ	الفضـلَ	٢	٢٩٧	سريـع	المستنصر
إنـي	أغفالَها(١)	١	١٦٠	كامـل	بشامـة
ولستَ	ينالَهـا	١	٨٦	طويـل	—
مكـر	مفـرِ	١	٧٦	طويـل	امرؤ القيس
ومَـن	يسـألُ	٢	٤٨	طويـل	—
غـاب	والكلكلَ	١	١٧٢	كامـل	اليزيدي
فلـو	الرجـالَ	٢	١٨٧	وافـر	المتنبـي
رضـوا	الفعـالِ	١	١٠٧	وافـر	—
إنْ	عزلِـه	٢	١٧٠	م٠ الكامل	—
وفـدتُ	عقلَـه	٢	١١٨	طويـل	أبو الجويني
فإنهـا	كرمـاً	١	٢٩٧	بسيط	الخوارزمي
ومـا	الرغـامُ	١	٣٢٦	وافـر	المتنبـي
إنْ	آدمِ	١	١٦٣	كامل	اللحام
قـوم	الحـرمِ	١	٩٩	بسيط	المتنبـي
والفجـر	منهـزمِ	١	٦٥	بسيط	أبو المطاع
نصلـي	إمـامِ	١	٣٠	طويـل	—
لا يليقُ	الإسـلامِ	١	١٦٢	خفيف	ابن الحجاج
كفـاك	كرامهـا	٢	١٠٧	طويـل	—
ولستُ	المحـن	١	٨٨	طويـل	—
ونـومٌ	الوسن	١	٩٠	طويـل	—
ومـن	الزمن	٣	٩٢	طويـل	—
وليس	فينـا	١	١٩٤	بسيط	النهشلـي
فقـل	لقينـا	١	١٨٠	وافـر	الفرزدق
أيـن	المؤمنينـا	٣	٢٧	رمـل	—
فأبـوا	انحنينـا	١	١٣	وافـر	عبد الشارق
كنتُ	سنـي	٣	١٦٦	م٠ الرمل	—
يا لهف	الديـن	٢	١٧٩	—	—
أيهـا	يلتقيـانِ	١	٣٢	خفيف	ابن أبي ربيعة
ظهـر	البنيـانِ	٢	٢٥٤	خفيف	—
أعلمـه	رمـاني	١	٢٦٠	وافـر	ابن أوس
عينـاه	العنوانِ	٢	١٦٤	م٠ الرجز	الكسكري
فما	بأمين	١	١٦٣	بسيط	—
إذا	بهـا	١	٢١٥	متقارب	ابن المعتز
ألا	هيـا	٢	١٦٥	طويـل	ذو الرمـة
أوجـهُ	شهيّة	٤	١٦٦	م٠ الرمل	المخزومي

(١) وردت كلمة « أسمَ » في المتن خطأ « ارسم » ٠

٦ – فهرسة الموضوعات

١ – الجزء الأول

٢ ـ الجزء الثاني

الموضـــوع	رقم الصف